الخلاصة

في

علوم القرآن وأصول التفسير

تأليف

أ.د/ فهد بن عبدالرحمن بن سليمان الرومي

أستاذ الدراسات القرآنية ـ كلية التربية

جامعة الملك سعود – الرياض

من منشورات مركز المنهاج للإشراف والتدريب التربوي

ح مركز المنهاج للإشراف والتدريب التربوي ، ١٤٣٦هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

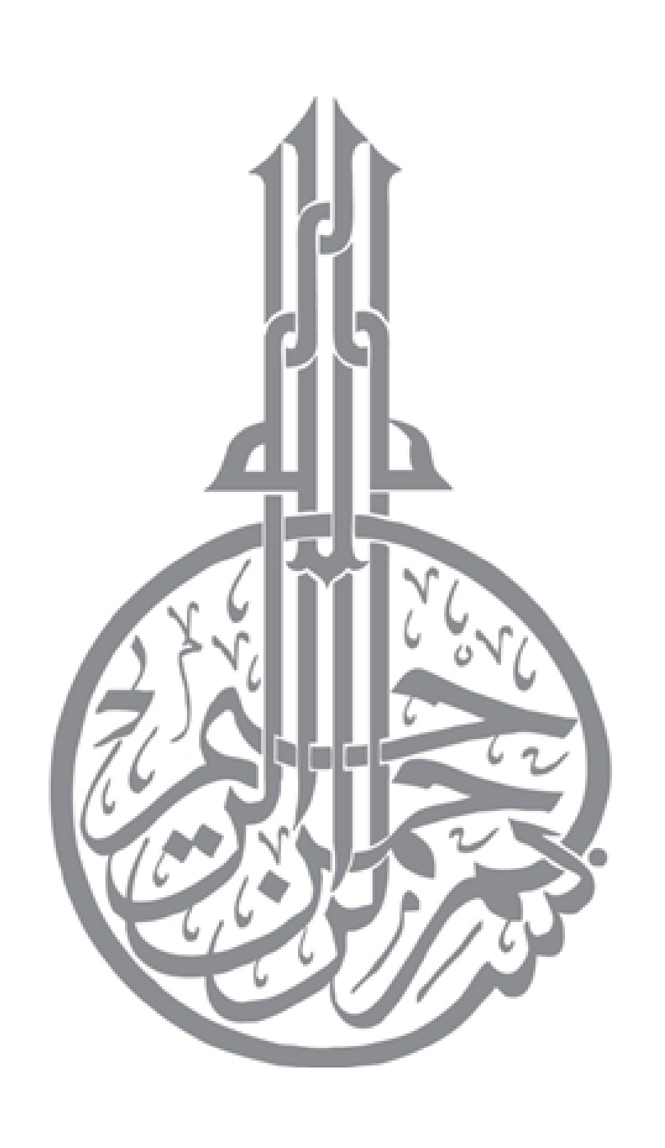
الرومي ، فهد عبدالرحمن
الخلاصة في علوم القرآن وأصول التفسير. / فهد عبدالرحمن
الرومي .- الرياض ، ١٤٣٦هـ
..ص ؛ ..سم
ردمك: ٨-٤-٩٠٦٠٠-٦٠٣-٩٧٨

١- علوم القرآن ٢- القرآن - مناهج التفسير أ.العنوان
ديوي ٢٢٠ ١٤٣٦/١٧١٠

رقم الإيداع: ١٤٣٦/١٧١٠
ردمك: ٨-٤-٩٠٦٠٠-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ -٢٠١٥م



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن التعليم الشرعي هو الخطوة الأولى والبناء الأُسُّ لتكوين الشخصية الإسلامية، وتأسيس الداعية المسلم، فبالتعليم الشرعي ينضبط المسار، ويتضح الطريق، وتتحقق الأهداف، ويسلم الداعية -بإذن الله- من الانحراف والوقوع في الشبهات والضلالات، فقد كثرت الفتن وعمَّت، وكثر أصحاب الأهواء والبدع والأغراض السيئة، وبالعلم الشرعي يسلم المسلم -بإذن الله- من كل ضلالة.

ومركز المنهاج للإشراف والتدريب التربوي، أحسبه ممن يسعى لنشر العلم الشرعي وتأسيس الدعاة عليه؛ لحمايتهم من الوقوع في التطرّف والضلال.

وقد طلب مني المركز دمج كتابيّ (دراسات في علوم القرآن الكريم) و(بحوث في أصول التفسير ومناهجه)، مع التنسيق والاختصار لتدريسه مقرراً في مركزهم للمرحلة الجامعية، وكذلك دورات علمية مكثفة تختلف فيها المستويات العمرية، وفي بعض معاهد تأهيل الدعاة في بعض الدول، مما يقتضي تبسيط عرض المادة العلمية، واختيار موضوعات مناسبة من علوم القرآن الكريم وأصول التفسير، تناسب هذه المراحل العمرية والمستويات العلمية.

وأحسبه بهذه الصورة قد أصبح ملائماً لهذه المراحل والمستويات.

وكتابي هذا مكون من فصلين :

* **الفصل الأول: (الخلاصة في علوم القرآن الكريم)**، وفيه :

- التعريف بعلوم القرآن ن الكريم.
- الفرق بين القرآن والأحاديث القدسية.
- التفسير بالمأ ثور والتفسير بالرأي.
- أهم المؤلفات في علوم القرآن.
- أسباب النزول.
- الوحي وأنواعه.
- إعجاز القرآن الكريم.
- القراءات والقراء.
- النسخ في القرآن الكريم.
- القسم في القرآن الكريم.
- المناسبات بين الآيات والسور.
- المحكم والمتشابه.
- العام والخاص.
- الأمثال في القرآن الكريم.
- القصص في القرآن الكريم.

* **الفصل الثاني: (الخلاصة في أُصول التفسير)**، وفيه:

- التعريف بعلم أصول التفسير.
- الفرق بين التفسير والتأويل.
- نشأة علم التفسير ومراحله.

- منهج الصحابة في التفسير.
- اختلاف المفسر ين وأسبابه.
- الوجوه والنظائر.
- أساليب التفسير.
- غريب القرآن.
- قواعد مهمة يحتاج إليها المفسر.

شكر الله العاملين في هذا المركز العلمي المبارك، وبارك في جهودهم، وجعله في موازين العاملين فيه، وعم بنفعه.

وأسأل الله العلي العظيم أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه

أ.د/ فهد بن عبدالرحمن الرومي

أستاذ الدراسات القرآنية - جامعة الملك سعود



الفصل الأول

الخلاصة

في علوم القرآن

تعريف علوم القرآن

علوم القرآن مركب إضافي يتكون من كلمتين: (علوم) و(القرآن)، والمقام يقتضي أن نُعَرِّفَ كل كلمة وحدها لغةً واصطلاحًا، ثم نعقِّب على ذلك بتعريفهما معًا مركبتين تركيبًا إضافيًّا، ثم التعريف الاصطلاحي لهما.

تعريف العلوم:

العلوم جمع علم، والعلم نقيض الجهل، وهو مصدر مرادف للفهم والمعرفة، ويُراد به إدراك الشيء بحقيقته أو اليقين، أو هو نور يقذفه الله في القلب.

ويُطلق العلم على مجموع مسائل وأصول كلية تجمعها جهة واحدة، مثل علم النحو، وعلم الطب، وعلم الكيمياء.

ويجمع على (علوم)، وقد تسمى به المباحث التي تتناولها موضوعًا واحدًا مثل: علوم العربية، والعلوم الطبيعية، والعلوم التجريبية.

تعريف القرآن لغة:

اختلف العلماء - رحمهم الله تعالى - في لفظ القرآن لكنهم اتفقوا على أنه اسم فليس بفعل ولا حرف. وهذا الاسم شأنه شأن الأسماء في العربية إما أن يكون جامدًا أو مشتقًّا.

فذهب جماعة من العلماء إلى أنه اسم جامد غير مهموز. قال الشافعي: «وقرأت على إسماعيل بن قسطنطين وكان يقول: القرآن اسم وليس بمهموز، ولم يؤخذ من قرأت، ولو أخذ من قرأت لكان كل ما قرئ قرآنًا، ولكنه اسم للقرآن مثل التوراة والإنجيل، يَهْمِزُ قرأت ولا يَهْمِزُ القرآن ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[(١)] يَهْمِزُ قرأت، ولا يَهْمِزُ القرآن»[(٢)] وبه قرأ ابن كثير.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٥.

(٢) تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي، ج٢، ص٦٢.

وذهبت طائفة إلى أن هذا الاسم مشتق، ثم افترقوا إلى فرقتين:

فقالت فرقة منهم: إن النون أصلية. وعلى هذا يكون الاسم مشتقًّا من مادة (ق ر ن)، ثم اختلفوا:

١- فقالت طائفة منهم الأشعري[١]: إنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء إذا ضممته إليه، ومنه قولهم: قرن بين البعيرين إذا جمع بينهما، ومنه سُمِّي الجمع بين الحج والعمرة في إحرام واحد قرانًا.

٢- وقالت طائفة منهم الفَرَّاء[٢]: إنه مشتق من القرائن جمع قرينة؛ لأن آياته يشبه بعضها بعضًا.

وقالت فرقة منهم: إن الهمزة أصلية. ثم افترقوا أيضًا إلى فرقتين:

١- فقالت طائفة منهم اللحياني[٣]: إن القرآن مصدر مهموز بوزن الغفران، مشتق من قرأ بمعنى تلا، سُمِّي به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾[٤] أي: قراءته.

٢- وقالت طائفة منهم الزَّجَّاج[٥]: إنه وصف على وزن فُعلان مشتق من القَرْء بمعنى الجمع، ومنه: قرأ الماءَ في الحوض إذا جمعه.

قال ابن الأثير: «وسُمِّي القرآن قرآنًا؛ لأنه جمع القَصص والأمر والنهي والوعد والوعيد والآيات والسور بعضها إلى بعض، وهو مصدر كالغفران والكفران»[٦].

---

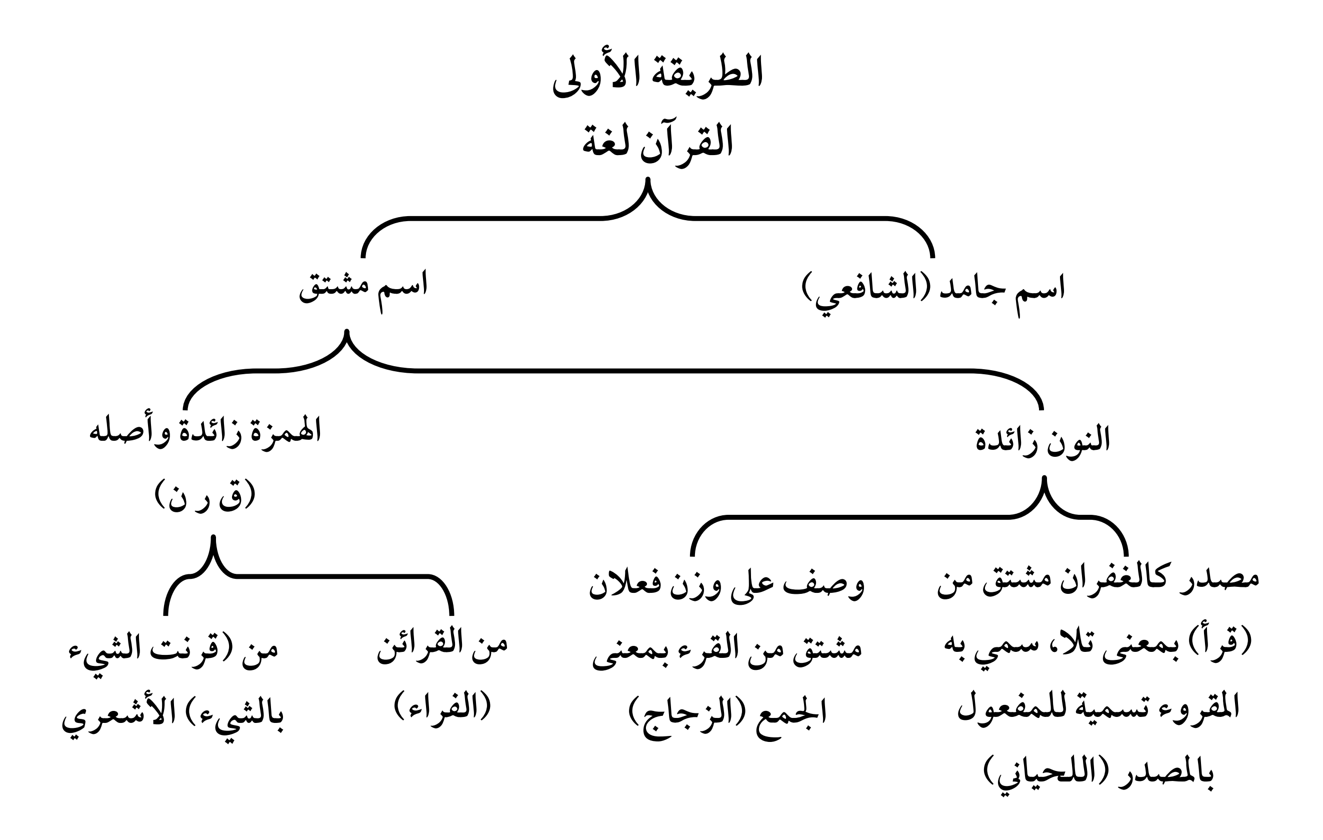
(١) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج١، ص٢٧٨.
(٢) الإتقان: ج١، ص٨٧.
(٣) المرجع السابق: نفس الموضع.
(٤) سورة القيامة، الآيتان: ١٧-١٨.
(٥) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، ج١، ص٢٧٨.
(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر: ابن الأثير، ج٤، ص٣٠.

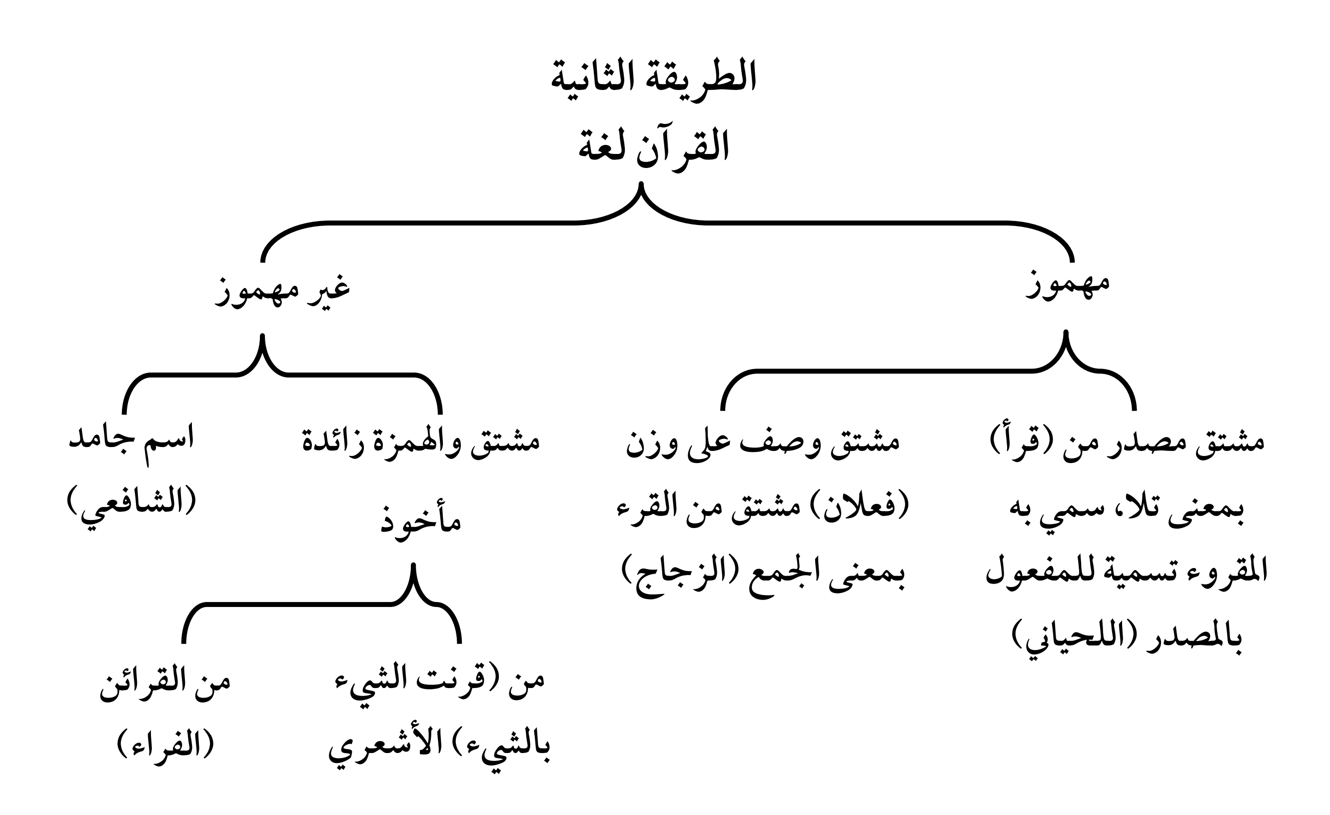
ولعل الراجح هو ما ذهب إليه اللحياني والزَّجَّاج أن الهمزة أصلية، وأن لفظ القرآن مهموز وصف أو مصدر، وأما ترك الهمز فيه في بعض القراءات فهو من باب التخفيف ونقل حركتها إلى ما قبلها، وهو كثير شائع، ثم نقل من المصدرية أو الوصفية وجُعِل علمًا كما ذهب إليه محققو الأصوليين(١).

تلكم خلاصة الأقوال في تعريف القرآن لغةً، ولعل الرسم التوضيحي يزيدها بيانًا، ونستطيع أن نصور هذه الأقوال بطريقتين:

---

(١) منهج الفرقان في علوم القرآن: محمد علي سلامة، ص١٦.


الطريقة الأولى
القرآن لغة
اسم جامد (الشافعي)
اسم مشتق
النون زائدة
الهمزة زائدة وأصله
(ق ر ن)
مصدر كالغفران مشتق من
(قرأ) بمعنى تلا، سمي به
المقروء تسمية للمفعول
بالمصدر (اللحياني)
وصف على وزن فعلان
مشتق من القرء بمعنى
الجمع (الزجاج)
من القرائن
(الفراء)
من (قرنت الشيء
بالشيء) الأشعري


الطريقة الثانية
القرآن لغة
مهموز
غير مهموز
مشتق مصدر من (قرأ)
بمعنى تلا، سمي به
المقروء تسمية للمفعول
بالمصدر (اللحياني)
مشتق وصف على وزن
(فعلان) مشتق من القرء
بمعنى الجمع (الزجاج)
مشتق والهمزة زائدة
مأخوذ
اسم جامد
(الشافعي)
من (قرنت الشيء
بالشيء) الأشعري
من القرائن
(الفراء)

تعريف القرآن اصطلاحًا:

اختصَّ القرآن الكريم بخصائص كثيرة، ولعل هذه الخصائص سبب الاختلاف في تعريف القرآن بين العلماء، فكل تعريف يذكر خاصية للقرآن يعرفه بها لا يذكرها الآخر، ولهذا تعددت التعريفات.

فإذا كان هناك رجل طويل ويلبس ثوبًا أبيض ورداءً أحمر، وحوله أشخاص أقصر منه قامة، ويلبسون ثيابًا ملونة وأردية بيضاء، فإن قلتَ: فلان هو الطويل فقد عرفته، وإن قلت: إنه الذي يلبس الثوب الأبيض فقد عرفته، وإن قلت: الذي يلبس الرداء الأحمر فقد عرفته. والمقصود في الكل واحد وإن اختلفت التعريفات.

وللعلماء في تعريف القرآن الكريم صيغ متعددة بعضها طويل، ولعل أقربها تعريفهم للقرآن بأنه: «**كلام الله تعالى المُنَزَّلُ على محمد ﷺ المتعبد بتلاوته**».

شرح التعريف:

فقولنا: (**كلام الله**) خرج به كلام الإنس والجن والملائكة.

وقولنا: (**المُنَزَّلُ**) خرج به ما استأثر الله بعلمه أو ألقاه إلى ملائكته ليعملوا به لا لينزلوه على أحد البشر. ذلكم أن من كلام الله ما ينزله إلى الناس، ومنه ما يستأثر بعلمه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾[1].

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾[2].

---

(١) سورة الكهف، الآية:١٠٩.

(٢) سورة لقمان، الآية:٢٧.

وقولنا: (**على محمد** ﷺ) خرج به المنزل على غيره من الأنبياء كالتوراة المنزلة على موسى عليه السلام، والإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام، والزبور المنزل على داود عليه السلام، والصحف المنزلة على إبراهيم عليه السلام.

وقولنا: (**المتعبد بتلاوته**) خرجت به الأحاديث القدسية. ونريد بالمتعبد بتلاوته أمرين:

الأول: أنه المقروء في الصلاة، والذي لا تصح الصلاة إلا به، لقوله ﷺ: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**»(١).

الثاني: أن الثواب على تلاوته لا يعادله ثواب، أي: تلاوة لغيره، فقد ورد في فضل تلاوة القرآن من النصوص ما يميزها عن غيرها، فقد روى ابن مسعود رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: «**من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**»(٢).

وليس هذا الثواب لغير التعبد بتلاوة القرآن الكريم.

الفروق بين القرآن الكريم والأحاديث القدسية:

لعل من المناسب أن نذكر بعض الفروق بين القرآن الكريم والأحاديث القدسية، حتى لا يتوهم أحد أن الفرق بينهما مقصور على التعبد بتلاوة القرآن دون الحديث القدسي؛ إذ إنَّ هناك فروقًا كثيرة ذكر العلماء منها:

١ - أن القرآن الكريم تحدّى الله الناس أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله، أو بحديث مثله، فعجزوا، أما الحديث القدسي فلم يقع به التحدي والإعجاز.

---

(١) صحيح البخاري، جـ١، ص١٨٤، وصحيح مسلم، جـ١، ص٢٩٥.

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، جـ٥، ص١٧٥، والدارمي، جـ٢، ص٤٢٩.

٢- أن القرآن الكريم منقول بطريق التواتر، ويكفر من جحد شيئًا منه، فهو قطعي الثبوت كله، سوره وآياته وجمله ومفرداته وحروفه وحركاته وسكناته، أما الحديث القدسي فأغلبه أحاديث آحاد ظني الثبوت، ولا يكفر من جحد غير المتواتر منه.

٣- أن القرآن الكريم من عند الله لفظًا ومعنى، أما الحديث القدسي فمعناه من الله باتفاق العلماء، أما لفظه فاختلف فيه.

٤- أن القرآن الكريم لا ينسب إلا إلى الله تعالى، أما الحديث القدسي فينسب إلى الله تعالى نسبة إنشاء فيقال: قال الله تعالى، ويروى مضافًا إلى الرسول ﷺ نسبة إخبار فيقال: قال رسول الله ﷺ، فيما يرويه عن ربه.

٥- أن القرآن الكريم لا يمسه إلا المطهرون، أما الحديث القدسي فيمسه الطاهر وغيره.

٦- أن القرآن الكريم تحرم روايته بالمعنى، أما الحديث القدسي فلا تحرم روايته بالمعنى.

٧- أن القرآن الكريم تسمى الجملة منه آية، والجملة من الآيات سورة، والأحاديث القدسية لا يسمى بعضها آية ولا سورة باتفاق.

٨- أن القرآن الكريم يشرع الجمع بين الاستعاذة والبسملة عند تلاوته دون الحديث القدسي.

٩- القرآن الكريم يكتب برسم خاص هو رسم المصحف دون الحديث القدسي[1].

(١) لعله من المناسب أن نذكر هنا تعريف الحديث القدسي في الاصطلاح وهو - كما قال العلماء: ما يضيفه النبي ﷺ إلى الله تعالى، ولروايته صيغتان: الأولى أن يقول الراوي: قال رسول الله ﷺ، فيما يرويه عن ربه ﷻ، والثانية: أن يقول: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى، أو يقول الله تعالى.

أسماء القرآن الكريم وصفاته:

للقرآن الكريم أسماء وصفات كثيرة وردت في بعض الآيات والأحاديث النبوية.

ولكثرة هذه الأسماء والصفات فقد أفردها بعض العلماء بمؤلفات مستقلة منهم:

١ - علي بن أحمد بن الحسن التجيبي الحرّالي المتوفى سنة (٦٤٧هـ).

٢ - ابن قيم الجوزية المتوفى سنة (٧٥١هـ) واسم كتابه «شرح أسماء الكتاب العزيز».

٣- صالح بن إبراهيم البليهي (معاصر) واسم كتابه «الهدى والبيان في أسماء القرآن» وهو مطبوع.

٤ - محمد جميل أحمد غازي (معاصر) واسم كتابه «أسماء القرآن في القرآن» مطبوع.

٥ - د. خمساوي أحمد الخمساوي (معاصر) واسم كتابه «أسماء القرآن الكريم في القرآن» مطبوع.

عدد أسماء القرآن الكريم:

وقد وقع الاختلاف بين العلماء رحمهم الله تعالى في عدد أسماء القرآن الكريم، فذكر الزركشي أن الحرّالي أنهى أساميه إلى نيف وتسعين اسمًا[١].

لكن الزركشي نفسه لا يورد إلا خمسة وخمسين اسمًا نقلها عن أبي المعالي عزيزي بن عبدالملك المعروف بشيذله[٢].

أما الفيروزآبادي فقد قال في كتابه «بصائر ذوي التمييز»: «ذكر الله تعالى للقرآن مئة اسم نسوقها على نسق واحد»[٣].

---

(١) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، جـ١، ص٢٧٣.

(٢) المرجع السابق.

(٣) بصائر ذوي التمييز: الفيروزآبادي، جـ١، ص٨٨.

لكنه ﵀ لم يذكر إلا تسعة وثمانين اسمًا وزادها أربعة أسماء فتكون جملتها ثلاثة وتسعين اسمًا في القرآن للقرآن.

وذكر الدكتور خمساوي تسعة وتسعين اسمًا مشتقة كما يقول من اثنين وسبعين مادة لغوية(١).

ولم يورد الشيخ صالح البليهي ﵀ إلا ستة وأربعين اسمًا لاعتقاده أن بعض هذا العدد - إن لم يكن أكثره - أوصاف للقرآن وليست بأسماء(٢).

ومن أسماء القرآن الكريم:

١- **القرآن**: في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾(٣).

٢- **الكتاب**: في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾(٤).

٣- **الذكر**: في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾(٥).

٤- **الفرقان**: في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾(٦).

٥- **النور**: في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾(٧).

---

(١) أسماء القرآن الكريم في القرآن: د. خمساوي الخمساوي، ص٥.

(٢) الهدى والبيان في أسماء القرآن: صالح البليهي، ص٤٤.

(٣) سورة الواقعة، الآية:٧٧.

(٤) سورة البقرة، الآيتان:١-٢.

(٥) سورة الحجر، الآية:٩.

(٦) سورة الفرقان، الآية:١.

(٧) سورة التغابن، الآية:٨.

ومن صفات القرآن الكريم:

١ - المبارك: في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾[(١)].

٢ - هدى ورحمة: في قوله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣﴾[(٢)].

٣- الكريم: في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧﴾[(٣)].

٤ - الحكيم: في قوله تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾[(٤)].

٥ - الفصل: في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣﴾[(٥)].

حكمة تعدد أسماء القرآن الكريم:

وقد بيَّن العلماء - رحمهم الله تعالى - حكمة تعدد الأسماء للقرآن الكريم فقال الفيروزآبادي رحمه الله: «اعلم أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى أو كماله في أمر من الأمور، أما ترى أن كثرة أسماء الأسد دلت على كمال قوته، وكثرة أسماء القيامة دلت على كمال شدته وصعوبته، وكثرة أسماء الداهية دلت على شدة نكايتها، وكذلك كثرة أسماء الله تعالى دلت على كمال جلال عظمته، وكثرة أسماء النبي ﷺ دلت على علو رتبته، وسمو درجته. وكذلك كثرة أسماء القرآن دلت على شرفه وفضيلته»[(٦)].

---

(١) سورة الأنعام، الآية:٩٢.

(٢) سورة لقمان، الآية:٣.

(٣) سورة الواقعة، الآية:٧٧.

(٤) سورة يونس، الآية:١.

(٥) سورة الطارق، الآية:١٣.

(٦) بصائر ذوي التمييز: الفيروزآبادي، جـ١، ص٨٨.

الاشتراك والامتياز بين أسماء القرآن الكريم:

وبين أسماء القرآن الكريم الكثيرة اشتراك وامتياز، فهي تشترك في دلالتها على ذات واحدة هي القرآن الكريم نفسه، ويمتاز كل واحد منها عن الآخر بدلالته على معنى خاص، فكل اسم للقرآن يدل على حصول معناه فيه، فتسميته مثلًا بالهدى يدل على الهداية فيه، وتسميته بالتذكرة يدل على أن فيه ذكرى، وهكذا[١].

كما قال ابن تيمية ﷫ عن لفظ السيف والصارم والمهند.. فإنها تشترك في دلالتها على الذات، فهي من هذا الوجه كالمتواطئة، ويمتاز كل منها بدلالته على معنى خاص فتشبه المتباينة. وأسماء الله وأسماء رسوله وكتابه من هذا الباب[٢].

مصدر أسماء القرآن الكريم:

وأسماء القرآن الكريم وصفاته توقيفية، لا نسميه ولا نصفه إلا بما جاء في الكتاب أو في السنة النبوية الشريفة.

الفرق بين المصحف والقرآن الكريم:

فإن قلتَ: أرأيت تسميته بالمصحف هل وردت في الكتاب أو السنة؟

قلت: إن المصحف ليس اسمًا للقرآن ذاته، وإنما هو اسم للصحف التي كتب عليها القرآن، ولم يطلق عليه (المصحف) إلا بعد جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق ﵁ في صحف ضم بعضها إلى بعض فسميت مصحفًا.

---

(١) خصائص القرآن الكريم، فهد الرومي، ص١٢٣.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ٢٠، ص٤٩٤.

ولهذا نرى العلماء يتحدثون عن حكم بيع المصحف، ولم يقل أحد منهم: بيع القرآن، فالقرآن كلام الله تعالى، أما المصحف فهو من عمل البشر وصناعتهم التي يبتغون بها الرزق والكسب الحلال[1].

ولهذا أيضًا لا يصح أن يجمع لفظ القرآن؛ لأن القرآن واحد لا يختلف في كل المصاحف، أما المصحف فيصح جمعه فيقال: «مصاحف»؛ لأن كل واحد منها أو مجموعة تختلف عن الأخرى.

ولهذا - أيضًا - لا يقال: قرآن عثمان، أو قرآن عليّ، أو قرآن أُبيّ، وأما المصحف فيصح أن يقال: مصحف عثمان، ومصحف عليّ، ومصحف أُبيّ بن كعب، ومصحف ابن مسعود رضي الله عنهم؛ لأن هذه المصاحف من عملهم دون القرآن.

فائدة في تسميته بالقرآن والكتاب:

وهناك إشارة دقيقة استنبطها بعض العلماء من تسميته بالقرآن والكتاب فقال: روعي في تسميته قرآنًا كونه متلوًا بالألسن، كما روعي في تسميته كتابًا كونه مدونًا بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية شيء بالمعنى الواقع عليه.

وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أنَّ من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور، والسطور جميعًا. أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب المنقول إلينا جيلًا بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر.

---

(١) خصائص القرآن الكريم: فهد الرومي، ص١٢٤.

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداءً بنبيها بقي القرآن محفوظًا في حرز حريز[١].

وفيه إشارة - أيضًا - إلى أن يظل القرآن مقروءًا بالعين من (الكتاب)، ومسموعًا بالأُذن من (القرآن)، وفي ذلك قوة حجة على العباد بشهادة السمع والبصر.

تعريف علوم القرآن:

لعلوم القرآن معنيان: معنى إضافي، ومعنى عَلَمٌ على الفن المدون. وإليك بيان ذلك:

المعنى الإضافي:

اعلم أن الإضافة بين «علوم» و«القرآن» تشير إلى أنواع العلوم والمعارف المتصلة بالقرآن الكريم، سواء كانت خادمة للقرآن بمسائلها أو أحكامها أو مفرداتها، أو أن القرآن دلّ على مسائلها أو أرشد إلى أحكامها. فيشمل كل علم خدم القرآن أو استند إليه، كعلم التفسير، وعلم التجويد، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم الفقه، وعلم التوحيد، وعلم الفرائض، وعلم اللغة، وغير ذلك.

بل توسع بعض العلماء فعد منها علم الهيئة والفلك والجبر والهندسة والطب وغيرها[٢]. والحقُّ أنه وإن كان القرآن الكريم يدعو إلى تعلمها إلا أنه لا يَجْمُلُ عَدُّها من علوم القرآن؛ لأن هناك فرقًا كبيرًا بين الشيء يحث القرآن على تعلمه في عمومياته أو خصوصياته، وبين العلم يدل القرآن على مسائله أو يرشد إلى أحكامه[٣].

وبهذا يظهر لك أن علوم القرآن بالمعنى الإضافي تشمل كل العلوم الدينية والعربية.

---

(١) النبأ العظيم: د. محمد عبدالله دراز، ص١٢-١٣.

(٢) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٢٧.

(٣) مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص١٧.

معناه كفنٍّ مُدَوَّن:

ثم نُقِلَ المعنى الإضافي وجعل علمًا على الفن المدون، وأصبح مدلوله كَفَنٍّ مدون أخص من مدلوله بالمعنى الإضافي.

ويُعَرَّفُ علوم القرآن كفن مدون بأنه: مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله، وجمعه، وقراءاته، وتفسيره، وناسخه ومنسوخه، وأسباب نزوله، ومكيه ومدنيه ونحو ذلك.

ويسمى هذا العلم بـ«أصول التفسير» لأنه يتناول العلوم التي يشترط على المُفسِّر معرفتها والعلم بها.

موضوع علوم القرآن الكريم:

هو القرآن الكريم من أية ناحية من النواحي المذكورة في التعريف(١).

فضله وشرفه ومكانته:

علوم القرآن الكريم من أفضل العلوم وأشرفها وأسماها، كما قال ابن الجوزي رحمه الله: «لما كان القرآن العزيز أشرف العلوم، كان الفهم لمعانيه أوفَى الفهوم؛ لأن شرف العلم بشرف المعلوم»(٢).

ثمرة علوم القرآن الكريم:

١- تيسير تفسير القرآن الكريم، فهي مفتاح باب التفسير، ولا يصح لأحد أن يفسر القرآن الكريم قبل أن يتعلم علوم القرآن(٣).

٢- معرفة الجهود العظيمة التي بذلها السلف لدراسة القرآن الكريم، وعنايتهم الكبرى به وبعلومه التي كان لها الأثر في حفظه من التغيير والتبديل.

---

(١) المرجع السابق، جـ١، ص٢٠.

(٢) زاد المسير في علم التفسير: ابن الجوزي، جـ١، ص٣.

(٣) مناهل العرفان، جـ١، ص٢٠-٢١.

٣- التسلح بمجموعة من المعارف القيمة التي تمكِّن من الدفاع عن هذا الكتاب العزيز ضد من يتعرض له من أعداء الإسلام، ويبث الشكوك والشبهات في عقائده وأحكامه وتعاليمه.

٤- الثقافة العالية العامة في القرآن الكريم.

* * *

نشأة علوم القرآن وتطورها

في عهد الرسول ﷺ:

حين نزل جبريل على الرسول ﷺ في غار حراء بصدر سورة اقرأ، نزل عليه الصلاة والسلام، وذهب إلى زوجته خديجة رضي الله عنها، وأخبرها بما حدث في الغار، وتلا عليها الآيات من حفظه.

وحين أمر الله سبحانه وتعالى نبيه بأن يصدع بما يؤمر، وأن يعلن الدعوة إلى الإسلام، امتثل الرسول ﷺ الأمر، فدعا الناس إلى الإسلام، وأقبل من أسلم منهم على القرآن الكريم يتلونه حق التلاوة، ويجتمعون في دار الأرقم بن أبي الأرقم لحفظه وتدبر آياته، وكانوا عربًا خلصًا يفهمون القرآن بمقتضى السليقة العربية، فإن أشكل عليهم معنى أو غمض عليهم مرمى سأل بعضهم بعضًا، فقد يكون أحدهم أعلم من الآخر، فإن أشكل عليهم سألوا الرسول ﷺ فبيَّنه لهم.

وبهذا ندرك أن علوم القرآن نشأت منذ وقت مبكر في الإسلام، بل منذ أشرقت شمس الإسلام. ذلكم أن حفظ القرآن، وتلاوته، وتدبره، وتفسيره من أهم علوم القرآن الكريم.

في عهد الصحابة رضي الله عنهم:

وإذا نظرنا إلى حال الصحابة رضوان الله عليهم وجدناهم يتعلمون علوم القرآن مشافهة، ولم يعرف عندهم تدوين لعلوم القرآن لعدة أسباب أهمها:

١ - أن أغلب الصحابة كان أميًّا لا يعرف القراءة ولا الكتابة.

٢ - أن أدوات الكتابة لم تكن متوافرة عندهم.

٣- أن الرسول ﷺ نهاهم عن كتابة شيء غير القرآن بقوله ﷺ: **«لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه»**[(١)].

ويعتقد بعض الناس أن الرسول عليه الصلاة والسلام إنما نهى الصحابة عن كتابة شيء غير القرآن خشية أن يلتبس بغيره. ويظهر لي - والله أعلم - أن هذا ليس بصحيح، ذلكم أن القوم كانوا ذوي ذكاء في القريحة، وتذوق للبيان، وتقدير للأساليب، ووزن لما يسمعون بأدق المعايير، ويدركون إعجاز القرآن الكريم - بمجرد سماعه - إدراكًا تامًّا، يأخذ منهم بالألباب، ويسيطر منهم على الأفئدة، فأنَّىٰ لهم أن يختلط عندهم بغيره من كلام البشر، بل العلة في ذلك أنه ﷺ أراد توزيع مسؤولية التبليغ عنه على جميع الصحابة، ولو أذن للكُتّاب بالكتابة لاعتقد الأُميُّون أن مسؤولية التبليغ مقصورة على الكُتَّاب الذين يحتفظون عندهم بالنصوص الشرعية، وأن ذمتهم هم بريئة، فلما نهى الرسول ﷺ من يكتب عن كتابه غير القرآن، أصبح الصحابة كلهم سواسية في التلقي عن الرسول ﷺ، لا يتميز من يكتب عمن لا يكتب، وأصبحت الدعوة إلى الله يشترك فيها الجميع، وخير للدعوة أن ينشرها كل الصحابة مِن أن يقتصر أمرها على عدد من الكُتَّاب.

فإن قلْتَ: إن كان الأمر كذلك فَلِمَ أذن لهم الرسول ﷺ بكتابة القرآن؟

قلت: إن تبليغ القرآن لا يَرِدُ عليه ما يَرِدُ على تبليغ غيره، فلن يعتقد الأُميُّون منهم أن تبليغه واجب على الكُتَّاب فحسب، فهم يقرؤونه سرًّا وجهرًا في بيوتهم وفي مساجدهم، في خلواتهم وفي مجتمعهم وفي صلواتهم، فلتبليغه وسائل كثيرة لا تتحقق لغيره، ولا تقتصر على الكُتّاب دون الأميين، فالجميع يتلوه ويقوم به آناء الليل وأطراف

---

(١) رواه مسلم، جـ٥، ص٢٢٩٨-٢٢٩٩.

النهار، فلن يَتَّكِلَ الأُميُّون في تبليغه على الكُتَّاب؛ لإدراكهم أن الجميع مكلف بتلاوته في السطور وحفظه في الصدور.

ولهذا تغلب الصحابة - رضوان الله عليهم - على الأسباب السابقة المانعة من تدوين علوم القرآن بما حققوه للقرآن، وذلك بالاعتماد على قوة الحافظة، فحفظوا علوم القرآن كما يحفظون الآيات.

أخرج الطبري عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن[١].

وروى أبو عبدالرحمن السُّلَمي، قال: «حدثنا الذين كانوا يُقرِئوننا: أنهم كانوا يستقرِئون من النبي ﷺ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يُخلِّفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعًا»[٢].

ويقول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «والله الذي لا إله غيره، ما نزلت سورة من كتاب الله، إلا أنا أعلم أين نزلت، ولا أُنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمَ أنزلت، ولو أعلم أحدًا أعلم مني بكتاب الله، تبلغه الإبل، لركبت إليه»[٣].

ويقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو على المنبر: «سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار، أم في سهل أم في جبل»[٤].

---

(١) تفسير الطبري، ج١، ص٨٠.

(٢) المرجع السابق.

(٣) صحيح البخاري، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، ج٦، ص١٠٢.

(٤) الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، جـ٢، ص١٨٧.

والنصوص في ذلك كثيرة كلها تثبت أن الصحابة - رضوان الله عليهم - لم يكتفوا بحفظ نصوص القرآن الكريم فحسب، بل حفظوا معها علومه ومعارفه.

واشتهر كثير من الصحابة بتفسير القرآن، منهم الخلفاء الأربعة، وابن عباس، وابن الزبير، وأُبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبدالله بن مسعود، وأبو موسى الأشعري، وعائشة(١) رضي الله عنهم.

وكثرت الرواية في التفسير عن علي بن أبي طالب، وابن عباس، وابن مسعود، وأُبي بن كعب رضي الله عنه.

ولم يتكلف الصحابة - رضوان الله عليهم - التفسير، ولم يخوضوا فيما لا فائدة كبيرة في تحصيله، ولم يكن تفسيرهم يشمل القرآن كلَّه، فبعض الآيات من الوضوح لديهم بحيث لا تحتاج إلى بيان؛ لمعرفتهم للغة، وأحوال المجتمع، وأسباب النزول وغير ذلك، وقد كانوا يهتمون بنشر علوم القرآن بالرواية والتلقين لا بالكتابة والتدوين.

في عهد التابعين رحمهم اللّه تعالى:

وحين اتسعت الفتوحات الإسلامية انتشر الصحابة رضوان الله عليهم في البلدان المفتوحة، يعلمون أهلها القرآن، ويفسرون لهم معانيه، وينشرون لهم علومه ومعارفه، فبذله لهم الصحابة، وفتحوا لهم صدورهم، وأفسحوا لهم مجالسهم، فنشأت ما يصح أن نطلق عليها بالمعنى الحديث (مدارس التفسير) وهي كثيرة.

---

(١) يقصر كثير من الباحثين مشاهير المفسرين من الصحابة على هؤلاء العشرة، وأحسب أن عائشة رضي الله عنها لا تقل مكانتها في التفسير عنهم فأضفتها إليهم.

وأشهرها ثلاث مدارس:

مدرسة ابن عباس رضي الله عنهما في مكة:

وهو حَبر هذه الأمة، وترجمان القرآن، وهو الذي دعا له الرسول ﷺ بقوله: «**اللهم فقهه في الدين وعلِّمه التأويل**»(١).

ومن أشهر تلاميذه: سعيد بن جبير، ومجاهد بن جبر، وعكرمة مولى ابن عباس، وطاووس، وعطاء بن أبي رباح.

مدرسة أُبي بن كعب رضي الله عنه بالمدينة:

وقد كان رضي الله عنه أحد كُتَّاب الوحي، وإمام القُرَّاء، شهد له الرسول ﷺ بقوله: «**أقرؤهم أُبي بن كعب**»(٢).

ومن أشهر تلاميذه: زيد بن أسلم، وأبو العالية الرياحي، ومحمد بن كعب القرظي.

مدرسة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في الكوفة:

وهو أول من جهر بالقرآن بمكة وأسمعه قريشًا بعد الرسول ﷺ، قال عنه الرسول عليه الصلاة والسلام: «**مَن أحب أن يقرأ القرآن غضًّا كما أُنْزِل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد**»(٣)، يعني ابنَ مسعود. وأخبر هو عن نفسه فقال: «والله لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعًا وسبعين سورة»(٤).

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، جـ١، ص٣١٤، ٣٢٨، ٣٣٥.

(٢) رواه الترمذي، جـ٥، ص٦٦٤-٦٦٥ كتاب المناقب، وابن ماجه في سننه، جـ١، ص٦٨.

(٣) سنن ابن ماجه، جـ١، ص٦٣.

(٤) صحيح البخاري، جـ٦، ص١٠٢، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ.

ومن أشهر تلاميذه: علقمة بن قيس، ومسروق بن الأجدع، وقتادة بن دعامة، وعمرو بن شرحبيل، وأبو عبدالرحمن السُّلَمي.

وأهل مكة، وأهل المدينة، وأهل الكوفة هم أعلم الناس بالتفسير، كما يقول ابن تيمية رحمه الله: «وأما التفسير فإن أعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس وغيرهم من أصحاب ابن عباس، كطاووس، وأبي الشعثاء، وسعيد بن جبير وأمثالهم، وكذلك أهل الكوفة من أصحاب عبدالله بن مسعود، ومن ذلك ما تميزوا به على غيرهم، وعلماء أهل المدينة في التفسير مثل زيد بن أسلم»[(١)].

ولم يكن تفسير هؤلاء وغيرهم من الصحابة والتابعين مقتصرًا على علم التفسير بمعناه الخاص، بل كان يشمل مع هذا علم غريب القرآن، وعلم أسباب النزول، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم المكي والمدني، ونحو ذلك.

كما لم يكن شاملًا للقرآن الكريم، ولا مدونًا، وإنما كان بالرواية والتلقين.

ظهور اصطلاح علوم القرآن:

لم تكن علوم القرآن بخافية على العلماء المبرزين قبل التدوين، بل كانت مجموعة في صدورهم، إلا أن اصطلاح (علوم القرآن) لم يظهر في عناوين مؤلفاتهم إلا في فترة متأخرة. حيث ظهر هذا الاصطلاح أول ما ظهر في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري، حيث ألف محمد بن خلف بن المرزبان (ت٣٠٩هـ) كتابه «الحاوي في علوم القرآن»[(٢)].

(١) مقدمة في أصول التفسير: شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: د. عدنان زرزور، ص٦١.

(٢) الفهرست ابن النديم، ص٢١٤، وطبقات المفسرين: الداودي، جـ٢، ص١٤١.

واعتقد بعض الباحثين أن أول عهد لظهور اصطلاح (علوم القرآن) هو بداية القرن الخامس حين ألف علي بن إبراهيم الحوفي (ت٤٣٠هـ) كتابه «البرهان في علوم القرآن» وهذا غير صحيح؛ لأن اسم كتاب الحوفي «البرهان في تفسير القرآن»[١]، ولأنه ظهرت كتب في القرن الذي قبله تناولت علوم القرآن بمعناها المدون، وأسبقها ما ذكرت لابن المرزبان وغيره.

أهم المؤلفات في علوم القرآن (كَفَنٍّ مُدوَّن) قديمًا:

وقد ظهرت مؤلفات كثيرة بعد ذلك في علوم القرآن كفن مدون، ففي القرن الرابع الهجري[٢] أَلَّف أبو الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ) كتابه «المختزن في علوم القرآن»[٣]، وأَلَّف عبيدالله بن جرو الأسدي (ت٣٨٧هـ) كتابه «الأمد في علوم القرآن»[٤]، وأَلَّف محمد بن علي الأدفوي (ت٣٨٨هـ) كتابه «الاستغناء في علوم القرآن»[٥].

---

(١) مفتاح السعادة: طاش كبرى زاده، جـ٢، ص١٠٧، ومعجم الأدباء: ياقوت الحموي جـ١٢، ص٢٢٢، وكشف الظنون: حاجي خليفة، جـ١، ص٢٤١.

(٢) ينسب كثير من الباحثين كتاب «عجائب علوم القرآن» لأبي بكر الأنباري (ت٣٢٨هـ) مستندين في ذلك إلى ما ذكره الزرقاني في «مناهل العرفان»، وقد ظهر لي يقينًا أن الكتاب المذكور ليس لأبي بكر الأنباري، بل هو كتاب «فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن» لابن الجوزي، وسبب وقوع هذا الوهم نسخة مخطوطة في مكتبة البلدية بالإسكندرية أخطأ مفهرسو المكتبة في معرفة المؤلف فنسبوها لأبي بكر الأنباري.

(٣) طبقات المفسرين: الداودي، جـ١، ص٣٩١، وتاريخ التراث العربي: جـ٢، ص٣٧٧، ومعجم المفسرين: عادل نويهض، جـ١، ص٣٥٤.

(٤) طبقات المفسرين: الداودي، جـ١، ص٣٧٢، ومعجم الأدباء: ياقوت الحموي، جـ١٢، ص٦٦، ومعجم المفسرين: عادل نويهض، جـ١، ص٣٤١.

(٥) طبقات المفسرين: الداودي، جـ٢، ص١٩٤، ومعجم المفسرين، جـ٢، ص٥٧٨.

وفي القرن السادس الهجري ألَّف ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) كتابه «فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن»[١]، و«المجتبى في علوم القرآن»[٢]، و«المجتنَى من المجتبى»[٣].

وفي القرن السابع الهجري ألَّف القزويني (ت٦٢٥هـ) كتابه «الجامع الحريز الحاوي لعلوم كتاب الله العزيز»[٤]، وألَّف أبو شامة المقدسي (ت٦٦٥هـ) كتابه «المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز»[٥].

وفي القرن الثامن الهجري ألَّف بدر الدين الزركشي (ت٧٩٤هـ) كتابه «البرهان في علوم القرآن» وطبع في أربعة مجلدات بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم، وهو من أفضل المؤلفات في علوم القرآن الكريم، ومن أحسنها تنظيمًا وتبويبًا وأسلوبًا، وألَّف ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) كتابه «مقدمة في أصول التفسير» وهي مع إيجازها قيمة جدًّا وطبعت مرارًا.

وفي القرن التاسع الهجري ألَّف أبو علي الحسين بن علي بن طلحة الرجراجي الشوشاوي كتابه «الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة» طبع في جزء بتحقيق إدريس عزوزي.

---

(١) طبع بتحقيق الدكتور عبدالفتاح عاشور على نسختين مخطوطتين بعنوان «عجائب علوم القرآن»، وطبع مرة أخرى بتحقيق الدكتور حسن ضياء الدين عتر على ست نسخ مخطوطة.

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة: جـ١، ص٤١٧.

(٣) فنون الأفنان في عيون علوم القرآن: ابن الجوزي، تحقيق د. حسن ضياء الدين عتر، ص٤٠.

(٤) الجواهر المضية في طبقات الحنفية: أبو محمد بن أبي الوفاء، جـ١، ص١٣٣، طبقات المفسرين: الداودي، جـ١، ص٣٣.

(٥) طبع سنة ١٣٩٥هـ بتحقيق: طيار آلتي قولاج.

وفي القرن العاشر الهجري ألَّف جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) كتابه «التحبير في علوم القرآن»[(١)] ذكر فيه (١٠٢) نوعًا من علوم القرآن ثم ألَّف كتابه القيم «الإتقان في علوم القرآن» ذكر فيه ثمانين نوعًا من أنواع علوم القرآن على سبيل الإجمال والدمج، ثم قال بعد سردها: «ولو نوعت باعتبار ما أدمجته في ضمنها لزادت على الثلاث مئة»[(٢)]. وقد طبع الكتاب عدة مرات[(٣)]، ويعد هذا الكتاب أصلًا من الأصول المؤلفة في هذا العلم، ولئن قيل: إن المفسرين عيال على تفسير الطبري، فإن علماء علوم القرآن عيال على «الإتقان»، وقد استفاد السيوطي كثيرًا من كتاب «البرهان» للزركشي.

وفترت همة التأليف بعد ذلك، بل قال بعض العلماء: إن التأليف في تلك الفترة توقف أو كاد[(٤)]، وظهرت مؤلفات معدودة مثل «الفوز الكبير في أصول التفسير» تأليف ولي الله الدهلوي (ت١١٧٦هـ) [(٥)]، وألَّف ابن عَقيلَة (ت١١٥٠هـ) كتابه «الزيادة والإحسان في علوم القرآن»[(٦)].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، جـ١، ص٣.

(٢) المرجع السابق، جـ١، ص٧.

(٣) كما قام بتحقيقه عدد من الباحثين في عدة رسائل للدكتوراه في كلية أصول الدين في القاهرة ــ جامعة الأزهر.

(٤) المدخل لدراسة القرآن الكريم: محمد أبو شهبة، ص٤١.

(٥) طبع عدة مرات.

(٦) مخطوط قام بتحقيقه بعض طلبة الدراسات العليا في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. وهو في سبيله إلى النشر.

المؤلفات في علوم القرآن بمعناه المدون في العصر الحديث:

وقد نشط التأليف في العصر الحديث فصدرت مؤلفات كثيرة وأبحاث عديدة ليس المقام مقام إيرادها ولا حصرها، ولعل من أشهرها:

١- «مناهل العرفان في علوم القرآن»: للشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني وطبع في مجلدين، وهو بحق من أفضل المؤلفات في هذا العلم، فهو إضافة إلى اشتماله على كثير من علوم القرآن، فقد اعتنى صاحبه بالرد على الشبهات الواردة في كل علم قديمًا أو حديثًا، وهو حين يوردها يسوق حججها وبراهينها ثم يكر عليها فلا يُبقي لها أثرًا، وإضافة إلى هذا فإنه يقدم هذه العلوم بأسلوب أدبي يشدك إليه شدًّا حتى لتحسب نفسك - وأنت تخوض عويص القضايا - تقرأ قطعة أدبية، ولست أعني بهذا سلامته من كل عيب؛ ففيه أخطاء علمية وانحرافات عقدية تتبعها أحد الباحثين[1] في رسالة علمية إضافية إلى تقريره المذهب الأشعري.

٢- «المدخل لدراسة القرآن الكريم»: للدكتور محمد محمد أبو شهبة. ألَّفه لطلبة الدراسات العليا في الجامعة الأزهرية، ويقع في مجلد تبلغ صفحاته نحو خمس مائة صفحة.

٣- «مباحث في علوم القرآن»: للدكتور صبحي الصالح، ألَّفه لطلبة كلية الآداب بجامعة دمشق، ويقع في نحو ثلاث مئة صفحة.

٤- «مباحث في علوم القرآن» للشيخ مناع القطان، ويقع في نحو ثلاث مئة صفحة، وقال في مقدمته: «كانت طبعته الأولى استجابة لرغبة بعض إخواننا في تقديم أبحاث مختصرة عن أهم مباحث علوم القرآن، يستطيع شبابنا المسلم الذي لا يتيسر له

---

(١) هو الدكتور خالد بن عثمان السبت، وعنوان رسالته «كتاب مناهل العرفان للزرقاني دراسة وتقويم».

التعمق في الدراسات الإسلامية أن يجد فيها من الثقافة اللازمة له ما يكفيه مؤنة البحث في مراجع هذا العلم، ويجنبه عناء فهم أساليبها»[١]. وقد أصاب وفقه الله، فقد سدّ كتابه هذا ثغرة في حاجة طلبة العلم.

٥- «التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الإتقان»: تأليف الشيخ طاهر الجزائري، وهي مباحث انتخبها الجزائري انتخاب العالم الذواقة والمحقق المتقن، اعتنى بنشرها الشيخ عبدالفتاح أبو غدة.

٦- «منهج الفرقان في علوم القرآن»: تأليف الشيخ محمد علي سلامة. ألّفه لطلابه في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر. وطبع في جزءين صغيرين بتحقيق د. محمد سيد أحمد المسير، تبلغ صفحاتها نحو (٣٦٠) صفحة.

٧- «علوم القرآن» للدكتور عدنان زرزور، وهو محاضرات ألقاها على طلابه، ويقع في مجلد تبلغ صفحاته (٤٦٠) صفحة.

هذه بعض المؤلفات في العصر الحديث في علوم القرآن كَفَنٍّ مُدوَّن، والمؤلفات غيرها كثيرة، ولعلك تلاحظ أن أغلبها قد ألفها أصحابها لطلابهم، وأحسب أن هذا يؤدي إلى الإجمال في الحديث، وتيسير المادة، وعدم الخوض في دقائق المسائل ووعر المسالك، واختيار السبيل الأسهل، والأيسر. وهذا المنهج يحرم الباحثين المتخصصين من نيل مرادهم، والحصول على بغيتهم، كما يحرم المؤلفين من الإبداع في القول ومن إعمال الذهن والتجديد في الآراء، بل أدى بهم إلى التسليم في كثير من المسائل والقضايا، ونقلها كما هي من غير تمحيص خشية من الدخول في تفاصيل تخرج به عن هدفه من التأليف.

---

(١) وطبعت في مجلدين مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص٥.

والحقُّ أن كثيرًا من المباحث في علوم القرآن لا تزال بحاجة إلى النظر في مسائلها، وإعادة الكتابة فيها، وعدم الاكتفاء والتسليم بما قاله فلان وفلان من غير دليل. وعلوم القرآن أوسع من أن يحيط بها أبناء جيل أو أجيال من البشر.

ومما لا شك فيه أن التاريخ كلَّه لا يعرف كتابًا درسه الدارسون، وألف في علومه المؤلفون، وصنف فيه المصنفون مثل القرآن الكريم، ولا تزال المؤلفات تُدوَّن، ولا يزال العلماء يبحثون ويتدبرون، ولا يزال القرآن نقيًّا لم تكدره الدلاء، وفائضًا لم تنقصه كثرة الواردين، وسيظل نورًا يستضيء به طلاب الحقيقة، وهدى يهتدي به الناس إلى يوم القيامة.

* * *

فضائل القرآن الكريم

لا شك أن فضلَ القرآن الكريم فضلٌ كبير وعظيم، فهو كتاب أخرج الله به هذه الأمةَ من جاهلية جهلاء وضلالة عمياء.

وهو كتاب ختم الله به الكتب، وأنزله على نبيٍّ ختم به الأنبياء، وبدين ختم به الأديان. وهو كلام الله العظيم، وصراطه المستقيم، ونظامه القويم، ناط به كلَّ سعادة. هو رسالة الله الخالدة، ومعجزته الدائمة، ورحمته الواسعة، وحكمته البالغة، ونعمته السابغة. نهل منه العلماء، وشرب من مشربه الأدباء، وخشعت لهيمنته الأبصار، وذلت له القلوب، وقام بتلاوته العابدون والراكعون والساجدون، وهو «كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، فلا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه»(١).

هو كتاب الإسلام في عقائده، وعباداته، وحكمه، وأحكامه، وآدابه، وأخلاقه، وقصصه، ومواعظه، وعلومه، وأخباره، وهدايته، ودلالته، وهو أساس رسالة التوحيد، والرحمة المسداة للناس، والنور المبين، والمحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك.

وقد ورد بيان فضل القرآن في آيات كثيرة وأحاديث عديدة.

---

(١) الموافقات: الشاطبي، جـ٣،ص٣٤٦.

فضائل القرآن العامة

فضل القرآن في القرآن:

في أول جملة بعد الفاتحة ورد وصف القرآن بأنه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾[(١)] ولك أن تتدبر في استنباط المعاني العديدة في ذلك.

ومن فضل القرآن في القرآن أن عُدَّ إنزاله في شهر مزية لهذا الشهر: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾[(٢)]، وبركة لليلة التي أُنزل فيها: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾[(٣)].

ومن فضله في القرآن: نزول الرحمة عند سماعه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٢٠٤﴾[(٤)].

ووصفه بالعظمة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ۝٨٧﴾[(٥)] وبالهداية: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[(٦)]، وأقسم الله به: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾[(٧)].

---

(١) سورة البقرة، الآية:٢.

(٢) سورة البقرة، الآية:١٨٥.

(٣) سورة الدخان، الآية:٣.

(٤) سورة الأعراف، الآية:٢٠٤.

(٥) سورة الحجر، الآية:٨٧.

(٦) سورة الإسراء، الآية:٩.

(٧) سورة يس، الآيتان:٢-٣.

وأمر بتلاوته: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩١ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾[(١)]، وبتدبره: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[(٢)].

وشهد له بالسلامة من العوج: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾[(٣)].

ولكثرة فضائله تعددت أسماؤه وصفاته، وقد وردت في القرآن أسماء وصفات للقرآن كثيرة تنبئ كثرتُها وتعددها عن مكانة القرآن العظيمة، ومنزلتِه السامية.

فضائل القرآن في السنة النبوية:

وقد وردت في السنة النبوية أحاديثُ كثيرة في بيان فضل القرآن الكريم، ومن أجمعها حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: أما إني قد سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ألا إنها ستكون فتنة»** فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: **«كتاب الله، فيه نبأ ما كان قبلَكُم، وخبرُ ما بعدَكم، وحُكْمُ ما بينكُم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدَى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَـخْلَقُ على كثرة الرّدّ، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعَتْه قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾[(٤)] من قال به صَدَق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم»**[(٥)].

---

(١) سورة النمل، الآيتان:٩١-٩٢.

(٢) سورة محمد، الآية:٢٤.

(٣) سورة الزمر، الآية:٢٨.

(٤) سورة الجن، الآيتان:١-٢.

(٥) رواه الترمذي، جـ٥، ص١٧٢، وقال: «هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول وفي =

وفي حديث آخر رواه ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ هذا القرآن مأدُبة الله، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم. إنَّ هذا القرآن حبل الله وهو النور المبين، والشفاء النافع، عصمةٌ لمن تمسك به، ونجاة لمن تبعه، لا يزيغ فيُستعتَب ولا يعوَجُّ فيُقوَّم، ولا تنقضي عجائبه، ولا يَـخْلَق عن كثرة الرَدِّ. فاتلوه، فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول: ﴿الٓمٓ﴾ ولكن بألف ولام وميم**»(١). ويكفي في بيان فضله قول الرسول ﷺ: «**خيركم من تَعَلَّم القرآن وعَلَّمه**»(٢).

فضائل بعض سوره وآياته:

وردت أحاديث في فضل بعض سور القرآن الكريم، وقد اختلق بعض الوضّاعين أحاديث في فضائل سور القرآن سورةً سورة(٣). وفي بعض سور القرآن وقع ورتع بعض أصحاب الطرق المبتدعة في مثل هذه الأحاديث، ولنا فيما صح عن الرسول ﷺ

الحارث مقال». وتعقبه ابن كثير في فضائل القرآن: ص١١ فقال: «.. بل قد رواه محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي عن الحارث الأعور.. ثم قال.. وهو كلام حسن صحيح على أنه قد روي له شاهد عن عبدالله بن مسعود».

(١) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» ص٥٠، والحاكم في «المستدرك» ١/ ٧٤١-٧٤٢ (٢٠٤٠) ورواه الدارمي، جـ٢، ص٤٣١. وأورده ابن كثير في «فضائل القرآن» بعد حديث علي السابق. وقال ابن الجوزي: «هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، ويشبه أن يكون من كلام ابن مسعود». العلل المتناهية، جـ١، ص١٠٢.

(٢) رواه البخاري، جـ٦، ص١٠٨.

(٣) وأشهرها الحديث المكذوب على أُبيّ بن كعب ﷺ عن الرسول ﷺ في فضل سور القرآن سورة سورة، وقد فرق هذا الحديث الثعلبي والواحدي والزمخشري في تفاسيرهم على السور. وقال ابن الجوزي عن هذا الحديث: «إنه حديث محال»، وروى عن ابن المبارك قوله: «أظن الزنادقة وضعته» الموضوعات: ابن الجوزي، جـ١، ص٢٣٩.

غنى عن ذلك، ونذكر مما صح في فضائل بعض السور والآيات ما يلي:

- **سورة الفاتحة:**

ما رواه أبو سعيد بن المُعَلَّى أن رسول الله ﷺ قال له: «**ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد**» فأخذ بيدي، فلما أردنا أن نخرج، قلت: يا رسول الله! إنك قلت: ألا أعلمك أعظم سورة من القرآن، قال: «**الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته**»(١).

- **سورة البقرة:**

ورد في فضلها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إنَّ الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة**»(٢).

- **سورة قل هو الله أحد:**

ورد في فضلها أحاديث كثيرة بأنها تعدل ثلث القرآن، ومنها حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن؟**» قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال: «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾(٣) **تعدل ثلث القرآن**»(٤).

---

(١) صحيح البخاري، جـ٦، ص١٠٣.

(٢) صحيح مسلم، جـ١، ص٥٣٩.

(٣) سورة الإخلاص، الآية: ١.

(٤) صحيح مسلم، جـ١، ص٥٥٦.

- فضل المعوذتين:

ورد في فضلهما حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أنزل أو أُنزلت عليَّ آيات لم يُر مثلهن قط: المعوذتين**»[١].

- فضل آية الكرسي:

ورد في فضلها حديث أُبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يا أبا المنذر! أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟**» قال: قلت: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾[٢]. قال: فضرب في صدري وقال: «**والله ليهنِكَ العلمُ أبا المنذر**»[٣].

- فضل الآيتين في آخر سورة البقرة:

ورد في فضلهما حديث أبي مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه**»[٤]، أي: دفعتا عنه الشر والمكروه.

- فضل عشر آيات من أول الكهف أو آخرها:

روى أبو الدرداء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ من الدجال**»[٥]. وفي رواية قال شعبة: «**من آخر الكهف**»[٦].

---

(١) رواه مسلم، جـ١، ص٥٥٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٣) رواه مسلم، جـ١، ص٥٥٦.

(٤) رواه مسلم، جـ١، ص٥٥٥.

(٥) رواه مسلم، جـ١، ص٥٥٥.

(٦) رواه مسلم، جـ١، ص٥٥٦.

فضل تلاوته:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ۝٣٠﴾[1].

وردت في السنة أحاديث كثيرة في ثواب التلاوة، منها حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران**» رواه البخاري ومسلم[2].

وبينت السنة أن القرآن يشفع لأصحابه يوم القيامة. عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه**» رواه مسلم[3].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجلٌ آتاه الله مالًا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار**» رواه البخاري ومسلم[4].

ولو لم يرد في فضل تلاوة القرآن إلا حديث ابن مسعود رضي الله عنه لكفى به داعيًا للتنافس بين المسلمين في تلاوة القرآن الكريم آناء الليل وأطراف النهار، فقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول:**

---

(١) سورة فاطر، الآيتان:٢٩-٣٠.

(٢) صحيح البخاري، جـ٦، ص٨٠، وصحيح مسلم، جـ١، ص٥٤٩-٥٥٠.

(٣) صحيح مسلم، جـ١، ص٥٥٣.

(٤) صحيح البخاري، جـ٩، ص٦٥، وصحيح مسلم، جـ١، ص٥٥٨.

﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»(١).

تالله لولا ما ران على قلوبنا ما انفك أحدنا عن تلاوة هذا القرآن، وما فرطنا في تلاوته هذا التفريط، ساعات تلو الساعات تنقضي من أعمارنا لا نحسب لها حسابًا. أرأيتم لو أخذ أحدنا المصحف في ساعة من ساعاته الضائعة، وتلا فيها آيات من القرآن الكريم، فكم سيقرأ فيها من حرف؟ وإذا كان بكل حرف عشر حسنات، فكم سيثاب في هذه الساعة من حسنة؟ إنه لثواب كبير وأجر عظيم لا ينبغي لذي لب أن يفرط فيه.

فضل استماعه:

وكما ورد الوعد بالثواب على تلاوة القرآن فقد ورد أيضًا الوعد بالثواب لمستمع التلاوة بخشوع وتدبر وإنصات. قال الليث بن سعد رحمه الله: يقال: ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾(٢)، و«لعل» من الله واجبة(٣).

ومما جاء في السنة في ثواب استماع القرآن الكريم حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله تعالى كتب له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نورًا يوم القيامة»(٤).

---

(١) سنن الترمذي، جـ٥، ص١٧٥، وسنن الدارمي، جـ٢، ص٤٢٩. وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح، غريب إسنادًا» وقال الألباني في المشكاة جـ١، ص٦٥٩ (وهو صحيح).

(٢) سورة الأعراف، الآية:٢٠٤.

(٣) التذكار في أفضل الأذكار: القرطبي، ص٧٩.

(٤) مسند الإمام أحمد، جـ٢، ص٣٤١.

فضل الاجتماع لدرسه:

من أجمع الأحاديث التي وردت في بيان ثواب الاجتماع لتلاوة القرآن الكريم وتدارسه حديث أبي هريرة ﷺ، وفيه: «**وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده**»[١]، فجمع هذا الحديث أربعة أنواع من ثواب تلاوة القرآن ومدارسته.

١- تنزل عليهم السكينة.

٢- تغشاهم الرحمة.

٣- تحفهم الملائكة.

٤- يذكرهم الله فيمن عنده.

ومن منا لا يحرص على كل واحدة منها فضلًا عنها كلها، كيف وقد اجتمعت كلُّها في عمل واحد ميسر، وفي هذا ندب لتعلم القرآن الكريم ومعرفة علومه وأحكامه ومعانيه.

آداب التلاوة والاستماع:

لا ريب أن لتلاوة هذا الكتاب آدابًا ينبغي العمل بها ففي ذلك أيضًا زيادة لثواب التلاوة.

وآداب التلاوة كثيرة لعل أهمها:

١- الطهارة وتشمل طهارة البدن، وطهارة المكان، وطهارة اللباس، وطهارة الفم، وفوق هذا كله طهارة القلب ونقاؤه من الشرك والشك والرياء.

أما طهارة البدن فقد اتفق العلماء - رحمهم الله تعالى - على أن الجنب لا يجوز له مس المصحف أو قراءة القرآن حتى يغتسل.

---

(١) صحيح مسلم، جـ٤، ص٢٠٧٤.

أما الطهارة من الحدث الأصغر فقد اشترطها بعض العلماء لقوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ ﴾[(١)]. ولم يشترطها آخرون، ومما لا شك فيه أن الأفضل والأولى هو الطهارة من الحدث الأصغر أيضًا.

وأما طهارة المكان فلا يجوز أن يقرأ القرآن في الأماكن النجسة، سواء كانت نجاسة حسية كالحمامات ونحوها، أو نجاسة معنوية كالملاهي وحانات الخمور والفسق والفجور.

وطهارة اللباس والتطيب عند التلاوة من الآداب المحمودة، وقد كان رسول الله ﷺ إذا قام بالليل يتهجد اغتلف بالغالية[(٢)]، وهي أخلاط من الطيب كالمسك والعنبر. وكان ابن مسعود رضي الله عنه تعجبه الثياب الحسنة النظيفة والريح الطيب إذا قام إلى الصلاة، وكان رضي الله عنه إذا قرأ اعتمّ ولبس ثيابه وارتدى، واستقبل القبلة[(٣)].

حتى طهارة الفم حرص الإسلام عليها عند تلاوة القرآن. روى علي رضي الله عنه حديثًا عن رسول الله ﷺ وفيه: «**فطهروا أفواهكم للقرآن**»[(٤)]، وعنه رضي الله عنه قال: «**إن أفواهكم طرق للقرآن فطيبوها بالسواك**»[(٥)]، وكان رسول الله ﷺ إذا قام في الليل يشوص فاه بالسواك[(٦)].

٢- ومن آداب التلاوة أن يستوي قاعدًا في غير صلاة تأدبًا مع القرآن.

---

(١) سورة الواقعة، الآية:٧٩.

(٢) التذكار في أفضل الأذكار: القرطبي، ص١٠٨.

(٣) المرجع السابق.

(٤) كشف الأستار عن زوائد البزار، جـ١، ص٢٤٢. وصححه الألباني في الصحيحة رقم١٢١٣.

(٥) سنن ابن ماجه، جـ١، ص١٢٥. وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢٣٦)، ولعله تبين له ضعفه بعد ذلك، فقد ضعفه جدًا في ضعيف الجامع (١٤٠١) والصواب أنه ضعيف.

(٦) صحيح البخاري، جـ١، ص٦٦، وصحيح مسلم، جـ١، ص٢٢١.

٣- ومنها أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم عند ابتداء قراءة القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾[(١)].

٤- ومنها أن يقرأ البسملة بعد الاستعاذة بأن يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم». وقد أجمع العلماء على مشروعية البسملة عند تلاوة كل سورة من سور القرآن الكريم سوى براءة.

٥- يستحب إذا تثاءب أن يمسك عن القراءة؛ لأنه مُخاطِب ربَّه ومناج له.

٦- وإذا شرع في القراءة فينبغي أن لا يشتغل عنها، ولا يقطعها، ولا يخللها بكلام الآدميين إلا لضرورة.

٧- أن يقرأ على تؤدة، وأن يرتل القرآن ترتيلًا، ولا يَـهُذّه هَذًّا.

٨- أن يقف عند آية الوعد فيسأل الله من فضله، وعند آية الوعيد فيستجير بالله من عقابه.

٩- أن يرفع المصحف بيده أو على شيء مرتفع أمامه، ولا يضعه على الأرض لما في ذلك من الامتهان.

١٠- أن يقرأ بتدبر وتمعن وفهم لما يتلوه، ولا يكون كلُّ همه كم قرأ؟! فقد قال أبو جمرة: قلت لابن عباس: إني سريع القراءة، إني أقرأ في ثلاث. قال: لأن أقرأ البقرة في ليلة فأتدبرها وأرتلها أحب إليَّ من أن أقرأ كما تقول[(٢)].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضًا: لأن أقرأ سورة أرتلها أحب إليَّ من أن أقرأ القرآن كله[(٣)].

١١- ومن آداب استماع القرآن: الإنصات والإصغاء للتلاوة، وترك الكلام والضحك.

١٢- ومنها أن لا يعبث ولا يكثر من الحركة لغير حاجة.

١٣- ومنها الخشوع عند سماع القرآن، واستحضار القلب، والتفكر والتدبر فيما يسمع من الآيات.

---

(١) سورة النحل، الآية:٩٨.

(٢) أخلاق أهل القرآن: الآجري، تحقيق: محمد عمرو بن عبداللطيف، ص١٦٩.

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن: النووي، تحقيق: عبده الكوشك، ص١١٩.

خصائص القرآن الكريم

أنزل الله تعالى هذا القرآن على الرسول ﷺ ليخرج به هذه الأمة من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام، حتى أصبحت خير أمة أُخْرِجَت للناس.

وتميزت هذه الأمة بخصائص كثيرة ليست في الأمم كلِّها، واختص أيضًا نبيها ﷺ بخصائص كثيرة، وتميز دينها الدين الإسلامي بخصائص عديدة ليست في الأديان الأخرى، وتميز الكتاب الذي أنزل عليها بخصائص دون سائر الكتب المنزلة.

وقد كتب كثير من العلماء في خصائص الإسلام[١]، وفي خصائص الأمة الإسلامية[٢] وفي خصائص الرسول ﷺ[٣]. فلا عجب أن يهتم العلماء أيضًا بخصائص القرآن الكريم[٤]، وقد أورد العلماء هذه الخصائص في بطون مؤلفاتهم عن علوم القرآن، وأفردها بعضهم. وفي هذا الموضوع مجال خصب يمرح فيه بعض المشعوذين والدجالين فيوردون فيه بعض الخرافات والشعوذة. وبالتحقيق والتدقيق يذهب زغل المبطلين.

وسأذكر هنا بعض هذه الخصائص:

---

(١) مثلًا: الخصائص العامة للإسلام: د. يوسف القرضاوي.

(٢) ذكر ابن الجوزي رحمه الله في كتابه «فنون الأفنان» ثلاثين نوعًا منها.

(٣) مثلًا: الخصائص الكبرى: السيوطي.

(٤) جمعت كثيرًا من هذه الخصائص في كتابي: «خصائص القرآن الكريم».

أولًا: خصائص تتعلق بفضله وشرفه ومكانته:

وهي خصائص كثيرة منها:

١- فضله:

لا يخفى فضل القرآن عمن لديه أدنى علم شرعي. ذلك أن القرآن الكريم «كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، فلا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه»[١].

هو كلام الله العظيم، وصراطه المستقيم، ودستوره القويم، ناط به كلَّ سعادة. هو رسالة الله الخالدة، ومعجزته الدائمة، ورحمته الواسعة، وحكمته البالغة، ونعمته السابغة.

هو حجة الرسول ﷺ الدامغة، وآيته الكبرى، شاهدة برسالته، وناطقة بنبوته.

هو كتاب الإسلام في عقائده، وعباداته، وحِكَمِه وأحكامه، وآدابه، وأخلاقه، وقصصه، ومواعظه، وعلومه، وأخباره، وهدايته، ودلالته.

هو أساس رسالة التوحيد، والمصدر القويم للتشريع، ومنهل الحكمة والهداية، والرحمة المسداة للناس، والنور المبين للأمة، والمَحَجَّة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك.

فضله لا يدانيه فضل، ولا تسمو إليه مكانة، وسبق الحديث عن فضله في القرآن، وفضله في السُّنَّة، بما يغني عن إعادته.

٢- شفاعته لأهله:

ومن خصائص القرآن الكريم أنه يشفع لأهله يوم القيامة، ومن الأدلة على ذلك حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه**»[٢].

---

(١) الموافقات: الشاطبي، جـ٣، ص٣٤٦.

(٢) صحيح مسلم، جـ١، ص٥٥٣.

٣- أنـه شفاء:

قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾[١]، وقال ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾[٢]، وقال ﷻ: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾[٣].

وتدبر وَصْفَ الله للقرآن بأنه شفاء ولم يصفه بأنه دواء؛ لأن الشفاء هو ثمرةُ الدواء والهدفُ منه، أما الدواء فقد يفيد وقد يضر، فكان وصف القرآن بأنه شفاء تأكيد وأيّ تأكيد لثمرة التداوي به.

وقد ضرب رسول الله ﷺ المثل بنفسه بالتداوي بالقرآن، فقد روت عائشة ﵂، قالت: «إن النبي ﷺ كان ينفث على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوذات، فلما ثَقُلَ كنت أنفث عليه بهن، وأمسح بيد نفسه لبركتها»[٤].

وأقرّ أصحابه ﵃ على الاستشفاء به، فقد روى أبو سعيد الخدري ﵁: أن ناسًا من أصحاب النبي ﷺ أتوا على حيٍّ من أحياء العرب فلم يَقْرُوهم، فبينما هم كذلك، إذ لُدِغَ سيد أولئك، فقالوا: هل معكم من دواء أو راقٍ؟ فقالوا: إنكم لم تَقْرونا، ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جُعْلًا. فجعلوا لهم قطيعًا من الشاء، فجعل يقرأ بأمّ القرآن، ويجمع بُزاقه ويتفِل، فبرأ، فأتوا بالشاء، فقالوا: لا نأخذه حتى نسأل النبي ﷺ.

---

(١) سورة الإسراء، الآية:٨٢.

(٢) سورة فصلت، الآية:٤٤.

(٣) سورة يونس، الآية:٥٧.

(٤) صحيح البخاري، جـ٧، ص٢٢.

فسألوه فضحك وقال: «وما أدراك أنها رُقْية، خذوها واضربوا لي بسهم»(١).

والقرآن شفاء للأمراض النفسية. وما أحوج مجتمعاتنا المعاصرة إلى التداوي بالقرآن؛ لهذا الداء الوبيل في عالم تتنازعه الأهواء المادية، والشهوات الجسدية، والملذات الدنيوية، وإنما تحدث الأمراض النفسية حين يعرض الإنسان عن القرآن وعن ذكر الله ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾(٢)، وقال ﷻ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾(٣)، أما العلاج والشفاء فهو قرين الذكر ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾(٤).

ولكن ينبغي أن نعلم أن الاستشفاء بالقرآن يستدعي كمال اليقين، وقوة الاعتقاد وسلامته، ولذا قال الزركشي رحمه الله عن الاستشفاء بالقرآن: «لن ينتفع به إلا من أخلص لله قلبه ونيته، وتدبر الكتاب في عقله وسمعه، وعمر به قلبه، وأعمل به جوارحه، وجعله سميرَه في ليله ونهاره، وتمسك به وتدبَّره»(٥).

ومن خصائصه التي تتعلق بفضله وشرفه ومكانته: التعبد بتلاوته، وتعدد أسمائه وصفاته، والثواب لقارئه ومستمعيه، وأن له نزولين، ونزوله مُنَجَّمًا دون سائر الكتب السابقة وغير ذلك.

---

(١) صحيح البخاري، جـ٧، ص٢٣.

(٢) سورة طه، الآية:١٢٤.

(٣) سورة الزخرف، الآية:٣٦.

(٤) سورة الرعد، الآية:٢٨.

(٥) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، جـ٣، ص٤٣٦.

ثانيًا: خصائص تتعلق بأسلوبه ولغته:

١ – أنه لا يعلو عن أفهام العامة، ولا يَقصُرُ عن مطالب الخاصة.

وهذان مطلبان لا يدركهما الفصحاء والبلغاء من الناس، فلجؤوا إلى قاعدة يعتذرون بها فقالوا: «لكل مقام مقال». أما أن يأتي كلام واحد يُخاطَبُ به العلماء والعامة، والذكر والأنثى، ويرى فيه كلٌّ منهم مطلبَه، ويدرك من معانيه ما يكفيه، فذلك ما لا نجده على أتمه وأكمله إلا في القرآن الكريم وحدَه.

يقرأ فيه العامي فيشعر بجلاله، ويذوق حلاوته، ولا يلتوي عليه فهمه، فتدركه هيمنته، ويستولي عليه بيانه، وتغشاه هدايته، فيخشع قلبه، وتدمع عيناه، فينقاد له، ويذعن.

ويقرِأ فيه العالم فيدرك فصاحته، وتهيمن عليه بلاغته، ويملكه بيانه، وتنجلي له علومه ومعارفه، وتدهشه أخباره وأنباؤه، فيجد فيه زمام فكره، وقيادة عقله، ومنهج علمه، ومحار فكره، ورفعة شأنه[1].

فيذعن ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾[2] ثم يرفع يديه: ﴿رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾[3] فتدركه الخشية[4]، ويذعن لربه، ويؤمن بشرعه.

والآيات هي هي هنا وهناك لم تتغير ولم تتبدل.

---

(١) قال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾[المجادلة:١١].

(٢) سورة غافر، الآية:٧.

(٣) سورة طه، الآية:١١٤.

(٤) قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾[فاطر:٢٨].

٢- ومن خصائص أسلوب القرآن الكريم: تصوير المعاني:

ويراد بها إظهار المعاني بكلمات تكاد أن تجعلها بصورة المحسوس، حتى تهم بلمسها بيديك، وحتى تلج إلى ذهنك مترابطة متكاملة، لا تكلف ذهنك مشقة تركيبها، ولا تثقله بمهمة تجميعها، فتقسره قسرًا على الفهم والإدراك، بل تفجؤه بانطباعها فيه بمجرد توجهه إليها.

وتفسير سيد قطب ﵀ له عناية خاصة بهذا المعنى، وتميز فيه بين سائر المفسرين.

وتصوير المعاني يكون أحيانًا بطريقة التجسيم، أي: بجعلها في صورة مجسمة، قابلة للوزن والكثافة، فقد وصف الله سبحانه العذاب بأنه غليظ في قوله سبحانه: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ١٧﴾[1] واليوم بأنه ثقيل ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ٢٧﴾[2]، فنقل العذاب من كونه معنى مجردًا إلى شيء ذي غلظ وسُمك، كما نقل اليوم من زمن لا يُمسك إلى شيء ذي كثافة ووزن[3].

وهناك خصائص أخرى كثيرة لأسلوب القرآن منها: نظمه، ووقعه وجودة السبك، وإحكام السرد، وتعدد الأساليب، واتحاد المعنى، والجمع بين الإجمال والبيان، وإيجاز اللفظ مع وفاء المعنى وغير ذلك.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية:١٧.

(٢) سورة الإنسان، الآية:٢٧.

(٣) لمزيد بيان عن إسهام المفردة القرآنية في التجسيم انظر كتاب الأستاذ أحمد ياسوف «جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير».

ثالثًا: خصائص عامة:

وهي كذلك خصائص كثيرة عديدة منها:

١- حفظه في الصدور:

من أشرف خصائص القرآن الكريم أن الله ﷻ كلَّفَ الأمة بحفظه كله بحيث يحفظه عدد كثير يثبت به التواتر وإلا أثمت الأمة كلُّها، وليس هذا الكتاب غير القرآن، فالتوراة والإنجيل ترك لأهلها أمر الحفظ فاكتفوا بالقراءة دون الحفظ، إلا قلة لا تكاد تذكر، ولم تتوافر الدواعي لحفظها كما توافرت لحفظ القرآن الكريم، فلم يكن لهما ثبوت قطعي كما هو للقرآن، فسهل تحريفُها وتبديلها.

ولم يترك الرسول ﷺ سبيلًا فيه حث على حفظ القرآن إلا وأرشد إليه وحث عليه، فحفظه عدد كبير من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم، ومازالت المسيرة مستمرة، يحفظ المسلمون القرآن في صدورهم، ونجد إقبالًا لا يخطر ببالٍ، ولا يحلم بمثله أهل كتاب. انظروا - إن شئتم - مدارس تحفيظ القرآن العديدة منذ نزول القرآن إلى عصرنا هذا. ثم التفتوا يسرة، فكم من مدرسة لتحفيظ الإنجيل أو التوراة فلن تجدوا منها شيئًا، بل ستجدون قلة القلة تحفظ هذا أو ذاك مما لا يذكر - أبدًا - في مقابل مدارس تحفيظ القرآن.

تقول المستشرقة لورا فاغليري: «إن في مصر وحدَها عددًا من الحفاظ أكثر من عدد القادرين على تلاوة الأناجيل عن ظهر قلب في أوروبا كلها»[(١)].

ويقول جيمي متشيز: «لعل القرآن هو أكثر الكتب التي تُقرأ في العالم، وهو بكل تأكيد أيسرها حفظًا»[(٢)].

---

(١) دفاع عن الإسلام: لورا فاغليري، ص٥٩.

(٢) في رحاب التفسير: عبدالحميد كشك، ص٢٨.

٢- اتصال السند:

من المعلوم أن أغلب الذين يتعلمون تلاوة القرآن إنما يتعلمونها عن طريق السماع، ولا يكتفون بتعلمه من المصاحف وحدَها، ونعلم أن أساتذتهم تلقوه أيضًا بالسماع عن طريق مشايخهم، وهكذا لا تنقطع هذه الطريقة إلى أن تصل طبقة التابعين ثم الصحابة ثم الرسول ﷺ.

وبهذا يكون سند القرآن في كل عصر وفي كل حين متصلًا برسول الله ﷺ، وليس هذا لكتاب غير القرآن الكريم، فقد شَرَّف الله هذه الأمة باتصال سندها برسولها ﷺ.

قال محمد بن حاتم المظفر: «إن الله تعالى قد أكرم هذه الأمة، وشَرَّفها وفضَّلها بالإسناد، وليس لأحد من الأمم كلها قديمها وحديثها إسناد موصول، وإنما هو مصحف في أيديهم، وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم، وليس عندهم تمييز بين ما نزل من التوراة والإنجيل، مما جاءهم به أنبياؤهم وبين ما ألحقوه بكتبهم من الأخبار التي أخذوها عن غير الثقات»[١].

٣- أنه لا يمسه إلا المطهرون:

أنزل الله القرآن بواسطة أفضل الملائكة على أفضل الأنبياء لخير أمة أخرجت للناس، فأخرجهم به من الظلمات إلى النور، ومن رجس الجاهلية إلى طهارة الإسلام، فحُقَّ لهذا الكتاب أن يتهيأ المسلمون لتلاوته، وأن يستعدوا لها بالطهارة، ليست الطهارة الصغرى كما يفهمها بعض الناس، ولكنها الطهارة الكبرى بكل معانيها.

---

(١) توضيح الأفكار: محمد بن إسماعيل الصنعاني، جـ٢، ص٣٩٩، فتح المغيث: للسخاوي، جـ٣، ص٤.

طهارة القلب من الكفر والشرك، فلا يمس القرآن كافر ولا يُمَكَّنُ من ذلك، ولا يسافر بالمصحف إلى بلاد الكفر، وطهارة القلب أيضًا من الرياء والنفاق، أو أن يريد بالتلاوة غير وجه الله، كمن يقرؤه للرياء والسمعة أو ليقال: هو قارئ، أو كمن يقرؤه للتكسب أو لينال به شيئًا من حطام الدنيا.

وطهارة البدن من الحدثين: الأكبر والأصغر، فيجب الاغتسال من الجنابة ونحوها بلا خلاف، ويسن الوضوء من الحدث الأصغر، بل أوجبه بعض العلماء.

وطهارة اللباس فينبغي أن تكون ثيابه طاهرة نظيفة نقية، وأن يتطيب، وأن يلبس من الثياب أحسنها، وأن يستعد لها كما يستعد لملاقاة الملوك فإنه مناج ملك الملوك.

وطهارة الفم فينبغي أن ينظف فاه، ويستاك، ويخلل أسنانه اقتداءً بسنة رسول الله ﷺ وسنة أصحابه من بعده.

وهذه الطهارة خاصة بتلاوة القرآن لا يشترك معه فيها كتاب آخر.

٤ – أن الله تعهد بحفظه:

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[(١)] وقد مرت بالقرآن أحداث عظيمة، وأهوال جسيمة، وعوامل خطيرة، وتكالب عليه الأعداء، وتداعت عليه الأمم، ولو مر بعض ذلك على غير القرآن لأصابه ما أصاب الكتب السابقة من التحريف والتغيير والتبديل. أما القرآن فقد مر بهذه الأحوال المتماوجة، والدواعي المتكالبة، ولم تنل منه بغيتها، بل وصل إلينا كما أنزله الله لم يتبدل ولم يتغير. ما طالته الأفواه النافخة، ولا نالته الأصوات اللاغية؛ ليتم الله نوره ولو كره الكافرون.

(١) سورة الحجر، الآية:٩.

وقد كانت هذه الآية بالنسبة للصحابة ﭫ خبرًا، ولكنها الآن خبر ومعجزة، معجزة أن مر خمسة عشر قرنًا ولم يقع ما يخالفها؛ وخبر بأن الحفظ مستمر إلى يوم القيامة.

أما الكتب السابقة فلم يتعهد الله بحفظها، بل أوكل أمر حفظها إلى أهلها فقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ ﴾(١).

وخصائص القرآن العامة كثيرة، ومنها إجمالًا: معارفه، إعجازه، أنه لا ينسب إلا إلى الله، والجمع بين البسملة والاستعاذة عند تلاوته، وحرمة تفسيره بمجرد الرأي، وتيسير حفظه وتلاوته، وأن قارئه لا يمله، وتحريم روايته بالمعنى، وأنه يتفلت من حافظه، ورسمه، وهيمنته على الكتب السابقة، والأحرف المقطعة في أوائل السور وغير ذلك(٢).

❊ ❊ ❊

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

(٢) اقتبست هذا المبحث من كتابي «خصائص القرآن الكريم».

جمع القرآن الكريم

المراد بجمع القرآن:

يطلق جمع القرآن الكريم ويراد به أحد ثلاثة أنواع:

الأول: جمعه بمعنى حفظه في الصدور واستظهاره.

الثاني: جمعه بمعنى كتابته وتدوينه كله حروفًا وكلمات وآيات وسورًا.

الثالث: جمعه بمعنى تسجيله تسجيلًا صوتيًا.

ولكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة تاريخ وخصائص ومزايا، ولذا فسنتناول كلَّ نوع على حدة.

النوع الأول: جمعه بمعنى حفظه في الصدور واستظهاره:

١- الدليل:

ويشهد لهذا النوع قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾[1].

فالمراد بالجمع هنا الحفظ في الصدور، ويفسره حديث ابن عباس رضي الله عنهما، «كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، كان يحرك شفتيه.. فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ قال: جَمْعَهُ في صدرك ثم تَقْرَأْهُ. ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ قال: فاستمع وأنصت. ثم إنَّ علينا أن نقرأه، قال: فكان رسول الله ﷺ إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما أقرَأه»[2].

---

(١) سورة القيامة، الآيات:١٦-١٩.

(٢) رواه البخاري، جـ١، ص٤، ورواه مسلم، جـ١، ص٣٣٠-٣٣١.

٢- حكمه:

حفظ القرآن كلِّه واجب على الأمة، بحيث يحفظه عدد كثير يثبت به التواتر وإلا أثمت الأمة كلُّها، وليس هذا لكتاب غير القرآن، وأما الأفراد فيجب على كل فرد أن يحفظ من القرآن ما تقوم به صلاته.

٣- فضله:

لم يترك الرسول ﷺ أمرًا فيه حث على حفظ القرآن إلا وسلكه وأمر به، فكان يفاضل بين أصحابه بحفظ القرآن، ويعقد الراية لأكثرهم حفظًا للقرآن، وإذا بعث بعثًا جعل إمامهم في صلاتهم أكثرهم قراءة للقرآن، ويُقدِّمُ لِلَّحْدِ في القبر أكثرهم أخذًا للقرآن، ويزوج الرجل المرأة ويمهرها ما مع الرجل من القرآن، فضلًا عن الأحاديث الكثيرة الداعية لحفظ القرآن وتعلمه وتعليمه.

٤- حفظ الرسول ﷺ القرآن:

إدراكًا من الرسول ﷺ للأمانة الكبرى التي كُلِّف بها، وهي أن يبلغ الناسَ القرآن ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[1].

وإدراكًا منه عليه الصلاة والسلام أن تبليغ القرآن يجب أن يكون كما سمعه بلا زيادة ولا نقصان، ولا استبدال لحرف بحرف، أو حركة بحركة، لذا فقد كان عليه الصلاة والسلام يشعر بحرج شديد، وخوف عظيم أن ينسى شيئًا من القرآن، مما جعله يحرك لسانه بالقرآن لحظة نزول الوحي مع شدة وطأة الوحي، وما يعانيه من الجهد والكرب عند نزوله.

---

(١) سورة الأنعام، الآية:١٩.

وما زال ﷺ كذلك حتى نزل عليه قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾(١). وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾(٢)، فكان ﷺ بعد هذا إذا أتاه الوحي أطرق، فإذا ذهب جبريل وجد الرسول ﷺ القرآن مجموعًا في صدره كما وعده الله.

وقد حفظ الرسول ﷺ القرآن كلَّه، وحفظه أصحابه، وكان جبريل يعارضه إياه في كل عام مرة، في شهر رمضان، وعارضه إياه في العام الذي توفي فيه مرتين، كما في حديث عائشة ﵂، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي**»(٣). وكان ﷺ يقوم بالقرآن ويتلوه آناء الليل وأطراف النهار حتى كادت أن تتشقق قدماه.

٥ - حفظ الصحابة ﵃ للقرآن الكريم:

اشتد التنافس بين الصحابة ﵃ في حفظ القرآن الكريم وتلاوته وتدبره، وتسابقوا إلى مدارسته وتفسيره والعمل به، وكانوا لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، وكانوا يهجرون لذيذ المنام ودفء الفراش، ويؤثرون قيام الليل والتهجد بالقرآن، حتى كان يُسمَع لبيوتهم دَوِيٌّ كدوي النحل لتلاوتهم القرآن.

وكان رسول الله ﷺ يحثهم على ذلك، ويحرص على سماع تلاوتهم، فقد قال لأبي موسى الأشعري ﵁: «**لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة! لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود**»(٤).

(١) سورة القيامة، الآيات:١٦-١٩.

(٢) سورة طه، الآية:١١٤.

(٣) رواه البخاري، جـ٤، ص١٨٣.

(٤) رواه مسلم، جـ١، ص٥٤٦.

واستمع لتلاوة سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهما فقال له: «الحمد لله الذي جعل في أمتي مثلك»[١].

وقال لابن مسعود رضي الله عنه : «**اقرأ عليَّ القرآن**». فقال ابن مسعود: يا رسول الله! أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: «**إنِّي أحبُّ أن أسمعه من غيري**». فقرأ عليه سورة النساء حتى إذا بلغ قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾[٢] قال: «**حسبك الآن**». قال ابن مسعود: «فالتفت فإذا عيناه تذرفان»[٣].

وقال ﷺ: «**إنِّي لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أرَ منازلهم حين نزلوا بالنهار**»[٤].

والأخبار الكثيرة تشهد على عناية الصحابة رضي الله عنهم بالقرآن الكريم وتلاوته، وحفظه، وعلى حث الرسول عليه الصلاة والسلام لأصحابه على ذلك.

فلا عجب أن يكثر عدد حفاظ القرآن من الصحابة، إذ حَفِظَهُ في حياة الرسول ﷺ الجم الغفير من الصحابة رضي الله عنهم.

فمن المهاجرين الذين حفظوا القرآن كله أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، وسعد، وابن مسعود، وحذيفة، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبو هريرة، وعبدالله بن عمر، وابن عباس، وعمرو بن العاص، وابنه عبدالله، ومعاوية، وعبدالله بن الزبير، وعبدالله بن السائب، وعائشة، وحفصة، وأم سلمة[٥] رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) مسند الإمام أحمد، جـ٦، ص١٦٥.

(٢) سورة النساء، الآية:٤١.

(٣) رواه البخاري، جـ٦، ص١١٣.

(٤) رواه مسلم، جـ٤، ص١٩٤٤.

(٥) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٧٢.

ومن الأنصار عبادة بن الصامت، وأُبَيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وفَضَالة بن عُبَيْد، ومَسْلَمة بن مَخْلَد، وأبو الدرداء، وأنس بن مالك، وأبو زيد بن السَّكَن رضي الله عنهم أجمعين.

(إشكال):

روى البخاري في صحيحه ثلاثة أحاديث:

الأول: عن قتادة، قال: سألت أنس بن مالك رضي الله عنه: مَن جمع القرآن على عهد النبي ﷺ؟ قال: أربعة، كلهم من الأنصار: أُبَيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد[1].

الثاني: عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غيرُ أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت وأبو زيد، قال: ونحن ورثناه[2].

الثالث: عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خذوا القرآن من أربعة: من عبدالله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأُبي بن كعب**»[3].

وقد يستدل بهذه الأحاديث على أن الذين يحفظون القرآن هم: عبدالله بن مسعود، وسالم بن معقل مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأُبَيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو زيد بن السكن، وأبو الدرداء.

وهذا يخالف ما هو معلوم أن الذين يحفظون القرآن من الصحابة جمٌّ غفير وليس محصورًا بهذا العدد.

---

(١) رواه البخاري، جـ٦، ص١٠٢-١٠٣.

(٢) رواه البخاري، جـ٦، ص١٠٣.

(٣) رواه البخاري، جـ٦، ص١٠٢.

والجواب عن هذا الإشكال من وجوه:

الأول: أنه لا يراد بهذه الأحاديث الحصر، وإنما يراد به ضرب المثل، ويشهد لهذا أنَّ أنسًا نفسه ذكر في حديث «أُبي بن كعب» وفي حديثٍ آخر «أبا الدرداء»، فلو كان المراد الحصر لاتفقت الأسماء في الحديثين.

الثاني: أن المراد بالجمع الكتابة لا الحفظ.

الثالث: أن المراد بالجمع حفظه بوجوه القراءات كلها.

الرابع: أن المراد بالجمع تلقيه كله من فم الرسول ﷺ.

الخامس: أن المراد أنهم هم الذين عرضوه على النبي ﷺ واتصلت بنا أسانيدهم، وأما من حفظه ولم يتصل بنا سنده فكثير[١].

قال المازري ﵀: «وقد تمسك بقول أنس هذا جماعة من الملاحدة ولا متمسَّك لهم فيه، فإنا لا نسلم حملَه على ظاهره، سلمناه، ولكن من أين لهم أنَّ الواقع في نفس الأمر كذلك؟ سلمناه، لكن لا يلزم من كون كلٍّ من الجَمِّ الغفير لم يحفظه كلَّه أَلاَّ يكون حَفِظَ مجموعَه الجَمُّ الغفيرُ، وليس من شرط التواتر أن يحفظ كلُّ فردٍ جميعَه، بل إذا حفظ الكلُّ الكُلَّ ولو على التوزيع كفى»[٢].

---

(١) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، جـ١، ص٢٤٢.

(٢) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٧٢، وفتح الباري، جـ٩، ص٥٣، والمرشد الوجيز، ص٤٠ عن المعلم شرح صحيح مسلم للمازري (مخطوط).

٦- حفظ التابعين ومن بعدهم - رحمهم الله تعالى - للقرآن الكريم:

مر بنا أنَّ الصحابة ﭫ انتشروا في الآفاق الإسلامية والبلدان المفتوحة يعلمون الناس أمور دينهم، ويعقدون حِلَقَ التعليم والتدريس في مساجد تلك البلدان، وأقبل عليهم كثير من الناس يتحلقون حولهم، ويتلقون العلم منهم، وصار لبعض هذه المدارس شهرة كبيرة حملت كثيرًا من التابعين على الرحلة إليها، وتلقِّي العلم من أهلها، كمدرسة ابن مسعود ﭬ في الكوفة، ومدرسة أُبي بن كعب ﭬ في المدينة، ومدرسة ابن مسعود ﭭ في مكة وغيرها من مدارس الصحابة ﭫ.

وكان الصحابة يعلِّمونهم القرآن الكريم ويُحفِّظونهم إياه، ويفسرون لهم معانيه، ويبينون لهم أحكامه، وقد أقبل التابعون على هذه المدارس، فكثر حفاظ القرآن الكريم، ولم يقتصروا على تلاوته، بل حفظوا أوجه قراءته، واشتهر عدد كبير من الحفاظ بالقراءة والرواية.

وتجرد بعض التابعين رحمهم الله تعالى للعناية بضبط القراءات وإتقانها، ووضع القواعد لها والأصول حتى صاروا أئمة يُقتدىَ بهم.

٧- حفظ القرآن الكريم في العصر الحديث:

أما في العصور الحديثة فما زالت المسيرة - والحمد لله - مستمرة، يحفظ المسلمون القرآن في صدورهم مع تكالب الأحوال على المسلمين، واضطراب المعيشة، ومغريات الحضارة، وتوافر الموانع، وانحسار الدوافع، وما زلنا نرى كثرة حفاظ القرآن الكريم، ونجد إقبالًا لا يخطر ببال، ولا يَحْلُم بمثله أهل كتاب.

فقد انتشرت مدارس تحفيظ القرآن الكريم العديدة وأنشئت معاهد للقراءات وكليات القرآن في العديد من الدول الإسلامية، والحمد لله.

٨- خصائص جمع القرآن بمعنى حفظه في الصدور:

ولهذا النوع من الجمع مزايا وخصائص منها:

١- أنَّ جمع القرآن بمعنى حفظه هو أول علم نشأ من علوم القرآن الكريم، وذلك أنه حين نزل الوحي على الرسول ﷺ في غار حراء، وجرى ما جرى، تلا عليه الصلاة والسلام ما نزل عليه من القرآن على خديجة، وذلك من حفظه، فهو أول علم نشأ من علوم القرآن.

٢- أنه دائم لا ينقطع إن شاء الله تعالى، فقد حفظ الرسول ﷺ القرآن، وحفظه أصحابه والتابعون ومَن بعدهم، وما زال المسلمون يحفظونه إلى أن يأذن الله برفعه بخلاف جمعه بمعنى كتابته، فقد مَرَّ بثلاث مراحل، آخرُها في عهد عثمان رضي الله عنه .

٣- أن الحفظ في الصدور خاصٌّ بالقرآن، وليس هناك كتاب يحفظه أهله غير القرآن.

٤- أنه يجب على كل مسلم أن يحفظ من القرآن ما يؤدي به الصلوات، بخلاف جمعه بمعنى كتابته وتدوينه، فلا يجب على كل مسلم.

٥- الوعيد لمن حفظ شيئًا من القرآن ثم نسيه.

النوع الثاني: جمعه بمعنى كتابته وتدوينه:

جُمِعَ القرآن الكريم بهذا المعنى ثلاث مرات:

- الجمع الأول: في عهد الرسول ﷺ.
- الجمع الثاني: في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه .
- الجمع الثالث: في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه .

المراد بالجموع الثلاثة:

وقد يُشْكِل على الذهن كيف يُـجمع الشيء الواحد ثلاث مرات، فإذا كان جُمِعَ في عهد الرسول ﷺ فكيف يجمع في عهد أبي بكر ﷺ، وإذا جمع في عهد أبي بكر ثانية فكيف يُـجمع ثالثة.

والجواب: أنَّه لا يُراد بالجمع معناه الحقيقي في جميع المراحل. فالمراد بجمع القرآن في عهد الرسول ﷺ (كتابته وتدوينه)، والمراد بجمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه (جمعه في مصحف واحد)، والمراد بجمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه (نسخه) في مصاحف متعددة.

ويظهر بهذا أنَّ الجمع بمعناه الحقيقي كان في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وسنتحدث عن كل مرحلة من مراحل هذا الجمع:

أولًا: جمع القرآن بمعنى كتابته وتدوينه في عهد الرسول ﷺ:

كُتَّابُ الوحي:

اتخذ الرسول ﷺ عددًا من الصحابة وكان إذا نزل عليه شيء من القرآن أمر أحدهم بكتابته وتدوينه، ويعرف هؤلاء الصحابة بـ«كُتَّاب الوحي» ومنهم:

الخلفاء الأربعة، وزيد بن ثابت، وأُبي بن كعب، ومعاوية بن أبي سفيان، ويزيد بن أبي سفيان، وخالد بن سعيد بن العاص، وحنظلة بن الربيع، والزبير بن العوام، وعامر بن فهيرة، وعمرو بن العاص، وعبدالله بن الأرقم، والمغيرة بن شعبة، وعبدالله بن رواحة، وخالد بن الوليد، وثابت بن قيس وغيرهم(١).

---

(١) انظر جوامع السيرة لابن حزم، ص٢٦-٣٧، وزاد المعاد لابن القيم، جـ١، ص٢٩، وكُتَّابُ الوحي للدكتور: أحمد عبدالرحمن عيسى، وكُتَّابُ النبي ﷺ: للدكتور محمد مصطفى الأعظمي.

صفة هذا الجمع:

وصف هذا الجمع صحابيان جليلان، فقال زيد بن ثابت ﵁: «كنا عند رسول الله ﷺ نؤلِّف القرآن من الرِّقاع»[١]، أي: نجمعه لترتيب آياته من الرقاع.

وروى عثمان بن عفان ﵁: أن رسول الله ﷺ كان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من كان يكتبه فيقول: «**ضعوا هذه في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا**» الحديث[٢].

أدوات الكتابة:

لم تكن أدوات الكتابة ميسرة للصحابة في ذلك الوقت فكانوا يكتبونه على كل ما تناله أيديهم من العُسُب (وهي جريد النخل).

واللِّخَاف: (وهي الحجارة الرقيقة).

والرِّقاع: (وهي القطعة من الجلد أو الورق).

والكرانيف: (وهي أطراف العُسُب العريضة).

والأقْتَاب: (جمع قتَب وهي الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه).

والأكتاف: (جمع كتف وهي عظم عريض للإبل والغنم).

وكان كُتَّابُ الوحي ﵃ يضعون كُلَّ ما يكتبون في بيت رسول الله ﷺ، وينسخون لأنفسهم منه نسخة.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك، جـ٢، ص٢٢٩.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك، جـ٢، ص٢٢١.

مميزات جمع القرآن في عهد الرسول ﷺ:

١- كتب القرآن في عهد الرسول ﷺ على الأحرف السبعة، فقد ثبت في السنة نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف، ومما ورد في ذلك حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفيه: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه**»[(١)].

٢- أجمع العلماء على أنَّ جمع القرآن في عهد رسول الله ﷺ كان مرتب الآيات، أما ترتيب السور ففيه خلاف.

٣- بعض ما كتب في عهد الرسول ﷺ نُسِخت تلاوتهُ وظلَّ مكتوبًا حتى توفي رسول الله ﷺ. وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان فيما أنزل من القرآن: «عشر رضعات معلومات يُحرِّمْن» ثم نسخن «بخمس معلومات». فتوفي رسول الله ﷺ وهنَّ فيما يُقرأ من القرآن[(٢)].

٤- لم يكن القرآن الكريم في عهد رسول الله ﷺ مجموعًا في مصحف واحد، بل كان مفرقًا في الرقاع والأكتاف واللخاف وغيرها، ولهذا قال زيد بن ثابت رضي الله عنه: «قُبِضَ النبي ﷺ ولم يكن القرآن جمع في شيء»[(٣)]. وقال أيضًا لما أُمِر بجمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه: «فتتبعتُ القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخاف وصدور الرجال»[(٤)].

---

(١) رواه البخاري، جـ٦، ص١٠٠، ورواه مسلم، جـ١، ص٥٦٠.

(٢) رواه مسلم، جـ٢، ص١٠٧٥. قال النووي رحمه الله: «ومعناه أن النسخ بخمس رضعات تأخر إنزاله جدًا حتى إنه ﷺ توفي وبعض الناس يقرأ خمس رضعات، ويجعلها قرآنًا متلوًّا؛ لكونه لم يبلغه النسخ؛ لقرب عهده، فلما بلغهم النسخ بعد ذلك رجعوا عن ذلك، وأجمعوا على أن هذا لا يتلى» صحيح مسلم بشرح النووي جـ٥، ص٢٨٥.

(٣) فتح الباري، لابن حجر، جـ٩، ص٩، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، جـ١، ص٥٧.

(٤) صحيح البخاري، جـ٦، ص٩٨ باب جمع القرآن الكريم.

ولعلك تسأل بعد هذا: لماذا لم يُـجمَع القرآنُ في عهد الرسول ﷺ في مصحف واحد؟

وقد أجاب العلماء - رحمهم الله تعالى - على ذلك، وذكروا أسبابًا منها:

١ - أن الله تعالى قد أمَّنَ نبيَّه عليه الصلاة والسلام من النسيان بقوله ﷻ: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾[١]، أي: ما شاء أن يرفع حكمه بالنسخ، فلا خوف إذن أن يذهب شيء من القرآن الكريم، وأما بعد وفاته ﷺ فإن النسيان قد يقع، فبادر المسلمون إلى جمعه في مصحف واحد[٢].

٢- قال الخطابي: «إنَّما لم يَـجْمَعْ ﷺ القرآنَ في المصحف لِـمَا كان يترقَّبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته، فلما انقضى نزولُه بوفاته ألهَمَ الله الخلفاءَ الراشدين ذلك وفاءً بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة»[٣].

وقال الزركشي: «وإنما ترك جمعه في مصحف واحد؛ لأن النسخ كان يَرِدُ على بعضٍ، فلو جمعه ثم رُفِعَت تلاوةُ بعضٍ لأدَّى إلى الاختلاف واختلاط الدين، فحفظه الله في القلوب إلى انقضاء زمان النسخ، ثم وفق لجمعه الخلفاء الراشدين»[٤].

٣- أن القرآن الكريم لم ينزل جملة واحدة، بل نزل منجمًا في ثلاث وعشرين سنة.

٤ - أن ترتيب آيات القرآن وسوره ليس على حسب ترتيب نزوله، ولو جُـمِع القرآنُ في مصحف واحد حينذاك لكان عرضة للتغيير كلما نزل شيء من القرآن[٥].

---

(١) سورة الأعلى، الآيتان: ٦-٧.

(٢) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٣٨.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٥٧، وانظر شرح السنة: للبغوي، جـ٤، ص٥١٩.

(٤) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٣٥.

(٥) مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص٢٤١-٢٤٢.

ولم يكن الصحابة رضي الله تعالى عنهم إذا اختلفوا في شيء من القرآن يرجعون إلى ما هو مكتوب، بل كانوا يرجعون إلى الرسول ﷺ فيعرضون عليه قراءتهم ويسألونه عنها.

وبعد وفاة الرسول ﷺ ومقتل بعض القراء من الصحابة دعت الحاجة إلى جمع القرآن في مصحف واحد، فكان ذلك في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ثانيًا: جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

سببه:

بعد وفاة الرسول ﷺ ارتدت بعض قبائل العرب، فأرسل أبو بكر رضي الله عنه خليفةُ رسول الله ﷺ الجيوشَ لقتال المرتدين، وكان قوام هذه الجيوش هم الصحابة رضوان الله عليهم وفيهم حُفَّاظ القرآن، وكانت حروب الردة شديدة، قُتِل فيها عدد من القراء الذين يحفظون القرآن الكريم، فخشي بعض الصحابة أن يذهب شيء من القرآن بذهاب حفظته[1]، فأراد أن يجمع القرآنَ في مصحف واحد بمحضر من الصحابة.

وقصة ذلك رواها البخاري في «صحيحه» عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال: أرسل إليَّ أبو بكر - مَقتلَ أهل اليمامة - فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه: إنَّ عمر أتاني فقال: إنَّ القتل قد استحر[2] يوم اليمامة بقرّاء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن، فيذهبَ كثير من القرآن، وإنِّي أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف تفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هذا والله خير. فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ،

---

(١) شرح السنة: البغوي، جـ٤، ص٥٢١.

(٢) يعني: اشتد وكثر.

فتتبع القرآنَ فاجمعْه، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خير. فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فتتبعت القرآنَ أجمعه من العُسُب واللِّخاف وصدور الرجال، حتى وجدت آخرَ سورة التوبة مع أبي خُزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾[1] حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمرَ حياتَه، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنه »[2].

تاريخ هذا الجمع:

هو كما جاء في الحديث بعد معركة اليمامة، وفي السنة الثانية عشرة من الهجرة.

أسباب اختيار زيد بن ثابت رضي الله عنه لهذا الجمع:

ترجع أسباب اختيار ز يد بن ثابت لأمور منها:

١- أنَّه كان من حُفَّاظ القرآن الكريم.

٢- أنَّه شهد العَرْضة الأخيرة للقرآن الكريم، وقد روى البَغَويُّ عن أبي عبدالرحمن السُّلَمِي أنَّه قال: قرأ زيد بن ثابت على رسول الله ﷺ في العام الذي توفاه الله فيه مرتين، إلى أن قال عن زيد بن ثابت: إنه «شهد العرضة الأخيرة، وكان يُقرئ الناس بها حتى مات، ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر في جمعه، وولَّاه عثمان كَتْبَةَ المصاحف رضي الله عنهم أجمعين»[3].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

(٢) صحيح البخاري، جـ٦، ص٩٨-٩٩.

(٣) شرح السنة: البغوي، جـ٤، ص٥٢٥-٥٢٦، والبرهان للزركشي، جـ١، ص٢٣٧، والإتقان للسيوطي، جـ١، ص٥٠.

٣- أنَّه من كُتَّاب الوحي للرسول ﷺ.

٤- خصوبة عقله، وشدة ورعه، وكمال خلقه، واستقامة دينه، وعظم أمانته، ويشهد لذلك قول أبي بكر رضي الله عنه له: «إنك رجل شاب، عاقل، لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ»، وقوله نفسه رضي الله عنه: «فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن».

منهج زيد في هذا الجمع:

من المعلوم أنَّ زيد بن ثابت رضي الله عنه كان يحفظ القرآن كلَّه في صدره، وكان القرآن مكتوبًا عنده، ومع هذا فلم يعتمد على ما حفظه، ولا على ما كتب بيده، وذلك أنَّ عملَه ليس جمعَ القرآن فحسب، وإنَّما التوثيق والتثبت فيما يكتب، ولهذا يقول الزركشي رحمه الله عن زيد: «وتتبعه للرجال كان للاستظهار لا لاستحداث العلم»[١]. وقال ابن حجر رحمه الله: «وفائدة التتبع المبالغة في الاستظهار، والوقوف عند ما كُتِب بين يدي النبي ﷺ»[٢]. ويظهر لي أن من حِكَمِ ذلك أن زيد بن ثابت لا يكتب القرآن هنا لنفسه، وإنما يكتبه للأمة، وما دام كذلك فلا بد أن يكتبه بمشهد من الأمة وحضورها، بل ومن صدورها مما تلقته عن نبيها عليه الصلاة والسلام. وثبت في العرضة الأخيرة للقرآن على الرسول ﷺ. والله أعلم.

وقد رسم أبو بكر رضي الله عنه لزيد المنهج لهذا الجمع فقال له ولعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «اقعدا

(١) البرهان، الزركشي، جـ١، ص٢٣٤.

(٢) فتح الباري، ابن حجر، جـ٩، ص١٥.

على باب المسجد، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه»[(١)(٢)].

وقد امتثلا ذلك فقد قام عمر في الناس فقال: «من كان تلَقَّى من رسول الله ﷺ شيئًا من القرآن فليأتنا به»[(٣)].

وقد بيَّن زيدٌ نفسه المنهج الذي سلكه بقوله رضي الله عنه: «فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال»[(٤)].

وعلى هذا فإنَّ منهج زيد في جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه يقوم على أسس أربعة:

الأول: ما كُتِبَ بين يدي رسول الله ﷺ وأنه مما ثبت في العرضة الأخيرة.

الثاني: ما كان محفوظًا في صدور الرجال.

الثالث: أن لا يقبل شيئًا من المكتوب حتى يشهد شاهدان على أنه كُتب بين يدي الرسول ﷺ، قال السخاوي معناه: «من جاءكم بشاهدين على شيء من كتاب الله الذي كتب بين يدي رسول الله ﷺ»[(٥)].

---

(١) المصاحف، ابن أبي داود، ص١٢، وجمال القراء، جـ١، ص٨٦.

(٢) قال ابن حجر: «ورجاله ثقات مع انقطاعه» فتح الباري، جـ٩، ص١٤.

(٣) المصاحف: ابن أبي داود، ص١٧.

(٤) صحيح البخاري، جـ٦، ص٩٨-٩٩.

(٥) جمال القراء: السخاوي، جـ١، ص٨٦.

وقال ابن حجر العسقلاني رحمه الله: «وكان غرضهم أن لا يكتب إلا من عين ما كتب بين يدي النبي ﷺ لا من مجرد الحفظ»[١]. وكذا مما ثبت في العرضة الأخيرة.

الرابع: أن لا يقبل من صدور الرجال إلا ما تلقَّوْه من فم الرسول ﷺ، فإن عمر رضي الله عنه ينادي: «من كان تلَقَّى من رسول الله ﷺ شيئًا من القرآن فليأتنا به»، ولم يقل من حفظ شيئًا من القرآن فليأتنا به.

مميزات جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه :

١-جمع القرآن الكريم في هذا العهد على أدقِّ وجوه البحث والتحرِّي والإتقان، وظفر هذا الجمع بإجماع الأمة عليه وتواتر ما فيه.

٢- أُهْمِلَ في هذا الجمع ما نُسِخت تلاوته من الآيات.

٣- أن هذا الجمع كان على ما ثبت في العرضة الأخيرة من الأحرف السبعة.

٤- أنَّ هذا الجمع كان مرتب الآيات باتفاق، واختلف العلماء في السور، هل كانت مرتبة في هذا الجمع أم أن ترتيبها كان في عهد عثمان رضي الله عنه ؟

٥- اتفق العلماء على أنه كُتِبَ نسخة واحدة من القرآن في هذا الجمع حفظها أبو بكر؛ لأنه إمام المسلمين.

٦- أن أبا بكر رضي الله عنه لم يلزم الناس باتباع المصحف الذي كتبه، ولم يكن هذا من مقاصده لما أمر بكتابة المصحف، لذا بقي الصحابة يُقرِئون بما سمعوه من الرسول ﷺ، وكان في ذلك بعض المنسوخ في العرضة الأخيرة.

---

(١) فتح الباري: ابن حجر، جـ٩، ص١٥، وانظر المرشد الوجيز: لأبي شامة، ص٥٧.

مكانة هذا الجمع:

ظفر هذا الجمع باتفاق الصحابة رضي الله عنهم على صحته ودقته، وأجمعوا على سلامته من الزيادة أو النقصان، وتَلَقَّوه بالقبول والعناية التي يستحقها، حتى قال عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «أعظم الناس أجرًا في المصاحف أبو بكر، فإنه أول مَن جمع ما بين اللوحين»[(١)].

ومع هذا التصريح من علي رضي الله عنه فقد زعم قوم أن أول من جمع القرآن هو علي - كرم الله وجهه - لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم تخلف لجمعه. فبعض طرقه ضعيفة، وبعضها موضوع، وما صح فمحمول كما قيل على الجمع في الصدر، وقيل: كان جمعًا بصورة أخرى لغرض آخر، ويؤيده أنه قد كتب فيه الناسخ والمنسوخ فهو ككتاب علم[(٢)].

ولهذا روي أن أول من جمعه عمر رضي الله عنه، كما روي أن أول من جمعه سالم مولى أبي حذيفة، أقسمَ أن لا يرتدي برداء حتى يجمعه، وكل ذلك محمول على ما حمل عليه جمع علي رضي الله عنه، بل ذكر ابن حجر وغيره أن جمع علي رضي الله عنه كان حسب ترتيب النزول. وذكر النهاوندي - أحد مفسري الشيعة - «أن الكتاب الذي جمعه أمير المؤمنين عليه السلام كان فيه بيان شأن نزول الآيات، وأسماء الذين نزلت فيهم، وأوقات نزولها، وتأويل متشابهاتها، وتعيين ناسخها ومنسوخها، وذكر عامها وخاصها، وبيان العلوم المرتبطة بها، وكيفية قراءتها»[(٣)].

---

(١) المصاحف: أبو داود السجستاني، ص١١.

(٢) روح المعاني: الألوسي، جـ١، ص٢٢.

(٣) نفحات الرحمن، جـ١، ص٨-١٢. عن كتاب «علوم القرآن عند المفسرين». إصدار مركز الثقافة والمعارف القرآنية في إيران، جـ١، ص٣٦٧.

وإن صح هذا - مع استحالته - فليس هو بجمع للقرآن، وإنما هو كتاب في علوم القرآن. وإنما قلت: مع استحالته، فلأن جمعه حسب ترتيب النزول غير ممكن، فقد سأل محمد بن سيرين عكرمة مولى ابن عباس فقال: «قلت لعكرمة: ألفوه كما أنزل الأول فالأول؟ قال: لو اجتمع الإنس والجن على أن يؤلفوه هذا التأليف ما استطاعوا»(١).

تسميته بالمصحف:

لم يكن (المصحف) يُطلق على القرآن قَبْلَ جمع أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وإنَّما عُرِفَ هذا الاسم بعد أن أتمَّ زيد جمع القرآن، فقد روى السيوطي عن ابن أشته في كتابه «المصاحف» أنَّه قال: «لما جمعوا القرآن فكتبوه في الوَرَق قال أبو بكر: التمسوا له اسمًا فقال بعضهم: السِّفْر، وقال بعضهم: المصحف، فإنَّ الحبشة يسمونه المصحف. وكان أبو بكر أول من جمع كتاب الله وسماه المصحف»(٢).

خبر هذا المصحف:

بعد أن أتمَّ زيد جمع القرآن في المصحف سَلَّمَه لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، فحفظه عنده حتى وفاته، ثم انتقل إلى أمير المؤمنين من بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبعد وفاته انتقل المصحف إلى حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها؛ لأن عمر رضي الله عنه جعل أمْرَ الخلافة من بعده شورى، فبقي عند حفصة إلى أن طَلَبه منها عثمان رضي الله عنه لنسخه بعد ذلك، ثم أعاده إليها - لما سيأتي - ولما توفِّيت حفصة رضي الله عنها أرسل مروان بن الحكم إلى أخيها عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ساعة رجعوا من جنازة حفصة بعزيمة ليُرْسِلَنَّ بها، فأرسل بها ابنُ عمر إلى مروان

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٧٧.
(٢) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٥١.

فمزقها مخافة أن يكون في شيء من ذلك خلاف ما نسخ عثمان رضي الله عنه[١].

ثالثًا: جمع القرآن بمعنى نسخه في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه:

سببه:

عندما اتسعت الفتوحات الإسلامية انتشر الصحابة رضي الله عنهم في البلاد المفتوحة يعلمون أهلها القرآن وأمور الدين، وكان كلُّ صحابي يقرئ بما سمعه من الرسول ﷺ وفي بعضه ما لم يثبت في العرضة الأخيرة، وكان أهل الشام يقرؤون بقراءة أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه، فيأتون بما لم يَسمع أهلُ العراق، وإذا أهل العراق يقرؤون بقراءة عبدالله بن مسعود، فيأتون بما لم يسمع أهلُ الشام، فيُكَفِّر بعضهم بعضًا[٢].

وعندما اتجه جيش المسلمين لفتح «أرمينية» و«أذربيجان» كان الجنود من أهل العراق وأهل الشام، فكان الشِّقاق والنزاع يقع بينهم، ورأى حذيفة بن اليمان رضي الله عنه اختلافهم في القراءة، وبعض ذلك مشوب باللحن، مع إلف كل منهم لقراءته، واعتياده عليها، واعتقاده أنها الصواب، وما عداها تحريف وضلال، حتى كَفَّرَ بعضهم بعضًا، فأفزع هذا حذيفة رضي الله عنه فقال: والله لأركبَنَّ إلى أمير المؤمنين - يعني عثمان بن عفان رضي الله عنه - وكان عثمان قد رأى نحو هذا في المدينة، فقد كان المُعَلِّم يُعَلِّم بقراءة، والمعلم الآخر يُعَلِّم بقراءة، فجعل الصبيان يلتقون فينكر بعضُهم قراءة الآخر، فبلغ ذلك عثمان رضي الله عنه، فقام خطيبًا وقال: «أنتم عندي تختلفون فيه فتَلْحَنُون، فمن نأى عني من الأمصار أشدّ فيه اختلافًا، وأشدّ لحنًا، اجتمعوا يا أصحاب محمد، واكتبوا للناس إمامًا»[٣].

---

(١) المرشد الوجيز: أبو شامة المقدسي، ص٥٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، جـ٩، ص١٨.

(٣) المصاحف: ابن أبي داود، ص٢٩.

فلمَّا جاء حذيفة إلى عثمان رضي الله عنهما وأخبره بما جرى، تحقَّق عند عثمان ما توقعه، وقد روى البخاري في «صحيحه» قصة ذلك الجمع في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «إنَّ حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يُغازي أهل الشام في فتح (أرمينية) و(أذربيجان) مع أهل العراق، فأفزع حذيفةَ اختلافُهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين! أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان»[١].

تاريخ هذا الجمع:

كان ذلك في أواخر سنة (٢٤هـ) وأوائل سنة (٢٥ هـ) كما قال ابن حجر العسقلاني رحمه الله[٢].

فكرة الجمع:

لما سَمِع عثمان رضي الله عنه ما سمع، وأخبره حذيفة رضي الله عنه بما رأى، استشار الصحابة فيما يفعل، فقد روى ابن أبي داود بإسناد صحيح - كما يقول ابن حجر[٣] - من طريق سويد بن غفلة قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «يا أيها الناس! لا تغلُوا في عثمان، ولا تقولوا له إلا خيرا في المصاحف.. فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منَّا جميعًا، قال: ما تقولون في هذه القراءة؟ فقد بلغني أنَّ بعضهم يقول: إن قراءتي خير من قراءتك، وهكذا يكاد أن يكون كفرًا. قلنا: فما ترى؟ قال: نرى أن نجمع الناسَ على مصحف واحد، فلا تكون فرقة ولا يكون اختلاف. قلنا: فنعم ما رأيت. قال علي: والله لو وُلِّيت لفعلت مثل الذي فعل[٤].

---

(١) صحيح البخاري، جـ٦، ص٩٩.

(٢) فتح الباري، ابن حجر، جـ٩، ص١٧.

(٣) فتح الباري: ابن حجر، جـ٩، ص١٨.

(٤) المصاحف: ابن أبي داود، ص٣٠.

اللجنة المختارة:

اختار عثمان رضي الله عنه أربعة لنسخ المصاحف هم:

زيد بن ثابت، وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام[١]، وهؤلاء الثلاثة من قريش.

فقد سأل عثمان رضي الله عنه الصحابة: مَن أكتب الناس؟ قالوا: كاتب رسول الله ﷺ زيد بن ثابت. قال: فأي الناس أعرب؟ وفي رواية: أفصح؟ قالوا: سعيد بن العاص، قال عثمان: فليُملِ سعيد، وليكتب زيد»[٢].

المنهج في هذا الجمع:

بعد أن اتفق عثمان مع الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين - على جمع القرآن على حرف، سلك منهجًا فريدًا، وطريقًا سليمًا، أجمع الأمة على سلامته ودقته.

١- فبدأ عثمان رضي الله عنه بأن خطب في الناس فقال: «أيها الناس! عهدكم بنبيكم منذ ثلاث عشرة وأنتم تمترون في القرآن وتقولون: «قراءة أُبيّ» و«قراءة عبدالله»، يقول الرجل: «والله ما تقيم قراءتك!! فأعزمُ على كل رجل منكم ما كان معه من كتاب الله شيء لَمَّا جاء به، وكان الرجل يجيء بالورقة والأديم فيه القرآنُ، حتى جمع من ذلك كثرة، ثم دخل عثمان فدعاهم رجلًا رجلًا فناشدهم، لسمعت رسول الله ﷺ وهو أملاه عليك؟ فيقول: نعم»[٣].

---

(١) الإبانة: مكي بن أبي طالب، ص٦.

(٢) فتح الباري: ابن حجر، جـ٩، ص١٩.

(٣) المصاحف ابن أبي داود، ص٣١، وانظر جمال القراء، جـ١، ص٨٩.

٢- وأرسل عثمان رضي الله عنه إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنها أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نعيدها إليك، فأرسلت بها إليه. ومن المعلوم أن هذه الصحف هي التي جُمِعَت في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه على أدق وجوه البحث والتحري.

٣- ثم دفع ذلك إلى زيد بن ثابت والقرشيين الثلاثة، وأمرهم بنسخ مصاحف منها، وقال عثمان للقرشيين: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم»[١].

٤- إذا تواتر في آية أكثر من قراءة تكتب الآية خالية من أيَّة علامة تَقصِرُ النطقَ بها على قراءة واحدة، فتكتب برسم واحد يحتملُ القراءتين أو القراءات فيها جميعًا مثل:

أ- ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[٢] التي قرئت أيضًا **(فتثبتوا)**[٣].

ب- ﴿نُنشِزُهَا﴾[٤] قرئت أيضًا (ننشرها)[٥].

أما إذا لم يمكن رسمها بحيث تحتمل القراءات فيها فتكتب في بعض المصاحف برسم يدل على قراءة، وفي مصاحف أخرى برسم يدل على القراءة الأخرى مثل:

أ- ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ﴾[٦] هكذا كُتبت في بعض المصاحف وفي بعضها: **(وأوصى)**[٧].

---

(١) صحيح البخاري، جـ٦، ص٩٩.

(٢) سورة الحجرات، الآية:٦.

(٣) وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف (النشر في القراءات العشر، ابن الجوزي، جـ٢، ص٢٥١).

(٤) سورة البقرة، الآية:٢٥٩.

(٥) الأولى قراءة ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بالزاي، والباقون بالراء المهملة (إتحاف فضلاء البشر: البناء، ص١٦٢).

(٦) سورة البقرة، الآية:١٣٢.

(٧) وهي قراءة نافع وابن عامر (إتحاف فضلاء البشر، ص١٤٨).

ب- ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾[(١)] بواو قبل السين في بعض المصاحف، وفي بعضها بحذف الواو[(٢)].

وبعد الفراغ من نسخ المصاحف بعث عثمان بنسخ منها إلى الأمصار الإسلامية، حيث نشط المسلمون في نسخ مصاحف منها للأفراد، وكان زُبَيْد بن الحارث في المدينة يتفرغ في رمضان من كلِّ سنة لعرض المصاحف، فيعرضون مصاحفهم عليه وبين يديه مصحف أهل المدينة[(٣)].

مزايا جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه:

تميَّز هذا الجمع بمزايا عديدة منها:

١- كتب القرآن على حرف واحد من الأحرف السبعة هو حرف قريش، وقد كتب مجردًا حتى يحتمل أحرفًا أخرى[(٤)]، فإن لم يحتمل إلا حرفًا واحدًا كتب بلسان قريش. قال ابن القيم رحمه الله: «جمع عثمان رضي الله عنه الناس على حرف واحد من الأحرف السبعة التي أطلق لهم رسول الله ﷺ القراءة بها لَمَّا كان ذلك مصلحة»[(٥)].

٢- إهمال ما نسخت تلاوته.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

(٢) هي قراءة نافع وابن عامر (إتحاف فضلاء البشر، ص١٧٩).

(٣) المصاحف: ابن أبي داود، ص١٧٥. وقال المحقق: «في الأصل ربيد، ولعل الصواب زيد» يعني زيد بن ثابت، وهو خطأ، والصواب ما أثبته وهو زبيد بن الحارث بن عبدالكريم اليامي. انظر: تهذيب الكمال ١١/ ١٥٧، و٩/ ٢٩١.

(٤) انظر ما كتبناه عن القول الراجح فيما بقي من الأحرف السبعة ص٣٩٦-٣٩٧.

(٥) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ابن القيم، ص١٦.

فقد كان قصد عثمان ﷺ جمع الناس على مصحف لا تقديم فيه ولا تأخير، ولا تأويل أُثْبِتَ مع تنزيل، ولا منسوخ تلاوته كُتِبَ مع مُثْبَتٍ رسمه، ومفروض قراءته وحفظه، خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتي بعد[١].

٣- الاقتصار على ما ثبت في العرضة الأخيرة وإهمال ما عداه.

فقد روى ابن أبي داود في «المصاحف» عن محمد بن سيرين، عن كثير بن أفلح، قال: لَمَّا أراد عثمان أن يكتب المصاحف جمع له اثنى عشر رجلًا من قريش والأنصار، فيهم أُبَيٌّ بن كعب، وزيد بن ثابت، قال: فبعثوا إلى الرَّبْعة التي في بيت عمر فجيء بها، قال: وكان عثمان يتعاهدهم، فكانوا إذا تدارؤوا في شيء أخَّروه. قال محمد: فقلت لكثير - وكان فيهم فيمن يكتب -: هل تدرون لم كانوا يؤخِّرونه؟ قال: لا. قال محمد: فظننتُ ظنًّا أنها كانوا يؤخِّرونها لينظروا أحدثهم عهدًا بالعرضة الأخيرة، فيكتبونها على قوله[٢].

٤- الاقتصار على القراءات الثابتة المعروفة عن الرسول ﷺ وإلغاء ما لم يثبت[٣].

وقد كان الهدف من جمع القرآن الكريم في عهد عثمان ﷺ تجريده مما لم يثبت من القراءات في العرضة الأخيرة للقرآن على الرسول ﷺ، وقد كان بعض الصحابة يقرأ بقراءة كان قد سمعها من الرسول ﷺ ولم تثبت في العرضة الأخيرة[٤].

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦٠.

(٢) المصاحف: ابن أبي داود، ص٣٣.

(٣) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٣٥.

(٤) يحسن النظر إلى ما كتبناه عن الأحرف السبعة والراجح فيما بقي منها ص٣٧٨-٣٧٩.

٥- كان مرتب الآيات والسور على الوجه المعروف الآن.

قال الحاكم في «المستدرك»: «إن جمع القرآن لم يكن مرة واحدة، فقد جُمِعَ بعضه بحضرة الرسول ﷺ، ثم جمع بعضه بحضرة أبي بكر الصديق، والجمع الثالث هو في ترتيب السور وكان في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنهم أجمعين»[(١)].

الفروق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان رضي الله عنهما:

كان معنى (الجمع) ظاهرًا في جمع القرآن في عهد أبي بكر، فقد كان القرآن مفرقًا فأمر بجمعه، كما قال المحاسبي: «كان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله ﷺ فيها القرآن منتشر، فجمعها جامع، وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء»[(٢)].

إذًا فمعنى الجمع فيه ظاهر لا يحتاج إلى تفريق بينه وبين الجمع في عهد الرسول ﷺ، لكن الإشكال واللبس هو في الجمعين الثاني والثالث، إذ كيف يأمر عثمان بجمع القرآن وهو مجموع في عهد أبي بكر رضي الله عنهما؟! ولذا فإنَّ العلماء يُوْلُون التفريق بين جمع القرآن في عهد أبي بكر وجمعه في عهد عثمان عنايتهم لإزالة هذا اللبس، ويذكرون فروقًا.

قال القاضي أبو بكر في «الانتصار»: «لم يقصد عثمان قصد أبي بكر في جمع القرآن بين لوحين، وإنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي ﷺ وإلغاء ما ليس كذلك»[(٣)].

وقال ابن التين وغيره: «الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان أنَّ جمع أبي بكر كان لخشية أن يذهب من القرآن شيء بذهاب حملته؛ لأنه لم يكن مجموعًا في موضع واحد، فجمعه في صحائف مرَتَّبًا لآيات سُوَرِه على ما وقَّفَهم عليه النبي ﷺ، وجمع عثمان كان لَمَّا كَثُر الاختلاف

---

(١) المستدرك: الحاكم، جـ٢، ص٢٢٩.

(٢) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٣٨.

(٣) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٣٥.

في وجوه القراءة حتى قرؤوه بلغاتهم على اتساع اللغات، فأدَّى ذلك ببعضهم إلى تخطئة بعض، فخشي من تفاقم الأمر في ذلك، فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مُرتِّبًا لسوره، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش محتجًا بأنه نزل بلغتهم»[١].

ونستطيع أن نستخلص أهم الفروق وهي:

١- أنَّ الباعث لجمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه خشية أن يذهب شيء من القرآن بذهاب حفظته، وذلك حين استحرَّ القتل بالقراء في حروب الرِّدَّة، أمَّا جمعه في عهد عثمان رضي الله عنه فلكثرة الاختلاف في وجوه القراء.

٢- أنَّ جمع أبي بكر رضي الله عنه يشمل ما بقي من الأحرف السبعة في العرضة الأخيرة، أما جمعه في عهد عثمان فقد كان على حرف واحد هو حرف قريش مع تجريده حتى يحتمل أحرفًا أخرى.

٣- أن أبا بكر رضي الله عنه لم يلزم الناس اتباع المصحف الذي كتبه، أما عثمان رضي الله عنه فألزمهم باتباعه بمشورة الصحابة وإجماعهم، لذا منعت القراءة بما نسخ من الأحرف السبعة ولم يثبت في العرضة الأخيرة، وظهر بذلك ما يُعرف بالقراءة الشاذة، ولو صَحَّ سندها، وثبت قراءة النبي صلى الله عليه وسلم بها، وبهذا يظهر أن ضابط القراءة الشاذة التي صح سندها ولم يقرأ بها الأئمة كونها نسخت في العرضة الأخيرة[٢].

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٥٩-٦٠.

(٢) انظر في هذا ما كتبه د. مساعد الطيار في ملتقى أهل التفسير في الإنترنت عن الأحرف السبعة ص٧ من١٧، وانظر مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ١٣، ص٣٩٣-٣٩٤.

٤- أنَّ جمع أبي بكر رضي الله عنه كان مرتب الآيات، وفي ترتيب السور خلاف، أمَّا جمع عثمان فقد كان مرتب الآيات والسور باتفاق.

٥- أنَّ الجمع في عهد أبي بكر رضي الله عنه بمعنى الجمع في مصحف واحد، وأما الجمع في عهد عثمان رضي الله عنه فبمعنى نسخه في مصاحف متعددة.

إنفاذ المصاحف:

بعد أن أتمَّت اللجنة نسخ المصاحف أنفذ عثمان إلى آفاق الإسلام بنسخ منها، وأرسل مع كل مصحف مَن يوافق قراءته، فأمر زيد بن ثابت أن يقرئ بالمدني، وبعث عبدالله بن السائب مع المكي، والمغيرة بن أبي شهاب[(١)] مع الشامي، وأبا عبدالرحمن السُّلَمي مع الكوفي، وعامر بن عبدالقيس مع البصري، وتلقى التابعون في كل قطر قراءة إمامهم، وتفرغ قوم منهم لضبط القراءات حتى صاروا أئمة يُرحل إليهم[(٢)].

موقف الصحابة من هذا الجمع:

وبعد أن أنفذ عثمان المصاحف أمر بما سوى مصحفه أن يُـحرق، وبعث «إلى أهل الأمصار أني قد صنعت كذا وكذا، ومحوت ما عندي فامحوا ما عندكم»[(٣)].

وقد رضي الصحابة رضي الله عنهم ما صنع عثمان، وأجمعوا على سلامته وصحته. وقال زيد بن ثابت: «فرأيت أصحاب محمد يقولون: أحسن والله عثمان، أحسن والله عثمان»[(٤)].

---

(١) انظر غاية النهاية: جـ٢، ص٣٠٥ حيث قال: «الصواب ابن أبي شهاب»، وهو عند بعضهم المغيرة بن شهاب.

(٢) مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص٣٩٦-٣٩٧.

(٣) فتح الباري: ابن حجر، جـ٩، ص٢١.

(٤) غريب القرآن: النيسابوري، جـ١، ص٢٧.

وروى ابن أبي داود عن مصعب بن سعد قال: «أدركت الناس متوافرين حين حرَّق عثمان المصاحف فأعجبهم ذلك، وقال: لم يُنكر ذلك منهم أحد»[(١)].

وروى سويد بن غفلة قال: قال علي رضي الله عنه: «لا تقولوا في عثمان إلا خيرًا، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا»[(٢)]. وعند ابن أبي داود قال: قال علي في المصاحف: «لو لم يصنعه عثمان لصنعته»[(٣)].

ولم يُنقل عن أحد من الصحابة خلاف أو معارضة لما فعل عثمان رضي الله عنه، إلا ما روي من معارضة عبدالله بن مسعود، وينبغي أن نعلم أنَّ معارضته رضي الله عنه لم تكن بسبب حصول تقصير في الجمع، أو نقص أو زيادة، وإنما جاءت معارضته لعدم تعيينه مع أعضاء لجنة النسخ للمصاحف، ولهذا قال: «أُعْزَلُ عن نسخِ المصاحف وتَوَلاَّها رجل، والله لقد أسلمت وإنَّه لفي صُلب رجلٍ كافرٍ»[(٤)].

وروى الترمذي عن ابن شهاب قال: «فبلغني أن ذلك كَرِهَه مِن مقالة ابن مسعود رجالٌ مِن أفاضل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم»[(٥)].

وقد دافع أبو بكر الأنباري عن اختيار زيد بقوله: «ولم يكن الاختيار لزيد.. إلا أن زيدًا كان أحفظ للقرآن من عبدالله، إذ وعاه كله ورسول الله صلى الله عليه وسلم حيٌّ، ولا ينبغي أن يظنَّ جاهل أنَّ في هذا طعنًا على عبدالله بن مسعود؛ لأن زيدًا إذا كان أحفظ للقرآن منه

---

(١) المصاحف: ابن أبي داود، ص١٩.

(٢) فتح الباري، ابن حجر، جـ٩، ص١٨.

(٣) المصاحف: ابن أبي داود، ص١٩.

(٤) المرجع السابق، ص٢٤-٢٥، وتفسير القرطبي، جـ١، ص٥٢-٥٣.

(٥) جامع الترمذي، جـ٥، ص٢٨٥.

فليس ذلك موجبًا لتقدمته عليه؛ لأن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كان زيد أحفظ منهما للقرآن، وليس هو خيرًا منهما، ولا مساويًا لهما في الفضائل والمناقب، وما بدا عن عبدالله بن مسعود من نكير فشيء نَتَجَه الغضبُ، ولا يعمل به ولا يؤخذ به، ولا يُشك في أنه رضي الله عنه قد عرف بعد زوال الغضب عنه حُسْنَ اختيار عثمان ومن معه من أصحاب رسول الله ﷺ، وبقي على موافقتهم وترك الخلاف لهم»(١).

وأكَّد ذلك الذهبي فقال: «وقد ورد أنَّ ابن مسعود رضي وتابع عثمان ولله الحمد»(٢). وقال ابن كثير: «وإنما روي عن عبدالله بن مسعود شيء من الغضب بسبب أنه لم يكن ممن كتب المصاحف. إلى أن قال.. ثم رجع ابن مسعود إلى الوفاق»(٣).

فإن قيل: كيف جاز للصحابة ترك ما لا يحتمله الرسم من الأحرف التي أمر الرسول ﷺ بقراءة القرآن بها؟

قيل: إنَّ أمره إياهم بالأحرف السبعة لم يكن أمر إيجاب وفرض، وإنما كان أمر إباحة ورخصة.. وإذا كان ذلك كذلك لم يكن القوم بتركهم بقية الأحرف تاركين ما عليهم نقله، بل كان الواجب عليهم من الفعل ما يؤدون به الواجب، وهو أحد هذه الأحرف، فإذا حفظوه ونقلوه فقد فعلوا ما كلفوا به(٤).

---

(١) تفسير القرطبي، جـ١، ص٥٣.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي، جـ١، ص٤٨٨.

(٣) فضائل القرآن: ابن كثير، ص٢٠.

(٤) انظر تفسير ابن جرير الطبري، جـ١، ص٦٤، وما بعدها.

وقد علَّل ابن القيم ﵀ جمع الناس على حرف واحد، وهو أيضًا تعليل حسن للاقتصار على ما يحتمله الرسم منها حيث قال: «فلما خاف الصحابة ﵃ على الأمة أن يختلفوا في القرآن، ورأوا أن جمعهم على حرف واحد أسلم وأبعد من وقوع الاختلاف، فعلوا ذلك، ومنعوا الناس من القراءة بغيره، وهذا كما لو كان للناس عدَّة طرق إلى البيت، وكان سلوكهم في تلك الطرق يوقعهم في التفرُّق والتشتيت، ويطمع فيهم العدو، فرأى الإمامُ جمعهم على طريق واحد، فترك بقية الطرق جاز ذلك، ولم يكن فيه إبطال لكون تلك الطرق موصلة إلى المقصود، وإن كان فيه نهي عن سلوكه لمصلحة الأمة»(١).

* * *

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية: ابن القيم، ص١٦.

ترتيب سور القرآن الكريم وآياته

هذا مبحث مهم من المباحث الجليلة، أولاه العلماء اهتمامهم وعنايتهم، وزادت قيمته ومكانته حين ظهر الاتجاه الحديث في الدراسات القرآنية بتناول السور القرآنية مستقلة بناء على الوحدة الموضوعية، وأنَّ كلَّ سورةٍ ذاتُ هدفٍ مُعيَّنٍ وغرض أساس أُنزِلت لأجله، وأكَّدُوا على هذا المعنى باعتباره مدخلًا لفهم معانيها وكشف أسرارها وحِكَمِها، ثم بنوا على ذلك الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم وبيان المناسبات بين الآيات والسور.

وتقسيمُ القرآن إلى سور وآيات من خصائصه التي لا يشاركه فيها كتاب آخر. قال الجاحظ: «سمى الله كتابه اسمًا مخالفًا لما سمَّى العرب كلامهم على الجمل والتفصيل. سمى جُملته قرآنًا، كما سمَّوْا ديوانًا، وبعضه سورة كقصيدة، وبعضها آية كالبيت، وآخرها فاصلة كقافية»[١].

أولًا: سور القرآن الكريم:

السور: جمع سورة، وفي نطق (السورة) لغتان:

أولاهما: (السؤرة) بالهمزة مشتقة من (أسأر) أي: أبقَى. (والسُؤر): البقية التي تبقى من شرب الشارب في الإناء، وسُمِّيت سُؤرة كأن السؤرة بقية جملة القرآن وقطعة منه.

ثانيهما: (السورة) بدون همز، ومعناها في اللغة: المنزلة والشرف وما طال من البناء وحسن، والعلامة. وسُميت السورةُ سورة لارتفاعها وشرفها وكونها علامة على صدق من جاء بها، ودليلًا على أنَّ هذا القرآن من عند الله، وهي تشبه السُّوْرَ من وجهين:

الأول: أنَّ السُّور له عُلُّو حسِّيٌّ، والسورة لها علو معنوي.

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٥٠.

الثاني: أنَّ السور يقوم بناؤه على لَبِنَات بعضها فوق بعض، والسورة يقوم بناؤها على آيات يتبع بعضها بعضًا.

أمّا في الاصطلاح: فهي طائفة مستقلة من آيات القرآن ذات مطلع ومقطع.

طريق معرفة السورة:

معرفة سور القرآن الكريم من حيث بداية كل سورة ونهايتها توقيفي لا مجال للاجتهاد فيه.

عدد سور القرآن:

قال الزركشي ﵀: «اعلم أنَّ عدد سور القرآن العظيم باتفاق أهل الحلِّ والعقد مئة وأربع عشرة سورة كما هي في المصحف العثماني، أولها الفاتحة وآخرها الناس. وقال مجاهد: وثلاث عشرة بجعل الأنفال والتوبة سورة واحدة لاشتباه الطرفين وعدم البسملة. ويرُدُّه تسميةُ النبي ﷺ كلًّا منهما»[١].

أسماء السور:

تنقسم سور القرآن من حيث تعدد الاسم وعدمه إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما له اسم واحد: وهو أكثر سور القرآن، مثل: النساء، الأعراف، الأنعام، مريم، وغيرها.

الثاني: ما له أكثر من اسم: ويشمل هذا النوع سورًا لها اسمان كسورة (محمد) ﷺ حيث تسمى (القتال)، وسورة (الجاثية) تسمى (الشريعة)، وسورة (النحل) تسمى (النِّعم) لما عدد الله فيها من النِّعم على عباده[٢].

---

(١) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٥١.

(٢) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٦٩.

ويشمل سورًا لها ثلاثة أسماء مثل (المائدة) وتسمى (العقود) و(المنقذة)[١]، ومثل سورة غافر وتسمى (الطَّوْل) و(المؤمن)[٢].

ويشمل سورًا لها أكثر من ثلاثة أسماء مثل سورة التوبة، ومن أسمائها (براءة) و(الفاضحة) و(الحافرة). وقال حذيفة: هي سورة (العذاب). وقال ابن عمر: كنا ندعوها (المُشقْشِقَة). وقال الحارث بن يزيد: كانت تدعى (المُبَعْثِرة) ويقال لها: (المُسَوّرة) ويقال لها: (البَحُوث)[٣].

وكسورة الفاتحة فقد ذكر السيوطي لها خمسة وعشرين اسمًا منها (أمُّ الكتاب) و(أمُّ القرآن) و(السبع المثاني) و(الصلاة) و(الحمد) و(الوافية) و(الكنز) و(الشافية) و(الشفاء) و(الكافية) و(الأساس)[٤].

الثالث: أن تُسمَّى عدة سورٍ باسم واحدٍ: ومن ذلك تسمية البقرة وآل عمران بـ(الزهراوين)، وتسمية سورتي الفلق والناس بـ(المعوذتين)، وتسمية السور المبدوءة بـ(حم) بـ(الحواميم).

مصدر التسمية:

اختلف العلماء في مصدر أسماء سور القرآن الكريم:

١- قيل: إنها اجتهادية، واستبعد الزركشي ذلك[٥].

---

(١) روى أنها تنقذ صاحبها من أيدي ملائكة العذاب، تفسير القرطبي، جـ٦، ص٣٠.

(٢) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٥١.

(٣) المرجع السابق.

(٤) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٥٢-٥٣، وانظر البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٦٩-٢٧٠.

(٥) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٧٠.

٢- قيل: إنها توقيفية، وهو الراجح. قال السيوطي: «وقد ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار»[(١)].

أقسام السور

روى واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال: «**أعطيت مكان التوراة السبع، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصل**»[(٢)].

وعلى هذا فإن سور القرآن تنقسم إلى أربعة أقسام:

- **الأول**: **الطوال وهي سبع**:

البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، واختلف في السابعة فقيل: (الأنفال والتوبة) معًا؛ لأنهم كانوا يعدونها سورة واحدة لعدم الفصل بينهما بالبسملة. وقيل: إنَّ السابعة هي سورة يونس. والصواب أن سورة التوبة وحدها أولى من سورة يونس.

- **الثاني**: **المئـون**:

وهي ما يلي السبع الطوال، سميت بذلك لأن كل سورة منها تزيد على مئة آية أو تقاربها.

- **الثالث**: **المثاني**:

وهي ما يلي المئين، وسميت بذلك لأنها تُثَنَّى في الصلاة وتُكَرَّر أكثر من الطوال والمئين.

- **الرابع**: **المُفصَّل**:

وهو ما يلي المثاني من قصار السور إلى آخر القرآن، وسُمّي بالمُفصّل لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة، وقيل: لقلَّة المنسوخ منه، ولهذا يُسمى بالمُحْكَم أيضًا، كما روى الإمام

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٥٢.

(٢) مسند الإمام أحمد، جـ٤، ص١٤٩. قال الألباني: «الحديث بمجموع طرقه صحيح، والله أعلم» الصحيحة، جـ٣، ص٤٦٩.

أحمد عن ابن عباس أنه قال: «إن الذي تدعونه المُفصَّل هو المُحْكَم»[١].

وقد اختلف العلماء في أوله فقيل: من أول سورة (قٓ)، وقيل: من أول (الحجرات)، وقيل: من أول (القتال). وذكر الزركشي والسيوطي اثني عشر قولًا في ذلك[٢].

وينقسم المفصل إلى ثلاثة أقسام:

أ - **الطوال**: من أوله إلى سورة (البروج).

ب- **وأوساطه**: من سورة (الطارق) إلى سورة (البينة).

جـ- **وقصاره**: من (الزلزلة) إلى آخر القرآن.

وفي سورة الفاتحة خلاف، فقيل: من أوله، وقيل: من المفصل[٣].

ترتيب السور:

للعلماء في ترتيب السور في القرآن الكريم ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنَّ ترتيب السور على ما هو عليه في المصحف الآن توقيفي، وأنَّه لم توضع سورة في مكانها إلا بأمر من الرسول ﷺ عن جبريل عليه السلام عن ربه عز شأنه كترتيب الآيات سواء بسواء.

قال أبو بكر الأنباري: «اتساق السور كاتساق الآيات والحروف، كلُّه عن النبي ﷺ، فمن قدَّم سورةً أو أخَّرَها فقد أفسد نَظْمَ القرآن»[٤].

(١) مسند الإمام أحمد، جـ١، ص٢٥٣، وقال الأستاذ أحمد شاكر: إسناده صحيح جـ٤، ص٧٧.

(٢) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٤٥-٢٤٦، والإتقان: للسيوطي، جـ١، ص٦٣.

(٣) فتح الباري: ابن حجر، جـ٨، ص٦٥٩.

(٤) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦٢.

وقال الكرماني في «البرهان»: «ترتيب السور هكذا هو عند الله في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب»(١).

وقال الطيبي: «أُنزِلَ القرآن أولًا جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقًا على حسب المصالح، ثم أُثبت في المصاحف على التأليف والنظم المُثبت في اللوح المحفوظ»(٢).

وقال أبو جعفر النحاس: «إنَّ تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله ﷺ»(٣).

وقال ابن الحَصَّار: «ترتيب السور ووضع الآيات موضعها إنَّما كان بالوحي»(٤).

وغير هؤلاء من العلماء. ومن أدلَّتهم:

١- إجماع الصحابة ﵃ على ترتيب السور في مصحف عثمان ﵁، ولو كان ترتيبه بالاجتهاد لتمَسَّكَ أصحابُ المصاحف المُخالفة في الترتيب بمصاحفهم.

٢- قال ابن حجر العسقلاني ﵀: «ومما يدل على أنَّ ترتيب المصحف كان توقيفيًا ما أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما عن أوس بن أبي أوس حذيفة الثقفي، قال: كنتُ في الوفد الذين أسلموا من ثقيف.. وفيه.. فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ، قلنا: كيف تُحَزِّبُون القرآن؟ قالوا: نُحَزِّبه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل من (قٓ) حتى تختم». ثم قال ابن حجر: «فهذا يدل على أنَّ ترتيب السور على ما هو في المصحف الآن كان في عهد النبي ﷺ»(٥).

---

(١) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٥٩، والإتقان للسيوطي، جـ١، ص٦٢.
(٢) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦٢.
(٣) المرجع السابق، جـ١، ص٦٢.
(٤) المرجع السابق، جـ١، ص٦٣.
(٥) فتح الباري: ابن حجر العسقلاني، جـ٩، ص٤٢-٤٣.

وإذا جمعت أعداد السور المذكورة هكذا (٣+٥+٧+٩+١١+١٣) كان المجموع (٤٨) سورة. قال الزركشي: «وحينئذٍ فإذا عددت ثمانيًا وأربعين سورة كانت التي بعدهن سورة (قَ)»[١]. وهذا يدل على أنَّ السور كانت مرتبة في عهد الرسول ﷺ.

٣- قال السيوطي رحمه الله: «ومما يدل على أنَّه توقيفي كونُ الحواميم رُتِّبت وَلاءً (يعني متوالية) وكذا الطواسين، ولم تُرتَّب المُسَبّحات ولاءً، بل فُصِلَ بين سورها وفُصلَ بين (طسم) الشعراء و(طسم) القصص بـ(طس) مع أنها أقصر منهما، ولو كان الترتيب اجتهاديًا لذُكرت المُسبحات ولاءً، وأخِّرت (طس) عن القصص»[٢].

القول الثاني: أنَّ ترتيب السور اجتهادي من فعل الصحابة رضي الله عنهم. وهذا قول جمهور العلماء.

قال ابن فارس: جَمْعُ القرآن على ضربين: أحدهما: تأليفُ السور كتقديم السبع الطوال وتعقيبها بالمئين، فهذا هو الذي تولَّته الصحابة. وأمَّا الجمعُ الآخر وهو جمع الآيات في السور، فهو توقيفي تولاه النبي ﷺ كما أخبر به جبريل عن أمر ربه[٣].

ومما استدلوا به على ذلك:

١- اختلاف ترتيب السور في مصاحف الصحابة قبل أن يجمع القرآن، فلو كان توقيفيًا لاتفقت مصاحفهم كما اتفقت في ترتيب الآيات، فقد كان مصحف عليٍّ مُرتَّبًا على النزول، وأول مصحف ابن مسعود البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران، ومصحف أُبيّ الفاتحة، ثم البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران.

---

(١) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٤٧. قلت: هذا إذا لم نعد الفاتحة، أما إذا عددناها فإن التي بعدهن سورة (الحجرات)، ولهذا وقع الاختلاف في أول المفصل، ومن لم يعد الفاتحة من الطوال فقد عدها من المفصل.

(٢) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦٣. والمقصود بـ(طس) سورة النمل.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦٢.

٢- ما رواه مسلم في «صحيحه» عن حذيفة رضي الله عنه : أنّ النبي ﷺ صلَّى بالبقرة، ثم النساء ثم بآل عمران في ركعة[١]. قال عياض: «هو دليل لكون ترتيب السور وقعَ باجتهاد الصحابة حين كتبوا المصحف»[٢].

القول الثالث: أنَّ ترتيب بعض السور كان توقيفيًا، وبعضها كان باجتهاد الصحابة.

قال الزركشي: «مالَ ابنُ عطية إلى أنَّ كثيرًا من السور كان قد عُلِمَ ترتيبُها في حياته ﷺ، كالسبع الطوال والحواميم والمفصل، وأنَّ ما سوى ذلك يمكن أنْ يكون قد فوَّض الأمر فيه إلى الأمة بعده.

وقال أبو جعفر بن الزبير: الآثار تشهد بأكثر مما نصَّ عليه ابن عطية، ويبقى منها قليل يُمكن أنْ يجري فيه الخلاف»[٣].

مناقشة الأدلـة:

١- استدل القائلون بالتوقيف في ترتيب السور بإجماع الصحابة على ترتيب عثمان رضي الله عنه ، وهذا لا يدلُّ على ما ذهبوا إليه؛ لأن إجماعهم على ترتيب عثمان لا يشترط له أنْ يستند إلى التوقيف عن الرسول ﷺ، فقد وافقوا عثمان على هذا الترتيب توحيدًا لكلمة الأمة، وقطعًا لأسباب الاختلاف، كما وافقوا على الاقتصار على حرف واحد.

أما استدلالهم بحديث حذيفة فإنَّ ذكر العدد لا يلزم منه ترتيب السور، بل قال ابن حجر نفسه الذي استدل بهذا الحديث: «ويحتمل أنَّ الذي كان مرتبًا حينئذٍ حزب المفصل خاصة بخلاف ما عداه»[٤].

---

(١) صحيح مسلم: جـ١، ص٥٣٦-٥٣٧.

(٢) إجمال البيان: عبدالله بن أحمد، ص١٢٨.

(٣) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٥٧-٢٥٨، وانظر الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦٢.

(٤) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦٣.

وأما استدلال السيوطي فإنَّ ما أورده لا يلزم منه أنَّ ترتيب السور توقيفي، فعدم ترتيب المُسبِّحات ولاء قد يكون لمراعاة مناسبات أخرى أهم من مناسبة فواتح السور، ولهذا مال السيوطي نفسه إلى رأي آخر.

٢- وأما القائلون بأن الترتيب كان كله بطريق الاجتهاد، فإنَّ من أدلتهم اختلاف ترتيب السور في مصاحف الصحابة، ولا يصلح هذا دليلًا على ما ذهبوا إليه، فقد يكون ترتيب الصحابة قبل أن يعلموا بالتوقيف، فلما بلغهم ذلك رجعوا عن ترتيب مصاحفهم.

وأما استدلالهم بأن الرسول ﷺ قد صَلَّى بالبقرة والنساء وآل عمران في ركعة فلا يدل على ما ذهبوا إليه كما قال السيوطي، وعَلَّلَ ذلك بقوله: «لأن ترتيب السور في القراءة ليس بواجب، ولعله فعل ذلك لبيان الجواز»[1].

٣- وأما الرأي الثالث فإنه يستند إلى أدلة الرأي الأول، وهو أنَّ ترتيب السور توقيفي، أمَّا القسم الاجتهادي فإنَّ أدلته ضعيفة لا تستند إلى دليل قوي.

الرأي الراجح:

إنَّ استعراض الأدلة يوقفنا على ثبوت التوقيف في ترتيب أكثر سور القرآن الكريم، وما لَمَ يَرِدْ دليل على ترتيبه لا يعني أنَّه رُتِّبَ بطريق الاجتهاد، فقد يكون ترتيبه بدليل لم يصل إلينا.

وعلى هذا فإنَّ الرأي الراجح أنَّ ترتيب سور القرآن الكريم كترتيب آياته بالتوقيف عن الرسول ﷺ، عن جبريل عليه السلام، عن ربه سبحانه وتعالى، مع ما في أدلَّة هذا الرأي من الاحتمال كما ذُكِرَ، إلا أنه أقوى الآراء.

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦٣.

الموقف من هذا الترتيب:

وعلى كل حال، ومهما يكن من أمر، سواء أكان هذا الترتيب الذي نجده في المصاحف بطريق التوقيف أم بطريق الاجتهاد، ثم أجمع الصحابة عليه، ومضت الأمة على قبوله، فيجب التمسك به، والإعراض عن الدعوات الزائفة لإعادة ترتيب المصاحف حسب النزول أو الموضوع أو غير ذلك؛ لأنَّ في ترتيب سوره معاني لا تقل عن معاني الترتيب في آياته، جَدَّ كثير من العلماء في استنباطها وتحصيلها. فضلًا عن مخالفة الإجماع وما في ذلك من مفاسد عظيمة.

أمَّا ترتيب السور في التلاوة فليس بواجب وإنما هو مندوب، إلا في تعليم الصبيان، فالأولى أن يبدأ بهم من آخر المصحف إلى أوله، والله أعلم.

حكمة تسوير القرآن:

لتقسيم القرآن الكريم إلى سورٍ حِكَمٌ عديدة منها:

١- التيسير والتشويق لمدارسة القرآن الكريم وحفظه، إذ لو كان سبيكة واحدة لشقَّ حفظه، وصعبت مدارسته.

٢- الدِّلالة على موضوع السورة وأهدافها، إذ إن لكل سورة موضوعًا خاصًّا، وأهدافًا معينة، فسورة يوسف تُترجم لقصته، وسورة التوبة تتحدث عن المنافقين وتكشف أسرارهم.. وهكذا.

٣- التنبيه إلى أن الطول ليس شرطًا من شروط الإعجاز والتحدِّي، فسورة الكوثر ثلاث آيات، وهي معجزة إعجاز سورة البقرة.

٤- التدرج في تعليم الأطفال من السور القصار إلى السور الطِّوال تيسيرًا من الله لعباده لحفظ كتابه.

٥- أنَّ الكتاب إذا انطوت تحته أنواع وأصناف وأبواب وفصولٌ كان أحسن وأفخم من أن يكون بابًا واحدًا.

٦- أنَّ القارئ إذا ختم سورة أو جزءًا كان أنشط له وأبعث على التحصيل والاستمرار في التلاوة منه لو استمر على الكتاب بطوله، كالمسافر إذا قطع ميلًا نفَّسَ ذلك عنه وتجدد نشاطه، ولذا جُزِّئ القرآن أجزاءً وأحزابًا وأرباعًا وأخماسًا وأعشارًا.

٧- أنَّ الحافظ إذا حذق سورة اعتقد أنَّه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها، فيعظم عنده ما حفظه، ويحرص على معاهدته وتكرار تلاوته، ومنه حديث أنس رضي الله عنه: «كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا»[١].

٨- أنَّ التفصيل سبب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض، وبذلك تتلاحظ المعاني ويتجاوب النظم[٢].

ثانيًا: آيات القرآن الكريم:

تعريف الآية:

الآية في اللغة تطلق على عدة معان منها:

١- المعجزة، ومنه قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾[٣].

---

(١) مسند الإمام أحمد، جـ٣، ص١٢٠-١٢١، وشرح السنة، البغوي جـ١٣، ص٣٠٦.

(٢) تفسير الكشاف: الزمخشري، جـ١، ص٢٤١، وقال الجرجاني في حاشيته على الكشاف: «وكون التفصيل سبب تلاحق الأشكال من حيث إنه يورد في كل منها الأمور المتلائمة، فتتلاحظ حينئذٍ المعاني، ويتجاوب أطراف النظم وجوانبه» الكشاف جـ١، ص٢٤١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١١.

٢- العلامة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾(١).

٣- العبرة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾(٢).

٤- البرهان والدليل، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(٣).

٥- الأمر العجب، تقول العرب: «فلان آية في العلم وفي الجمال».

٦- الجماعة، تقول العرب: «خرج القوم بآيتهم» أي: بجماعتهم(٤).

والآية في الاصطلاح:

طائفة ذات مطلع ومقطع مندرجة في سورة من القرآن.

المناسبة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي:

لأن الآية القرآنية معجزة ولو باعتبار انضمام غيرها إليها، وهي علامة على صدق من جاء بها، وفيها عبرة وعظة لمن أراد أن يعتبر، وهي دليل وبرهان على أن هذا القرآن من الله تعالى، وهي من الأمور العجيبة لسموها وبلاغتها وإعجازها، وهي جماعة من الحروف، فمعانيها في اللغة موجودة في معناها الاصطلاحي(٥).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٨.

(٣) سورة الروم، الآية:٢٢.

(٤) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٦٦.

(٥) انظر: مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص٣٣١-٣٣٢.

إطلاق الآية:

تطلق الآية ويراد بها:

١- الآية، ومثاله قول ابن مسعود رضي الله عنه: أعظم آية في القرآن: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾[1].

٢- وقد يطلق لفظ الآية على ما هو أكثر منها.

كقول ابن مسعود رضي الله عنه: أخوف آية في القرآن: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾[2][3] فإنهما آيتان باتفاق[4].

عدد آيات القرآن الكريم:

أجمع العلماء على أنَّ عدد آيات القرآن لا يقل عن ستة آلاف آية ومئتي آية، ثم اختلفوا في الزيادة[5]:

- فمنهم من لم يزد على ذلك.
- ومنهم من قال: ومئتا آية وأربع آيات. (٦٢٠٤) آية.
- ومنهم من قال: وأربع عشرة آية. (٦٢١٤) آية.
- ومنهم من قال: وسبع عشرة آية. (٦٢١٧) آية.
- ومنهم من قال: وتسع عشرة آية. (٦٢١٩) آية.

---

(١) سورة البقرة، الآية:٢٥٥.

(٢) سورة الزلزلة، الآيتان:٧-٨.

(٣) الدر المنثور: السيوطي، جـ١، ص٣٢٣.

(٤) انظر مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص٣٣٥-٣٣٦.

(٥) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦١.

- ومنهم من قال: وخمس وعشرون آية. (٦٢٢٥) آية.
- ومنهم من قال: وست وثلاثون آية. (٦٢٣٦) آية.

وغير ذلك.

سبب الاختلاف وأثره:

سببه أنَّ النبي ﷺ كان يقف على رؤوس الآي للتوقيف؛ ليعلم أصحابه أنها رأس آية، حتى إذا علموا ذلك صار يصل الآية بما بعدها لتمام المعنى، فيحسب من لم يسمعه أولًا أنها ليست فاصلة فيَعُدّ الآيتين آية واحدة، ولذا يختلف العدد.

وليس لهذا أثر يُذكر ما دام القرآن الكريم سالمًا من الزيادة أو النقصان، فالقطعة من القماش إذا قاسها إنسان بذراعه الطويلة، ثم قاسها إنسان آخر بذراعه القصيرة، فسيكون هناك اختلاف في العدد سببه اختلاف المقياس مع سلامة القطعة من الزيادة أو النقصان في الحالين.

ترتيب الآيات في القرآن الكريم:

قال الإمام السيوطي رحمه الله: «الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك، أمَّا الإجماع فنَقَلَه غير واحد منهم الزركشي في "البرهان"، وأبو جعفر بن الزبير في "مناسباته" وعبارته: ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين»[1]، ثم ذكر عددًا من النصوص والآثار الشاهدة على ذلك.

فقد كان جبريل عليه السلام ينزل بالآيات على الرسول ﷺ ويُخبره بموضعها من السورة، ثم يقرؤها الرسول عليه الصلاة والسلام على أصحابه، ويأمر كتاب الوحي بكتابتها بعد أن يبين لهم موضعها من السورة.

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦٠.

وكان عليه الصلاة والسلام يتلو آيات القرآن الكريم مرتبة في الصلوات المفروضة والنافلة، وفي مواعظه فيسمعها أصحابه ويحفظونها كما سمعوها، وكانوا يَعْرِضُون على الرسول ﷺ ما كتبوه على الترتيب المعروف، وشاع ذلك وملأ البقاع، والمسلمون يتدارسونه فيما بينهم ويقرؤونه في صلواتهم، ويأخذه بعضهم عن بعض بالترتيب القائم، فليس لأحد من الصحابة يَدٌ في ترتيب شيء من آيات القرآن الكريم(١).

وقد نقل السيوطي عددًا من نصوص العلماء في ذلك منها قول مَكيّ وغيره: ترتيب الآيات في السور بأمر من النبي ﷺ. وقال القاضي أبو بكر في «الانتصار»: «ترتيب الآيات أمر واجب، وحكم لازم، فقد كان جبريل يقول: ضعوا آية كذا في موضع كذا». وقال ابن الحصار: «ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنَّما كان بالوحي، كان رسول الله ﷺ يقول: «ضعوا آية كذا في موضع كذا». وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله ﷺ، ومما أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف»(٢).

طريقة معرفة بداية الآية ونهايتها:

للعلماء في طريق معرفة بداية الآية ونهايتها قولان:

القول الأول: أنه لا سبيل إلى معرفة بدايات الآيات ونهاياتها إلا بتوقيف من الشارع؛ لأنه ليس للقياس والرأي مجال فيه، وإنَّما هو محض تعليم وإرشاد من الرسولﷺ.

---

(١) انظر: مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص٣٣٩-٣٤٠.

(٢) الإتقان، السيوطي، جـ١، ص٦١-٦٢.

واستدلوا على ذلك بأدلة منها:

١- النصوص الواردة عن الرسول ﷺ بتحديد عدد الآيات في بعض السور أو تحديد مواضعها، كقوله عليه الصلاة والسلام عن الفاتحة: «**هي السبع المثاني**»[١]، وقوله ﷺ: «**من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه**»[٢]، وقوله ﷺ: «**تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء**»[٣].

وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة، مما يدلّ على أنه لولا أنَّ الرسول ﷺ هو الذي بيَّن الآيات من حيث بداياتها ونهاياتها لما عرفنا بداية الآيتين في آخر سورة البقرة مثلًا، ولا آية الصيف ولا الآيات السبع في الفاتحة.

٢- أن العلماء[٤] عدوا ﴿الٓمٓ﴾ آية ولم يعدوا نظيرها ﴿الٓر﴾ آية، وعدوا ﴿الٓمٓصٓ﴾ آية ولم يعدوا نظيرها وهو ﴿الٓمٓر﴾ آية، وعدوا ﴿يسٓ﴾ آية، ولم يعدوا نظيرها ﴿طسٓ﴾ آية، وعدوا ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ آيتين، ولم يعدوا نظيرها ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ آيتين، بل آية واحدة، فلو كان الأمر مبنيًا على القياس لم يفرقوا بين المثلين.

القول الثاني: وقيل: إنَّ معرفة بداية الآيات ونهاياتها منه ما هو سماعي، ومنه ما هو قياسي، ومرجع ذلك إلى الفاصلة للآية.

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦١-٦٢.

(٢) رواه البخاري، جـ٦، ص١٠٣.

(٣) رواه البخاري، جـ٦، ص١٠٤، ومسلم، جـ١، ص٥٥٥.

(٤) وهم الكوفيون، فقد عَدّوا كلَّ الفواتح بالأحرف المقطعة في أوائل السور آيات إلا ﴿حمٓ﴾ ﴿عٓسٓقٓ﴾ فقد عدَّوها آيتين، و﴿طسٓ﴾ و﴿الٓر﴾ و﴿الٓمٓر﴾، وما كان مفردًا وهي ﴿قٓ﴾ و﴿نٓ﴾ و﴿صٓ﴾ فلم يعدو شيئًا من ذلك آية.

فما ثبت أنَّ الرسول ﷺ وقف عليه دائمًا تحققنا أنّه رأس آية، وما وصله دائمًا علمنا أنه ليس بآية، وما وقف عليه مرة ووصله أخرى احتمل الأمرين، وهذا مجال للقياس ولا محظور فيه؛ لأنه لا يُؤدِّي إلى زيادة ولا نقصان في آيات القرآن، وإنَّما غايته تعيين محلِّ الفصل أو الوصل(١).

والرأي الراجح:

أنَّ معرفة بداية الآيات ونهاياتها توقيفي لا مجال للقياس فيه.

قال الزركشي: «قال بعضهم: الصحيح أنَّها إنما تُعلَمُ بتوقيف من الشارع لا مجال للقياس فيه كمعرفة السورة»(٢).

وقال الزمخشري: «علم الآيات توقيفي لا مجال للقياس فيه»(٣).

فوائد معرفة الآيات:

ذكر العلماء لتقسيم السورة إلى آيات حِكَمًا كثيرة منها:

١- العلم بأن كل ثلاث آيات قصار معجزة للنبي ﷺ، وفي حُكمها الآية الطويلة، وبيان ذلك أنَّ الله ﷻ تحدَّى الناس أن يأتوا بسورة من مثل القرآن، وأقصر سورة في القرآن هي سورة الكوثر، وهي ثلاث آيات قصار، فدلَّ على أنَّ كل ثلاث آيات قصار معجزة.

٢- يرى بعض العلماء أنَّ الوقف على رأس الآية سُنة، وتحديد رأس الآية مُعِين على اتباع السُّنة.

---

(١) انظر البرهان: للزركشي، جـ١، ص٢٦٧-٢٦٨، وانظر مناهل العرفان: للزرقاني، جـ١، ص٣٣٣-٣٣٥.

(٢) البرهان: للزركشي، جـ١، ص٢٦٧.

(٣) الكشاف: الزمخشري، جـ١، ص١٨.

٣- هناك بعض الأحكام الفقهية المترتبة على معرفة الآي، ذكرها السيوطي[١] رحمه الله ومنها:

أ- اعتبارها فيمن جهل الفاتحة فإنه يجب عليه بدلها سبع آيات عند الشافعي.

ب- اعتبارها في خطبة الجمعة، فإنَّه يجب فيها قراءة آية كاملة من القرآن، ولا يكفي شطرها إلا أن تكون طويلة.

جـ- اعتبارها في طول الصلاة فقد ورد أنَّه ﷺ كان يقرأ في الصبح بالستين إلى المئة آية، وكذا اتخاذها مقياسًا زمنيًا للفارق بين الأذان والإقامة.

د- اعتبارها في قراءة قيام الليل وعدد الآيات للقيام.

فوائـد:

اعلم أنَّ العلماء رحمهم الله تعالى قد اختلفوا في عدد آيات القرآن الكريم، وعدد كلماته وعدد حروفه، وسبب ذلك أنَّ النبي ﷺ كان يقف على رؤوس الآي للتوقيف، فإذا عُلِمَ محلُّها وصَلَ للتمام فيحسب السامع أنَّها ليست فاصلة.

وسببُ الاختلاف في عدد الحروف أنَّ بعضَ العلماء يعدُّ البسملة آية في أوّل كل سورة، وبعضهم لا يعدها، وأحرف المَدِّ ونحوها، منهم من يعدها ومنهم من لا يعدها.

وسبب الاختلاف في عدد كلمات القرآن أنَّ الكلمة لها حقيقة ومجاز ولفظ ورسم، واعتبار كلٍّ منها جائز، وكلٌّ من العلماء اعتبر أحدَ الجوائز[٢].

وأطول سورة في القرآن الكريم هي البقرة، وأقصر سورة هي الكوثر، وهي ثلاث آيات.

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦٩، وانظر مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص٣٣٧-٣٣٩.

(٢) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٥٢.

وأطول آية: آية الدّين، وهي الآية (٢٨٢) من سورة البقرة، وأقصر آية ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ و﴿وَالْفَجْرِ﴾.

وأطولُ كلمة فيه لفظًا وكتابة ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾[1].

أمّا أنصافُ القرآن فثمانية:

- فنصفه بالحروف (النون) من قوله: ﴿نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾ [٧٤] في سورة الكهف، والكاف من نصفه الثاني، وقيل عين ﴿تَسْتَطِيعَ﴾[2] وقيل: اللام الثانية من ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾[3].

- ونصفه بالكلمات الدال من قوله: ﴿وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾﴾ [٢٠] من سورة الحج، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾ [٢١] من نصفه الثاني.

- ونصفه بالآيات ﴿يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [٤٥] من سورة الشعراء، وقوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ﴾ [٤٦] من نصفه الثاني.

- ونصفه على عدد السور، فالأولُ (الحديد) والثاني من (المجادلة)[4].

أكثر ما اجتمع في القرآن من الحروف المتحركة متوالية ثمانية أحرف في سورة يوسف: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ من الآية الرابعة.

وفي القرآن آيتان تجمع كل واحدة منهما حُروف المُعجَم وهما قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾ الآية ٢٩ من سورة الفتح، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ الآية ١٥٤ من سورة آل عمران.

---

(١) سورة الحجر، الآية:٢٢.

(٢) سورة الكهف، الآية:٦٧.

(٣) سورة الكهف، الآية:١٩.

(٤) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٢٥٣.

وفي القرآن سورة في كل آية منها اسم الله تعالى هي سورة المجادلة.

وفي القرآن آية فيها ١٦ ميمًا هي ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ﴾ الآية ٤٨ من سورة هود، وفي آية الدَّين ٣٣ ميمًا.

وليس في القرآن حاء بعدها حاء إلا في موضعين:

- الأول في البقرة (٢٣٥) ﴿عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ﴾.

- الثاني في الكهف (٦٠) ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ﴾.

وعدد كلمات القرآن الكريم (٧٧٤٣٩) كلمة، وقيل: (٧٧٤٣٧)، وقيل: (٧٧٢٧٧) وقيل غير ذلك.

وعدد حروفه (٣٢٣٠١٥) حرفًا، وقيل: (٣٢١٠٠٠)، وقيل: (٣٤٠٧٤٠) حرفًا.

قال السيوطي: والاشتغال باستيعاب ذلك مما لا طائل تحته[١].

قلت: فيه رياضة للنفس وترويح للذهن في أطهر ميدان، والله أعلم.

* * *

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٧٠، وقد نقلت أغلب هذه الفوائد من البرهان: للزركشي، جـ١، ص٢٤٩-٢٥٦.

المكي والمدني

من المعلوم أن الرسول ﷺ قضى فترة من حياته في مكة قبل البعثة وبعدها، ثم هاجر إلى المدينة النبوية، وأقام فيها إلى وفاته ﷺ.

وقد نزل عليه القرآن الكريم في الأمصار، والقرى، والجبال، والوهاد، والأودية، والسفوح، والدور، والبراري، وفي أوقات مختلفة في الليل، والنهار، والسفر، والحضر، والصيف، والشتاء، والسلم، والحرب.

وقد اعتنى العلماء عناية فائقة في معرفة مكان النزول وزمن النزول لما في معرفة ذلك من فوائد عديدة لفهم النصوص القرآنية، واستيفاء معانيها، واستقصاء مدلولاتها.

وعندما كان القرآن ينزل في مكة أول البعثة كان المسلمون قلة، وكان المشركون كثرة، وللحديث مع الكفار أسلوبه، ولمخاطبة المسلمين طريقتها.

فالقرآن في مكة يدافع عن القلة من المسلمين، ويرفق بهم، وينافح عنهم وسط هذه البيئة من الأعداء المشركين، وهم بحاجة إلى من يأخذ بأيديهم، ويثبت قلوبهم.

والقرآن في مكة يقارع الخصوم، ويحطم معتقداتهم الزائفة بالحجة والدليل، ويدفع الشبهات، ويبطل الخرافات، ويكشف الأباطيل والترهات، وهم أهل لجاج وعناد، وإصرار واستكبار، وظلَّ القرآن ينافحهم حتى أقام الحجة عليهم، وأنشأ جماعة إسلامية كانت نواة الدولة الإسلامية.

وهاجر الرسول ﷺ بهذه الجماعة، والتقى بجماعة أخرى من المسلمين في المدينة، وآخى بين الجماعتين، ومزج بينهما مزجًا كان نتاجُه نشأة الدولة الإسلامية الصالحة، والمؤهَّلة لتلقي ما بقي من قواعد الإسلام، وأحكام التشريع.

ونزل القرآن على المسلمين في المدينة يبسُط أحكامَ الدين، ويُرسي قواعده، ويبني المجتمع الإسلامي، ويؤسسُ صرحَ الدولة.

وبلا ريب أنَّ معرفة ما نزل بمكة في تلك الظروف ولتلك الأهداف والأغراض، ومعرفة ما نزل في المدينة كذلك، يُعطي منهجًا سليمًا للدعوة الإسلامية، ودروسًا للدعاة في مختلف العصور والأمكنة.

عناية العلماء بالمكي والمدني:

فلا عَجَبَ إذًا أن يعتني العلماء بذلك، وأن يولوه اهتمامهم، فهذا عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «والله ما نزلت آية إلا وقد علمتُ فيم أُنزِلت، وأين أُنزلت. إنَّ ربِّي وهبَ لي قلبًا عقولًا، ولسانًا سؤولًا»(١).

وهذا ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «والله الذي لا إلـٰه غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيم أنزلت، ولو أعلم أحدًا أعلمُ منّي بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه»(٢).

وقد اهتم العلماء مِنْ بعدهم بمعرفة المكي والمدني، وأفرده جماعة بالتأليف منهم - كما يقول السيوطي - مكيّ، والعزُّ الديرني(٣). وفي العصر الحديث صدرت دراسات كثيرة عن خصائص السور المكية، وخصائص السور المدنية.

(١) حلية الأولياء: أبو نعيم، جـ١، ص٦٧-٦٨.

(٢) صحيح البخاري، جـ٦، ص١٠٢، وصحيح مسلم: جـ٤، ص١٩١٣.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٨.

كما اعتنى به العلماء في مؤلفاتهم، فلا تكاد تجد كتابًا يتناول علوم القرآن إلا وكان المكي والمدني أحد أبوابه. وفَصَّلَ القولَ فيه السيوطي، وأشبع الكلام على أوجهه، وأفرد بعضها بمباحث خاصة في كتابه «الإتقان»[١].

أنواع المكي والمدني

وهي كثيرة: منها:

ما نزل في مكة، وما نزل في المدينة، وما اختلف فيه، وترتيب ما نزل بمكة والمدينة، وما نزل بمكة وحكمه مدني، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي، وما نزل بمكة في أهل المدينة، وما نزل بالمدينة في أهل مكة، وما يشبه نزول المكي في المدني، وما يشبه نزول المدني في المكي، وما نزل بالجحفة، وما نزل ببيت المقدس، وما نزل بالطائف، وما نزل بالحديبية، وما نزل ليلًا، وما نزل نهارًا، وما نزل صيفًا، وما نزل شتاءً، وما نزل في الحضر، وما نزل في السفر، وما نزل مشيعًا، وما نزل مفردًا، والآيات المدنية في السور المكية، والآيات المكية في السور المدنية، وما حمل من مكة إلى المدينة، وما حمل من المدينة إلى مكة[٢].

السور المكية والسور المدنية:

اختلف العلماء في عدد السور المدنية، وقد نقل السيوطي عن ابن الحَصّار أنّ المدنيَّ عشرون سورة، والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة، وما عدا ذلك مكي[٣].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) انظر البرهان في علوم القرآن: الزركشي، جـ١، ص١٩٢.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص١١.

السور المدنية: عشرون هي:

١- البقرة.	٢- آل عمران.	٣- النساء.	٤- المائدة.
٥- الأنفال.	٦- التوبة.	٧- النور.	٨- الأحزاب.
٩- محمد.	١٠- الفتح.	١١- الحجرات.	١٢- الحديد.
١٣- المجادلة.	١٤- الحشر.	١٥- الممتحنة.	١٦- الجمعة.
١٧- المنافقون.	١٨- الطلاق.	١٩- التحريم.	٢٠- النصر.

واختلفوا في اثنتي عشرة سورة هي:

١- الفاتحة.	٢- الرعد.	٣- الرحمن.	٤- الصف.
٥- التغابن.	٦- المطففين.	٧- القدر.	٨- البينة.
٩- الزلزلة.	١٠- الإخلاص.	١١- الفلق.	١٢- الناس.

السور المكية:

ما عدا السور المذكورة فهو مكي وعددها اثنتان وثمانون سورة.

طريقة معرفة المكي والمدني:

يُعرفُ المكيّ والمدنيّ بأحد طريقين:

الطريق الأول: النقليّ السماعيّ:

وهي الآيات والسور التي عرفنا أنها مكية أو مدنية بطرق الرواية عن أحد الصحابة الذين عاشوا فترة الوحي وشاهدوا التنزيل، أو عن أحد التابعين الذين سمعوا ذلك من الصحابة.

أما النبي ﷺ فلم يَردْ عنه بيان للسور المكية والسور المدنية؛ لأنّ هذا مما يشاهده ويحضره الصحابةُ ﭫ، فكيف يخبرهم عن شيء يعلمونه! فالمكي والمدني يُعرفُ بغير نصّ من الرسول ﷺ.

قال الباقلاني: «إنما يُرجعُ في معرفة المكي والمدني لحفظ الصحابة والتابعين، ولم يَرِدْ عن النبي ﷺ في ذلك قول؛ لأنه لم يُؤمر به، ولم يَجعل الله عِلْمَ ذلك من فرائض الأمة، وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ، فقد يعرف ذلك بغير نص من الرسول»[(١)].

ومن أمثلة ما عرف أنه مكي أو مدني عن طريق الصحابة رضي الله عنهم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾[(٢)]، فقد أخرج البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنها نزلت لَمَّا أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ومن المعلوم أن عمر قد أسلم في مكة فالآية إذًا مكية. وسورة الحج روى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها مكية[(٣)].

ومنها ما رواه مسلم عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: أَلِـمَن قَتَلَ مؤمنًا متعمدًا مِن توبة؟ قال: لا. قال: فتلوت عليه هذه الآية التي في الفرقان: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلى آخر الآية[(٤)].

قال: هذه آية مكية نسختها آية مدنية: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾[(٥)][(٦)].

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٩.

(٢) سورة الأنفال، الآية:٦٤.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص١٣.

(٤) سورة الفرقان، الآية:٦٨.

(٥) سورة النساء، الآية:٩٣.

(٦) صحيح مسلم، جـ٤، ص٢٣١٨.

ومنها حديث عائشة رضي الله عنها وفيه: «لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾[١]، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده»[٢].

الطريق الثاني: القياسي الاجتهادي:

نظر العلماء رحمهم الله تعالى في الآيات والسور التي عرفوا أنها مكية أو مدنية بالطريق الأول (السماعي النقلي)، واستنبطوا خصائص وضوابط للسور المكية، وخصائص وضوابط للسور المدنية، ثم نظروا في السور التي لم يرد نصوص في بيان مكان نزولها، فإن وجدوا فيها خصائص السور المكية قالوا: إنها مكية، وإن وجدوا فيها خصائص السور المدنية قالوا: إنها مدنية، وهذا يكون بالاجتهاد والقياس، فسُمِّي هذا الطريق بالقياس الاجتهادي.

نقل الزركشي عن الجعبري قوله: «لمعرفة المكي والمدني طريقان: سماعي، وقياسي، فالسماعي ما وصل إلينا نزوله بأحدهما، والقياسي قال علقمة: عن عبدالله: كل سورة فيها «يا أيها الناس» فقط، أو «كلا»، أو أولُها حرف تهَجّ سوى الزهراوين، والرعد في وجه، أو فيها قصة آدم وإبليس سوى الطولى فهي مكية.

وكل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية مكية، وكل سورة فيها فريضة أو حد فهي مدنية»[٣].

---

(١) سورة القمر، الآية:٤٦.

(٢) صحيح البخاري، جـ٦، ص١٠١.

(٣) البرهان: الزركشي، جـ١، ص١٨٩، وانظر الإتقان: السيوطي، جـ١، ص١٧.

تعريف المكي والمدني:

اختلف العلماء في المراد بالمكي والمدني، ومتى تُسمى السورة أو الآية مكية أو مدنية إلى ثلاثة أقوال:

ويرجع اختلافهم إلى المعتبر في النزول، فمنهم من اعتبر مكان النزول، ومنهم من اعتبر زمن النزول، ومنهم من اعتبر المخاطبين بالآيات أو السورة، وعلى هذا:

القول الأول لطائفة اعتبرت مكان النزول فقالت: ما نزل في مكة وما حولها ولو بعد الهجر فهو مكي، وما نزل في المدينة وما حولها فهو مدني.

وهذا القول غير ضابط ولا حاصر؛ إذ إنه لا يشمل ما نزل من الآيات في غير مكة والمدينة وما حولهما، فقد نزلت آيات قرآنية في تبوك وفي بيت المقدس وفي الطائف، فالتعريف غير ضابط.

والقول الثاني لطائفة اعتبرت المُخاطَب بالآية أو السورة، وهذه الطائفة نظرت إلى أهل مكة وقت التنزيل، فوجدت أنَّ الغالب على أهلها الكفر، والمناسب لمخاطبتهم النداء بـ«يـٰأيها الناس» أو «يا بني آدم»، وبما أنَّ الغالب على أهل المدينة هو الإيمان، فإنَّ المناسب نداؤهم بـ«يـٰأيها الذين آمنوا»، وعلى هذا فالمكي عندهم ما كان فيه «يـٰأيها الناس» أو «يا بني آدم»، والمدني ما كان فيه «يـٰأيها الذين آمنوا».

نقل السيوطي عن أبي عبيد في «الفضائل» عن ميمون بن مهران قال: ما كان في القرآن «يـٰأيها الناس» أو «يا بني آدم» فإنّه مكي، وما كان «يـٰأيها الذين آمنوا» فإنّه مدني.

وهذا القول أيضًا غير ضابط ولا حاصر من وجهين:

الأول: ضَعَّفَ هذا القول ابنُ الحصار فقال: «اتفق الناس على أنَّ «النساء» مدنية وأولها «يـٰأيها الناسُ» وعلى أنَّ «الحج» مكية وفيها ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾[1]، وقال غيره: هذا القول إنْ أخذ على إطلاقه فيه نظر؛ فإنَّ سورة البقرة مدنية وفيها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾[2]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[3]، وسورة النساء مدنية وأولها ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾[4]. وبهذا يكون هذا القول غير ضابط وغير مُطَّرد.

الثاني: أنّ هناك آيات كثيرة وسورًا عديدة ليس فيها نداء بـ«يـٰأيها الناس» أو «يـٰأيها الذين آمنوا»، وهذا القول لا يشملها فلا يكون ضابطًا ولا حاصرًا.

القول الثالث لطائفة اعتبرت الزمان، ورأت أنَّ الهجرة هي الحد الفاصل بين المكي والمدني، فما نزل قبل الهجرة فهو مكي، وما نزل بعد الهجرة فهو مدني وإن نزل في مكة، قالوا: «وما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغ النبي ﷺ المدينة فهو من المكي»[5].

وهذا التعريف ضابط وحاصر لا تخرج عنه آيات من آيات القرآن الكريم عليه، فإنّ قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾[6] مدنية مع أنها نزلت في عرفات بمكة، بل إنَّ قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ

---

(١) سورة الحج، الآية:٧٧.

(٢) سورة البقرة، الآية:٢١.

(٣) سورة البقرة، الآية:١٦٨.

(٤) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص١٧.

(٥) البرهان: الزركشي، جـ١، ص١٨٨.

(٦) سورة المائدة، الآية:٣.

ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[1] مدنية مع أنها نزلت في جوف الكعبة؛ لأن هاتين الآيتين نزلتا بعد الهجرة عام الفتح.

ضوابط السور المكية:

نظر العلماء في السور المكية فوجدوا أنّ لها ضوابط، وأنّ لها مميزات، ونظروا في السور المدنية فوجدوا أيضًا أنّ لها ضوابط ومميزات.

ونعني بالضوابط خصائص الألفاظ، ونعني بالمميزات خصائص الأسلوب والمعاني والأغراض للسور المكية أو المدنية.

فمن ضوابط السور المكية:

١- كل سورة فيها «كلا» فهي مكية.

وردت في القرآن ثلاثًا وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة كلها في النصف الأخير من القرآن.

قال الشيخ الديريني[2] رحمه الله:

وما نزلت كلا بيثربَ فاعلمنْ   ولم تأتِ في القرآن في نصفه الأعلى

وحكمة ذلك أن «كلا» للردع والزجر، وهذا إنَّما يكون للمعاند المستكبر، فهو مناسب لمخاطبة المشركين في مكة.

٢- كل سورة فيها سجدة تلاوة فهي مكية[3]. وهي أربع عشرة سجدة، هي: الأعراف، والرعد، والنحل، والإسراء، ومريم، وفي الحج سجدتان، والفرقان، والنمل، والسجدة، وفصلت، والنجم، والانشقاق، واقرأ باسم ربك.

---

(١) سورة النساء، الآية:٥٨.

(٢) البرهان: للزركشي، جـ١، ص٣٦٩.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص١٧.

وأما سورة صّ فيستحب السجود، وليست من عزائم السجود، وزاد بعضهم آخر الحجر[١] وفي الرعد خلاف.

٣- كل سورة مبدوءة بقَسَم وهي خمس عشرة سورة، هي: الصافات، الذاريات، الطور، النجم، المرسلات، النازعات، البروج، الطارق، الفجر، الشمس، الليل، الضحى، التين، العاديات، العصر.

٤- كل سورة مفتتحة بأحرف التهجي مثل: (الٓمٓ) (حمٓ) وغيرها سوى البقرة وآل عمران، فإنهما مدنيتان بالإجماع، وفي الرعد خلاف.

٥- كل سورة فيها «يـٰأيها الناس» وليس فيها «يـٰأيها الذين آمنوا» فهي مكية إلا سورة الحج فإنها مكية مع أنّ في آخرها «يـٰأيها الذين آمنوا».

٦- كل سورة مفتتحة بـ(الحمد) فهي مكية، وهي خمس سور.

٧- كل سورة فيها قصص الأنبياء ما عدا البقرة.

مميزات السور المكية:

من المعلوم أنَّ ما نزل من القرآن في مكة كان يُخاطب مجتمعًا وثنيًا فشا فيه الشرك، وانتشرت فيه الأصنام، ولم يتلق الدعوة الإسلامية بالقبول والتسليم، بل أخذ يُناوِئها العداء، ويضطهد أتباعها، ويحارب رسولها.

وفي المدينة كان القرآن الكريم غالبًا يخاطب أتباعه المؤمنين، يأمرهم فينقادون إليه، وينهاهم فينتهون عما نهى عنه.

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص١١٠.

وإذا كان الأمر كذلك فلا شك أن البلاغة تقتضي الاختلاف في الأسلوب، والاختلاف في المعاني والموضوعات بين ما نزل في مكة، وما نزل في المدينة، فمن مميزات السور المكية:

١- تأسيس العقيدة الإسلامية في النفوس بالدعوة إلى عبادة الله وحدَه، والإيمان برسالة محمد ﷺ، وباليوم الآخر، وإبطال المعتقدات الوثنية الجاهلية، وعبادة غير الله، وإيراد الحجج والبراهين على ذلك.

٢- تشريع أصول العبادات والمعاملات والآداب والفضائل العامة، ففي مكة فرضت الصلوات الخمس مثلًا، وحُرِّم أكلُ مال اليتيم ظُلمًا، كما وحُرِّمَ الكِبرُ والخيلاء ونحوها.

٣- الاهتمام بتفصيل قصص الأنبياء والأمم السابقة، وبيان ما دعا إليه الأنبياء السابقون من عقائد، ومواقف أممهم منهم، وما نزل بالمكذبين من عذاب دنيوي جزاء تكذيبهم، وإيراد الحوار بين الأنبياء وخصومهم، وإبطال حججهم بما يُوحي إلى أهل مكة بوجوب أخذ العبرة من هؤلاء، وفي هذا بسطٌ أيضًا للعقيدة الإسلامية الصحيحة.

٤- قِصَرُ السور والآيات مع قوة جرس الألفاظ ووقعها، وإيجازُ العبارة مع بلاغة المعنى ووفائه، وذلك أن القوم في مكة كانوا معاندين مستكبرين لا يريدون سماع القرآن، بل كانوا إذا شرع الرسول ﷺ في القراءة يتنادون ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ٢٦﴾[1].

ولا يناسب هذا المقام طول الآيات والمقاطع، بل يناسبه إيجازها وقوة معانيها.

---

(١) سورة فصلت، الآية:٢٦.

ضوابط السور المدنية:

١- كل سورة فيها «يـٰأيها الذين آمنوا» وليس فيها «يـٰأيها الناس» فهي مدنية. قال السيوطي عن علقمة عن عبدالله - يعني ابن مسعود رضي الله عنه - قال: «ما كان «يـٰأيها الذين آمنوا» أنزل بالمدينة، وما كان «يـٰأيها الناس» فبمكة. ثم قال: قال ابن عطية وابن الفرس وغيرهما: هو في «يـٰأيها الذين آمنوا» صحيح، وأما «يـٰأيها الناس» فقد يأتي في المدني»(١).

٢- كل سورة فيها ذكر للمنافقين. قال مكي بنُ أبي طالب القيسي: «كل سورة فيها ذكر المنافقين فمدنية، وزاد غيره: سوى العنكبوت»(٢).

والصحيح أنَّ أول العنكبوت الذي ورد فيه ذكر المنافقين مدنيّ لِـمَا أخرجه ابن جرير في سبب نزولها(٣).

٣- كل سورة ورد فيها حدٌّ أو بيان فريضة. قال عروة بن الزبير: «ما كان من حدّ أو فريضة فإنَّه أنزل بالمدينة»(٤). وقال محمد بن السائب الكلبي: «كل سورة ذكرت فيها الحدود والفرائض فهي مدنية»(٥).

مميزات السور المدنية:

١- يخاطب القرآن في المدينة - غالبًا - مجتمعًا إسلاميًا، فكان الغالب تقرير الأحكام التشريعية للعبادات والمعاملات والحدود والفرائض، وأحكام الجهاد وغيرها.

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص١٧.

(٢) المرجع السابق، جـ١، ص١٦.

(٣) جامع البيان: الطبري، جـ٢٠، ص٨٦.

(٤) البرهان: الزركشي، جـ١، ص١٨٨-١٨٩.

(٥) المرجع السابق.

٢- نشأ في المجتمع المدني طائفة من المنافقين، فتحدث القرآن الكريم عن طبائعهم، وهتك أستارهم، وبيَّن خطرهم على الإسلام والمسلمين، وكشف عن وسائلهم ومكائدهم وخباياهم ومخططاتهم للكيد للمسلمين، ولم يكن في مكة نفاق؛ لأن المسلمين كانوا قلة مستضعفين، فكان الكفار يُـحاربونهم جهارًا.

٣- عاش بين المسلمين في المدينة طائفة من أهل الكتاب وهم اليهود، وكانوا يمكرون مكرًا سيئًا، ويكيدون للإسلام وأهله، فكشف القرآن في المدينة سرائرهم، وأبطل عقائدهم، وكشف تحريفهم لديانتهم، وبيَّن بُطلان عقائدهم، ودعاهم إلى الإسلام بالحجة والدليل والبرهان.

٤- الغالب على الآيات والسور المدنية طولُ المقاطع والسور لبسط العقائد الإسلامية، والأحكام التشريعية، فقد كان أهلُ المدينة مسلمين يُقبلون على سماع القرآن، وينصتون حتى كأنَّ على رؤوسهم الطير، فالمقام ليس مقام مقارعة ولجاجٍ يُناسبه الإيجاز، بل المقام مقام إقبال وإنصات وإذعان يُناسبه الاسترسال والإطناب.

فوائد معرفة المكي والمدني:

١- تمييز الناسخ والمنسوخ فإنَّ المتأخر ناسخ للمتقدم.

٢- الاستعانة به في تفسير القرآن الكريم، فإنَّ معرفة مكان النزول يُعين على فهم المُراد بالآية، ومعرفة مدلولاتها وما يَردُ فيها من إشارات أحيانًا.

٣- معرفة تاريخ التشريع وتدرجه في التكليف، ويترتب على هذا الإيمان بأنَّ هذا التدرج لا يكون إلا من عليم خبير، عزيز حكيم، رحمٰن رحيم.

٤- الاستفادة من أسلوب القرآن في الدعوة إلى الله تعالى، فهو أسلوب يشتد ويلين، ويُفصِّل ويُـجمِل ويَعِدُ ويتوَعَّدُ، ويُرغِّبُ ويُرَهِّبُ، ويُوجز ويُطنِبُ حسب أحوال المخاطَبين، وهذا من أسرار الإعجاز في القرآن الكريم(١).

(١) انظر مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح، ص٢٣٣.

٥- استخراج سيرة الرسول ﷺ وذلك بمتابعة أحواله في مكة ومواقفه في الدعوة، ثم أحواله في المدينة وسيرته في الدعوة إلى الله فيها، واقتداء الدعاة بهذا المنهج النبوي الحكيم في الدعوة. وقد عنى بعض المؤرخين بهذا الجانب، فوضعوا المؤلفات في سيرة النبي ﷺ على ضوء القرآن الكريم[١].

٦- بيان عناية المسلمين بالقرآن الكريم واهتمامهم به، حتى إنهم لم يكتفوا بحفظ النص القرآني، بل تتبعوا مكان نزوله، ومعرفة ما نزل قبل الهجرة، وما نزل بعدها، وما نزل بالليل، وما نزل بالنهار، وما نزل في الصيف، وما نزل في الشتاء، ويَتبَعُ هذا الاقتداء بهم في دراسة القرآن وعلومه.

* * *

(١) منهم الدكتور عبدالصبور مرزوق في كتابه «السيرة النبوية في القرآن الكريم»، ومنهم د. محمد علي الهاشمي في كتابه: «شخصية الرسول ودعوته في القرآن الكريم»، والأستاذ حسن ضياء الدين عتر وكتابه «نبوة محمد ﷺ في القرآن»، والأستاذ حسن الملطاوي في كتابه: «رسول الله في القرآن الكريم»، والأستاذ محمد إبراهيم شقرة في كتابه «السيرة النبوية العطرة في الآيات القرآنية المسطرة»، والشيخ جلال الحنفي البغدادي في كتابه «شخصية الرسول الأعظم قرآنيًا» وغيرهم.

أسباب النـزول

من المعلوم أنَّ سبب نزول آيات القرآن الكريم كلها هو هداية الناس إلى الحق والصراط المستقيم، لكن هناك آيات تزيد على هذا السبب العام بسبب خاص مرتبط بها وحدها دون غيرها، وهذا السبب الخاص هو الذي يبحثه العلماء تحت هذا الموضوع. وعلى هذا فإنَّ آيات القرآن الكريم تنقسم من حيث سبب النزول وعدمه إلى قسمين:

- **الأول**: قسم نزل من الله ابتداءً غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة، وإنَّما هو مرتبط بالسبب العام، وهو هداية الناس، وهذا القسم هو أكثر آيات القرآن الكريم.

- **الثاني**: قسم نزل مرتبطًا بسبب من الأسباب الخاصة، يُسميه العلماء (سبب نزول الآية)، وآيات هذا القسم هي الأقل، ولأهميتها أفردها العلماء بالدراسة والبيان.

عناية العلماء بأسباب النزول:

اعتنى العلماء - رحمهم الله تعالى - عناية فائقة بدراسة أسباب النزول وأفردوها بمؤلفات مستقلة، وهي مؤلفات كثيرة، وأول من أفرده بالتأليف علي بن المديني (ت ٢٣٤هـ)، وممن ألف فيه عبدالرحمن بن محمد المعروف بمطرف الأندلسي (ت ٤٠٢هـ) فقد ألف كتابه «القصص والأسباب التي نزل من أجلها القرآن». ومنهم أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت ٤٦٨هـ) واسم كتابه «أسباب النزول»، وطُبع مرارًا[(١)]، وقد اختصر الجعبري هذا الكتاب بحذف أسانيده[(٢)]، ومنهم ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) واسم كتابه «أسباب نزول القرآن»، ومنهم ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) واسم

---

(١) حقق عدة مرات، وممن حققه السيد أحمد صقر وأيمن صالح شعبان وكمال بسيوني زغلول وعصام الحميدان في أطروحته للماجستير في جامعة الإمام.

(٢) وهو مخطوط، ويحتاج إلى من يقوم بتحقيقه في أطروحة علمية.

كتابه «العُجَابُ في بيان الأسباب»، وقد ذكر السيوطي أنَّه اطلع على مسودة هذا الكتاب، وأنَّ ابن حجر مات قبل أن يبيضه[١]، ومنهم السيوطي (ت ٩١١هـ) الذي ألف كتابًا سماه «لباب النقول في أسباب النزول» وطبع في مجلد واحد.

وفي العصر الحديث:

ألف الأستاذ إبراهيم محمد العليّ كتابه «صحيح أسباب النزول».

وألف د. أبو عمر نادي بن محمود الأزهري ثلاثة كتب: «نهاية السول فيما استدرك على الواحدي والسيوطي من أسباب النزول» و«المقبول من أسباب النزول» و«الدخيل من أسباب التنزيل».

كما ألف الشيخ مقبل بن هادي الوادعي «الصحيح المسند من أسباب النزول».

تعريف سبب النزول:

هو «ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه» كحادثة تقع حين نزول القرآن الكريم فتنزل آية أو آيات من القرآن تبيِّن الحُكمَ فيها، أو كسؤال يُوجَّه إلى الرسول ﷺ فتنزل آية أو آيات من القرآن الكريم وفيها الإجابة عليه.

ويُفيد قولنا: (وقت وقوعه) أنَّه لابدَّ أن يكون نزول الآيات وقت وقوع الحادثة أو توجيه السؤال، فإن كانت الحادثة قبل نزول الآيات بزمن طويل خرج ذلك عن هذا الباب، وصار من باب الإخبار عن الوقائع الماضية والأمم السابقة، كالآيات التي تتحدث عن خلق آدم عليه السلام، وقصته مع إبليس، وقصة ابنيّ آدم، وقصص الأنبياء

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٢٨، وقد صدر كتاب (العجاب) بتحقيق: أ. عبدالحكيم محمد الأنيس في مجلدين وهو إلى الآية٧٨ من سورة النساء.

السابقين كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم عليهم السلام، فإن الحديث عن ذلك ليس من هذا الباب.

ولا يلزم أن يكون نزول الآيات بعد الحادثة أو السؤال مباشرة، بل يصح أن يتأخر زمنًا يسيرًا، فإن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾﴾[(١)] قد نزل بعد خمس عشرة ليلة من الحادثة، وكذا الآيات المتعلقة بحادثة الإفك إنَّما نزلت بعد نحو شهر منها.

والحادثة التي ينزل القرآن لأجلها قد تكون من الرسول ﷺ، كما حدث في سبب نزول سورة عبس حين جاء ابن أمِّ مكتوم إلى الرسول ﷺ، وهو يُناجي بعض زعماء قريش ويدعوهم إلى الإسلام، فجاءه ابن أمِّ مكتوم وقال: يا رسول الله! علِّمني مما علَّمك الله. وجعل يناديه ويكرر النداء، والرسول ﷺ مشغول عنه، ومقبل على هؤلاء النفر، فنزلت سورة عبس. فكان الرسول ﷺ إذا رأى ابن أمِّ مكتوم بعد ذلك يقول: «مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي»[(٢)].

وقد تكون الحادثة من جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، كأولئك الصحابة الذين كانوا يُصَافون المنافقين، ويواصلون رجالًا من اليهود لِـمَا كان بينهم من القرابة والصداقة والحِلف والجوار والرضاع.

---

(١) سورة الكهف، الآيتان: ٢٣-٢٤.

(٢) أسباب النزول: الواحدي، ص٢٩٧.

فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨ ﴾[١][٢].

وقد تكون الحادثة من المشركين أو من اليهود أو من المنافقين، والأمثلة على ذلك كثيرة.

كما أن السؤال قد يكون عن ماضٍ، كقوله تعالى: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ ﴾[٣]، أو عن حاضر، كقوله تعالى: ﴿ ۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ ﴾[٤]، وكقوله سبحانه: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ ﴾[٥]، أو عن مستقبل، كقوله تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ ﴾[٦]، وقوله: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ﴾[٧].

طريق معرفة سبب النزول:

سبب النزول حادثة من أحداث التاريخ الواقعة في عهد الرسول ﷺ، ولهذا فلا طريق لمعرفته إلا طريق الرواية الصحيحة عمن شاهده وحضره، ولا يمكن الاجتهاد في معرفة ذلك، بل لا يجوز؛ لأنه من القول في القرآن بغير علم، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ ﴾[٨].

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٨.
(٢) أسباب النزول: الواحدي، ص٧٩.
(٣) سورة الكهف، الآية:٨٣.
(٤) سورة البقرة، الآية:١٨٩.
(٥) سورة الإسراء، الآية:٨٥.
(٦) سورة البقرة، الآية:٢١٥.
(٧) سورة النازعات، الآية:٤٢.
(٨) سورة الإسراء، الآية:٣٦.

وقال ﷺ: «**من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار**» رواه الترمذي. وقال: هذا حديث حسن(١).

وروى الواحدي عن محمد بن سيرين قال: سألت عَبيدة عن آية من القرآن فقال: اتقِّ الله، وقل سدادًا، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل القرآن(٢).

وقال الواحدي: «ولا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب»(٣).

وإذا ورد سبب النزول عن صحابي فلا تَخْلُو عبارته: أن تكون جازمة وصريحة في السببية فلها حكم الحديث المرفوع. وإمَّا أن تكون العبارة غير صريحة كأن يقول: «نزلت هذه الآية في كذا» فإنَّها تحتمل أنَّ المراد بها سببُ النزول، وتحتمل أنَّ هذا داخلٌ في الآية وإن لم يكن السبب، بل يرادُ بيانُ حُكم من الأحكام الواردة في الآية.

قال ابن تيمية ۞: «وقد تنازع العلماء في قول الصاحب: «نزلت هذه الآية في كذا» هل يجري مجرى المسند - كما لو ذكر السبب الذي أنزلت لأجله - أو يجري مجرى التفسير منه الذي ليس بمسند؟ فالبخاري يُدخله في المسند، وغيره لا يدخله في المسند، وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح كمسند أحمد وغيره، وبخلاف ما إذا ذكر سببًا نزلت عقبه، فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند»(٤).

---

(١) جامع الترمذي، جـ٥، ص١٩٩.

(٢) أسباب النزول، الواحدي، ص٥.

(٣) أسباب النزول، الواحدي، ص٤.

(٤) مقدمة في أصول التفسير: ابن تيمية، تحقيق د. عدنان زرزور، ص٤٨، وانظر الإتقان للسيوطي، جـ١، ص٣١.

وإذا ورد سببُ النزول عن تابعي فيشترط لقبوله أربعة شروط:

١- أن تكون عبارته صريحة في السببية: بأن يقول: «سبب نزول هذه الآية كذا» أن يأتي بفاء تعقيبية داخلة على مادة النزول بعد ذكر حادثة أو سؤال، كأن يقول: حدث كذا وكذا، أو سئل رسولُ الله ﷺ عن كذا فأنزل الله تعالى هذه الآية أو فنزلت هذه الآية.

٢- أن يكون الإسناد صحيحًا.

٣- أن يكون التابعي من أئمة التفسير الذين أخذوه عن الصحابة.

٤- أن يعتضد برواية تابعي آخر تتوافر فيه نفس الشروط، وإذا اكتملت هذه الشروط في رواية تابعي قُبِلت وصار لها حُكمُ الحديث المرسل.

قال السيوطي ﷺ عن سبب النزول إذا ورد عن تابعي: إنه «قد يُقبل إذا صَحَّ السند إليه، وكان من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة، كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير، أو اعتضد بمرسل آخر ونحو ذلك»[١].

وبهذا ندرك الحيطة الشديدة التي اتخذها العلماء رحمهم الله تعالى لصيانة تفسير القرآن من الدخيل والتحريف والتبديل.

فوائد معرفة سبب النزول:

لمعرفة سبب النزول فوائد كثيرة من أهمها:

١- معرفة حكمة التشريع، وأنَّه قام على رعاية مصلحة الأمة، ودفع الضرر عنها، وجلب الخير لها، والرحمة بها، وذلك كحادثة خولة بنت ثعلبة ﵂، حين جاءت إلى الرسول ﷺ تشتكي زوجها، وهي تقول: يا رسول الله! أبلى شبابي، ونثرت له بطني،

---

(١) الإتقان للسيوطي، جـ١، ص٣١.

حتى إذا كبر سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك. فنزل قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾[١] وهو أوس بن الصامت[٢]. فشرع الله تعالى الكفارة رحمة بها وبأمثالها، وصيانة للأسرة في المجتمع الإسلامي من التفكك، وحماية للأبناء من التشرد.

٢- معرفة سبب النزول يعين على فهم المراد بالآية وتفسيرها التفسير الصحيح، ودفع اللبس والإشكال عن معناها.

قال الواحدي عن أسباب النزول: «هي أوفى ما يجب الوقوف عليها، وأولى ما تُصرَفُ العناية إليها، لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها»[٣].

وقال أبو الفتح القشيري: «بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز»[٤].

وقال ابن تيمية رحمه الله: «ومعرفة سبب النزول يُعينُ على فهم الآية، فإنَّ العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب، ولهذا كان أصح قولي الفقهاء أنه إذا لم يعرف ما نواه الحالف رجع إلى سبب يمينه وما هيجها وأثارها»[٥].

---

(١) سورة المجادلة، الآية:١.
(٢) لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي، ص٢٠٦.
(٣) أسباب النزول، الواحدي، ص٤.
(٤) البرهان للزركشي، جـ١، ص٢٢.
(٥) مقدمة في أصول التفسير: ابن تيمية، ص٤٧.

ومن الأمثلة على ذلك:

١- قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[١].

فظاهر هذه الآية يدل على أن للإنسان أن يصلي إلى أية جهة شاء، ولا يجب عليه استقبال القبلة لا في سفر ولا في حضر، ولا في فرض ولا في نافلة، وهذا مخالف لما هو معلوم من الأدلة الأخرى في الكتاب والسنة بوجوب التوجه إلى شطر المسجد الحرام. ويزول الإشكال إذا عرف سبب نزول هذه الآية كما رواه جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: «بعث رسول الله ﷺ سرية كنت فيها، فأصابتنا ظلمة فلم نعرف القبلة، فقالت طائفة منا: قد عرفنا القبلة، هي هاهنا قِبَل الشمال، فصلَّوْا وخطوا خطوطًا، وقال بعضنا: القبلة هاهنا قِبَل الجنوب، فصلَّوْا وخطوا خطوطًا، فلما أصبحوا وطلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة، فلما قفلنا من سفرنا سألنا النبي ﷺ عن ذلك، فسكت، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[٢]»[٣].

وروى مسلم في «صحيحه» عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يُصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه قال: وفيه نزلت: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[٤].

---

(١) سورة البقرة، الآية:١١٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٥.

(٣) أسباب النزول: الواحدي، ص٢٣.

(٤) صحيح مسلم، جـ١، ص٤٨٦.

وبهذا ندرك أنَّ هذه الآية خاصة بمن صلى وهو لا يعرف القبلة ثم يتبين له خطؤه، فإنه لا يعيد الصلاة، وكذا في صلاة النافلة على الراحلة في السفر لا يلزم التوجه إلى القبلة. وبمعرفة سبب النزول زال الإشكال.

٢- قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ ﴾[1].

فظاهر الآية نفي الجناح عمَّن طاف بالصفا والمروة مع أنَّ الطواف بهما فرض، والتعبير بنفي الإثم لا يدل على الفرضية، وإذا عرف سبب النزول زال الإشكال، فقد كان للمشركين أصنام على الصفا والمروة، وكانوا يطوفون بهما، فلما جاء الإسلام تحرج هؤلاء عن الطواف بهما، فنزلت هذه الآية، وقد روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه سُئل: أكنتم تكرهون السعي بني الصفا والمروة؟ قال: نعم، لأنها كانت من شعائر الجاهلية حتى أنزل الله: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ ﴾[2][3].

فدل سبب النزول على أنَّ المراد بالآية نفي ما وقر في أذهان بعض الصحابة من التحرج من السعي بين الصفا والمروة، والاعتقاد بتحريم ذلك لأنه من عمل الجاهلية، فنزلت الآية نافية لهذا الإثم، ورافعة للتحرج.

---

(١) سورة البقرة، الآية:١٥٨.

(٢) سورة البقرة، الآية:١٥٨.

(٣) صحيح البخاري، جـ٢، ص١٧١.

٣- ومن فوائد معرفة سبب النزول: تيسير الحفظ، وتسهيل الفهم، وتثبيت الوحي في ذهن كل من يسمع الآية إذا عرف سبب نزولها؛ لأنَّ رَبْطَ الأسبابِ بالمسببات، والأحكام بالحوادث، والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة، كل ذلك من دواعي ثبوت المعلومات في الذهن وسهولة استذكارها عند تذكر بعضها، وذلك ما يُعرف في علم النفس بقانون «تداعي المعاني»(١).

٤- معرفة من نزلت فيه الآية بعينه، حتى لا يُبرَّأ المُتَّهم أو يتهم البريء، وحتى لا يزعم أحد أنَّ المراد بالذم في تلك الآية فلان من الصحابة وهو بريء، أو ينسب إلى آخر صفات مدح في آية، والمراد بها غيره، وفي تفاسير الشيعة كثير من هذا النوع، فلا تكاد تجد آية فيها مدح وثناء على أحد أيًّا كان إلا وألصقوها بأحد أئمتهم، ولا يدعون آية فيها ذم إلا وألصقوها بمخالفيهم، أو بأحد صحابة رسول الله ﷺ كأبي بكر وعمر وعثمان وعائشة وغيرهم رضي الله عنهم(٢).

---

(١) مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص١٠٦-١٠٧.

(٢) والأمثلة على هذا كثيرة جدًّا، أقتصر على ذكر أمثلة من تفسير واحد من تفاسيرهم وهو المسمى: «تفسير نور الثقلين» تأليف عبد علي الحويزي فمنها تفسير قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ [النبأ:١-٢] قالوا: هي في أمير المؤمنين عليه السلام، كان أمير المؤمنين عليه السلام - يقصدون عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه - يقول: «ما لله عز وجل آية هي أكبر مني. ولا لله من نبأ أعظم مني» [نور الثقلين] جـ٥، ص٤٩١، وفسَّروا التراب في قول الكافر يوم القيامة: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ۝٤٠﴾[النبأ:٤٠] بقولهم: «أي: من شيعة علي» جـ٥، ص٤٩٧، وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾ «الحسن والحسين و﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ علي بن أبي طالب ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ محمد ﷺ» نور الثقلين جـ٥ ص٦٠٧. وفسَّروا السماء في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾[الطارق:١] بأنَّها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، والطارق هو الروح الذي مع الأئمة و﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾[الطارق:٣] رسول الله ﷺ جـ٥، ص٥٥٠. أما الشفع والوتر في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّفْعِ =

وقد روى البخاري رحمه الله أنَّ مروان بن الحكم كان على الحجاز، استعمله معاوية، فخطب، فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يُبايع له بعد أبيه، فقال له عبدالرحمن بن أبي بكر شيئًا، فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إنَّ هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ﴾[1]. فقالت عائشة من وراء حجاب: ما أنزل الله فينا شيئًا من القرآن، إلا أن الله أنزل عذري[2].

وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾﴾[الفجر:٣] فالشفع: الحسن والحسين، والوتر: أمير المؤمنين عليه السلام جـ٥، ص٥٧١، وفي قوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾﴾[البلد:٣] قالوا: أمير المؤمنين عليه السلام، وما ولد من الأئمة جـ٥، ص٥٧٨، وزعموا أنَّ قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾﴾[البلد:٥-٦] زعموا أنها في عثمان رضي الله عنه، والمال اللبد يعني الذي جهَّز به النبي ﷺ في جيش العسرة جـ٥، ص٥٨٠، وفي قوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾[البلد:١٣] قالوا: «ولاية أمير المؤمنين» جـ٥، ص٥٨١. وقالوا عن أصحاب الميمنة: هم أصحاب أمير المؤمنين يعني علي بن أبي طالب. جـ٥، ص٥٨٤، وقالوا: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾﴾[الشمس:١] الشمس: رسول الله، ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾﴾[الشمس:٢] أمير المؤمنين، جـ٥، ص٥٨٥، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾[الفجر:٢٧] الآيات معلوم أنها نزلت في عثمان حين اشترى بئر رومة للمسلمين لكنهم يقولون: المراد بها الحسين بن علي عليه السلام، جـ٥، ص٥٧٧. وكذا قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾[الليل:١٧] التي نزلت في أبي بكر رضي الله عنه، قالوا: إنها نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام جـ٥، ص٥٩٣. وحادثة الإفك المشهورة ونزوله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾[النور:١١] الآيات، زعموا أنها نزلت في مارية القبطية، وزادوا افتراء فزعموا أن عائشة هي التي رمت مارية بالزنا. جـ٣، ص٥٨١.
والأمثلة كما قلت كثيرة جدًّا ومعرفة أسباب النزول تكشف تحريفهم وإلحادهم في القرآن الكريم.

(١) سورة الأحقاف، الآية:١٧.

(٢) صحيح البخاري، جـ٦، ص٤٢.

٥- ومن فوائد معرفة أسباب النزول: معرفة أنَّ سبب النزول غير خارج عن حكم الآية إذا ورد مخصص لها.

وبيان ذلك أنَّ اللفظ قد يكون عامًّا، ويقوم دليل على تخصيصه، فلا يجوز إخراج السبب من حكم الآية بالاجتهاد والإجماع؛ لأن دخول السبب قطعي، وإخراجه بدليل التخصيص اجتهادي، والاجتهاد ظني، ولا يجوز إخراج القطعيِّ بالظني.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾[1].

وسبب نزول هذه الآية حادثة الإفك المشهورة، ولفظ الآية عام بالوعيد يشمل التائب وغير التائب، لكن الآية الأخرى استثنت من تاب فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٨٩﴾[2].

فلفظ الآية هنا عام ثم خصص بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾. وبهذا التخصيص نخصص عموم الآية الأولى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ﴾ الآية، لكن التخصيص للآية الأولى لا يشمل سبب نزولها، وهو قذف عائشة رضي الله عنها، فيبقى على عمومه بعدم قبول توبة من قذفها؛ لأنَّ دخوله في لفظ الآية الأولى العام قطعي، وإخراجه بما ورد في الآية الثانية اجتهادي ظني، والقطعي لا يخرج بالظني.

---

(١) سورة النور، الآية:٢٣.

(٢) سورة النور، الآيتان:٤-٥.

وبهذا يبقى حكمُ عدم قبول توبة القاذف خاصًّا بقذف عائشة وأمَّهات المؤمنين، ويكون قبول التوبة في قذف غيرهن، ولذا قال ابنُ عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ﴾(١) نزلت في عائشة خاصة(٢).

وفي حديث آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: «هذه في عائشة وأزواج النبي ﷺ، ولم يجعل الله لمن فعل ذلك توبة، وجعل لمن رمى امرأة من المؤمنات من غير أزواج النبي ﷺ التوبة، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾(٣).

فجعل لمن قذف امرأة من المؤمنين التوبة، ولم يجعل لمن قذف امرأة من أزواج النبي ﷺ توبة(٤).

والخلاصة أنَّ الثانية خَصَّصَت عموم الآية الأولى، إلا سبب النزول فلا تخصِّصُه، لأنَّ دخوله قطعي، وتخصيصها ظني.

٦- تخصيص الحكم بالسبب عند من يرى أنَّ العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ.

ومثاله قوله تعالى: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨٨﴾(٥).

فقد أشكل عموم هذه الآية على مروان بن الحكم، فقال لبوَّابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس، فقل: لئن كان كل امرئٍ فرح بما أُوتي، وأحبَّ أن يُـحمد بما لم يفعل مُعذَّبًا، لنُعَذَّبَنَّ أجمعون. فقال ابن عباس: وما لكم ولهذه، إنَّما دعا النبيُّ ﷺ يهودًا فسألهم عن شيء، فكتموه

---

(١) سورة النور، الآية:٢٣.

(٢) رواه الحاكم في مستدركه، جـ٤، ص١٠-١١، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) سورة النور، الآيتان:٤-٥.

(٤) مجمع الزوائد: الهيثمي، جـ٧، ص٧٩-٨٠.

(٥) سورة آل عمران، الآية:١٨٨.

إيَّاه، وأخبروه بغيره، فأَرَوْه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أَتوا من كتمانهم، ثم قرأ ابن عباس: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾[(١)] كذلك حتى قوله: ﴿يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ﴾[(٢)][(٣)].

٧- ومن فوائد معرفة سبب النزول: كشف وجه من وجوه بلاغة القرآن الكريم حيث مراعاة الكلام لمقتضى الحال، وذلك بالمطابقة والمقارنة بين الحادثة والنص القرآني الذي نزل فيها.

الاستفادة من معرفة سبب النزول في مجال التربية والتعليم:

نقل المعلومات من ذهن إلى ذهن يحتاج إلى أمرين مهمين:

- **أولهما**: القدرة من المدرس.
- **ثانيهما**: الاستعداد من الطالب.

ولا نَجَاح للعملية التعليمية ما لم يكن عند مدرس المادة قدرة على التعبير الصحيح عما يُريد إيصاله إلى أذهان الطلاب.

ولا نَجَاح للعملية ما لم يكن ذهن الطالب مُهيئًا ومُشرعًا أبوابه لدخول المادة العلمية. وفتح ذهن الطالب عملية مشتركة بين الطالب والمدرس.

---

(١) سورة آل عمران، الآية:١٨٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية:١٨٨.

(٣) صحيح البخاري، جـ٥، ص١٧٤، ومسلم، جـ٤، ص٢١٤٣.

فالمدرس الناجح هو الذي يستطيع أن يثير مشاعر الطلاب ويجذب انتباههم، ويُهيِّئ نفوسهم لتقبُّل المادة العلمية، وليست هذه المهمة بالمهمة السهلة، بل تحتاج إلى جهد كبير، وفطنة لمَّاحة.

والتمهيدُ للدرس من أهمّ مراحله، وهي مرحلة تحتاج إلى خبرة ودراية:

١- الربط بين المعلومات.

٢- لتأسيس قاعدة يقف عليها ذهن الطالب للانطلاق من معلومة إلى معلومة، أو من الكُلِّ إلى الجزء، إلى أن يُدرك عناصر الدرس ويستوعبها.

٣- لإثارة انتباه الطلاب وجذب مشاعرهم.

وعرضُ سبب النزول سبيل ناجح لتحقيق هذه الأمور في تدريس تلاوة القرآن الكريم، وتدريس تفسير القرآن الكريم، إذ إن سبب النزول - كما أشرنا في التعريف - لا يخلو من أن يكون حادثة أو سؤالًا، ومثل هذا كاف لجذب انتباه الطلاب وربطهم بالمادة العلمية، وتزويدهم بمعلومة عامة ينطلقون منها إلى التفصيل، ومعرفة ما يتعلق بالآية من تفسير لمفرداتها، وبيان لأحكامها، وإدراك لأسرار التشريع فيها، وتوثيق صلتهم بالآية.

وإذا كان عرضُ سبب النزول طريقة ناجحة للتمهيد لدرس التلاوة ودرس التفسير مثلًا فإنه يُمكن الاستفادة من هذا الأسلوب في سائر المواد، بأن يبدأ المدرس بعرض قصة مناسبة تلائم المادة العلمية التي يُريد عرضها، أو يوجه سؤالًا يجذب به انتباه الطلاب، ثم ينطلق إلى درسه بعد أن يطمئن إلى إقبال الطلاب عليه، وتوجه أذهانهم إليه، فيسهل حينئذٍ تلقيهم للدرس، واستيعابهم له.

❊ ❊ ❊

التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي

تعريف التفسير:

اختلف علماء اللغة في لفظ التفسير:

١- فقيل: هو تفعيل من (الفَسْر) بمعنى الإبانة وكشف المراد عن اللفظ المُشكِل[١]، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[٢]، أي: تفصيلًا[٣].

٢- وقيل: هو مقلوب من «سَفَر» ومعناه أيضًا الكشف، يقال: سفرت المرأة سفورًا إذا ألقت خمارها عن وجهها، وهي سافرة. وأسفر الصبح: أضاء. وإنَّما بنوا «فسر» على التفعيل فقالوا: «تفسير» للتكثير[٤].

وقال الراغب الأصفهاني: (الفَسْر) و(السَّفر) يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما، لكن جُعِل الفَسر لإظهار المعنى المعقول... وجعل السَّفر لإبراز الأعيان للأبصار فقيل: سفرت المرأة عن وجهها، وأسفر الصبح[٥].

وفي الاصطلاح:

التفسير: علم يُفْهَمُ به كتابُ الله تعالى المُنزَّل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحِكَمِه[٦].

---

(١) تهذيب اللغة: الأزهري، جـ١٢، ص٤٠٧.

(٢) سورة الفرقان، الآية:٣٣.

(٣) البرهان: الزركشي، جـ٢، ص١٤٨.

(٤) المرجع السابق، جـ٢، ص١٤٧.

(٥) مقدمة جامع التفاسير: الراغب الأصفهاني، ص٤٧، والبرهان: الزركشي، جـ٢، ص١٤٨.

(٦) البرهان: الزركشي، جـ١، ص١٣. وانظر الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٧٤.

مناهج التفسير:

لم يكن الصحابة ﷺ ولا الناس من بعدهم أيضًا على درجة واحدة في فهم القرآن الكريم، بل كانوا يتفاوتون في ذلك، فقد كان يُشكِلُ على بعضهم ما لا يُشكِل على بعضهم الآخر.

ويرجع ذلك إلى تفاوتهم في معرفة اللغة ومعرفة ما يحيط بنزول الآية من أحداث وملابسات كأسباب النزول، زد على ذلك تفاوتهم في القدرة العقلية شأن البشر كلهم.

ولو تساوت الأذهان في إدراك معاني القرآن لبطل التنافس، وخمدت الهمم، لِزوال ما يحملها على القدح وإعمال الذهن والتفكير والتدبر، لكن الله جلَّت حكمته جعل ألفاظ القرآن تحتمل أحيانًا معاني كثيرة، وأمر الناس بالتدبر والتفكر فيها، وحث على ذلك، فتنافس الصحابة وسائر المسلمين من بعدهم في تفسيرها لينالوا الأجر العظيم، والثواب الجزيل.

وسلك العلماء منهجين أساسين لتحصيل معاني القرآن هما:

١- التفسير بالمأثور.

٢- التفسير بالرأي.

التفسير بالمأثور وأهم المؤلفات فيه

تعريفه:

هو بيان معنى الآية بما ورد في الكتاب أو السنة أو أقوال الصحابة رضي الله عنهم .

فهو التفسير الذي يعتمد على صحيح المنقول، ولا يجتهد في بيان معنى من غير دليل، ويتوقف عما لا طائل تحته، ولا فائدة في معرفته.

مكانته:

هو أفضل أنواع التفسير وأعلاها؛ لأن التفسير بالمأثور إما أن يكون تفسيرًا للقرآن بكلام الله تعالى، فهو أعلم بمراده. وإما أن يكون تفسيرًا للقرآن بكلام الرسول ﷺ، فهو المُبيِّنُ لكلام الله تعالى. وإما أن يكون بأقوال الصحابة، فهم الذين شاهدوا التنزيل، وهم أهل اللسان، وتميزوا عن غيرهم بما شاهدوه من القرائن والأحوال حين النزول.

لكن ينبغي أن يُعلَمَ أنَّ هذا مشروط بصحة السند عن الرسول ﷺ، أو عن الصحابة رضي الله عنهم .

وينبغي أن نتفطن إلى أن التفسير بالمأثور قد دخله الوضع، وسرى فيه الدس والخرافات، ويرجع ذلك إلى أمور منها:

١- ما دسه أعداء الإسلام، مثل زنادقة اليهود الذين تظاهروا بالإسلام لدس الأخبار المحرفة التي يجدونها في كتبهم.

٢- ما دسه أصحاب المذاهب الباطلة والنحل الزائفة، كالرافضة الذين افتروا الأحاديث، ونسبوها زورًا وبهتانًا إلى الرسول ﷺ، أو إلى أصحابه رضي الله عنهم .

٣- نقل كثير من الأقوال المنسوبة إلى الصحابة بغير إسناده، مما أدى إلى اختلاط الصحيح بغير الصحيح، والتباس الحق بالباطل.

لذا فإنه ينبغي التثبت عند الرواية للتفسير بالمأثور، وعلى هذا فإن التفسير بالمأثور نوعان:

أحدهما: ما توافرت الأدلة على صحته وقبوله.

ثانيهما: ما لم يصح لسبب من الأسباب السابقة، وهذا يجب رده، ولا يجوز قبولُه، ولا الاشتغال به، إلا لتمحيصه، أو التنبيه إلى ضلاله، حتى لا يغتر به أحد[١].

مصادر التفسير بالمأثور:

وتسمى (طرق التفسير بالمأثور) وهي:

١- القرآن:

تفسير القرآن بالقرآن أفضل طرق التفسير، ومن أمثلته تفسير الكلمات في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾[٢] بقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[٣].

٢- السـنة:

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾[٤]، وقال الإمام أحمد رحمه الله: «السنة تفسر القرآن وتبينه»[٥].

ومن أمثلة تفسير القرآن بالسنة: تفسير المغضوب عليهم باليهود، والضالين بالنصارى، وتفسير الخيط الأبيض والخيط الأسود بأنه بياض النهار وسواد الليل.

---

(١) انظر مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص٤٩٣.

(٢) سورة البقرة، الآية:٣٧.

(٣) سورة الأعراف، الآية:٢٣.

(٤) سورة النحل، الآية:٤٤.

(٥) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، جـ١، ص٣٩.

٣- أقوال الصحابة:

وإذا لم تجد تفسير القرآن في القرآن ولا في السنة فعليك بتفسير الصحابة ﷺ، فإنهم أعلم بذلك لما اختصوا به من مجالسة الرسول ﷺ ومشاهدة القرائن والأحداث والوقائع.

٤ – أقوال التابعين:

وقد اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في الرجوع إلى أقوال التابعين إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا في أقوال الصحابة، فمنهم من عدَّ أقوال التابعين مصدرًا من مصادر التفسير بالمأثور، ومنهم من عدَّها كسائر أقوال العلماء.

أسباب الاختلاف في التفسير بالمأثور:

وقد وقع الاختلاف بين السلف في التفسير بالمأثور، لكنه اختلاف يسير، ومع قلته فإن أغلبه يرجع إلى اختلاف التنوع لا إلى اختلاف التضاد، وهو أيسر أنواع الاختلاف.

ومن أسباب وقوع الاختلاف بين السلف في التفسير:

١- أن يكون في الآية أكثر من قراءة، فيفسر كل منهم الآية على قراءة مخصوصة. ومثاله اختلافهم في معنى «سُكِّرَت» من قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[1]. فقد قال قتادة: من قرأ: ﴿سُكِّرَتْ﴾ مشدَّدة يعني سُدَّت، ومن قرأ: (سُكِرَت) مخفَّفة فإنه يعني سُحرت[2].

(١) سورة الحجر، الآيتان:١٤-١٤.

(٢) تفسير ابن جرير الطبري، جـ١٤، ص١٠.

٢- ومنها الاختلاف في الإعراب، فإن للإعراب أثره في تفسير الآية. ومثاله اختلافهم في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾[1]، فقد اختلفوا في ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ فقيل: عطف نسق على لفظ الجلالة، وقيل: مبتدأ، والخبر في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، فعلى القول الأول أن الراسخين يعلمون تأويله، وعلى القول الثاني لا يعلمون. وسبب هذا الاختلاف الاختلاف في الإعراب.

٣- ومن أسباب الاختلاف احتمال اللفظ أكثر من معنى كالاشتراك اللغوي، فإن بعض الكلمات لها أكثر من معنى في اللغة، كلفظ «قسورة» الذي يُطلق على الرامي وعلى الأسد، ولفظ «النكاح» الذي يُطلق على العقد وعلى الوطء، ولفظ «القرء» الذي يُطلق على الحيض وعلى الطهر، وهناك أسباب أخرى غير ذلك[2].

حكم التفسير بالمأثور:

قلنا: إن التفسير بالمأثور ينقسم إلى قسمين:

١- ما توافرت الأدلة على صحته، فهذا يجب قبوله، ولا يجوز العدول عنه.

٢- ما لم يصح فيجب رده ولا يجوز قبوله ولا الاشتغال به إلا للتحذير منه.

---

(١) سورة آل عمران، الآية:٧.

(٢) انظر ما ذكرته من أسباب أخرى في كتابي «بحوث في أصول التفسير ومناهجه» وقد أفرد هذه الأسباب بالتأليف الدكتور سعود بن عبدالله الفنيسان بكتابه «اختلاف المفسرين أسبابه وآثاره» والدكتور محمد بن عبدالرحمن الشايع في كتابه «أسباب اختلاف المفسرين».

أهم المؤلفات فيه:

والمؤلفات في التفسير بالمأثور كثيرة ومن أهمها:

أولًا: جامع البيان عن تأويل آي القرآن:

مؤلفـه:

هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ولد في (آمُل) في طبرستان سنة (٢٤٤هـ) وتوفي في بغداد سنة (٣١٠هـ) [١].

كان عالمًا بالقراءات، وإمامًا في التفسير، بارعًا في الحديث، وشيخًا للمؤرخين. انفرد في الفقه بمذهب مستقل وأقاويل واختيارات، وله أتباع ومقلدون[٢]. وقال ابن خزيمة: «ما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد ابن جرير»[٣]. وله مؤلفات كثيرة منها: كتاب في القراءات و«تاريخ الرجال» في الصحابة والتابعين و«لطيف القول» جمع فيه مذهبه الذي اختاره، و«تهذيب الآثار»، ومن أهم كتبه «تاريخ الأمم والملوك وأخبارهم».

تفسيره:

أما تفسيره «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» فلم يُؤلَّف قبله ولا بعده مثله في موضوعه، ولا يزال المفسرون عالة على تفسيره في التفسير بالمأثور.

---

(١) طبقات المفسرين: الداودي، جـ٢، ص١١٤.

(٢) طبقات المفسرين: الداودي، جـ٢، ص٩٦.

(٣) طبقات المفسرين: الداودي، جـ٢، ص١١١.

ويتميز تفسيره بمزايا منها:

١ – اعتماده على التفسير بالمأثور عن الرسول ﷺ وأصحابه والتابعين.

٢ – التزامه بالإسناد في الرواية.

٣ – عنايته بتوجيه الأقوال والترجيح.

٤ – ذكره لوجوب الإعراب.

٥ – دقته في استنباط الأحكام الشرعية من الآيات.

وكان هذا التفسير مفقودًا إلى وقت قريب، حيث عُثر على نسخة مخطوطة منه عند أحد أمراء حائل، وهو حمود بن عبيد الرشيد[١]. وقد تم طبعه على هذه النسخة في ثلاثين جزءًا سنة (١٣١٩هـ).

ثم قام الشيخان الفاضلان محمود وأحمد شاكر بتحقيق الكتاب والتعليق عليه ومراجعته وتخريج أحاديثه، وصدر منه ستة عشر جزءًا إلى نهاية تفسير الآية (٢٧) من سورة إبراهيم، ثم قام د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي بتحقيقه وصدر في ستة وعشرين جزءًا عام (١٤٢٢هـ)، ولا يزال بحاجة إلى مزيد عناية وتصحيح.

قال الخطيب: «وكتاب التفسير لم يصنف أحد مثله»[٢]، وقال الذهبي: «وله كتاب في التفسير لم يصنف مثله»[٣].

---

(١) مذاهب التفسير الإسلامي: جولد تسهر. ترجمة د. عبدالحليم النجار، ص١٠٩، والتفسير والمفسرون: الذهبي، جـ١، ص٢٠٧. واسمه عندهما (بن عبدالرشيد) والصحيح ما أثبته. وفي مكتبتي نسخة من هذه الطبعة النادرة.

(٢) تاريخ بغداد، جـ٢، ص١٦٣.

(٣) سير أعلام النبلاء، جـ١٤، ص٢٧٠.

وقال النووي: «أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل تفسير الطبري»[١].

وقال أبو حامد الإسفراييني: «لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيرًا»[٢].

وقال ابن تيمية: «وأمَّا التفاسير التي في أيدي الناس فأصحها تفسير محمد بن جرير الطبري، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين، كمقاتل بن بكير والكلبي»[٣].

ثانيًا: تفسير القرآن العظيم لابن كثير:

مؤلفه:

هو أبو الفِدَاء عماد الدين إسماعيل بن عمرو بن كثير الدمشقي، ولد في بُصْرى في الشام سنة (٧٠٠هـ)، طلب العلم في صغره ورحل في طلبه، وكانت له صلة وثيقة مميزة بابن تيمية ومناضلة عنه[٤]. (ت٧٧٤هـ) رحمه الله.

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات، جـ١، ص٧٨.

(٢) طبقات المفسرين: الداودي، جـ٢، ص١٠٩.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ١٣، ص٣٨٥. أما مقاتل بن بكير فلم أجده في كتب الرجال، ولعله (مقاتل بن سليمان بن بشير) وتصحف إلى بكير، ويؤيد هذا أن تفسيره وتفسير الكلبي متشابهان حتى قيل: «إنَّ مقاتلًا أخذ التفسير عن الكلبي» التهذيب جـ١٠، ص٢٨٠. وقال إبراهيم: «تفسير الكلبي مثل تفسير مقاتل سواء» التهذيب جـ١٠، ص٢٨١. وابن جرير لم يرو عن مقاتل هذا، أما الكلبي وهو محمد بن السائب فقد روى عنه نادرًا مع وصفه له بأنه ممن لا يحتج بنقله. جـ١، ص٦٦ والله أعلم.

(٤) طبقات المفسرين: الداودي، جـ١، ص١١١.

ومن مؤلفاته: «البداية والنهاية»، و«الاجتهاد في طلب الجهاد»، و«جامع المسانيد العشرة»، و«الكواكب الدراري» وغير ذلك.

تفسيره:

يُعَدُّ تفسير ابن كثير من أشهر ما دوِّن في التفسير بالمأثور، ويُعتبر في المرتبة الثانية بعد تفسير ابن جرير الطبري.

قال السيوطي في ترجمة ابن كثير: «له التفسير الذي لم يؤلف على نمط مثله»[(١)].

وقال الشوكاني: «هو من أحسن التفاسير إن لم يكن أحسنها»[(٢)].

وطريقته في التفسير أن يذكر الآية، ثم يفسرها بعبارة سهلة، موجزة ويجمع الآيات المناسبة لها، ويقارن بينها. وتفسيره أكثر كتب التفسير المعروفة سردًا للآيات المتناسبة في المعنى الواحد[(٣)].

ثم يورد الأحاديث المرفوعة التي لها صلة بالآية، ثم يُردِف هذا بأقوال الصحابة والتابعين وعلماء السلف.

وينبه إلى ما في التفسير بالمأثور من منكرات الإسرائيليات إجمالًا أحيانًا وبالتفصيل حينًا آخر[(٤)].

وبالجملة يُعدُّ تفسيره ﷺ من أفضل المؤلفات في التفسير، وقد طبع مرات كثيرة مع تفاسير أخرى، ومستقلًا في أربعة مجلدات كبار، واختصره عدد كبير من العلماء، منهم الأستاذ أحمد شاكر، ومحمد نسيب الرفاعي وغيرهما.

---

(١) مقدمة تحقيق تفسير ابن كثير، جـ١، ص١٩ تحقيق: سامي السلامة.

(٢) المرجع السابق.

(٣) التفسير والمفسرون: الذهبي، جـ١، ص٢٤٤.

(٤) التفسير والمفسرون: الذهبي، جـ١، ص٢٤٥.

ثالثًا: الدر المنثور للسيوطي:

مؤلفه:

هو جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، ولد سنة (٨٤٩هـ)، وتوفي سنة (٩١١هـ)، وبعد أن تلقى العلوم وحَصَّلَ منها حظًّا وافرًا انصرف إلى التأليف في وقت مبكر من حياته، ثم تجرد للتأليف في أواخر عمره، فاعتزل الناس، وترك وظائفه من تدريس وإفتاء.

تفسيره:

ألف السيوطي ﵀ كتابه «ترجمان القرآن» ثم أراد أن يختصره، وعلَّل هذا بقوله: رأيت قصور أكثر الهمم عن تحصيله، ورغبتهم في الاقتصار على متون الأحاديث دون الإسناد وتطويله، فلخصت منه هذا المختصر، مقتصرًا فيه على متن الأثر مُصدِّرًا بالعزو والتخريج إلى كل كتاب معتبر، وسميته بالدُّر المنثور في التفسير بالمأثور[١].

وطبع هذا التفسير في ستة مجلدات، وقام د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي بتحقيقه وصدر عام (١٤٢٤هـ) في سبعة عشر جزءًا. ولا يزال بحاجة إلى مزيد عناية وتصحيح.

رابعًا: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي:

المؤلف:

محمد الأمين بن محمد المختار الجنكي الشنقيطي[٢]. ولد ﵀ في شنقيط، وهي دولة موريتانيا الإسلامية الآن، سنة (١٣٢٥هـ).

---

(١) الدر المنثور: السيوطي، جـ١، ص٢.

(٢) ترجم له تلميذه الشيخ عطية سالم في آخر تفسير الشيخ الشنقيطي.

تلقى العلوم الشرعية واللغة العربية، وحين أدَّى الحج اتصل بعلماء المملكة، فأعجب بهم، وعزم على البقاء في هذه البلاد، فأذن له الملك عبدالعزيز ﷺ بالتدريس في المسجد النبوي، وحين افتتحت الجامعة الإسلامية بالمدينة عُيِّن مُدرِّسًا فيها، وعُيِّن عضوًا في هيئة كبار العلماء، وعضوًا في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، وتوفي ﷺ سنة (١٣٩٣هـ) بمكة. وله مؤلفات كثيرة منها «منع جواز المجاز في المُنزَّل للتعبد والإعجاز» و«دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب» وغير ذلك.

التفسـير:

وصل المؤلف ﷺ في تفسيره هذا إلى آخر سورة المجادلة، ثم أكمل التفسير من بعده تلميذه عطية محمد سالم، وصدر التفسير في عشرة مجلدات.

تميزَ هذا التفسير بميزتين:

إحداهما: تفسير القرآن بالقرآن، وقد التزم أن لا يُبين القرآن إلا بقراءة سَبعيَّة، ولم يعتمد البيان بالقراءات الشاذَّة.

والثانية: بيانُ الأحكام الفقهية ودقة الاستنباط، وحسنُ التفصيل وقوة الاستدلال.

كما تضمن هذا التفسير تحقيق بعض المسائل اللغوية وما يُحتاج إليه من صرف وإعراب، وتحقيق بعض المسائل الأصولية، والكلام على أسانيد الأحاديث.

يُعَدُّ هذا التفسير بحق من خير المؤلفات في التفسير قديمًا وحديثًا، ومن أتبعها للسُّنَّة وأبعدها عن البدعة، والقارئ فيه يجد رائحة علماء السلف ونقاء سريرتهم، وصفاء عقيدتهم، ودقة استنباطهم، وسعة علمهم. رحم الله مؤلفه رحمة واسعة.

* * *

التفسير بالرأي وأهم المؤلفات فيه

تعريفه: هو تفسير القرآن بالاجتهاد.

أقسامه: ينقسم التفسير بالرأي إلى قسمين:

الأول: التفسير بالرأي المحمود:

وهو التفسير المُستَمَدُّ من القرآن ومن سنة الرسول ﷺ، وكان صاحبه عالمًا باللغة العربية، وأساليبها، وبقواعد الشريعة وأصولها.

حكمه:

أجاز العلماء رحمهم الله تعالى هذا النوع من التفسير، ولهم أدلة كثيرة على ذلك منها:

١- قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[(١)]، وغيرها من الآيات التي تدعو إلى التدبر في القرآن.

٢- دعاء الرسول ﷺ لابن عباس بقوله: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**»، ولو كان التفسير مقصورًا على النقل، ولا يجوز الاجتهاد فيه، لما كان لابن عباس مزية على غيره.

٣- أن الصحابة رضي الله عنهم اختلفوا في التفسير على وجوه، فدلَّ على أنه من اجتهادهم.

وبهذا يظهر أن التفسير بالرأي المحمود جائز. والله أعلم.

---

(١) سورة محمد، الآية: ٢٤.

الثاني: التفسير بالرأي المذموم:

هو التفسير بمجرد الرأي والهوى.

وأكثر الذين فسروا القرآن بمجرد الرأي هم أهل الأهواء والبدع، الذين اعتقدوا معتقدات باطلة ليس لها سند ولا دليل، ففسروا آيات القرآن بما يوافق آراءهم ومعتقداتهم الزائفة، وحملوها على ذلك بمجرد الرأي والهوى.

وهذا النوع من التفسير حرام لا يجوز.

قال ابن تيمية رحمه الله: «فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام»[١]. والأدلة على ذلك كثيرة منها:

١ - قوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩﴾[٢].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾[٣].

٢ - حديث: «**من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار**»[٤]، وحديث: «**من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ**»[٥].

---

(١) مقدمة في أصول التفسير: ابن تيمية، ص١٠٥.

(٢) سورة البقرة، الآية:١٦٩.

(٣) سورة الإسراء، الآية:٣٦.

(٤) مسند الإمام أحمد، جـ١، ص٢٣٣ سنن الترمذي، جـ٥، ص١٩٩ وقال: «حديث حسن صحيح».

(٥) سنن الترمذي، جـ٥، ص٢٠٠، وأبو داود، جـ٣، ص٣٢٠.

أهم المؤلفات في التفسير بالرأي:

والمؤلفات في التفسير بالرأي كثيرة منها:

أولًا: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري:

المؤلف:

هو أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري[1] المعتزلي، الملقب بجارالله، ولد سنة (٤٦٧هـ) في زمخشر من قرى خوارزم، بعد أن تلقى العلم رحل إلى مكة، وألَّف فيها تفسيره «الكشاف» ثم عاد إلى خوارزم، وتوفي فيها سنة (٥٣٨هـ)، وهو إمام من أئمة اللغة، لا يأنف من انتمائه إلى الاعتزال بل يجاهر به، ويدعو إليه، ومن مؤلفاته: «أساس البلاغة» و«الفائق في غريب الحديث» و«المُفصَّل» في النحو.. وغيرها.

تفسيره:

اعتنى الزمخشري في تفسيره هذا ببيان وجوه الإعجاز القرآني وإظهار جمال النظم وبلاغته، وخلا هذا التفسير من الحشو والتطويل، وإيراد الإسرائيليات إلا القليل.

والزمخشري قليل الاستشهاد بالحديث، ويورد أحيانًا الأحاديث الموضوعة، خاصة في فضائل السور.

وملأ تفسيره بعقائد المعتزلة والاستدلال لها، وتأويل الآيات وَفْقَها، ويدس ذلك دسًّا لا يدركه إلا حاذق، حتى قال البلقيني: «استخرجت من الكشاف اعتزالًا بالمناقيش»[2].

---

(١) انظر ترجمته في طبقات المفسرين: الداودي، جـ٣، ص٣١٤-٣١٦، وطبقات المفسرين: للسيوطي، ص١٢٠-١٢١.

(٢) الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، جـ٢، ص١٩٠.

وهو شديد على أهل السنة والجماعة، ويذكرهم بعبارات الاحتقار، ويرميهم بالأوصاف المقذعة، ويمزج حديثه عنهم بالسخرية والاستهزاء[١].

ولهذه الأمور وغيرها نبَّه كثير من العلماء إلى أخذ الحيطة والحذر عند المطالعة في تفسيره أو النقل منه، فقال الإمام الذهبي: «محمود بن عمر الزمخشري المفسر النحوي صالح، لكنه داعية إلى الاعتزال أجارنا الله. فكُنْ حذرًا من كشافه»[٢].

وقال عليّ القاري: «وله دسائس خفيت على أكثر الناس، فلهذا حرَّم بعض فقهائنا مطالعة تفسيره لما فيه من سوء تعبيره في تأويله وتعبيره»[٣].

وينبغي لمن أراد أن يقرأ فيه أن يرجع لكتاب «الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال» لابن المنير، وهو مطبوع مع «الكشاف» وفيه كشف لاعتزالياته وضلالته.

ثانيًا: مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي:

المؤلف:

أبو عبدالله محمد بن عمر الرازي الملقب بفخر الدين[٤]. ولد في الرَّي سنة (٥٤٤هـ) وتوفي في هَرَاة سنة (٦٠٦هـ).

---

(١) التفسير والمفسرون: د. محمد حسين الذهبي، جـ١، ص٤٦٥.

(٢) ميزان الاعتدال: الإمام الذهبي، جـ٥، ص٢٠٣.

(٣) مناهج المفسرين: د. مساعد آل جعفر ومحيي هلال ص٢١٦ عن طبقات الفقهاء الحنفية: علي القاري ورقة ٤٩ ب (مخطوط).

(٤) انظر ترجمته في طبقات المفسرين: الداودي، جـ١، ص٢١٣-٢١٧، وطبقات المفسرين: السيوطي، ص١١٥-١١٦.

جمع كثيرًا من العلوم، فكان إمامًا في التفسير، وعلوم الكلام، وكان طبيبًا حاذقًا، وقد ندم على الاشتغال بعلم الكلام، وكان يقول: ليتني لم أشتغل بعلم الكلام، ثم يبكي(١).

ومن مؤلفاته: «مفاتيح الغيب»، و«المحصول في علم الأصول»، و«نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز»، و«مسائل الطب» وغير ذلك.

التفسير:

يُعدُّ تفسير «مفاتيح الغيب» أوسع التفاسير في علم الكلام، فقد تأثر كثيرًا بالعلوم العقلية، فتوسع فيها، وسلك في تفسيره مسلك الحكماء والفلاسفة وعلماء الكلام، واستطرد في العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية والمسائل الطبية، وملأ تفسيره بهذه العلوم، حتى قيل عنه: «فيه كل شيء إلا التفسير»(٢). ومما يعاب عليه أنه يبسط دلائل أهل البدع والفرق المخالفة لأهل السنة بسطًا لا مزيد عليه، ثم يرد عليها ردًا غاية في الوهاء حتى قال بعض العلماء: إنه «يورد الشبه نقدًا، ويحلها نسيئة»(٣).

ولم يتم الرازي تفسيره هذا، بل قيل: إنه بلغ في التفسير إلى سورة الأنبياء، ثم جاء تلميذه الخُوَيِّي فشرع في تكملته ولم يتمه، وأتمه نجم الدين القَمُولي، وقيل: إن الخُوَيِّي أكمله، وكتب القَمُولي تكملة أخرى غيرها، ولا يكاد القارئ يلحظ تفاوتًا بين أساليبهم(٤).

---

(١) طبقات المفسرين: الداودي جـ١، ص٢١٥.

(٢) الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، جـ٢، ص٢٩٠.

(٣) لسان الميزان: ابن حجر، جـ٤، ص٤٢٧-٤٢٨.

(٤) التفسير والمفسرون: الذهبي، جـ١، ص٢٩٣. وذكر بعض المعاصرين أن الرازي قد أكمل تفسيره بنفسه، وليس لأحد غيره إلا تعليقات لبعض تلاميذه وقد أضيفت إلى المتن. وتابعه على ذلك آخرون مخالفين ما قرره المؤرخون والعلماء من تلاميذ الرازي وغيرهم، فقد قال ابن أبي أصيبعة في كتابه «عيون الأنبياء» ٢/ ١٧١ في ترجمة الخويي: «إن له تتمة تفسير القرآن لابن خطيب الري (يعني الرازي)». وابن =

وقد طبع هذا التفسير في (٣٢) جزءًا وتقع في (١٦) مجلدًا كبيرًا.

ثالثًا: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان لابن سعدي:

المؤلف:

هو عبدالرحمن بن ناصر آل سعدي[١]، ولد في عنيزة في القصيم سنة (١٣٠٧هـ)، توفي والده وهو صبي فكفلته زوجة أبيه، وأدخلته مدرسة تحفيظ القرآن، فحفظه في الرابعة عشرة من عمره، واشتغل في طلب العلم، فقرأ الكتب، وحفظ المتون، ثم تصدَّى للتعليم ونشر العلم حتى ذاع صيته.

أبي أصيبعة تلميذ الرازي والخويي. وقال ابن خلكان في «وفيات الأعيان» ٤/ ٢٤٩ عن تفسير الرازي: «وهو كبير جدًا لم يكمله». وقال السبكي في «الطبقات» ٥/ ١٧٩ في ترجمة القمولي: «وله تكملة على تفسير الإمام فخر الدين» وفي «شذرات الذهب» لابن العماد ٦/ ٧٥ في ترجمة القمولي: «قال الإسنوي: وكمل تفسير ابن الخطيب» يعني الرازي. وفي «الشذرات» كذلك ٥/ ٢١ قال ابن قاضي شهبة: «ومن تصانيفه تفسير كبير لم يتمه» وقال ابن حجر في ترجمة القمولي في «الدرر الكامنة» ١/ ٢٠٤: «وأكمل تفسير الإمام فخر الدين» وقال الخفاجي في «شرح الشفاء» ١/ ٢٦٧: «الثابت في كتب التأريخ أن التفسير الكبير وصل إلى سورة الأنبياء وكمله تلميذه الخويي»، وقد حقق هذه المسألة الشيخ عبدالرحمن المعلمي تحقيقًا علميًا قام على استقراء تفسير الرازي توصل فيه إلى أن ما فسره الرازي هو من أول الكتاب إلى آخر تفسير القصص، ومن أول تفسير الصافات إلى آخر تفسير الأحقاف ثم تفسير سورة الحديد والمجادلة والحشر، ثم من أول تفسير سورة الملك إلى آخر الكتاب. وما عدا ذلك فمن تفسير الخويي، وللخويي أيضًا تعليقات على الأصل. (سلسلة رسائل ١-٥ للعلامة عبدالرحمن المعلمي ١٠١-١٣٤) (قلت): وهذا هو الصواب، وأقوال المتقدمين في مثل هذا أقرب إلى الصواب من المتأخرين إذا فقد الدليل. قال ابن تيمية في «الفتاوى» ٢/ ٧١: «وكل قول ينفرد به المتأخر عن المتقدمين ولم يسبقه إليه أحد منهم فإنه يكون خطأ» كما قال الإمام أحمد بن حنبل: «إياك أن تتكلم في السؤال ليس لك فيه إمام» أقول هذا لمن قد يظن أن التجديد ليس إلا في مخالفة ما تقرر وساد عند الأقدمين.

(١) انظر ترجمته في كتاب مشاهير علماء نجد وغيرهم، تأليف عبداللطيف آل الشيخ.

ومن مؤلفاته: «تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن» وهو خلاصة لهذا التفسير، و«القواعد الحسان لتفسير القرآن» و«التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة» و«الفواكه الشهية في الخطب المنبرية».. توفي ﷺ في عنيزة سنة (١٣٧٦هـ).

التفسير:

يقع هذا التفسير في سبعة مجلدات ثم طبع في مجلد واحد، ومع هذا فهو تفسير يميل إلى الإيجاز مع وضوح المعنى، ويعتمد المعنى الإجمالي للآيات حيث يورد مجموعة من الآيات، ثم يفسرها آية آية، وقد يتحدث عنها إجمالًا ثم تفصيلًا موجزًا. ويعرض عن الإسرائيليات، ويستطرد أحيانًا في ذكر فوائد الآيات وما تدل عليه من الأحكام الشرعية والهدايات القرآنية.

رابعًا: في ظلال القرآن لسيد قطب:

المؤلف:

هو سيد بن الحاج قطب بن إبراهيم، ولد سنة (١٩٠٦م). تخرج في كلية دار العلوم سنة (١٩٣٣م) فزاول مهنة التدريس سنوات، ثم موظفًا في وزارة المعارف، ثم أوفد إلى أمريكا للاطلاع على مناهج التعليم فيها لتطبيقها في مصر، وكان القصد من إيفاده التخلص من نشاطه في الدعوة، وعاد من أمريكا وقد زاد حماسه ونشاطه للدعوة، حيث انضم إلى جماعة الإخوان المسلمين، وكان يُردِّد: (لقد ولدت عام ١٩٥١م) وهو عام انضمامه إليهم.

وحين وقع الصدام بين الإخوان وقادة ثورة يوليو في مصر كان سيد في مقدمة المعتقلين، وحكم عليه بالسجن خمسة عشر عامًا، أَلَّف خلالها في السجن تفسيره «في ظلال القرآن»، وكان هذا التفسير من أسباب خروجه من السجن، حيث قرأه الرئيس العراقي عبدالسلام عارف فتوسط عند جمال عبدالناصر لإخراجه بطلب من علماء العراق، وأفرج عنه سنة (١٩٦٤م) فواصل مسيرة الدعوة فأعيد إلى السجن، وصدر ضده حكم بالإعدام ونفِّذَ الحكم سنة (١٩٦٦م) رغم نداءات العالم الإسلامي واحتجاجاتهم.

وله مؤلفات كثيرة منها: «معالم في الطريق» وهو من أهم كتبه ومن أسباب إعدامه، ومنها «التصوير الفني في القرآن» و«مشاهد القيامة في القرآن» و«المستقبل لهذا الدين».. وغير ذلك.

التفسير:

والكتاب وصف أدبي متميز للحياة كما يرسمها القرآن الكريم، وهو منهج لم يسبق إليه سيد من قبل، فمنهج التذوق الأدبي للقرآن الكريم، والتفاعل مع المجتمع الذي ترسمه الآيات، ومطابقته مع المجتمع الحاضر للخروج بمعالم التصحيح ورسم مسار الدعوة والعودة إلى الله، ثم دراسة الإيقاع الصوتي والجرس اللفظي للكلمات القرآنية، ودراسة التراكيب منهج لم يسبق له مثيل في علم التفسير.

أما طريقته في ذلك فخلاصتها أنه يُقدِّم لكل سورة بمقدمة يبين فيها موضوع السورة ومحورها، وأهم سِمَاتها، ثم يعرض لمقاطعها، ويربط بينها ببيان المناسبة وهكذا.. مع الإعراض عن المباحث اللغوية والنحوية وذكر الخلافات الفقهية، وتاركًا الخوض فيما أبهمه القرآن مهملًا للإسرائيليات.

وطبع التفسير مرات عديدة، آخرها وأشهرها في ستة مجلدات كبار.

❊ ❊ ❊

شروط المفسر وآدابه

ورد النهي عن القول في القرآن بغير علم والوعيد الشديد على من اجترأ على ذلك، ولذلك وضع العلماء شروطًا لمن أراد أن يفسر القرآن ليخرج من هذا الوعيد، ويصبح من أهل التفسير والتأويل.

ولا عجب أن يكون للمفسر شروطًا، بل العجب أن يجترئ على كلام الله كلُّ من هبَّ ودَبَّ.

وكم يحزُّ في النفس حين نرى كثيرًا من الناس يجترئون على تفسير القرآن بغير علم، ولا يحسبون لذلك حسابًا فلا تتلكأ ألسنتهم، ولا تَوْجَفُ قُلوبُهم، وكأنهم قد أحاطوا بالقرآن علمًا، وأصبح من مداركهم القريبة، ومن معارفهم الدانية.

وكم من رجل منهم فسر آية لو عرضت على أبي بكر ﵁ لقال: «أيُّ أرض تقلني، وأيُّ سماء تظلني، إذا قلت في القرآن برأيي أو بما لا أعلم»، وإن أحدهم ليفسر الآية ولو سمعه عمر ﵁ لقرعه بِدُرّته.

وقد يقول قائل: لِـمَ وضع العلماء هذه الشروط؟ أليس القرآن للناس كافة، وتدبره واجب على الجميع؟

ونقول لهذا وأمثاله: نعم، إن تلاوة القرآن حق لكل مسلم، لكنَّ تفسيره للناس وبيانه لهم ليس حقًّا لكل إنسان كأي علم آخر، فالطب مثلًا حق لكل إنسان، لكن علاج الناس ليس حقًّا لكل إنسان، إلا إذا درس علم الطب وحذقه، فما بالنا نصرخ في وجوه أدعياء الطب ونستعدي عليهم السلطة، ولا ننهر المجترئين على تفسير كلام الله، وهم ليسوا من أهل التفسير.

وجمل الشروط التي وضعها العلماء للمفسر هي:

أولًا: سلامة العقيدة:

فإن من انحرفت عقيدته يعتقد رأيًا ثم يحمل ألفاظ القرآن عليه، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين[١]، فإذا فسر القرآن أوَّل الآيات التي تخالف مذهبه الباطل، وحرَّفها حتى توافق مذهبه، ومثل هذا لا يطلب الحقَّ فكيف يُطلبُ منه! ومن هؤلاء فرق الخوارج والروافض والمعتزلة وغلاة الصوفية وغيرهم.

ثانيًا: التجرد عن الهوى:

فإنَّ الهوى يحمل صاحبه على نصرة مذهبه ولو كان باطلًا، ويصرفه عن غيره ولو كان حقًّا.

ثالثًا: أن يكون المفسر عالمًا بأصول التفسير:

وذلك أن أصول التفسير بمثابة المفتاح لعلم التفسير، فلا بد للمفسر أن يكون عالمًا بالقراءات والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ونحوها.

رابعًا: أن يكون عالمًا بالحديث رواية ودراية:

إذ إنَّ أحاديث الرسول ﷺ هي المُبيِّنة للقرآن، بل قد قال الإمام الشافعيُّ رحمه الله: «كلُّ ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن»[٢]. وقال الإمام أحمد رحمه الله: «السنة تفسر القرآن وتبينه»[٣].

---

(١) مقدمة في أصول التفسير: ابن تيمية، ص٨٥.

(٢) المرجع السابق، ص٩٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، جـ١، ص٣٩.

خامسًا: أن يكون عالمًا بأصول الدين:

وهو «علم التوحيد» حتى لا يقع في آيات الأسماء والصفات في التشبيه أو التمثيل أو التعطيل.

سادسًا: أن يكون عالمًا بأصول الفقه:

إذ به يعرف كيف تستنبط الأحكام من الآيات، ويستدل عليها، ويعرف الإجمال والتبيين، والعموم والخصوص، والمطلق والمقيد، ودلالة النص وإشاراته، ودلالة الأمر والنهي.. وغير ذلك[(١)].

سابعًا: أن يكون عالمًا باللغة وعلومها:

كالنحو والصرف والاشتقاق والبلاغة بأقسامها الثلاثة: (المعاني والبيان والبديع).

ذلكم أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، وهذه العلوم مما يتوصل بها إلى معرفة المعنى وخواص التركيب ووجوه الإعجاز فيه.

وهذه الشروط - كما ترى - عزيزة المنال، ولهذا تحرَّج كثير من السلف من القول في القرآن بغير علم لتمكن الإيمان من قلوبهم، واستحضارهم الخوف من الله تعالى، وإذا رأيت من يجترئ على القول في القرآن بغير علم فاعلم أنَّه من نقص إيمانه، والله المستعان.

آداب المفسر:

وكما أن للمفسر شروطًا فإنَّ له آدابًا ينبغي عليه الالتزام بها، وهي كثيرة منها:

١ - الإخلاص:

بأن يريد بعمله وجه الله، وأن يطلب رضاه، ولا يبتغي بذلك جاهًا ولا منصبًا، فإن ابتغى غير ذلك ضلَّ وأضلَّ.

---

(١) أصول التفسير وقواعده: خالد العك، ص ١٨٧.

٢- العمل:

فإنه إذا دعا إلى خير فعليه أن يكون أول المؤدين له حتى يلقى القبول من الناس، وإذا نهى عن أمر وجب أن يكون تاركًا له نابذًا إياه، فإنَّ الناس إذا رأوه يأمر ولا يفعل، وينهى ولا يمتثل، نفروا عنه وعن أقواله وإن كانت حقًا.

٣- حسن الخلق:

في قوله وفي فعله وفي سمته، فإن هذا مما يجذب النفوس إليه، وإذا انجذبت إليه أقبل عليه السمع والبصر.

فعليه أن يلتزم حسن الخلق في قوله وعباراته، فيلزم الكلمة الطيبة، ويحذر الكلمات النابية التي ينفر منها السامع ويفزع. وأن يتحرى الصدق في سائر أقواله حتى يطمئن الناس إليها، فإنهم إذا جربوا عليه كذبًا اضطرب عندهم سائر كلامه.

وعليه أن يلتزم حسن الخلق في فعله، فيتواضع لمن هم دونه مقامًا، ولا يتعالى فلا تطاله أيديهم، فلا يستفيدون من علمه، وأن تكون نفسه عزيزة، فيترفع عن سفاسف الأمور، والتذلل لأصحاب المال أو الجاه، فإن العامة إذا رأوا تهافته على ذلك سقط من أعينهم. وعليه أن يجهر بالحق ولا يكتمه، فأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، والساكت عن الحق شيطان أخرس.

ومن حسن الخلق أن يقدم من هو أولى منه، وأن يوقرهم حضورًا كانوا أو غائبين، فلا يغمط أقوالهم حقها، بل يظهرها ويعترف بفضلها ومزيتها، ولا يقدم قوله عليها، ولا يُنكر سبقهم له إلى رأي رآه، أو قول يقول به.

وعليه أن يلتزم حسن الخلق في سمته بأن يلبس لباس العلماء ويتزيى بزيهم، ويلتزم الوقار في جلوسه ووقوفه ومشيته دون تكلف، ولا يحضر مجالس اللهو، وأن يتأنى في حديثه حتى يفهم الناس عنه قوله، فلا يضطرهم إلى كثرة الاستفسار، والجرأة على قطع حديثه. والله المستعان.



الوحي

حاجة البشر إليه:

خلق الله ﷻ الإنسان في أحسن تقويم، وركبه أحسن تركيب، وجعله من:

١ - جسد.

٢ - روح.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾[1].

وحين نتأمل في غذاء كل من هذين العنصرين: (الروح والجسد) نجد أن الجسد خلق من تراب، وأنَّ غذاءه من التراب (نبات أو حيوان يتغذى بالنبات)، وأنه إذا مات يتحلل ويعود إلى التراب! ولذلك يتمنى الكافر يوم القيامة لو أنه بقي على أصله الترابي الأول فيقول: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾[2].

أما الروح فمن الله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[3].

وإن كانت النسبة إضافة تشريف فلا بد أن يكون غذاؤها من الله، وليس من التراب، ولا ممن خُلِقَ من التراب، فإن التَزَمَتْ بالغذاء الرباني صعدَتْ بعد الموت إلى عليين، وفُتحت لها أبواب السماء ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾[4]، وإن

---

(١) سورة صّ، الآيتان:٧١-٧٢.

(٢) سورة النبأ، الآية:٤٠.

(٣) سورة الحجر، الآية:٢٩، وسورة صّ، الآية: ٧٢.

(٤) سورة الفجر، الآية:٢٧-٢٨.

حادثْ وأبتْ إلا الغذاء الترابي أُغلقت في وجهها أبواب السماء، قال تعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾[١].

وقال كعب: «أرواح المؤمنين في عليين في السماء السابعة، وأرواح الكفار في سجين في الأرض السابعة تحت جند إبليس»[٢].

وغذاء الجسد فيه النافع والضار، فإذا غَذَّى الإنسان جسده بالغذاء الجيد صَحَّ وقوي بناؤه، وظل حيًّا طريًّا متماسكًا، وإذا غذّاه بالغذاء الرديء أو أهمل غذاءه ضعف وانحرف مزاجه، وساءت صحته، وخارت قواه، وهزل وذبل.

وكذا غذاء الروح فيه النافع والضار أيضًا، فإذا غذَّى الإنسان روحه بالغذاء السليم سمت وارتفعت، وصحت وسلمت من الأمراض. وغذاؤها صحة الاعتقاد، وسلامته باتصالها بالله تعالى، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾[٣].

وإذا أهمل الإنسان غذاء روحه أو غذَّاها بالغذاء البشري بأن جعل صلتها بالمبادئ الوضعية، والمعتقدات الزائفة، أو انقادت للذات الجسد الترابي فتغذت بغذائه، واستغنت به عن غذائها الرباني ضعفت وخارت وتاهت، وانحرف مزاجها، ولم يقر لها قرار، وضاقت عليها الأرض على سعتها.

---

(١) سورة الأعراف، الآية:٤٠.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية: علي بن أبي العز، جـ٢، ص٥٨٣. والروح: ابن القيم، ص٩١.

(٣) سورة الرعد، الآية:٢٨.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[١]، ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾[٢]. وقد تطلب الخروج من هذا الجسد الذي ضاقت به وضاق بها، فتؤدي بصاحبها إلى الانتحار.

إذن فإن على الإنسان أن يحرص على اختيار غذاء الروح كما يحرص على اختيار غذاء الجسد، وأن يسأل أطباء الأرواح عن غذائها النافع كما يحرص على سؤال أطباء الأبدان عن غذاء الجسد الفاني، وعليه أن يعرض روحه على أهل الذكر كما يعرض جسده على أهل الطب، وأن يعالج روحه كما يعالج بدنه، وأن يتفقدها كما يتفقد بدنه، وأن يحاسبها دوريًا كما يجري الفحوص الدورية لجسده.

وإذا كان غذاء هذه الأجساد الترابية السفلية الفانية من أصلها الترابي يُستَمد، فإن غذاء هذه الأرواح السامية الباقية من الله العلي الباقي الدائم يُستَمد[٣].

وقد هيأ الله - عز شأنه - الطعام المناسب لكل من هذين العنصرين، فجعل غذاء هذا الجسد من التراب الذي خلق منه، يحرث الأرض ويزرعها فينبت الطعام، أو يحفرها فيخرج الماء أو يجده أقرب من ذلك فوقها.

وهذه الروح من الله، فجعل غذاءها من عنده، ينزل به الروح الأمين على الرسل، فتنشره بين الناس، وتدعو إليه، فمن اهتدى فقد اهتدى لنفسه ومن ضل فعليها.

---

(١) سورة طه، الآية:١٢٤.

(٢) سورة الزخرف، الآية:٣٦.

(٣) من كتابي «قصة عقيدة» ص٤٦-٤٨.

فإذا كان الله سبحانه يهيئ الطعام لهذه الأجساد، فلا عجب أن يهيئ الطعام لهذه الأرواح. ومن الجهل كل الجهل، والضلال كل الضلال الاعتقاد أن الإنسان بعقله أصبح يعرف الحق من الباطل، فليس هو بحاجة إلى من يخبره بذلك، لا يصح هذا؛ لأن الروح لا تزال بحاجة إلى غذائها العلوي ما بقيت في الجسد، كما أن الجسد لا يزال بحاجة إلى غذائه السفلي ما بقيت فيه الروح.

وإن من رحمة الله تعالى بعباده أن أنزل جبريل عليه السلام بغذاء الأرواح إلى الأنبياء عليهم السلام، كما خلق لهذه الأجساد غذاءها، ولا ينكر هذه الحاجة إلا مكابر معاند أو جاهل أحمق.

فالوحي من الله رحمة بعباده لتتغذى به الأرواح، وخَلْقُ الطعام رحمة من الله بعباده لتتغذى به الأجساد، وببقاء العنصرين يبقى الإنسان، وبفقد أحدهما يهلك.

والقرآن وحي ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾[(١)]، وسنة الرسول ﷺ وحي ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤﴾[(٢)].

تعريف الوحي:

الوحي لغة: أصل الوحي في اللغة إعلام في خفاء[(٣)]، وقال الحرَّالي: هو إلقاء المعنى في النفس في خفاء[(٣)]. قال الأزهري: وكذلك الإشارة والإيماء يسمى وحيًا، والكتابة تسمى وحيًا[(٣)]. وقال الراغب الأصفهاني: أصل الوحي الإشارة السريعة، ولتضمن السرعة قيل: أمرٌ وحيٌ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت

(١) سورة الشورى، الآية:٧.

(٢) سورة النجم، الآيتان:٣-٤.

(٣) تاج العروس: الزبيدي، جـ١٠، ص٣٨٥ مادة (وحي).

مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة(١). وقال الزبيدي: أوحى إليه: كلمه بكلام يخفيه(٢).

وقال ابن تيمية رحمه الله: الوحي الإعلام السريع الخفي إما في اليقظة وإما في المنام(٣).

وبهذا يظهر أن الوحي في الأصل: الخفاء والسرعة، وعلى هذا فالوحي في اللغة: الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره(٤).

وطرقه كما أشار إليها الراغب الأصفهاني آنفًا:

١- الكلام على سبيل الرمز والتعريض.

٢- الصوت المجرد عن التركيب.

٣- الإشارة ببعض الجوارح.

٤- الكتابة.

أنواعه بالمعنى اللغوي:

للوحي أنواع بالمعنى اللغوي وأنواع بالمعنى الشرعي، وقد يشتركون في بعضها من حيث الكيفية، لكنهما يختلفان من حيث الاعتبار، فالوحي بالمعنى الشرعي خاص بالأنبياء عليهم السلام.

---

(١) المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، ص٥٣٦، مادة (وحي).

(٢) تاج العروس: الزبيدي، جـ١٠، ص٣٨٥ مادة (وحي).

(٣) مجموع الفتاوى: لابن تيمية، جـ١٢، ص٣٩٨.

(٤) الوحي المحمدي: محمد رشيد رضا، ص٣٧.

وأنواعه بالمعنى اللغوي[١]:

١- إلهام الخواطر أو الإلهام الفطري للإنسان، وهو ما يلقيه الله في روع الإنسان السليم الفطرة الطاهرة الروح، كالوحي إلى أم موسى، قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ﴾ الآية[٢].

ومنه الوحي إلى الحواريين، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ١١١﴾[٣].

٢- الإلهام الغريزي للحيوان، كالوحي إلى النحل، قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ٦٨﴾[٤].

٣- الأمر الكوني للجمادات، قال تعالى: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ٢ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ٣ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ٥﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾[٦].

---

(١) انظر الوحي المحمدي: محمد رشيد رضا، ص٣٧-٣٨، والقرآن الكريم تاريخه وعلومه: د. محمد البدري، ص٥٠، ومباحث في علوم القرآن: القطان، ص٣٢-٣٣.

(٢) سورة القصص، الآية:٧.

(٣) سورة المائدة، الآية:١١١.

(٤) سورة النحل، الآية:٦٨.

(٥) سورة الزلزلة، الآيات:١-٥.

(٦) سورة فصلت، الآية:١٢.

٤- ما يلقيه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[١]، وقال سبحانه: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴿١٠﴾﴾[٢]، فالإيحاء الأول من جبريل عليه السلام إلى محمد ﷺ، والثاني من الله ﷻ إلى جبريل عليه السلام. والمعنى: فأوحى جبريل إلى محمد ﷺ ما أوحى الله إليه[٣].

٥- الإشارة السريعة بجارحة من الجوارح، كإيحاء زكريا عليه السلام إلى قومه: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾[٤].

٦- وسوسة الشيطان، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾[٥]، وقال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾[٦].

الوحي شرعًا:

اختلف العلماء في تعريف الوحي:

فمنهم من يعرفه بمعنى (الموحى) فيقول هو: كلام الله تعالى المنزل على أحد أنبيائه. وقيل: هو ما أنزل الله على أنبيائه وعرفهم به من أنباء الغيب والشرائع[٧].

---

(١) سورة الأنفال، الآية:١٢.

(٢) سورة النجم، الآية:١٠.

(٣) تفسير الطبري، جـ٢٧، ص٢٨.

(٤) سورة مريم، الآية:١١.

(٥) سورة الأنعام، الآية:١٢١.

(٦) سورة الأنعام، الآية:١١٢.

(٧) عمدة القاري شرح صحيح البخاري: البدر العيني، جـ١، ص١٤.

ومنهم من يعرفه بمعنى (الإيحاء) فيقول: هو إعلام الله لأحد أنبيائه بحكم شرعي أو نحوه. وقولنا: (إعلام) يشمل أنواع الوحي بمعناه الشرعي كما سيأتي بيانها. وقولنا: (الله) قصر للوحي الشرعي بأنه من الله لا من غيره سبحانه. وقولنا: (لأحد أنبيائه) قصر للوحي بالمعنى الشرعي على الوحي للأنبياء. وقولنا: (بحكم شرعي) بيان للموحى به. وقولنا: (أو نحوه) يراد به القصص والأخبار ونحوها الواردة في القرآن أو السنة مما لم يرد فيها حكم شرعي فهي من الوحي أيضًا.

والظاهر أن الوحي بالمعنى الشرعي لا يخرج عن حد المعنى اللغوي، والفرق بينهما هو الفرق بين العام والخاص. فالوحي بالمعنى اللغوي عام يشمل كل (إعلام في خفاء)، والوحي بالمعنى الشرعي خاص لا يتناول إلا ما كان من الله تعالى لنبي من الأنبياء، فالوحي بالمعنى الشرعي أخص من المعنى اللغوي لخصوص مصدره ومورده، فقد خص المصدر بأنه من الله وخص المورد بالأنبياء[(١)][(٢)].

أنواع الوحي بالمعنى الشرعي:

١- **ما يكون منامًا**: وهو أول مراتب الوحي كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة - وعند مسلم: الصادقة - في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح» الحديث [(٣)].

---

(١) الوحي والقرآن: محمد حسين الذهبي، ص٨، والمدخل لدراسة القرآن الكريم: د. محمد أبو شهبة، ص٨٤.

(٢) ومما يؤسف له أن كثيرًا من الكتب المؤلفة في علوم القرآن في العصر الحديث تنقل تعريف الوحي عن كتاب «رسالة التوحيد» للأستاذ محمد عبده من غير إدراك للأخطاء العلمية والعقدية فيه، فهو يعرفه بأنه «عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت»، وقد نقدت هذا التعريف في كتابي «منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير» جـ١، ص٤٨٦-٤٨٩.

(٣) رواه البخاري، جـ١، ص٣، ومسلم، جـ١٢، ص١٤٠.

وليست الرؤيا خاصة بالفترة الأولى من الوحي، بل وقعت بعد ذلك كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ﴾ الآية[١].

ووقع الوحي بالمنام لإبراهيم عليه السلام كما جاء في القرآن الكريم عنه قوله: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾[٢]، ومبادرة إبراهيم عليه السلام للامتثال، وقول إسماعيل عليه السلام: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ﴾، وقول الله تعالى: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ﴾، دليل قاطع على أن رؤيا الأنبياء عليهم السلام وحي، وأمر من الله سبحانه لهم عليهم السلام.

وفي ابتداء النبي ﷺ من الوحي بالرؤيا الصالحة في المنام تهيئة واستعداد لتلقي الوحي في اليقظة، ويدل على هذا حديث علقمة بن قيس صاحب عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إن أول ما يؤتى به الأنبياء في المنام حتى تهدأ قلوبهم، ثم ينزل الوحي بعد في اليقظة»[٣].

ولم ينزل من القرآن شيء عن طريق الوحي بالمنام، وقد يظن بعضهم أن سورة الكوثر نزلت في المنام مستدلًا بحديث أنس بن مالك رضي الله عنه: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسمًا، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟

---

(١) سورة الفتح، الآية:٢٧.

(٢) سورة الصافات، الآيات:١٠٢-١٠٥.

(٣) فتح الباري: ابن حجر، جـ١، ص١٠، وقال: رواه أبو نعيم في الدلائل بإسناد حسن عن علقمة بن قيس صاحب ابن مسعود.

قال: «أنزلت عليَّ آنفًا سورة، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾[١]...» الحديث[٢].

والصحيح أن هذه الإغفاءة ليست إغفاءة نوم، فقد حكى السيوطي عن الرافعي قوله: «وقد يحمل ذلك على الحالة التي كانت تعتريه عند نزول الوحي، ويقال لها: بُرَحاء الوحي. اهـ. قلت - القائل السيوطي -: الذي قاله الرافعي في غاية الاتجاه، وهو الذي كنت أميل إليه قبل الوقوف عليه[٣]. ونقل القسطلاني عن أمالي الرافعي قوله: «الأشبه أن القرآن نزل كله يقظة»[٤]. وبهذا يظهر أنه لم ينزل قرآن على الرسول ﷺ في المنام، والله أعلم.

٢- ما كان مكالمة بين العبد وربه: قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾ الآية[٥]. ومن هذا النوع تكليم الله ﷻ لموسى عليه السلام: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ١٦٤﴾[٦].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾[٧]، ومنه تكليم الله لنبينا محمد ﷺ في المعراج حيث قال: «فأوحى الله إليَّ ففرض عليَّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة»[٨].

---

(١) سورة الكوثر، الآيات:١-٣.

(٢) صحيح مسلم، جـ١، ص٣٠٠.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٢٣.

(٤) شرح القسطلاني على صحيح البخاري، جـ١، ص٦١.

(٥) سورة الشورى، الآية:٥١.

(٦) سورة النساء، الآية:١٦٤.

(٧) سورة الأعراف، الآية:١٤٣.

(٨) صحيح مسلم، جـ١، ص١٤٦ كتاب الإيمان.

٣- ما يكون إلهامًا يقذفه الله في قلب نبيه على وجه من العلم الضروري لا يستطيع له دفعًا ولا يجد فيه شكًّا، ومنه حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن روح القدس نفث في رُوعي**[1] **إن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها، ألا فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب**»[2].

٤- ما يكون بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، وهذا النوع أشهر الأنواع وأكثرها، وهو المصطلح عليه بـ(الوحي الجلي)، ووحي القرآن كله من هذا القبيل، ولم ينزل شيء من القرآن على الرسول ﷺ بغير هذا النوع كالإلهام أو المنام أو التكليم بلا واسطة، يدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾[3]، وقوله سبحانه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾[4].

والوحي بجميع أنواعه بالمعنى الشرعي يصحبه علم يقيني ضروري من النبي بأن ما ألقي إليه حق من عند الله، ليس من خطرات النفس، ولا وسوسة الشياطين، وهذا العلم اليقيني لا يحتاج إلى مقدمات، وإنما هو من قبيل إدراك الأمور الوجدانية كالجوع والعطش[5].

---

(١) الرُّوع بضم الراء القلب والخَلَد والخاطر، وهو المراد هنا، وبالفتح الخوف والفزع.

(٢) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب ١١٥١-١١٥٢، والبغوي في شرح السنة، جـ١٤، ص٣٠٤، وابن عبدالبر في «التمهيد» جـ١، ص٢٨٤، والخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح، جـ٣، ص١٤٥٨. قال ابن حجر رحمه الله: وحديث «إن روح القدس نفث في روعي» أخرجه ابن أبي الدنيا في القناعة، وصححه الحاكم من طريق ابن مسعود (فتح الباري جـ١ ص٢٧)، وصححه الألباني في تخريجه لأحاديث مشكلة الفقر، ص١٩.

(٣) سورة الشعراء، الآيات:١٩٢-١٩٥.

(٤) سورة النحل، الآية:١٠٢.

(٥) المدخل لدراسة القرآن الكريم: د. محمد محمد أبو شهبة، ص٨٧.

وقد ذكرت هذه الأقسام الأربعة في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ٥١﴾[١].

وقال الإمام البغوي ﷺ في تفسيرها: «﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾ يوحي إليه في المنام أو بالإلهام ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ يسمعه كلامه ولا يراه كما كلم موسى عليه السلام ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ إما جبريل أو غيره من الملائكة»[٢].

كيفية وحي الله سبحانه وتعالى إلى الملائكة عليهم السلام:

ورد ذكر إيحاء الله سبحانه وتعالى إلى الملائكة في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾[٣] وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ﴾[٤] وغير ذلك.

وقد ورد وصف وحي الله إلى الملائكة في السنة النبوية في أحاديث كثيرة، منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فُزِّعَ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: قال: الحق، وهو العلي الكبير...**» الحديث[٥].

(١) سورة الشورى، الآية:٥١.
(٢) معالم التنزيل: البغوي، جـ٤، ص١٣٢. وانظر تفسير الطبري، جـ٢٥، ص٤٥، وابن كثير، جـ٤، ص١٢٨.
(٣) سورة الأنفال، الآية:١٢٨.
(٤) سورة البقرة، الآية:٣٠.
(٥) رواه البخاري في تفسير سورة سبأ، جـ٦، ص٢٨.

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي، فإذا تكلم أخذت السماوات منه رجفة - أو قال: رعدة - شديدة خوفًا من الله عز وجل، فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخروا لله سجدًا، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل»(١).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا، قال: فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل، فإذا أتاهم جبريل فُزِّعَ عن قلوبهم، فيقولون: يا جبريل ماذا قال ربك؟ قال: يقول الحق، قال: فينادون الحق الحق»(٢).

وعلى هذا فإن القرآن الكريم كلامُ الله، أَسْمَعَهُ جبريلَ، وبلَّغه جبريلُ عليه السلام كما سمعه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وليس لجبريل ولا للرسول إلا البلاغ كما دلت على ذلك النصوص القرآنية، مثل قوله تعالى مخاطبًا نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾(٣)،

---

(١) رواه ابن خزيمة في كتاب التوحيد، ص١٤٤، والطبري في تفسيره، جـ٢٢، ص٩١، والبيهقي في الأسماء والصفات، ص٢٠٣، ورواه ابن أبي حاتم، انظر تفسير ابن كثير، جـ٣، ص٥٩١ وقال الألباني: «إسناده ضعيف» السنة: ابن أبي عاصم، جـ١، ص٢٢٧.

(٢) رواه أبو داود، جـ٢، ص٥٣٦-٥٣٧، ورواه ابن خزيمة في كتاب التوحيد، ص١٤٥، والبيهقي في الأسماء والصفات، ص٢٠١. وقال الألباني: «وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين» الصحيحة حديث ١٢٩٣، وأخرجه البخاري تعليقًا وموقوفًا على ابن مسعود، جـ٨، ص١٩٤.

(٣) سورة النمل، الآية:٦.

وقوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ﴾(١)، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾(٢).

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾(٣)، وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾(٤).

فالوحي من حيث التبليغ قسمان:

١ – قسم يبلغه جبريل كما سمعه بحروفه وحركاته من غير زيادة ولا نقصان، وبلغه الرسول عليه الصلاة والسلام كذلك، وهذا ما أجمع عليه العلماء.

٢ – وقسم بلغة جبريل عليه السلام أو الرسول ﷺ أو هما معًا بالمعنى على خلاف بين العلماء.

كيفية وحي الله - سبحانه - إلى الرسل عليهم السلام:

وحي الله سبحانه إلى رسله عليهم السلام، إما أن يكون بواسطة أو بدونها، وما يكون بدون واسطة فهو ثلاثة أنواع:

١ – ما يكون منامًا.

٢ – ما يكون كلامًا.

---

(١) سورة الأعراف، الآية:٢٠٣.

(٢) سورة يونس، الآية:١٥.

(٣) سورة الحاقة، الآيات:٤٤-٤٧.

(٤) سورة التوبة، الآية:٦.

٣- ما يكون إلهامًا. وسبق بيان هذه الأنواع.

وما يكون بواسطة هو النوع الرابع، وهو ما يكون بواسطة جبريل عليه السلام ويسمى الوحي الجلي.

كيفية وحي المَلك إلى الرسول:

وهذا الوحي يقوم على اتصال بين جبريل عليه السلام وهو (مَلَك) وبين الرسول ﷺ وهو (بَشَر)، وحين يكون حديث بين اثنين عربي وعجمي - مثلًا - فإن التفاهم بينهما يحتاج إلى أن يتعلم أحدهما لغة الآخر، والوحي اتصال بين (مَلَك) و(بشر) فالأمر يحتاج إلى غلبة البشرية على المَلك فيفهم البشرُ كلامَه أو غلبة الروحانية على البشر فيسهل على المَلَك تبليغه.

وقد أشار إلى هذا المعنى ابن حجر رحمه الله حيث قال: «إن العادة جرت بالمناسبة بين القائل والسامع، وهي هنا إما باتصاف السامع بوصف القائل بغلبة الروحانية وهو النوع الأول، وإما باتصاف القائل بوصف السامع وهو البشرية وهو النوع الثاني، والأول أشد بلا شك»[١].

وقال الزركشي في «البرهان» والسيوطي في «الإتقان»: «وفي التنزيل طريقان: أحدهما: أن النبي ﷺ انخلع من صورة البشرية إلى صورة الملكية وأخذه من جبريل، والثاني: أن المَلك انخلع إلى البشرية حتى يأخذه الرسول منه، والأول أصعب الحالية»[٢].

ووصف ابن خلدون الحالة الأولى بأنها انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالملكية الروحانية، والحالة الأخرى عكسها؛ لأنها انتقال المَلك من الروحانية المحضة إلى البشرية الجسمانية[٣].

---

(١) فتح الباري: ابن حجر، جـ١، ص٢٨.

(٢) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، جـ١، ص٢٢٩، والإتقان: السيوطي، جـ١، ص٥٨.

(٣) بتلخيص من مقدمة ابن خلدون، ص٩٥-٩٩.

وبهذا يتبين أن وحي الملك جبريل عليه السلام إلى الرسول ﷺ يكون بإحدى حالتين:

الحالة الأولى:

أن يأتيه مثل صلصلة الجرس، والصلصلة في الأصل: صوت وقوع الحديد بعضه على بعض، ثم أطلق على كل صوت له طنين[1].

ومن صفات هذه الحالة:

١ - أنها الأشد على الرسول ﷺ كما وصفها عليه الصلاة والسلام.

٢ - أنها شديدة على الرسول ﷺ فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سألت رسول الله ﷺ: هل تحس بالوحي؟ فقال: «**أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إليَّ إلا ظننت أن نفسي تَفِيض**»[2]. وفي مجمع الزوائد: «**إلا ظننت أن نفسي تقبض**»[3].

٣- أنه ﷺ يعرق عرقًا شديدًا في هذه الحالة من الوحي كما قالت عائشة رضي الله عنها: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقًا»[4].

---

(١) فتح الباري، جـ١، ص٢٧.

(٢) مسند الإمام أحمد، جـ٢، ص٢٢٢. وقال الأستاذ أحمد شاكر: إسناده صحيح، جـ١٢، ص٢٧. قال: والفيض: الموت.

(٣) مجموع الزوائد: الهيثمي، جـ٨، ص٢٥٦.

(٤) صحيح البخاري، جـ١، ص٣، والفصد: قطع العِرْقِ لإسالة الدم، شبه جبينه بالعِرْقِ المفصود مبالغة في كثرة العرق. فتح الباري: جـ١، ص٢٩.

وقال زيد بن ثابت رضي الله عنه: «كنت أكتب الوحي لرسول الله ﷺ، وكان إذا نزل عليه أخذته بُرَحَاءُ[١] شديدة، وعرق عرقًا شديدًا مثل الجمان[٢] ثم سري عنه»[٣].

٤- أن جسمه يثقل ثقلًا شديدًا كما روى البيهقي في «الدلائل» في وصفه للوحي: «إن كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على ناقته فتضرب على جرانها من ثقل ما يوحى إلى رسول الله ﷺ، وإن كان جبينه ليطف بالعرق في اليوم الشاتي إذ أوحى الله إليه»[٤].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «إن كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته فتضرب بجرانها»[٥]، أي: تمد عنقها من التعب.

وكان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ وهو متكئ على رِجْل زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال زيد: «حتى تكاد رِجْلي تنكسر من ثقل القرآن حتى أقول: لا أمشي على رجلي أبدًا»[٦].

٥- أن الرسول في هذه الحالة من الوحي يغط غطيط النائم، ويغيب غيبة كأنها غشية أو إغماء وليست كذلك. وقد روى البخاري أن صفوان بن يعلى رضي الله عنه قد جاء إلى الرسول ﷺ وهو يوحى إليه «وعلى رسول الله ﷺ ثوب قد أظل به، فأدخل رأسه، فإذا رسول الله محمر الوجه وهو يغط»[٧] الحديث.

---

(١) البرحاء، قال ابن الأثير في النهاية، جـ١، ص١١٢: «(البُرَحاء) أي: شدة الكرب من ثقل الوحي».

(٢) الجمان: قال ابن منظور في لسان العرب، جـ١٣، ص٩٣: «هو اللؤلؤ الصغار، وقيل: حب يتخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ».

(٣) مجمع الزوائد: الهيثمي، جـ٨، ص٢٥٧.

(٤) دلائل النبوة: البيهقي، جـ٧، ص٥٣.

(٥) مجمع الزوائد، جـ٨، ص٢٥٧ وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٦) مجمع الزوائد، جـ٨، ص٢٥٧ وقال: رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما ثقات.

(٧) صحيح البخاري، جـ٢، ص١٤٤.

وأخرج ابن سعد عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يغط في رأسه، ويتربد وجهه» أي: يتغير لونه[(١)].

٦- أن للوحي صوتًا يسمعه الرسول ﷺ مثل الصلصلة، ويسمعه الصحابة رضي الله عنهم مثل دوي النحل[(٢)]. وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «كان إذا نزل على رسول الله ﷺ يسمع عند وجهه دوي كدوي النحل»[(٣)].

الحكمة من صوت الصلصلة:

قال ابن حجر رحمه الله: «والحكمة في تَقَدُّمِه أن يقرع سمعه الوحي فلا يبقى فيه مكان لغيره»[(٤)].

فائدتها:

قال القسطلاني: «وفائدة هذه الشدة ما يترتب على المشقة من زيادة الزلفى ورفع الدرجات»[(٥)].

قلت: ولعل هذه الشدة لأن الأجسام أوعية للأرواح، ولكل جسم روح تناسب كثافته وحجمه، فإذا غلبت الروحانية على الجسم فإن الجسم ينوء بها، فيعاني شدة، ويعرق نتيجة الجهد، ويثقل؛ لأن أجسام البشر خلقت لأرواح البشر، فإذا سمت الروح وعلت فإن هذا الجسد لا يكاد يحتملها، والله أعلم.

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦٠.

(٢) فتح الباري: ابن حجر، جـ١، ص٢٧.

(٣) مسند الإمام أحمد: تحقيق أحمد شاكر، جـ١، ص٢٢٣-٢٢٤ ورواه البيهقي في الدلائل، جـ٧، ص٥٥، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٤) فتح الباري: ابن حجر، جـ١، ص٢٨.

(٥) إرشاد الساري: القسطلاني، جـ١، ص٥٨.

الحالة الثانية:

أن يأتي جبريل عليه السلام إلى الرسول ﷺ في صورة رجل كدِحية الكلبي أو أعرابي مثلًا، فيكلمه كما يكلمه البشر.

وقد ورد ذكر هاتين الحالتين في الحديث الذي روته عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليَّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا، فيكلمني فأعي ما يقول**». قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، وإنَّ جبينه ليتفصد عرقًا[1].

إمكانية وقوع الوحي:

من المعلوم أن العالم ينقسم إلى قسمين:

١ - عالم الغيب (أو ما وراء المادة).

٢ - عالم الشهادة.

وقد ضاقت عقول فئة من الناس فلم تؤمن إلا بعالم الشهادة، وأنكرت عالم الغيب، وهذا بلا شك قصور في الإدراك وفي وسائله.

ولو تأمل هؤلاء لأدركوا أن فيما أنكروا ما لا يخفى على ذي لب، وأن في عالم الغيب ما هو أقوى ثبوتًا من بعض ما في عالم الشهادة.

أرأيتم ذلك العقل الذي يؤمنون به هل يستطيعون إثبات وجوده بوسائل الإدراك عندهم، وهل يجرؤ أحدهم على إنكار وجوده؟

---

(١) صحيح البخاري، جـ١، ص٢-٣.

وتلك الروح التي تسري في أجسادهم هل يدعي أحدهم إنكارها ولو مجرد دعوى؟

هل يجرؤ أحدهم على التسوية بين الجسد الميت والجسد الذي تدب فيه الروح، وهل يستطيع بوسائل إدراكه إثبات وجودها؟

ألا فليراجع أولئك وسائل الإدراك عندهم، وليعلموا قصورها، وليبحثوا عن الخلل فيها. وليعلموا - أيضًا - أن هناك عالَـمًا آخر أوسع من العالم الذي يعيشون فيه هو عالم الغيب.

وللمتأمل في عالم الشهادة علامات بارزة وأدلة ثابتة لذوي الألباب تدل دلالة قاطعة على عالم الغيب.

والوحي من عالم الغيب الذي يجب الإيمان به، ومن صفات المؤمنين أنهم يؤمنون بالغيب، ولِـمَن طلب الأدلة العلمية - للطمأنينة القلبية - على إمكانية وقوع الوحي نذكر منها:

١ - الحالة الإنسانية نفسها: فالإنسان نفسه أول ما يولد لا يملك من أمر نفسه شيئًا، فلا يملك التحكم في تحريك يده، ولا رأسه، ولا رجله، ولا تحريك بصره يمنة أو يسرة، حتى برازه يخرج بغير إرادته، فلا حول له ولا قدرة ولا سلطان، إلا القدرة على تحريك شفتيه للرضاعة!! لأن هناك من كفاه الحاجة إلى كل حركة، وهي أمه التي تقوم بكل حاجته، إلا تلك الحركة فلا يمكن أن تقوم بها، ولا يمكن أن يستغني عنها، فمن الذي ألهمه هذه الحركة، ومن الذي علَّمه؟!! لا ريب أن قيوم السماوات والأرض هو الذي ألهمه وعلمه، فلا عجب إذًا أن يلهم بعض البشر ما تقوم به حياة البشر عامة وصلاح أمرهم.

٢- أن بعض الحشرات كالنحل والنمل وغيرهما تأتي بعجائب الأنظمة، ودقائق الأمور مما يطول شرحه وبسطه، ويدرك المتأمل أنه من المستحيل أن يكون ذلك صادرًا عن تفكير لها، أو منبثقًا من غريزتها المجردة، بل يوقن أنها لم تصدر في ذلك إلا عن إلهام رباني ووحي إلهي.

فإذا اقتضت رحمة الله الإلهام إلى تلك الحيوانات والحشرات بما تقوم به حياتها، هل يستبعد أحد أن يلهم الله أحدًا من البشر ما تقوم به حياتهم وسعادتهم وهو أعز وأكرم؟ ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾[1].

٣- وفي المخترعات الحديثة والمكتشفات العلمية ما يقرب إلى الأذهان إمكانية الاتصال، فإذا كان الهاتف - مثلًا - يمكن للإنسان بواسطته أن يخاطب من في أقصى الأرض، وأن يسمع حديثه لا يخفى عليه منه شيء، ولا يسمع الحاضرون إلا دويًا كدوي النحل!! فضلًا عن الإذاعة التي تنقل الأصوات إلى ما هو أعم وأوسع، والتلفاز الذي ينقل الصوت والصورة، إذا كان هذا بعض شأن البشر وقدرتهم التي أعطاهم الله، هل يجرؤ أحد على إنكار إمكانية اتصال الله بأحد أنبيائه وإسماعه كلامه بواسطة أو بغير واسطة؟ لا ينكر هذا إلا مكابر معاند.

أدلة وقوع الوحي:

وإذا ثبتت إمكانية وقوع الوحي فإن الأدلة على وقوعه وتحققه كثيرة:

١ - فمن الكتاب:

قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥ ﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ﴾[4].

(١) سورة الإسراء، الآية:٧٠.
(٢) سورة النجم، الآيتان:٣-٤.
(٣) سورة الأنبياء، الآية:٢٥.
(٤) سورة الإسراء، الآية:٣٩.

وقال عز وجل: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾(١). وغير ذلك من الآيات.

٢- ومن السُّـنَّـة:

حديث عائشة رضي الله عنها: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة - وفي رواية: الصادقة - في المنام...» الحديث(٢).

وحديث عائشة رضي الله عنها - أيضًا - أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس...**» الحديث(٣).

وغير ذلك من الأحاديث.

٣- والدليل العقلي:

أن النبوة والرسالة ثابتة بأدلة كثيرة، وبراهين عديدة، وثبوت ذلك يقتضي ثبوت الصدق والعصمة للنبي، وقد أخبر الصادق المعصوم بأنه يوحى إليه، فيلزم من ذلك ثبوت وقوع الوحي، فكل ما أخبر به الصادق المعصوم فهو حق وثابت، فلا يبقى بعد ذلك شبهة ولا نحوها في إمكانية وقوع الوحي ووقوعه، والله أعلم.

* * *

(١) سورة النساء، الآية:١٦٣.

(٢) رواه البخاري، جـ١، ص٣، ومسلم، جـ١، ص١٤٠.

(٣) رواه البخاري، جـ١، ص٢-٣.

نزول القرآن الكريم

في القرآن الكريم آيات ورد فيها النص على نزول القرآن الكريم:

١ - فمنها ما يدل على نزول القرآن الكريم جملة واحدة:

أ- ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ﴾[(١)].

ب- ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾[(٢)].

ت- ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾[(٣)].

٢ - ومنها ما يدل على نزوله مفرقًا:

أ- ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾[(٤)].

ب- ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾[(٥)].

أقوال العلماء في نزول القرآن الكريم:

ولتنوع دلالة هذه الآيات فإن للعلماء في نزول القرآن الكريم أقوالًا:

القول الأول: أن للقرآن الكريم نزولين:

النزول الأول: من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا.

---

(١) سورة الدخان، الآية:٣.

(٢) سورة القدر، الآية:١.

(٣) سورة البقرة، الآية:١٨٥.

(٤) سورة الإسراء، الآية:١٠٦.

(٥) سورة الفرقان، الآية:٣٢.

وعلى هذا النزول تحمل الآيات التي تدل على نزوله جملة واحدة وهي:

١ - ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾[(١)].

٢ - ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾[(٢)].

٣ - ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾[(٣)].

والنزول الثاني: نزوله بعد ذلك منجمًا على الرسول ﷺ. وعلى هذا تحمل الآيات التي تدل على نزوله منجمًا وهي:

١ - ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾[(٤)].

٢ - ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾[(٥)].

واستدل أصحاب هذا القول بأدلة منها:

١ - أن عطية بن الأسود سأل ابن عباس رضي الله عنهما فقال: «إنه قد وقع في قلبي الشك في قول الله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾[(٦)] وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾[(٧)].

---

(١) سورة القدر، الآية:١.

(٢) سورة الدخان، الآية:٣.

(٣) سورة البقرة، الآية:١٨٥.

(٤) سورة الإسراء، الآية:١٠٦.

(٥) سورة الفرقان، الآية:٣٢.

(٦) سورة البقرة، الآية:١٨٥.

(٧) سورة القدر، الآية:١.

وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾[(١)]، وقد أنزل في شوال وذي القعدة وذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول. فقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه أنزل في رمضان وفي ليلة القدر وفي ليلة مباركة جملة واحدة، ثم أنزل بعد ذلك على مواقع النجوم رَسْلًا في الشهور والأيام»[(٢)].

٢- ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: فُصِلَ القرآن من الذكر، فوضع في بيت العزة في السماء الدنيا، فجعل جبريل عليه السلام ينزله على النبي ﷺ ويرتله ترتيلًا[(٣)].

٣- وما رواه عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أنزل الله القرآن إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، فكان الله إذا أراد أن يوحي منه شيئًا أوحاه، أو أن يحدث منه في الأرض شيئًا أحدثه»[(٤)].

٤- عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾[(٥)] قال: «أنزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر إلى السماء الدنيا، وكان بمواقع النجوم، وكان الله ينزله على رسول الله ﷺ بعضه في إثر بعض..»[(٦)].

٥- وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة، وقرأ: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣﴾[(٧)].

---

(١) سورة الدخان، الآية:٣.

(٢) الأسماء والصفات: البيهقي، ص٢٣٦، والطبري في تفسيره، جـ٣، ص٤٤٨، وقال ابن كثير في تفسيره، جـ١، ص٢٣١: رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٣) المستدرك: الحاكم، جـ٢، ص٢٢٣، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٤) رواه الحاكم في مستدركه، جـ٢، ص٢٢٢، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٥) سورة القدر، الآية: ١.

(٦) رواه البيهقي في دلائل النبوة، جـ٧، ص١٣١، ورواه الحاكم في مستدركه، جـ٢، ص٢٢٢، وقال: هذا حديث صحيح على شرطهما ولم يخرجاه.

(٧) سورة الفرقان، الآية:٣٣.

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾[1]»[2].

٦- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أنزل القرآن ليلة القدر في رمضان إلى السماء الدنيا جملة، ثم أنزل نجومًا»[3].

فهذه الأحاديث كلها موقوفة على ابن عباس، وأغلب أسانيدها صحيحة.

القول الثاني: وقال به الشعبي[4] ومحمد بن إسحاق[5]، وهو أن للقرآن الكريم نزولًا واحدًا بدأ في ليلة القدر، وهي ليلة مباركة في شهر رمضان، وعلى هذا تدل الآيات الثلاث: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[6]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[7]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾[8]، ثم نزل بعد ذلك منجمًا في أوقات مختلفة، فليس للقرآن إلا نزول واحد منجم على رسول الله ﷺ.

---

(١) سورة الإسراء، الآية:١٠٦.

(٢) رواه البيهقي في الدلائل، جـ٧/ ١٣٢، وأبو عبيد في فضائل القرآن، جـ٢، ص٢٠٢، والحاكم في مستدركه، جـ٢، ص٢٢٢، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير، جـ١١، ص٣١٢، برقم ١١٨٣٩، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد، جـ٧، ص١٤٠: «فيه عمران القطان وثقه ابن حبان وغيره وفيه ضعف، وبقية رجال ثقات».

(٤) النكت والعيون: الماوردي، جـ٦، ص ٣١٢، والإتقان: السيوطي، جـ١، ص٥٤.

(٥) تفسير الرازي، جـ٥، ث٨٥.

(٦) سورة البقرة، الآية:١٨٥.

(٧) سورة الدخان، الآية:٣.

(٨) سورة القدر، الآية: ١.

القول الراجح:

هو القول الأول أن للقرآن الكريم نزولين: الأول من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا جملة في ليلة واحدة هي ليلة القدر، وهي ليلة مباركة في شهر رمضان. والنزول الثاني: نزوله منجمًا على الرسول ﷺ وذلك في ثلاث وعشرين سنة.

قال ابن حجر عن هذا القول: «هو الصحيح المعتمد»(١)، بل حكى القرطبي الإجماع على أن القرآن أُنزل جملة واحدة(٢).

وقال في موضع آخر: «لا خلاف أن القرآن أُنزل من اللوح المحفوظ ليلة القدر - على ما بيناه - جملة واحدة، فوضع في بيت العزة في سماء الدنيا، ثم كان جبريل ﷺ ينزل به نجمًا نجمًا في الأوامر والنواهي والأسباب، وذلك في عشرين سنة»(٣). ووصف السيوطي هذا القول بأنه (الأصح الأشهر)(٤).

قلت: وتشهد لصحة هذا القول الأحاديث المروية عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهي كلها صحيحة كما قال السيوطي، ولا أثر لكونها موقوفة ابن عباس؛ لأن قول الصحابي في الأمور الغيبية التي لا مجال للاجتهاد فيها له حكم الرفع.

وإياك أن تفهم أن جبريل عليه السلام أخذ القرآن من اللوح المحفوظ ولم يسمعه من الله، فإن هذا القول باطل. قال ابن تيمية رحمه الله: «فمن قال: إنه منزل من بعض المخلوقات كاللوح والهواء فهو مفترٍ على الله، مكذب لكتاب الله، متَّبع لغير سبيل المؤمنين، ألا ترى

---

(١) فتح الباري: ابن حجر، جـ٨، ص٦٢٠.

(٢) تفسير القرطبي، جـ٢، ص٢٩٨.

(٣) تفسير القرطبي، جـ٢، ص٢٩٧.

(٤) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٥٣.

أن الله فرق بين ما نزل منه وما نزل من بعض المخلوقات كالمطر بأن قال: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾[(١)] فذكر المطر في غير موضع، وأخبر أنه نزله من السماء، والقرآن أخبر أنه منزل منه»[(٢)] في قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾[(٣)]، ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾[(٤)]، ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾[(٥)]. وقال ابن تيمية أيضًا: «ثم إن كان جبريل لم يسمعه من الله وإنما وجده مكتوبًا، كانت العبارة عبارة جبريل، وكان الكلام كلام جبريل، ترجم به عن الله كما يترجم عن الأخرس الذي كتب كلامًا ولم يقدر أن يتكلم به، وهذا خلاف دين المسلمين»[(٦)].

وقد رد سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي المملكة ﷾ على قولٍ أورده السيوطي بأن جبريل أخذ القرآن من اللوح المحفوظ[(٧)] فقال: «هذه المقالة اغتر بها كثير من الجهلة وراجت عليهم، والسيوطي[(٨)] ﷾ مع طول باعه وسعة اطلاعه وكثرة مؤلفاته ليس ممن يعتمد عليه في مثل هذه الأصول العظيمة، وهذه المقالة مبنية على أصل فاسد، وهو القول

---

(١) سورة البقرة، الآية:٢٢.

(٢) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، جـ١٢، ص٥١٩-٥٢٠.

(٣) سورة النحل، الآية:١٠٢.

(٤) سورة الزمر، الآية:١.

(٥) سورة فصلت، الآيتان:١-٢. انظر الآيات: النحل:١٠٢، غافر:١، ٢. السجدة:١، ٢. المائدة:٦٧ وغيرها.

(٦) مجموع الفتاوى: ابن تيمية، جـ١٢، ص٥١٩-٥٢٠.

(٧) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٥٨.

(٨) ينبغي أن ننبه إلى أن السيوطي ﷾ أورد هذا القول ناقلًا، وصرح بعد ذلك بقوله: «قلت: ويؤيد أن جبريل تلقفه سماعًا من الله تعالى ما أخرجه الطبراني من حديث النواس بن سمعان مرفوعًا: إذا تكلم الله بالوحي...» الحديث، جـ١، ص٥٨.

بخلق القرآن؛ وهذه مقالة الجهمية والمعتزلة ومن نحا نحوهم، وهذه المقالة الخاطئة حقيقتها إنكار أن يكون الله متكلمًا حقيقة» إلى أن قال: «والقائلون بخلق القرآن منهم من يقول خلقه في اللوح المحفوظ، وأخذ جبريل ذلك المخلوق من اللوح، وجاء به إلى محمد ﷺ؛ ومنهم من يقول: خلقه في جبريل، ومنهم من يقول: خلقه في محمد ﷺ إلى غير ذلك من أقوال»(١).

فهذا ما ينتهي إليه هذا القول ويؤول إليه، وإن لم يكن كثير من الناقلين له يقصدونه(٢).

وإذا كان الرأي الراجح أن للقرآن الكريم نزولين فلنفصل القول في كل نزول على حِدَة.

النزول الأول: نزول القرآن الكريم جملة:

كيفيته:

من المعلوم أن هذا من الأمور الغيبية التي لا يجوز القول فيها إلا بدليل من الكتاب أو السنة، ولا نعرف نصًّا خاصًّا في كيفية هذا النزول، وإنما وردت النصوص العامة في بيان كيفية وحي الله إلى ملائكته، وقد سبق بيانها في مبحث الوحي.

ومع هذا فقد نقل أبو شامة المقدسي عن بعض التفاسير كيفية ذلك فقال: ورأيت في بعض التفاسير.

قال: وقال جماعة من العلماء: نزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى بيت يقال له بيت العزة، فحفظه جبريل عليه السلام، وغشي على أهل السموات من هيبة كلام الله، فمرَّ بهم جبريل وقد أفاقوا فقالوا: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾(٣) يعني القرآن، وهو معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾(٤)، فأتى به جبريل إلى بيت العزة،

---

(١) الجواب الواضح المستقيم في التحقيق في كيفية إنزال القرآن الكريم: للعلامة محمد بن إبراهيم، ص٢.

(٢) نزول القرآن الكريم والعناية به في عهد الرسول ﷺ. د. محمد بن عبدالرحمن الشايع، ص٣٣.

(٣) سورة سبأ، الآية:٢٣.

(٤) سورة سبأ، الآية:٢٣.

فأملاه جبريل على السفرة الكتبة، يعني الملائكة، وهو قوله ﷻ: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامِۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾[١].

ثم قال أبو شامة: «نقلته من كتاب «شفاء القلوب» وهو تفسير علي بن سهل النيسابوري»[٢].

أما الدليل على نزول القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا فمن القرآن:

أ- قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[٣].

ب- قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[٤].

جـ- قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾[٥].

والمراد بالنزول في هذه الآيات كما مرَّ بنا نزول القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا.

ومن السنة الأحاديث المروية عن ابن عباس رضي الله عنهما وقد سبق بيانها.

واسطته:

وهذا أيضًا من الأمور الغيبية التي لم أجد نصًّا صحيحًا صريحًا في بيانها، ومن المعلوم أن جبريل عليه السلام هو الملك الموكل بالوحي كما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾[٦].

---

(١) سورة عبس، الآيتان:١٥-١٦.

(٢) المرشد الوجيز: أبو شامة المقدسي، ص٢٣.

(٣) سورة البقرة، الآية:١٨٥.

(٤) سورة الدخان، الآية:٣.

(٥) سورة القدر، الآية:١.

(٦) سورة النحل، الآية:١٠٢.

وقال ﷻ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾[١].

قال ابن العربي: «ليس بين جبريل وبين الله واسطة، ولا بين جبريل ومحمد عليهما السلام واسطة»[٢]، والله أعلم.

مدتـه:

أما المدة التي تم فيها النزول الأول نزول القرآن الكريم جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا فهي ليلة واحدة، هي ليلة القدر، وهي ليلة مباركة من شهر رمضان، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾[٣]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾[٤]، وقال ﷻ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾[٥].

وليس هناك دليل صحيح على تحديد وقت هذه الليلة غير أنها ليلة القدر في شهر رمضان من غير تحديد للعام الذي كانت فيه، هل كانت قبل ظهور نبوة محمد ﷺ أم بعدها؟ ومع هذا فقد قال أبو شامة: «الظاهر أنه قبلها، وكلاهما محتمل»[٦]، وخالفه السيوطي فقال: «الظاهر هو الثاني، وسياق الآثار السابقة عن ابن عباس صريح فيه»[٧].

قلت: سياق الآثار المذكورة لا يدل على ذلك، ولو من بعيد فضلًا عن أن تكون صريحة فيه.

---

(١) سورة الشعراء، الآيات:١٩٣-١٩٥.
(٢) أحكام القرآن: ابن العربي، جـ٤، ص١٩٥٠.
(٣) سورة القدر، الآية: ١.
(٤) سورة الدخان، الآية:٣.
(٥) سورة البقرة، الآية:١٨٥.
(٦) المرشد الوجيز: أبو شامة المقدسي، ص٢٥.
(٧) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٥٢.

حكمته:

ولنزول القرآن الكريم جملة واحدة من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا حكمٌ عديدة منها ما ذكره أبو شامة المقدسي بقوله: «فإن قلت: ما السر في إنزاله جملة إلى السماء الدنيا؟ قلت: فيه تفخيم لأمره وأمر من أنزل عليه، وذلك بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزل على خاتم الرسل لأشرف الأمم، قد قربناه إليهم لننزله عليهم، ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم منجمًا بحسب الوقائع لَهَبُط به[1] إلى الأرض جملة، كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله تعالى باين بينه وبينها، فجمع له الأمرين: إنزاله جملة، ثم إنزاله مفرقًا، وهذا من جملة ما شرف به نبينا ﷺ»[2].

وقال السخاوي: فإن قيل: ما في إنزاله جملة إلى سماء الدنيا؟ قلت: في ذلك تكريم بني آدم وتعظيم شأنهم عند الملائكة، وتعريفهم عناية الله ﷻ بهم ورحمته لهم. ولهذا المعنى أمر سبعين ألفًا من الملائكة لما أنزل سورة الأنعام أن تزفها[3]. وزاد سبحانه في هذا المعنى بأن أمر جبريل عليه السلام بإملائه على السفرة الكرام البررة عليهم السلام وإنساخهم إياه، وتلاوتهم له.

وفيه أيضًا: إعلام عباده من الملائكة وغيرهم أنه علام الغيوب لا يعزب عنه شيء، إذ كان في هذا الكتاب العزيز ذكر الأشياء قبل وقوعها.

---

(١) في المرشد الوجيز (لم نهبط به) وقد صححتها من الإتقان، جـ١، ص٥٤ الذي نقل عبارة أبي شامة.

(٢) المرشد الوجيز: أبو شامة، ص٢٤-٢٥.

(٣) انظر المعجم الكبير: الطبراني، جـ١٢، ص١٦٦، رقم ١٢٩٣٠، وسيأتي تخريجه.

وفيه أيضًا: التسوية بينه وبين موسى عليه السلام في إنزال كتابه جملة، والتفضيل لمحمد ﷺ في إنزاله عليه منجمًا ليحفظه، قال الله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[1]، وقال عز وجل: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦﴾[2].

وفيه أيضًا: «أن جناب العزة عظيم، ففي إنزاله جملة واحدة وإنزال الملائكة له مفرقًا بحسب الوقائع، ما يوقع في النفوس تعظيم شأن الربوبية»[3].

قلت: وبهذا يظهر أن لنزول القرآن الكريم جملة واحدة حكمًا عديدة منها:

١- تعظيم شأن القرآن الكريم وتفخيم أمره.

٢- تعظيم شأن الرسول ﷺ وتشريفه وتفضيله.

٣- تكريم أمة محمد ﷺ وتعريف الملائكة بفضلها ومكانتها.

٤- إعلام أهل السمٰوات أن هذا آخرُ الكتب المنزلُ على خاتم الأنبياء.

٥- إعلام الملائكة وغيرهم بأن الله يعلم ما كان وما سيكون، وأنه علام الغيوب، ففي القرآن ذكر للأشياء قبل وقوعها وبيان للأحداث قبل حدوثها.

٦- بيان منزلة محمد ﷺ وفضله على سائر الأنبياء عليهم السلام.

فإن قلت: وما أثر بيان عظمة القرآن ومكانة الرسول ﷺ وأمته عند الملائكة وما فائدة ذلك؟

قلت: إن المسلم ليفرح فرحًا شديدًا بدعوة أخيه المسلم الصالحة، وتعظيم مكانتها بقدر صلاح الداعي واستقامته، فإذا كانت الدعوة ممن لم يعص الله طرفة عين، وهم الملائكة، كانت من أفضل الدعاء وأحراها بالإجابة.

---

(١) سورة الفرقان، الآية:٣٢.

(٢) سورة الأعلى، الآية:٦.

(٣) جمال القراء وكمال الإقراء: السخاوي، جـ١، ص٢٠-٢١.

والملائكة يصلون على النبي ﷺ، ويستغفرون لأمة محمد ﷺ، ويدعون لهم، ويحضرون مجالس الذكر، ويكثرون في الأزمنة والأماكن الفاضلة، وحضورهم كله خير، ودعاؤهم حري بالإجابة، فعلمهم بمنزلة الرسول ﷺ، ومكانة أمته، وعظمة كتابه من أسباب إكثارهم ومداومتهم على ذلك، واختصاصهم بزيادة الدعاء، والله أعلم.

اختصاص القرآن الكريم بالنزول الأول:

وهو النزول من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا، وذلك أن الكتب السابقة كانت تنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى الأنبياء إلا القرآن الكريم، والله أعلم.

النزول الثاني: نزول القرآن الكريم منجمًا:

كيفيته:

سبق في مبحث (الوحي) بيان كيفية وحي الملك إلى الأنبياء عليهم السلام وأنواعه، وأن القرآن كله نزل بالوحي الجلي، ولم ينزل منه شيء بالمنام أو الإلهام أو التكليم بلا واسطة.

واسطته:

والقرآن كله نزل بواسطة جبريل عليه السلام، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾[(١)]، وقال عز وجل: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾[(٢)].

(١) سورة الشعراء، الآيات:١٩٣-١٩٥.

(٢) سورة النحل، الآية:١٠٢.

دليلـه:

من الأدلة على نزول القرآن الكريم منجمًا:

١- قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾[1].

٢- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾[2].

٣- ما هو معلوم بالضرورة من سيرة الرسول ﷺ من نزول القرآن عليه مفرقًا من بعثته إلى وفاته عليه الصلاة والسلام.

مقدار ما ينزل في كل مرة:

ليس هناك مقدار ثابت لما ينزل من القرآن الكريم في كل مرة، ونفصل الحديث على النحو التالي:

١- الآيات.

٢- قصار السور.

٣- طوال السور.

أما بالنسبة للآيات فقد ينزل خمس آيات أو أكثر أو أقل، بل قد ينزل بعض آية كقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ﴾[3][4].

---

(١) سورة النحل، الآية:١٠٦.

(٢) سورة الفرقان، الآية:٣٢.

(٣) سورة البقرة، الآية:١٨٧.

(٤) انظر صحيح البخاري، جـ٢، ص٢٣١، وصحيح مسلم، جـ٢، ص٧٦٧.

وكقوله تعالى: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾[١]، ولعل غالب ما ينزل خمس آيات وعشر آيات لما رواه أبو نضرة قال: «كان أبو سعيد الخدري رضي الله عنه يعلمنا القرآن خمس آيات بالغداة، وخمس آيات بالعشي، ويخبر أن جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات»[٢]. وما رواه أبو خلدة عن أبي العالية قال: «قال عمر رضي الله عنه: تعلموا القرآن خمسًا خمسًا، فإن جبريل عليه السلام نزل بالقرآن على النبي ﷺ خمسًا خمسًا»[٣]. وقال أبو العالية: «تعلموا القرآن خمس آيات، فإن النبي ﷺ كان يأخذه من جبريل خمسًا خمسًا»[٤].

أما قصار السور فمنها ما كان ينزل جملة واحدة كالفاتحة والمعوذات، ومنها ما ينزل مفرقًا كسورة العلق والمدثر والضحى.

وأما السبع الطوال فلم ينزل منها سورة جملة واحدة إلا سورة الأنعام كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «نزلت سورة الأنعام بمكة ليلًا جملة، ونزل معها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح»[٥].

مدتـه:

اختلف في مدة نزول القرآن منجمًا على الرسول ﷺ تبعًا للاختلاف في مدة بعثة الرسول ﷺ وهو في مكة، فقيل: عشرون سنة، وقيل: ثلاث وعشرون سنة، وقيل: خمس وعشرون سنة.

---

(١) سورة النساء، الآية:٩٥.

(٢) رواه ابن عساكر، انظر الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٥٧.

(٣) شعب الإيمان: البيهقي، جـ٤، ص٥١٣.

(٤) المرجع السابق، جـ٤، ص٥١٢.

(٥) المعجم الكبير: الطبراني، جـ١٢، ص١٦٦ رقم ١٢٩٣، وقال محققه الأستاذ حمدي عبدالمجيد السلفي: في سنده علي بن زيد وفيه كلام وبقية رجاله رجال الصحيح. ورواه أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن، ص١٢٩، وفضائل القرآن: ابن الضريس، ص٩٤، والإتقان: للسيوطي، جـ١، ص٥٠.

فمن المعلوم أن مدة الوحي بالرؤيا الصالحة كانت ستة أشهر، ثم فتر الوحي في سنتين ونصف. قال السهيلي رحمه الله: «جاء في بعض الروايات المسندة أن مدة الفترة سنتان ونصف، وفي رواية أخرى أن مدة الرؤيا ستة أشهر، فمن قال: مكث عشر سنين حذف مدة الرؤيا والفترة، ومن قال: ثلاث عشرة أضافهما»(١).

وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة، فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين»(٢).

وروي عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهما قالا: «لبث النبي ﷺ بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن، وبالمدينة عشرًا»(٣).

قال ابن حجر رحمه الله: «وهذا ظاهره أنه ﷺ عاش ستين سنة إذا انضم إلى المشهور أنه بعث على رأس الأربعين، لكن يمكن أن يكون الراوي ألغى الكسر». ثم قال: «ويمكن أن يجمع بينه وبين المشهور بوجه آخر، وهو أنه بعث على رأس الأربعين، فكانت مدة وحي المنام ستة أشهر إلى أن نزل عليه الملك في شهر رمضان من غير فترة، ثم فتر الوحي، ثم تواتر وتتابع فكانت مدة تواتره وتتابعه بمكة عشر سنين من غير فترة»(٤).

وعلى هذا يظهر أن القول أن مدة النزول عشرون عامًا أو ثلاثة وعشرون عامًا كالقول الواحد وهو الصواب، والله أعلم.

---

(١) فتح الباري: ابن حجر، جـ١، ص٣٧.
(٢) صحيح البخاري، جـ٤، ص٢٥٣.
(٣) صحيح البخاري، جـ٦، ص٩٦.
(٤) فتح الباري: ابن حجر، جـ٨، ص٦٢٠.

الحكمة في نزول القرآن الكريم منجمًا:

ولنزول القرآن منجمًا حكم عديدة وفوائد كثيرة منها:

أولًا: تثبيت قلب الرسول ﷺ[(١)]:

قال ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾[(٢)].

حين بعث الله عز شأنه عبده ورسوله محمدًا ﷺ، بعثه في أمة صلبة كصلابة أرضها، قاسية كقسوتها، شامخة كشموخ جبالها، بعثه لهذه الأمة ليس لأمر تافه، أو شأن حقير، بل في شأن عظيم، وأمر خطير، بعثه ليسفه أحلامها، ويحطم أوثانها، ويهدم أصنامها، وهي أعز ما يملكون، وأقدس ما يعتقدون. ومن ذا الذي يجرؤ على بعض هذا فضلًا عنه كله وأكثر منه.

تصدى محمد بن عبدالله ﷺ لهذه المهمة فكان أصلب منهم وأقوى، وأحكم منهم وأهدى، جمع بين الصلابة والهدى، والقوة والحكمة، حتى اشتكوه إلى عمه أبي طالب الذي قال له: يا ابن أخي، إن بني عمك زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم وفي مسجدهم فانته عن ذلك، قال: فلحظ رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء فقال: «**ما أنا بأقدر على أن أدع لكم ذلك على أن تشعلوا لي منها شعلة (يعني الشمس)**»[(٣)].

---

(١) في هذا الموضوع كتب الشيخ عبدالرحمن هوساوي رسالته للماجستير وعنوانها «منهج القرآن الكريم في تثبيت الرسول ﷺ وتكريمه» وطبعت في مجلد سنة ١٤١٣هـ.

(٢) سورة الفرقان، الآية:٣٢.

(٣) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث (٩٢): «إسناده حسن». وقال: وأما حديث: «يا عم! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»، فليس له إسناد ثابت، ولذلك أوردته في الأحاديث الضعيفة.

نعم إنها قوة إيمان، وصلابة عقيدة، وهذه القوة وتلك الصلابة بحاجة إلى من يسوسها ويدعمها، ويرعاها ويحفظها، حتى لا تضعف أمام التيارات العاصفة، أو تنهار أمام الضربات المتتابعة، فتعهدها الله القوي الحكيم بقوته وحكمته، وكان في إنزال القرآن منجمًا دعم لتلك القوة، وتثبيت لتلك الصلابة، وترسيخ لتلك الحكمة.. ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾(١).

والأنبياء عليهم السلام كلهم بشر ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾(٢) يأكلون كما نأكل، ويمشون في الأسواق كما يمشي البشر ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾(٣)، ويتزوجون ويولد لهم ذرية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾(٤)، ويعتريهم ما يعتري البشر من الخوف والحزن والهم، والفرح والسرور والضحك والبكاء، ونحو ذلك، وهم بحاجة إلى من يواسيهم ويثبتهم.

وكان لتثبيت قلب الرسول ﷺ صور متعددة منها:

١ - إخباره أن ما جرى له من الأذى والتكذيب قد جرى للأنبياء السابقين من قبله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾(٥)، ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾(٦).

---

(١) سورة الفرقان، الآية:٣٢.

(٢) سورة يوسف، الآية:١٠٩.

(٣) سورة الفرقان، الآية:٢٠.

(٤) سورة الرعد، الآية:٣٨.

(٥) سورة الأنعام، الآية:٣٤.

(٦) سورة آل عمران، الآية:١٨٤.

ومن طبيعة البشر أن المصيبة تخف إذا كانت عامة، وتكون أشد إذا كانت خاصة، هذا في الدنيا دون الآخرة، قال ﷻ: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾(١).

وإعلام الله تعالى لنبيه ﷺ بأن ما جرى له قد جرى للأنبياء السابقين من أسباب تثبيت قلبه وتجدد عزمه.

٢- أمر الله تعالى لنبيه ﷺ بالصبر:

فمن المعهود أن الإنسان إذا أصابته مصيبة وكان بجانبه أحد أصحابه يربت على كتفه، ويأمره بالصبر والاحتساب، ويواسيه ويسليه أن هذا من أقوى الأسباب لسلوانه.

فأمر الله ﷷ لنبيه ﷺ بالصبر من أقوى الأسباب لتثبيت قلبه سيما أن الأمر بالصبر كان مقترنًا أحيانًا بإخباره أن ما جرى له قد جرى للأنبياء السابقين، وأنهم صبروا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾(٢)، ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾(٣).

٣- نهيه عن الحزن والضيق:

وذلك أن حبس النفس بالحزن، والتضييق عليها بالهم من أقوى الدواعي لفتورها ويأسها، فنهى الله نبيه عن الحزن والضيق من مكرهم وما يلاقيه من أذاهم ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾(٤).

---

(١) سورة الزخرف، الآية:٣٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية:٣٤.

(٣) سورة الأحقاف، الآية:٣٥.

(٤) سورة النحل، الآية:١٢٧.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾[(١)]، وقال سبحانه: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾[(٢)]، وقال سبحانه: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾[(٣)].

ولا شك أن للحزن تأثيرًا على صاحبه ولو كان صابرًا، فيعقوب عليه السلام حين فَقَدَ ابنه يوسف قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾[(٤)]، وحين فَقَدَ ابنه الآخر قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾، إلا أنه حزن وتأسف على يوسف ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ فكان أثر الحزن ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾[(٥)].

وبهذا ندرك الحكمة من نهي الرسول ﷺ عن الحزن والضيق مما يمكرون، لِما لهذا من أثر في إعاقة مسار الدعوة، ولِما في أمره بالصبر ونهيه عن الحزن من شَدٍّ لأزره وتجديد لعزمه.

٤ – إخباره بأن الله يعصمه من الناس:

وذلك أنه إذا علم أن ما جرى له قد جرى للأنبياء السابقين من قبله، وأنهم صبروا، فوطن نفسه على الصبر، واستمر في الدعوة ولم يُصِبْهُ الهم ولا الحزن، لكنه يخشى أن يقتله قومه قبل أن يتم دعوته وهو الحريص عليهم، الرحيم بهم، فأخبره الله بالعصمة من ذلك ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[(٦)]، فكانت هذه البشرى من أعظم الدوافع إلى الاستمرار في الدعوة.

---

(١) سورة النمل، الآية:٧٠.

(٢) سورة يس، الآية:٧٦.

(٣) سورة المائدة، الآية:٤١.

(٤) سورة يوسف، الآية:١٨.

(٥) سورة يوسف، الآيتان:٨٣-٨٤.

(٦) سورة المائدة، الآية:٦٧.

أرأيتم ذلك الرجل الذي يتردد في فعل أمر ما فيجدُ من يشجعه ويطمئنه بأنه لن يصيبه أي مكروه ولا ضرر، وأنه سيكون معه، ويأخذ بيده، ويشد أزره، ولا يزال به حتى يجد الطمأنينة، فكيف إذا كانت البشرى من الله، والعصمة من عنده عز شأنه.

ويجد الرسول ﷺ أثر هذه البشرى ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ في كثير من الصور والمشاهد:

أ- حين اجتمع صناديد قريش وقبائل العرب عند بابه ليضربوه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل، فخرج من بين صفوفهم، وجعل فوق رؤوسهم التراب ولم يره أحد[1]﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾.

ب- ويذهب مع صاحبه إلى الغار، ويمر به المشركون يبحثون عنهما، حتى قال أبو بكر رضي الله عنه: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا فقال الرسول ﷺ: «**ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما**»[2]، ومع هذا القرب لم يرهما أحد ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾.

جـ- ويلحق بهما سراقة بن مالك ممتطيًا جواده ومعه رمحه، حتى إذا اقترب منهما ساخت يدا فرسه في الأرض حتى بلغتا الركبتين، وعندما أخرجت يديها إذ لأثرهما عثان ساطع في السماء مثل الدخان، فأدرك سراقة أنه منع عنهما[3] ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾.

د- ويأكل ﷺ من شاة مسمومة أهدتها إليه يهودية، فيموت صاحبه وينجو هو من الموت[4]﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾.

---

(١) سيرة ابن هشام، جـ١، ص١٢٧، وتفسير ابن كثير، جـ٣، ص٦٢٠، ودلائل النبوة: البيهقي، جـ٢، ص٤٦٦-٤٧٠.

(٢) صحيح البخاري، جـ٤، ص١٩٠.

(٣) انظر صحيح البخاري، جـ٤، ص٢٥٧.

(٤) سنن أبي داود، جـ٤، ص١٧٣-١٧٥.

هـ- وحاول اليهود قتل النبي ﷺ بإلقاء حجر من جدار كان ﷺ جالسًا تحته، فجاءه الوحي بذلك فقام من مجلسه[١]﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾.

والصور كثيرة والمشاهد عديدة لحفظ الله تعالى لنبيه من محاولات الاغتيال[٢]، ولا شك أن هذه البشرى[٣] من الله ﷻ لنبيه ﷺ، ورؤية الرسول ﷺ لفشل هذه المحاولات من أقوى الدوافع للطمأنينة والاستمرار في الدعوة وتجدد العزم.

٥- تبشيره بالنصر والتمكين:

قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾[٤]، وقال جل جلاله: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾[٥]، وقال ﷿: ﴿فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٥٦﴾[٦]، وقال ﷻ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾[٧]، وقال ﷿: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾[٨].

(١) سيرة ابن هشام، جـ٣، ص١٩٩-٢٠٠، والبداية والنهاية: ابن كثير، جـ٤، ص٧٥.

(٢) لمزيد من هذه الصور انظر كتاب «والله يعصمك من الناس» للأستاذ أحمد الجدع.

(٣) كانت ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ عند نزولها مجرد بشرى ثم أصبحت بشرى ومعجزة لثبوتها وعدم وقوع ما يخالفها، وهي من الأخبار الغيبية المستقبلية.

(٤) سورة المجادلة، الآية:٢١.

(٥) سورة يوسف، الآية:٢١.

(٦) سورة المائدة، الآية:٥٦.

(٧) سورة التوبة، الآية:٤٠.

(٨) سورة غافر، الآية:٥١.

ووعده سبحانه بالنصر: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ۝٣﴾[١]، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٤٧﴾[٢]، وقد تحقق نصر الله فقد نصر عبده، وأعز جنده ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾[٣] السورة.

والوعد بالنصر والتمكين بعد الإخبار بالعصمة من أدعى الدواعي لتثبيت القلب وتجدد العزم.

تلكم بعض صور تثبيت قلب الرسول ﷺ، وهي الحكمة الأولى من حكم نزول القرآن منجمًا متتبعًا مسار الدعوة ومسيرة الرسول ﷺ، ينزل عليه بين حين وآخر ما يثبت قلبه ويجدد عزمه.

وقد أشار أبو شامة إلى هذه الحكمة من نزول القرآن منجمًا، فقال: «إن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب، وأشد عناية بالمرسل إليه. ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك عليه، وتجديد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة. ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكثرة نزول جبريل عليه السلام عليه فيه»[٤].

ثانيًا: تيسير حفظه وفهمه:

من المعلوم أن الأمة التي بعث فيها الرسول ﷺ كانت أمية، وكان الرسول ﷺ أميًا ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ﴾[٥].

---

(١) سورة الفتح، الآية:٣.

(٢) سورة الروم، الآية:٤٧.

(٣) سورة النصر، الآية:١.

(٤) المرشد الوجيز: أبوشامة، ص٢٧-٢٨.

(٥) سورة الجمعة، الآية:٢.

وقال عن نبيه ﷺ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾(١)، وقال جل جلاله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾(٢).

وليس من السهل على الأمي وعلى الأميين تلقي كتاب كامل دَفعة واحدة، بل الحكمة في التدرج في تنزيل القرآن، والتدرج في تعليمهم إياه، فكان ينزل كما مر بنا خمس آيات خمس آيات، أو سورة سورة، وهذا ما يناسب أحوالهم، ولو نزل عليهم جملة واحدة لشق عليهم حفظه وفهمه فضلًا عن العمل به.

قال أبو شامة المقدسي رحمه الله في بيان هذه الحكمة: «وكان النبي ﷺ أميًّا لا يكتب ولا يقرأ، ففرق عليه القرآن ليتيسر عليه حفظه، ولو نزل جملة لتعذر عليه حفظه في وقت واحد على ما أجرى الله تعالى به عوائد خلقه، والتوراة نزلت على موسى عليه السلام مكتوبة، وكان كاتبًا قارئًا، وكذا كان غيره، والله أعلم»(٣).

ثم أورد سؤالًا وأجاب عليه فقال: «فإن قلت: كان في القدرة إذا أنزله جملة أن يسهل عليه حفظه دَفعة واحدة. قلت: ما كل ممكن في القدرة بلازم وقوعه، فقد كان في قدرته تعالى أن يعلمه الكتابة والقراءة في لحظة واحدة، وأن يلهمهم الإيمان به، ولكنه لم يفعل، ولا معترض عليه في حكمه ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ﴾(٤) ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ٢٥٣﴾(٥)(٦).

---

(١) سورة الأعراف، الآية:١٥٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية:١٥٨.

(٣) المرشد الوجيز: أبو شامة، ص٢٧-٢٨.

(٤) سورة الأنعام، الآية:٣٥.

(٥) سورة البقرة، الآية:٢٥٣.

(٦) المرشد الوجيز: أبوشامة، ص٢٨-٢٩.

ثالثًا: مسايرة الحوادث:

فمن المعلوم أن عجلة الحياة تدور، والحوادث تتجدد، وتقع الوقائع، والمسلمون في معمعة هذه الأحداث ووسط هذه الوقائع بحاجة إلى من يرشدهم إلى الحق، ويدلهم إلى الصواب.

فكان في نزول القرآن الكريم منجمًا مسايرة لهذه الحوادث والوقائع، وعلاج لما يطرأ في حياة المسلمين من قضايا ومشاكل. ولهذه الحوادث والوقائع صور متعددة نذكر منها[١]:

١ - الإجابة على ما يطرأ من أسئلة:

وهذه الأسئلة تقع من الكفار والمشركين للتثبت من رسالته وامتحانه، أو لتعجيزه بزعمهم، وتقع من المسلمين لغرض معرفة الحق والعمل به.

وتكون هذه الأسئلة أيضًا عن أمور ماضية وأحداث سابقة أو حاضرة أو مستقبلة.

فمن الأسئلة عن أمور ماضية ما روي أن اليهود اجتمعوا فقالوا لقريش حين سألوهم عن شأن محمد وحاله: سلوا محمدًا عن الروح، وعن فتية فقدوا في أول الزمان، وعن رجل بلغ مشرق الأرض ومغاربها، فإن أجاب في ذلك كله فليس بنبي، وإن لم يجب في ذلك كله فليس بنبي، وإن أجاب في بعض ذلك، وأمسك عن بعضه فهو نبي، فسألوه عنها، فأنزل الله تعالى في شأن الفتية ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾[٢] إلى آخر القصة؛ وأنزل في الرجل الذي بلغ شرق الأرض وغربها ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى

---

(١) انظر مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص٥١-٥٣.

(٢) سورة الكهف، الآية:٩.

﴿ٱلْقَرْنَيْنِ﴾[١] إلى آخر القصة، وأنزل في الروح قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾[٢][٣].

وقد تكون الأسئلة عن أمور حاضرة ومشاهدة كقوله تعالى: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾[٤]، وقوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾[٥]، وقوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾[٦]، وقوله ﷻ: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾[٧]، وقوله ﷿: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾[٨]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾[٩] وغير ذلك من الأسئلة.

وقد تكون الأسئلة عن أمور مستقبلية كقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾[١٠]، وقوله جل جلاله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾[١١].

وفي نزول القرآن منجمًا تتبع لتلك الأسئلة وما يجدُّ منها والإجابة عليها في حينها.

(١) سورة الكهف، الآية:٨٣.

(٢) سورة الإسراء، الآية:٨٥.

(٣) أسباب النزول: الواحدي، تحقيق: عصام الحميدان، ص٢٩٢.

(٤) سورة البقرة، الآية:١٨٩.

(٥) سورة البقرة، الآية:٢١٥.

(٦) سورة البقرة، الآية:٢١٧.

(٧) سورة البقرة، الآية:٢١٩.

(٨) سورة البقرة، الآية:٢٢٠.

(٩) سورة البقرة، الآية:٢٢٢.

(١٠) سورة الأعراف، الآية:١٨٧.

(١١) سورة طه، الآية:١٠٥.

٢- مجاراة الأقضية والوقائع في حينها ببيان حكم الله فيها عند حدوثها:

وذلك أن الأقضية والأحداث لم تقع جملة واحدة، وإنما حدثت متفرقة في أوقات مختلفة وأماكن متعددة، فالمناسب أن ينزل القرآن كذلك منجمًا مفرقًا في أوقات مختلفة وأماكن متعددة، معالجًا لكل قضية في حينها، فمن ذلك:

أ- حادثة الإفك، وهي الحادثة التي رمى فيها نفر من المنافقين وتبعهم بعض المسلمين عائشةَ رضي الله عنها بما برأها الله منه في القصة المشهورة، فأنزل الله قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾(١) الآيات.

ب- وقصة خولة بنت ثعلبة التي ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت، فشكت ذلك إلى النبي ﷺ وقالت: يا رسول الله! أبلى شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾(٢)(٣).

٣- تنبيه المسلمين إلى أخطائهم وإرشادهم إلى الصواب والكمال:

وقد يقع ذلك من أحد أفراد الصحابة أو جماعة منهم أو من الرسول ﷺ، فيرشده ربه إلى الأكمل والأتم لمقامه ﷺ.

---

(١) سورة النور، الآية:١١.

(٢) سورة المجادلة، الآية:١.

(٣) رواه الحاكم في مستدركه، جـ٢، ص٤٨١، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وانظر أسباب النزول: الواحدي، ص٤٠٨.

فهذا ثابت بن قيس رضي الله عنه لما نزل قوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾(١) قال: أنا الذي كنت أرفع صوتي فوق صوت النبي، وأنا من أهل النار، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «هو من أهل الجنة»(٢).

ولما تزوج الرسول ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم، فطعموا ثم جلسوا يتحدثون، قال: فأخذ كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فما رأى ذلك قام. فلما قام، قام مَن قام مِن القوم... فقعد ثلاثة، وإن النبي ﷺ جاء ليدخل فإذا القوم جلوس...» (٣) فنزل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾(٤).

وقد يقع من الرسول ﷺ ما يوجهه الله بعده إلى ما فيه الخير والكمال، كما وقع من الرسول ﷺ حين جاءه ابن أم مكتوم وهو يخاطب أحد عظماء المشركين، قالت عائشة رضي الله عنها: فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول: أترى بما أقول بأسًا؟ فيقول: لا. ففي هذا أنزلت عبس وتولى(٥).

٤- كشف حال المنافقين وهتك أستارهم حتى يحذرهم المسلمون ويأمنوا مكرهم وشرهم:

وذلك أن ركب الدعوة جاد في سيره في مأمن من شر عدوه الظاهر، لكن الخطر يكمن فيمن يندس بين المسلمين يخالطهم ويخالطونه، ويسمع حديثهم، ويعلم أسرارهم، ويكيد لهم، وهم يحسبونه منهم، فاقتضت حكمة الله تعالى أن يكون في نزول القرآن منجمًا

---

(١) سورة الحجرات، الآية:٢.

(٢) أسباب النزول: الواحدي، ص٣٨٦. وانظر صحيح البخاري، جـ٦، ص٤٦، وصحيح مسلم، جـ١، ص١١٠.

(٣) صحيح مسلم، جـ٢، ص١٠٥٠.

(٤) سورة الأحزاب، الآية:٥٣.

(٥) المستدرك: الحاكم، جـ٢، ص٥١٤، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

كشف لهؤلاء المنافقين، وهتك لأستارهم، وتشنيع عليهم، فإذا نطق أحدهم قولًا مناوئًا للرسول ﷺ نزل فيه القرآن، وكشف نفاقه حتى يحذره المسلمون ويرتدع.

والآيات في هذا الموضوع كثيرة، ففي أول سورة البقرة ثلاث عشرة آية متتالية في المنافقين.

وسورة التوبة تسمى (الفاضحة) كما روى سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة التوبة. قال: «التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل ومنهم ومنهم حتى ظنوا أنها لم تبق أحدًا منهم إلا ذكر فيها»[١].

ويريد ابن عباس رضي الله عنهما بقوله: «ومنهم ومنهم» الآيات الكثيرة في سورة التوبة التي تحدثت عن المنافقين كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾[٢]. وقوله سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾[٤]، وقوله: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾[٥] وغير ذلك.

بل أنزل الله في المنافقين سورة كاملة سمَّاها باسمهم سورة «المنافقون».

وفي نزول القرآن منجمًا تتبع لهذه الحالات في المجتمع الإسلامي وتنقية لطريق الدعوة.

---

(١) صحيح البخاري، جـ٦، ص٥٨، ومسلم، جـ٤، ص٢٣٢٢.

(٢) سورة التوبة، الآية:٤٩.

(٣) سورة التوبة، الآية:٥٨.

(٤) سورة التوبة، الآية:٦١.

(٥) سورة التوبة، الآية:٧٥.

٥- رد شبهات أهل الكتاب وإبطال كيدهم للإسلام والمسلمين:

فقد كان المسلمون يعيشون في المدينة، ويخالطهم اليهود، وهم أهل كيد ومكر وخبث وحقد على الإسلام والمسلمين. بذلوا كل ما يستطيعون لبث الفرقة بين المسلمين، وبث الشبهات والشكوك في عقائد الإسلام، فكان في نزول القرآن منجمًا تتبع لخططهم، وكشف لمآربهم، ومحق لشبهاتهم. والآيات في هذا المعنى كثيرة كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾[(١)]، وحذر المسلمين منهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾[(٢)]، ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾[(٣)]، ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾[(٤)]، ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ﴾[(٥)]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾[(٦)]، ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾[(٧)] وغير ذلك من الآيات.

---

(١) سورة آل عمران، الآية:٩٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية:١٠٠.

(٣) سورة آل عمران، الآية:٧٢.

(٤) سورة آل عمران، الآية:٦٩.

(٥) سورة البقرة، الآية:١٠٥.

(٦) سورة آل عمران، الآية:١١٨.

(٧) سورة آل عمران، الآية:١١٩.

رابعًا: التدرج في التشريع وتربية الأمة:

لو تدبر الإنسان في نفسه لوجد أنه في كل شأن من شؤونه يبدأ من الأدنى إلى الأعلى بالتدرج، فحين يولد أول ما يولد لا يستطيع أن يتحكم بحركات يديه ولا رجليه، ثم يبدأ التحكم باليدين، وهكذا إلى أن يبدأ بالقدرة على الجلوس ثم القيام ثم السير ثم الجري والقفز، وفي الأكل شرابه أول ما يشرب حليب أمه الخفيف، ثم تزداد كثافته ويرتقي بالأكل من السوائل إلى اللحوم وغيرها. وفي نطقه يولد لا يحسن غير البكاء ثم التبسم ثم الصوت غير المركب وهكذا إلى أن يصبح متكلمًا، وهكذا في التعلم وفي كل شأن من شؤونه.

والمجتمعات في رقيها تشبه إلى حد كبير حالة الأفراد، ليس من السهل تحولها من حال إلى حال دون تدرج. وقد اقتضت حكمة الله تعالى مراعاة حال الأمة في قدرتها وطاقتها، فجاءت الأحكام والتشريعات متدرجة حسب طاقة الأمة وما تقتضيه الحكمة الإلهية، فجاء نزول القرآن الكريم منجمًا مطابقًا تمام المطابقة لما فيه الحكمة.

وأخبرت أم المؤمنين عائشة ﵂ عن هذا حين قالت: «إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا»(١).

فبدأ أولًا بتنقيتهم من أدران الشرك بنبذ الأوثان والأصنام وبيان أنها لا تضر ولا تنفع، ثم غرس في قلوبهم العقيدة الصحيحة، وهي توحيد الله وإفراده بالعبادة.

---

(١) صحيح البخاري، جـ٦، ص١٠١.

ثم تدرج في فرض العبادات، فبدأ بأصلها وعمودها وهي الصلاة التي شرعت في وقت مبكر، ثم الزكاة والصيام، ثم الحج، ونزل بعد ذلك مزيد تفصيل لهذه العبادات وغيرها من أنواع العبادة.

ولم يزل يتدرج بهم في معالي الأمور وسامي الآداب والأخلاق حتى أصبحت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، وحتى أصبح هذا القرن من أصحابه خير القرون.

خامسًا: استمرار التحدي والإعجاز:

وتجدد ثبوت الإعجاز عند تجدد عجزهم عن الإتيان بمثل كل آية تنزل على مر الأيام والسنين مدة نزول القرآن.

وذلك أن تكرر نزول القرآن مرات عديدة في أماكن مختلفة وأزمان متغايرة ومتباعدة مدة نزول القرآن، وفي كل مرة يتحداهم أن يأتوا بمثله، فهذا دليل على تكرر الإعجاز واستمرار التحدي، ولو نزل القرآن جملة واحدة وتحداهم به عند النزول لكان وقوع التحدي مرة واحدة، والإعجاز كذلك. فكان في تنجيم نزوله وتكرره استمرارٌ للتحدي وتكرارٌ للإعجاز.

ولا شك أن الذي يستطيع تكرار عمل ما يعجز عنه الناس أقوى إعجازًا ممن يفعله مرة واحدة لا يعيدها أخرى.

سادسًا: الدلالة على مصدر القرآن وأنه من الله تعالى وليس في قدرة البشر:

وقد أوضح الشيخ الزرقاني ؒ هذه الحكمة فقال: وبيان ذلك: أن القرآن تقرؤه من أوله إلى آخره فإذا هو محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال، آخذ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجمله، يجري دم الإعجاز فيه من ألفه إلى يائه كأنه سبيكة واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك، ولا تخاذل، كأنه حلقة مفرغة، أو كأنه سمط وحيد، وعقد فريد، يأخذ بالأبصار، نظمت حروفه وكلماته، ونسقت جمله وآياته، وجاء آخره مساوقًا لأوله، وبدا أوله مواتيًا لآخره.

وهنا نتساءل: كيف اتسق للقرآن هذا التآلف المعجز؟ وكيف استقام له هذا التناسق المدهش؟ على حين أنه لم ينزل جملة واحدة، بل تنزل آحادًا مفرقة، تفرق الوقائع والحوادث في أكثر من عشرين سنة.

الجواب: أننا نلمح هنا سرًّا جديدًا من أسرار الإعجاز، ونشهد سمة فذة من سمات الربوبية، ونقرأ دليلًا ساطعًا على مصدر القرآن وأنه كلام الواحد الديان ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[1][2].

وبيَّن الأستاذ حيدر قفة هذا الوجه من الإعجاز فقال: «إن القرآن نزل منجمًا مفرقًا في ثلاث وعشرين سنة تقريبًا، وهذه مدة طويلة يعجز أي أديب أو كاتب أو بليغ أن يحتفظ بأسلوبه وبيانه، وخصائصه البلاغية والفنية هذه السنوات الطوال، ومهما كانت درجته ومقدرته البلاغية فلا بد أن نجد في أسلوبه اختلافًا ولو للأحسن والأرقى، مما يظهر الضعف والركاكة والإسفاف في بداية الأمر، والجزالة وحسن السبك في نهايته. فهل وجدوا ذلك في القرآن؟ حاشا لله، وصدق الله العظيم ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[3][4].

ويتحدث الشيخ الزرقاني عن الانفصال الزماني واختلاف أسباب النزول لآيات القرآن اللذين يستلزمان في مجرى العادة التفكك والانحلال، ولا يدعان مجالًا للارتباط والاتصال بين نجوم الكلام، أما القرآن الكريم فقد خرق العادة في هذه الناحية أيضًا، فقد نزل منجمًا، ولكنه تم مترابطًا محكمًا. ثم قال: «أليس ذلك برهانًا ساطعًا على أنه كلام خالق القوى والقدر، ومالك الأسباب والمسببات، ومدبر الخلق والكائنات، وقيوم الأرض والسموات،

---

(١) سورة النساء، الآية:٨٢.

(٢) مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص٥٣-٥٤.

(٣) سورة النساء، الآية:٨٢.

(٤) مع القرآن الكريم: حيدر قفة، ص٥٥.

العليم بما كان وما سيكون، الخبير بالزمان وما يحدث فيه من شؤون».

ثم قال: «لاحظ فوق ما أسلفنا أن رسول الله ﷺ كان إذا نزلت عليه آية أو آيات قال: ضعوها في مكان كذا من سورة كذا، وهو بشر لا يدري (طبعًا) ما ستجيء به الأيام، ولا يعلم ما سيكون في مستقبل الزمان، ولا يدرك ما سيحدث من الدواعي والأحداث فضلًا عما سينزل من الله فيها، وهكذا يمضي العمر الطويل والرسول على هذا العهد، يأتيه الوحي بالقرآن نجمًا بعد نجم، وإذا القرآن كله بعد هذا العمر الطويل يكمل ويتم، وينتظم ويتآخى، ويأتلف ويلتئم، ولا يؤخذ عليه أدنى تخاذل ولا تفاوت، بل يعجز الخلق طرًا بما فيه من انسجام ووحدة وترابط ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾[١][٢].

الاستفادة من نزول القرآن الكريم منجمًا في مجال التربية والتعليم:

ينبغي أن يستفاد في العملية التعليمية من منهج القرآن الكريم في تربية هذه الأمة، وتهذيب أخلاقها، وتصحيح معتقداتها، وتحويلها من أمة الجهل والجاهلية إلى أمة الكتاب والقلم.

فقد كان الناس في غاية من الجهل والانحطاط في كثير[٣] من شؤون حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فأنزل الله عليهم القرآن، ولم يزل يرتقي بهم في سامي المبادئ وعالي الأخلاق حتى أصبحوا في أعلى الدرجات، بل صاروا خير أمة أخرجت للناس بعدما كانوا ما كانوا.

وسلك القرآن الكريم في ذلك منهجًا فريدًا، ومسلكًا حميدًا، فبدأ بتصحيح العقيدة وغرس المبادئ الصحيحة، ثم تدرج في أحكام العبادات حتى تمامها وكمالها.

---

(١) سورة هود، الآية:١.

(٢) مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص٥٤-٥٥.

(٣) نعم كان عندهم بعض العادات الحميدة والأخلاق الفاضلة، لكنها تضمحل في صور الجاهلية.

وفي التربية والتعليم ينبغي الاستفادة من هذا المنهج الحكيم، فمن المعلوم أن العملية التربوية تقوم على أمرين أساسين(١):

الأول: معرفة المستوى الذهني للطلاب:

فلا بد قبل التعليم من معرفة المستوى الذهني لديهم حيث يكون نقطة الانطلاق بهم، وإعطائهم ما يتناسب مع قدراتهم الذهنية وطاقاتهم الفكرية.

فإنهم إن أُعطُوا أقل من مستواهم الذهني ملوه وهجروه، وإن أعطوا ما هو فوق مستوى إدراكهم وفهمهم عجزوا عنه ونفروا منه.

الثاني: تنمية قدراتهم:

أ- الذهنية.

ب- النفسية.

جـ- الجسمية.

فإذا عرف مستواهم الذهني وما يناسبهم من المادة العلمية، بدأ التدرج في تلقينهم وتعليمهم ما يراد تعليمه مراعيًا النواحي الذهنية والجسمية والنفسية.

فالمنهج الدراسي الذي يوضع من غير معرفة للمستوى الذهني للطلاب، ثم تنمية مداركهم العامة ببناء الجزئيات على الكليات، والتفصيل بعد الإجمال منهج فاشل.

والكتاب المدرسي الذي لا يبنى على معرفة دقيقة لمستوى الطلاب الذهني وما سبق لهم من مادة علمية، وما يحتاجون إليه بعدها، وتتدرج المعلومات فيه من السهل إلى الصعب مع وضوح في الأسلوب، وبساطة في العبارة بعيدة عن التعقيد والغموض في الألفاظ، كتابٌ لا يرجى نفعه.

---

(١) انظر مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص١١٦-١١٧.

والمدرس، وهو العمود الأساس في العملية التعليمية، إذا لم يدرك هذين الأمرين الأساسيين في العملية التعليمية إدراكًا تامًا، فيعرف مستوى طلابه الذهني، ويضع ما يمدهم به من معلومات على قواعد وأُسس المعلومات السابقة، فإن بناءه سينهار ويسقط.

فعلى المعلم أن يدرك تمامًا المستوى الذهني لطلابه، ويمدهم بما يلائم قدراتهم الذهنية. ويخطئ من يعتقد أن مهمته التلقين أو حشو أذهانهم بالمادة العلمية فحسب، بل عليه أن يراعي مع الناحية العلمية أيضًا الناحيتين الجسمية والنفسية، فلا يستمر في شرح الدرس مثلًا والطلاب في حالة رعب أو فزع لأمر ما، أو حين يرى أحد طلابه في حالة نفسية تستدعي تدخله وعلاجه.

المعلم الناجح يراعي الحالة الجسمية للطلاب، فيكشف حالات من في بصره أو سمعه ضعف، فيلتمس علاجه الطبي والفصلي بتقديمه إلى الصفوف الأولى، وزيادة الاهتمام بما يناسب حاله ولا يؤثر على الآخرين.

المعلم الناجح يوازن بين الترغيب والترهيب، فلا يقسو قسوة تنفر منه الطلاب، ولا يضعف حتى يصبح ألعوبة بين طلابه، وتسقط هيبته واحترامه.

المعلم الناجح الذي يعرف كيف يعطي طلابه القدر المناسب من الواجبات المدرسية، فلا يثقل كاهلهم بأدائها، ولا يشغل بقية نهارهم وليلهم في الحفظ أو الكتابة فهم بحاجة إلى الراحة.

المعلم الناجح هو الذي يستطيع المزج بين نظرة الأب لأبنائه ونظرة المعلم لطلابه، فيتفقد شؤونهم ويلاطفهم ويعالج مشاكلهم، فيشعرهم بعطفه، ويظهر لهم محبته، ويريهم حرصه على مصلحتهم.

ولنا في منهج القرآن الكريم في تربية الأمة والتدرج بها بلطف، ورحمة، وحكمة، أسوة حسنة.

أول ما نزل وآخر ما نزل

أقوال العلماء في أول ما نزل من القرآن على الإطلاق:

للعلماء في ذلك أقوال كثيرة، منها:

القول الأول: إن أول ما نزل من القرآن (صدر سورة اقرأ).

وهو قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾[1]، وهذا القول أصح الأقوال وأرجحها، ومن أدلته:

١- ما رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخَلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال له: اقرأ. قال: **ما أنا بقارئ**. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجَهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. قلت: **ما أنا بقارئ**. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: **ما أنا بقارئ**. فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣﴾، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده...» الحديث[2].

---

(١) سورة العلق، الآيات:١-٥.

(٢) صحيح البخاري، جـ١، ص٣، ومسلم، جـ١، ص١٤١ واللفظ للبخاري.

٢- ما رواه الحاكم والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أول سورة نزلت من القرآن ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾»[(١)].

٣- ما رواه الحاكم والطبراني عن أبي رجاء العطاردي قال: «كان أبو موسى الأشعري يقرئنا، فيجلسنا حلقًا وعليه ثوبان أبيضان، فإذا تلا هذه السورة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ قال: هذه أول سورة نزلت على محمد ﷺ»[(٢)].

٤- ما رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» عن مجاهد قال: «إن أول ما نزل من القرآن: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ و﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ﴾[(٣)]».

القول الثاني: أول ما نزل سورة المدثر:

ودليل هذا القول الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أنه قال: سألت جابر بن عبد الله: أي القرآن أُنزل قبل؟ قال: يا أيها المدثر. فقلت: أو اقرأ؟ قال جابر: أحدثكم ما حدثنا به رسول الله ﷺ. قال: «جاورت بحراء شهرًا، فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت بطن الوادي فنوديت، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي، فلم أر أحدًا، ثم نوديت فنظرت فلم أر أحدًا، ثم نوديت فرفعت رأسي فإذا هو على العرش في الهواء - يعني جبريل عليه السلام - فأخذتني

---

(١) المستدرك: الحاكم، جـ٢، ص٢٢٠-٢٢١، وص٥٢٩، والبيهقي في دلائل النبوة، جـ٢، ص١٥٥ وقال: هذا إسناد صحيح.

(٢) المستدرك: الحاكم، جـ٢، ص٢٢٠ وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال السيوطي في الإتقان، جـ١، ص٣١: «أخرجه الطبراني في الكبير بسند على شرط الصحيح».

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٣١، فضائل القرآن لأبي عبيد ٢/ ١٩٩ رقم (٨١٠).

رجفة شديدة، فأتيت خديجة فقلت: دثروني. فدثروني فصبوا علي ماء، فأنزل الله ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾»[١].

وأجيب عن هذا الحديث:

١- أن المراد بالأولية في هذا الحديث أولية مخصوصة وليست أولية مطلقة[٢]، فيحتمل:

أ- أن المراد أول سورة نزلت بعد فترة الوحي، ويشهد لهذا قول جابر في رواية أخرى: «سمعت النبي ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي...» الحديث[٣].

ب- أن أول ما نزل للنبوة سورة اقرأ، وللرسالة سورة المدثر.

جـ- أن المدثر أول سورة كمل نزولها، أي: أن باقيها نزل قل نزول بقية سورة اقرأ وغيرها.

د- أن سورة المدثر أول سورة تنزل لسبب خاص، حيث إن الرسول ﷺ قال: **دثروني دثروني** فنزلت. أما سورة اقرأ فلغير سبب خاص بل نزلت ابتداء[٤]. قال ابن حجر: «ولا يخفى بُعْدُ هذا الاحتمال»[٥].

٢- أن جابرًا رضي الله عنه استنبط هذا الرأي باجتهاده، وفهمه، وليس بنصٍ ما رواه عن الرسول ﷺ، فتقدم عليه رواية عائشة رضي الله عنها.

(١) رواه البخار، ج ٦، ص ٧٥، ومسلم، ج١، ص١٤٤ واللفظ له.

(٢) فتح الباري: ابن حجر، جـ٨، ص٥٤٦.

(٣) رواه البخاري، جـ٦، ص٧٥.

(٤) انظر: الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٣٢.

(٥) فتح الباري: ابن حجر، جـ٨، ص٥٤٦.

قال الكرماني: «استخرج جابر (أول ما نزل يا أيها المدثر) باجتهاد، وليس من روايته، والصحيح ما وقع في حديث عائشة»[١].

ويشهد لهذا أن جابرًا رضي الله عنه أخبر عما سمع، ولم يسمع كُلَّ ما حدث به رسول الله ﷺ قبل فترة الوحي الذي روته عائشة، فاقتصر على ما سمع ظانًا أنه ليس هناك غيره.

٣- أن في حديث جابر رضي الله عنه ما يدل على أن الرسول ﷺ رأى جبريل قبل ذلك، حيث جاء في حديث جابر رضي الله عنه «فإذا هو على العرش» وإشارته إليه بالضمير تدل على أنه سبق ذكره، وفي رواية أصرح: «فإذا الملك الذي جاءني بحراء...».

ولهذا فإن هذا الدليل غير كاف لإثبات أولية النزول لسورة المدثر، بل وصف النووي رحمه الله القول بأن أول ما نزل سورة المدثر بأنه «ضعيف، بل باطل، والصواب أو أول ما نزل على الإطلاق ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ كما صرحت به في حديث عائشة»[٢].

أقوال العلماء في آخر ما نزل من القرآن الكريم:

اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في آخر ما نزل من القرآن.

قال البيهقي رحمه الله في بيان سبب هذا الاختلاف: «قلت: هذا الاختلاف يرجع - والله أعلم - إلى أن كل واحد منهم أخبر بما عنده من العلم، أو أراد أن ما ذكر من أواخر الآيات التي نزلت، والله أعلم»[٣].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) شرح صحيح مسلم: النووي، جـ٢، ص٢٠٧.

(٣) دلائل النبوة: البيهقي، جـ٧، ص١٣٩.

وقال القاضي أبو بكر: «هذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي ﷺ، وكل ما قاله بضرب من الاجتهاد، وغلبة الظن، ويحتمل أن كلًّا منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي ﷺ، في اليوم الذي مات فيه، أو قبل مرضه بقليل، وغيره سمع منه بعد ذلك، وإن لم يسمعه هو، ويحتمل أيضًا أن تنزل هذه الآية التي هي آخر آية تلاها الرسول ﷺ مع آيات نزلت معها، فيؤمر برسم ما نزل معها بعد رسم تلك فيظن أنه آخر ما نزل في الترتيب»[(١)].

وللعلماء في آخر ما نزل من القرآن الكريم كله أقوال منها:

القول الأول: روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وابن عباس رضي الله عنهما: أن آخر ما نزل آية الربا، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾[(٢)]، ومن الأدلة على ذلك:

١- ما رواه البخاري رحمه الله في باب ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا»[(٣)].

٢- ما رواه الإمام أحمد في مسنده وابن ماجه والبيهقي عن سعيد بن المسيب قال: قال عمر رضي الله عنه: «إن آخر ما نزل من القرآن آية الربا، وإن رسول الله ﷺ قبض ولم يفسرها، فدعوا الربا والريبة»[(٤)].

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٣٧.

(٢) سورة البقرة، الآية:٢٧٨.

(٣) صحيح البخاري، جـ٥، ص١٦٤-١٦٥.

(٤) مسند الإمام أحمد، جـ١، ص٣٦، سنن ابن ماجه، جـ٢، ص٣٩. دلائل النبوة: البيهقي، جـ٧، ص١٣٨. وقال الأستاذ محمود شاكر: (وهذا الحديث على جلالة رواته وثقتهم - ضعيف الإسناد لانقطاعه، سعيد بن المسيب لم يسمعه من عمر. تفسير الطبري، جـ٦، ص٣٨ (الهامش).

وفي لفظ آخر: «إن من آخر ما أنزل آية الربا..»[١].

٣- ما رواه ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: خطبنا عمر فقال: «إن من آخر القرآن نزولًا آية الربا»[٢].

٤- ما أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» عن ابن شهاب الزهري قال: «آخر القرآن عهدًا بالعرش آية الربا وآية الدين»[٣].

القول الثاني: أن آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ الآية[٤].

واستدل أصحاب هذا القول بأدلة منها:

١- ما رواه النسائي[٥] والبيهقي[٦] من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «آخر شيء نزل من القرآن ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الآية». ورواه الطبري بلفظ: «آخر آية نزلت على النبي ﷺ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾»[٧].

---

(١) مسند الإمام أحمد، جـ١، ص٤٩-٥٠.

(٢) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٣٥، وقال الأستاذ محمود شاكر: (إسناده صحيح) تفسير الطبري: جـ٦، ص٣٩.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٣٦.

(٤) سورة البقرة، الآية:٢٨١.

(٥) تفسير ابن كثير، جـ١، ص٣٥٧. وقال الأستاذ محمود شاكر: «يريد بها السنن الكبرى» تفسير الطبري، جـ٦، ص٤٠ (الهامش).

(٦) دلائل النبوة: البيهقي، جـ٧، ص١٣٧.

(٧) تفسير الطبري، جـ٦، ص٤٠. وقال شاكر: وهذا إسناد صحيح.

٢- ما أخرجه ابن مردويه[١] من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس: «آخر آية نزلت من القرآن على النبي ﷺ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾».

٣- ما أخرجه ابن جرير الطبري عن الضحاك وعن ابن جريج كلاهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «آخر آية نزلت من القرآن: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾ الآية. قال ابن جريج: يقولون: إن النبي ﷺ مكث بعدها تسع ليالٍ، وبدئ يوم السبت، ومات يوم الإثنين»[٢].

٤- ما أخرجه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رحمه الله قال: «آخر ما أنزل من القرآن كله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ الآية. وعاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليالٍ ثم مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول»[٣].

٥- ما أخرجه الطبري عن عطية العوفي قال: «آخر آية نزلت: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ الآية»[٤].

٦- ما أخرجه ابن جرير الطبري عن السدي الكبير قال: «آخر آية نزلت ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾» [٥].

---

(١) الدر المنثور، جـ١، ص٣٧٠، والإتقان، جـ١، ص٣٦، وابن كثير، جـ١، ص٣٥٧.

(٢) تفسير الطبري، جـ٦، ص٤١ ومعنى (بدئ) يعني مرض.

(٣) الدر المنثور، جـ١، ص٣٧٠، والإتقان، جـ١، ص٣٦.

(٤) تفسير الطبري، جـ٦، ص٤٠-٤١، وفي سنده سهل بن عامر، قال الأستاذ محمود شاكر: ضعيف جدًا، جـ٦، ص٤١ (الهامش).

(٥) تفسير الطبري، جـ٦، ص٤١.

القول الثالث: أن آخر ما نزل من القرآن آية الدين، وهي أطول آية في القرآن الكريم، وأولها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ ... الآية[١]، واستدل أصحاب هذا القول بما يلي:

١- ما أخرجه أبو عبيد في «الفضائل» عن ابن شهاب قال: «آخر القرآن عهدًا بالعرش آية الربا وآية الدين»[٢].

٢- ما أخرجه ابن جرير الطبري عن ابن شهاب قال: «حدثني سعيد بن المسيب: أنه بلغه أن أحدث القرآن عهدًا بالعرش آية الدين»[٣].

الجمع بين هذه الأقوال الثلاثة:

ومن ينظر إلى هذه الأقوال الثلاثة ويتدبرها يجد أنها بمثابة قول واحد، ذلك:

١- أن هذه الآيات آيات متتابعة في سورة البقرة من الآية (٢٧٨-٢٨٢) فالقول فيها بمثابة قول واحد، فكل راوٍ يذكر بعض آخر ما نزل.

٢- أن ابن عباس رضي الله عنهما روي عنه القول بأن آخر ما نزل آية ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾، وروي عنه القول بأن آخر ما نزل آية الربا. والجمع بين القولين أولى من إبطال أحدهما.

٣- أن البخاري رحمه الله أورد بدقته وثاقب نظره قول ابن عباس: آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا «في باب قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾.

---

(١) سورة البقرة، الآية:٢٨٢.

(٢) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٣٦.

(٣) تفسير الطبري، جـ٢، ص٤١. وقال الأستاذ محمود شاكر: (هذا إسناد صحيح إلى ابن المسيب، ولكنه حديث ضعيف لإرساله إذ لم يذكر ابن المسيب مَن حدَّثه به) اهـ.

فجعل بهذه الإشارة الموضوع واحدًا والروايتين متحدتين غير متعارضتين ﷺ[١].

ولهذا قال ابن حجر: «وطريق الجمع بين هذين القولين أن هذه الآية يعني ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا﴾ هي ختام الآيات المنزلة في الربا إذ هي معطوفة عليهن»[٢].

وقد جمع بينهما السيوطي فقال: «قلت: ولا منافاة عندي بين هذه الروايات في آية الربا - واتقوا يومًا - وآية الدين -؛ لأن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف، ولأنها في قصة واحدة، فأخبر كل عن بعض ما نزل بأنه آخر وذلك صحيح»[٣].

وبهذا يظهر أن هذه الأقوال الثلاثة قول واحد وهو القول الصحيح.

أوائل وأواخر مخصوصة:

أولًا: أول ما نزل وآخر ما نزل في الخمر:

يظهر في التدرج في تحريم الخمر والمراحل التي مر بها حكمة الله ﷻ، وقد مر تحريم الخمر بأربع مراحل:

المرحلة الأولى: أول ما نزل من الخمر قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرًا وَرِزۡقًا حَسَنًاۗ﴾[٤].

(١) قاله الأستاذ أحمد شاكر، تفسير الطبري، جـ٦، ص٤٠ (الهامش).

(٢) فتح الباري: ابن حجر، جـ٨، ص٥٣.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٣٦.

(٤) سورة النحل، الآية:٦٧.

المرحلة الثانية: قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾(١).

المرحلة الثالثة: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾(٢).

المرحلة الرابعة: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾(٣).

ثانيًا: أول ما نزل وآخر ما نزل في تحريم الربا:

وذلك أن تحريم الربا أيضًا مر بمراحل أربع كالمراحل التي مر بها تحريم الخمر، وهي:

المرحلة الأولى: أول ما نزل في الربا قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾(٤). وليس في هذه الآية نص على تحريم الربا، وإنما إشارة إلى أن الله يمحق الربا.

المرحلة الثانية: قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾(٥).

---

(١) سورة البقرة، الآية:٢١٩.

(٢) سورة النساء، الآية:٤٣.

(٣) سورة المائدة، الآية:٩٠.

(٤) سورة الروم، الآية:٣٩.

(٥) سورة النساء، الآية:١٦٠-١٦١.

وفي ذلك إشارة إلى أنه إذا كان أكل الربا والتعامل به محرمًا على اليهود، فأولى أن يكون كذلك بين المسلمين.

المرحلة الثالثة: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾[1]. وهنا بدأ بتحريم نسبة معينة من الربا، وهي ما كانت أضعافًا مضاعفة.

المرحلة الرابعة: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾[2]. هنا غلظ في تحريم الربا بالتهديد والوعيد لأصحابه، ووصفهم بأنه محاربون لله ورسوله.

ثالثًا: أول ما نزل وآخر ما نزل في تشريع الجهاد:

وقد مر الجهاد بمراحل هي:

المرحلة الأولى: وهي المرحلة المكية، حيث لم يشرع الجهاد، وإنما أمروا بالعفو والصفح، فمن الآيات: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾[3].

المرحلة الثانية: أذن بالقتال بمعنى إباحته لا وجوبه للمهاجرين خاصة الذين أخرجوا من ديارهم، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾[4].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٨-٢٧٩.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٨٩.

(٤) سورة الحج، الآية: ٣٩-٤٠.

المرحلة الثالثة: الأمر بالجهاد للدفاع.

وذلك أن قريشًا تضررت من السرايا التي يبعثها الرسول ﷺ للهجوم على قوافل قريش، فجمعت جمعها، واتجهت إلى المدينة لحماية إحدى قوافلها وإرهاب المسلمين، فانتدب الرسول ﷺ أصحابه للدفاع، والتقى الجيشان في بدر، وفرض قتال الذين يقاتلون المسلمين ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾[١].

المرحلة الرابعة: فرض الجهاد في سبيل الله.

وفي هذه المرحلة فرض الجهاد ابتداء من غير أن يبدأ الكفار بالقتال، قال تعالى: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ﴾[٢].

وبمعرفة هذه المراحل يظهر خطأ بعض المتصدين للدفاع عن عقيدة الجهاد، فيخطئون تحت وطأة الهزيمة الداخلية، فيزعمون أن الجهاد للدفاع لا للطلب، فيقفون عند حد المرحلة الثالثة تمامًا كأولئك الذين يزعمون أن الربا الحرام هو ما كان أضعافًا مضاعفة.

فوائد معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل:

وتشترك معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل مع معرفة المكي والمدني في فوائد كثيرة منها:

أولًا: تمييز الناسخ من المنسوخ:

وذلك حين ورود آيتين بحكمين مختلفين، فإن معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل تعين على معرفة الناسخ من المنسوخ، ومثال ذلك قوله تعالى في عدة المرأة المتوفى عنها زوجها:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩١.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ﴾[1]، فقد بينت هذه الآية أن العدة عام، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ﴾[2] جعل العدة أربعة أشهر وعشرًا، وإذا عرفنا أن هذه الآية هي آخر ما نزل عرفنا أنها هي الناسخة.

ثانيًا: معرفة تاريخ التشريع الإسلامي وتدرجه الحكيم في التشريع.

وقد مر بنا استعراض المراحل التي مر بها تحريم الخمر، وكيف تمت مراعاة أحوالهم حيث اعتادوا شرب الخمر، ولا يكاد يخلو منها بيت، وكيف تدرج في علاج هذه المشكلة حتى خرجوا إلى بر الأمان والسلامة والإسلام بحكمة بالغة.

ثالثًا: الاستعانة بمعرفة أول ما نزل وآخر ما نزل في تفسير القرآن التفسير السليم، واستنباط الحكم الصحيح.

وقد عرفنا ذلك في معرفة أول وآخر ما نزل في الربا والجهاد، والخطأ الذي وقع فيه بعضهم بسبب جهل معرفة أول وآخر ما نزل.

رابعًا: تذوق أساليب القرآن الكريم والاستفادة من ذلك في أسلوب الدعوة إلى الله تعالى، حيث يكون بأسلوب لتقرير حكم ثم يختلف الأسلوب لتقرير حكم آخر بالوعد مرة والوعيد أخرى، وبالترغيب أو الترهيب، أو بالتخيير أو الإلزام حسب ما يناسب الحال.

خامسًا: معرفة السيرة النبوية وترتيب أحداثها حسب حديث القرآن عنها، ومتابعة أحوال الرسول ﷺ ومواقفه في الدعوة في مكة، وسيرته في الدعوة إلى الله بعد الهجرة، مما

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٤.

يوقف الدعوة خاصة والمسلمين عامة على أصدق حديث عن أفضل سيرة لأحسن قدوة عليه الصلاة والسلام.

سادسًا: إظهار عناية الصحابة والعلماء من بعدهم بالقرآن الكريم حتى عرفوا أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن كله، وفي كل حكم من أحكامه الذي لا يمكن الوصول إليه وإدراكه إلا بالجهد الكبير والاهتمام العظيم، مما يوجب على من بعدهم الاقتداء بهم والسير على نهجهم.

❊ ❊ ❊

إعجاز القرآن الكريم

جرت سنة الله تعالى أن يظهر على يد كل نبي من أنبيائه معجزة يظهر بها على قومه، وتكون دليلًا على صدقه في أنه مرسل من الله تعالى.

وقد كانت معجزة كل نبي من جنس ما برع فيه قومه حتى يكون تحديه لهم فيما يعرفون وفيما يتقنون، ليكون التحدي أعظم وأشد.

فجاءت معجزة عيسى عليه السلام إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله تعالى، وهي من جنس ما برع فيه قومه، وهو الطب وإن لم يكن طبًا.

وجاءت معجزة موسى عليه السلام العصا واليد وغيرهما، وهي من جنس ما برع فيه قوم فرعون، وهو السحر وإن لم تكن سحرًا.

وجاءت معجزة محمد ﷺ وقد تفوق قومه في البيان والفصاحة والبلاغة، فجاءت معجزته عليه السلام من جنس ما برع فيه قومه، فأنزل الله القرآن، وأعجزهم، ولم يستطيعوا ولن يستطيعوا الإتيان بمثله أو بعضه.

وقد بيَّن العلماء هذا العجز عن الإتيان بمثل هذا القرآن بدراسة نصوص التحدي، وإثبات العجز وما يتعلق بذلك كله في هذا المبحث (إعجاز القرآن)، بل تجاوز ذلك إلى أن أصبح هذا الإعجاز علمًا مستقلًا.

تعريف المعجزة:

لغة: أصلها مأخوذ من (عجز). قال ابن فارس: «العين والجيم والزاء أصلان صحيحان، يدل أحدهما على الضعف، والآخر على مؤخر الشيء»[1].

(١) معجم مقاييس اللغة: ابن فارس مادة (عجز)، ص٧٣٨.

وخلاصة كلام أهل اللغة[١] في ذلك أن كلمة عجز تطلق على:

١- **العجز بمعنى: الضعف**: تقول: عجزت عن كذا، أعجز، أي: ضعفت عنهن، والعجوز سميت بذلك لعجزها في كثير من الأمور، قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾[٢].

٢- **العجز بمعنى: مؤخر الشيء**، والجمع إعجاز. وأعجاز الأمور: أواخرها. وعَجْزُ الشيء، وعِجْزُه، وعُجْزُه وعَجُزُه وعَجِزُه: آخره. وعجز بيت الشعر: آخره. وعجز المرأة وعجيزتها: مؤخرتها. والعِجْزَة: آخر ولد الرجل. وأعجاز النخل، وأعجاز الإبل، وأعجاز الليل: أواخرها. والألف تسميه العرب العجوز؛ لأنه آخر الأرقام عندها، وما بعده يكرر فيقال: عشرة آلاف، مائة ألف، ألف ألف.

وصار العجز في التعارف: اسم للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة، قال تعالى: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾[٣].

أما المعجزة في الاصطلاح فهي:

أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم من المعارضة، يجريه الله تعالى على يد نبيه، شاهدًا على صدقه.

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة: ابن فارس، ص٧٣٨، ولسان العرب: ابن منظور، جـ٥، ص٣٦٩-٣٧٣، والمفردات: الأصفهاني، ص٣٢٥.

(٢) سورة هود، الآية:٧٢.

(٣) سورة المائدة، الآية:٣١.

شرح التعريف:

ونريد بقولنا: (خارق للعادة) أنها مخالفة لأحكام العادة المألوفة كحرارة النار، وبرودة الثلج، وحدود القدرة البشرية المعتادة، فالمعجزة لا تخضع لهذه الأحكام، وتؤكد أنها مخالفة لأحكام العادة وليست مخالفة لأحكام العقل.

ونريد بقولنا: (مقرون بالتحدي) أن يكون مقصودًا بها تحدي القوم وإثارتهم للإتيان بمثلها، حتى تقوم عليهم الحجة عند عجزهم، والتحدي يكون إما بلسان المقال أو بلسان الحال من غير نطق به أو تصريح بالتحدي.

وقد أخطأ بعض الباحثين فأسقط هذا الشرط معتقدًا أن بعض المعجزات غير مقرون بالتحدي، لاعتقاده أن التحدي لا بد أن يكون بلسان المقال.

ونريد بقولنا: (سالم من المعارضة) أنه لا يمكن لأحد أن يأتي بمثلها، ولهذا فإن معجزات الأنبياء لا تتكرر، فلكل نبي معجزاته الخاصة به، لا يأتي أحد بمثلها حتى من إخوانه الأنبياء، وإلا لاشترك الأنبياء كلهم في نوع واحد من الخوارق لا يأتي به أحد غيرهم يدل على نبوتهم. ولهذا الاختلاف حكم عديدة، وهي صفة يغفل عنها كثير من الباحثين فيقصرون عدم المعارضة على عامة الناس.

ونريد بقولنا: (يجريه الله على يد نبيه) أن المعجزة وإن جاء بها النبي فليست من عنده، وليست من قدرته، ولكنها من الله.

ونريد بقولنا: (شاهدًا على صدقه) أن الإتيان بالمعجزة إنما هو لإقامة الدليل على أنه مرسل من ربه، وإقامة الحجة على قومه.

المعجزة في القرآن الكريم:

ورد في القرآن الكريم استعمال مشتقات كلمة (عجز) نحو ست وعشرين مرة، لكنه لم يرد استعمال مصطلح (معجزة) ولا (إعجاز) في القرآن ولا في السنة.

ولم يعرف إطلاق مصطلح (معجزة) على الأمور الخارقة التي تظهر على أيدي الأنبياء عليهم السلام إلا في أواخر القرن الثاني تقريبًا[1].

وأطلق القرآن على المعجزة عدة مسميات منها:

١- **الآية**: في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾[2]، وقال تعالى على لسان صالح عليه السلام: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ۖ﴾[3]، وفرعون يقول لموسى عليه السلام: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾[4].

٢- **البينة**: قال موسى عليه السلام لفرعون: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾[5]، وقال صالح عليه السلام لقومه: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ۖ﴾[6].

---

(١) مباحث في إعجاز القرآن: د. مصطفى مسلم، ص١٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية:١٠٩.

(٣) سورة الأعراف، الآية:٧٣.

(٤) سورة الأعراف، الآية:١٠٦.

(٥) سورة الأعراف، الآية:١٠٥.

(٦) سورة الأعراف، الآية:٧٣.

٣- **البرهان**: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾[١]، وقال ﷻ مخاطبًا نبيه موسى عليه السلام بعدما أمره أن يلقي عصاه فإذا هي حية، وأن يخرج يده فإذا هي بيضاء من غير سوء: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ﴾[٢].

٤- **السلطان**: كما قال الكفار لأنبيائهم: ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾، وأجاب الرسل عليهم السلام: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾[٤].

شروط المعجزة:

وللمعجزة شروط منها[٥]:

١- أن تكون من الأمور الخارقة للعادة:

سواء كانت كلامًا كالقرآن الكريم، وتسبيح الحصى بين يدي الرسول ﷺ، وحنين الجذع، وكلام الهدهد ونحو ذلك. أو كانت فعلًا كانشقاق القمر، وانفجار الماء من بين أصابعه ﷺ، وتكثير الطعام القليل ونحو ذلك. أو كانت ترك فعل كعدم إحراق النار لإبراهيم عليه السلام، وعدم إغراق البحر لموسى عليه السلام وقومه، وعدم تأثير السم في جسده ﷺ.

---

(١) سورة النساء، الآية:١٧٤.

(٢) سورة القصص، الآية:٣٢.

(٣) سورة إبراهيم، الآيتان:١٠-١١.

(٤) سورة المؤمنون، الآيتان:٤٥-٤٦.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، جـ١، ص٧٠-٧١، وانظر مباحث في إعجاز القرآن: د. مصطفى مسلم، ص١٥-١٧، ومنهما اقتبست هذا المبحث.

والمعجز هو الأمر الخارق للعادة، ولو فعل النبي أمرًا غير خارق للعادة، ولم يستطع الآخرون فعله، فإن الإعجاز ليس في فعله، وإنما هو منعهم وحبسهم عن الإتيان بمثل فعله، كما لو رفع الرسول يده أو مدَّ رجله أو تكلم بالكلام المعتاد، ثم تحدى قومه بالإتيان بمثل فعله أو قوله فلم يستطيعوا ذلك، فإن الإعجاز ليس في فعله هذا أو قوله؛ لأنه ليس خارقًا للعادة، وإنما الإعجاز في هذه الحالة في منعهم وصرفهم عن ذلك؛ لكونه هو الأمر غير المعتاد والخارق للعادة.

٢- أن يكون الأمر الخارق للعادة من الله:

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[(١)]، وقال الأنبياء عليهم السلام: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَـٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[(٢)]، وحين قال الكفار للرسول ﷺ: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ أمره الله أن يقول: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾[(٣)].

٣- سلامتها من المعارضة بالإتيان بمثلها:

إذ لو استطاع البشر الإتيان بمثلها لما صلحت علامة على أن صاحبها مرسل من ربه، فلا بد لكونها علامة على صدق صاحبها في أنه مرسل من ربه أن لا يقدر البشر كلهم، بل والجن معهم، على الإتيان بمثلها؛ لأنها من قدرة الله وحدَه، كما قال تعالى عن القرآن: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾[(٤)].

---

(١) سورة الأنعام، الآية:١٠٩.

(٢) سورة إبراهيم، الآية:١١.

(٣) سورة يونس، الآية:١٥.

(٤) سورة الطور، الآية:٣٤.

٤ – أن تقع وفق مقتضى قول صاحبها:

فلا تقع على خلاف قوله، فإذا جاءت على خلاف قوله لم تصلح دليلًا على دعواه، ولا دليلًا على صدقه؛ لمخالفتها لمقتضى كلامه كما حدث لأدعياء النبوة.

٥ – أن تقترن بالتحدث عند وقوعها:

وذلك لأمرين: أولهما: إثبات عجز المخاطبين عن الإتيان بمثلها، وعدم ادعائهم أو مَن بعدهم عدم وجود الداعي للإتيان بمثلها. وثانيهما: إقامة الحجة عليهم عند عجزهم.

ولا يلزم أن يكون التحدي بلسان المقال كما فهمه بعض المعاصرين، وإنما يكون بلسان المقال وبلسان الحال، إذ المقام مقام صراع وعناد، واحتجاج يغني فيه الحال عن المقال في بعض المقام.

٦ – أن يستدل بها النبي على صدقه في رسالته:

إذ الغرض من إظهارها إثبات أمرين: أولهما: أنه صادق في دعوى الرسالة. ثانيهما: أنه مرسل من الله لا من غيره، فينبغي أن يكون إظهارها لإثبات ذلك لا لغيره دونهما.

٧– أن يكون ظهور المعجزة أو المعجزات بعد دعوى الرسالة:

حتى يصح الاستشهاد بها، أما إذا تقدم وقوع الأمر الخارق على دعوى الرسالة فإنه لا يسمى معجزة، وإنما يسمى إرهاصًا كتظليل السحابة للرسول ﷺ وهو في سفره إلى الشام قبل البعثة.

جواز وقوع المعجزة:

لا يشك مؤمن بأن الله ﷻ هو خالق هذا الكون كله صغيره وكبيره ومدبر شؤونه، وموجد نظامه، والذي يُوجد الشيء من العدم أقدر على تغيير سنة من سننه أو نظام من

أنظمته، بل أقدر على إعادة خلقه ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾[(١)].

فالذي جعل النار حارة في قدرته أن يجعلها باردة، والذي خلق القمر قادر على أن يقسمه إلى نصفين، والذي خلق في السم خاصية قادر على سلبها منه، والذي خلق الثعبان من العدم قادر على خلقه من العصا، وهكذا في بقية المعجزات. ومن ينكر هذا فقد أساء الظن بربه وقدرته، واعتقد ربوبية إله عاجز عياذًا بالله تعالى.

ومما يحز في النفس ظهور بعض من ينكر الخوارق أو بعضها، ويؤولها بتكلف شديد حتى لا تكون من الأمور الخارقة، فيزعم مثلًا أن المرء إذا اعتقد اعتقادًا جازمًا في أمر من الأمور، وتيقنه يقينًا قاطعًا أنه يقع وفق اعتقاده، فإذا اعتقدت امرأة بكر لم تتزوج ولم يجامعها أحد أنها حامل وتيقنت ذلك فإن الحمل يقع!![(٢)]، ويريدون بذلك تعليل حمل مريم بعيسى عليه السلام، فتكلفوا ما هو أغرب من المعجزة، وفروا من خارق إلى أخرق.

وفسروا فلق البحر لموسى عليه السلام بالمد والجزر، والطير الأبابيل[(٣)] بالجراثيم والميكروبات.

ونسي أولئك أن الذي يقدر على جعل الماء سائلًا قادر على أن يجعله متجمدًا أو صلبًا، وما المانع أو المستغرب أن يجعل نوعًا من أنواع الطيور قادرًا على حمل حجارة ورميها على أعداء الله ونحو ذلك.

---

(١) سورة يس: الآيتان:٧٨-٧٩.

(٢) تفسير المنار، جـ٣، ص٣٠٩-٣١٠.

(٣) حكاية طريفة أسوقها للعظة والعبرة: طفل صغير سأله والده: ماذا حفظت اليوم؟ فقال: سورة العصافير. فاستغرب والده وطلب منه قراءتها، وحين قرأها وجد أنه فهم من ذكر الطير الأبابيل أنها طيور حقيقية، وهو لا يعرف من الطيور إلا العصافير. فانظر لهذا العقل الفطري وانظر لتأويلات أهل العقول الكبيرة!!.

المراد بإعجاز القرآن الكريم:

للعلماء في تعريف الإعجاز أقوال تختلف ألفاظها وتتحد معانيها، منها تعريف الهمداني أن معناه: «أنه يتعذر على المتقدمين في الفصاحة فعل مثله، في القدر الذي اختص به»[١].

ويمكن تعريفه بقولنا هو: عجز المخاطبين بالقرآن وقتَ نزوله ومَن بعدهم إلى يوم القيامة عن الإتيان بمثل هذا القرآن، مع تمكنهم من البيان وتملكهم لأسباب الفصاحة والبلاغة وتوفر الدواعي، واستمرار البواعث.

إثبات إعجاز القرآن الكريم:

حين نزل القرآن الكريم لم ينزل بما يوافق معتقدات الجاهلية أو يداريها، بل نزل هادمًا لها، مبطلًا لأصولها، منكرًا لمبادئها، ساخرًا من معتقداتها، وأهلها أهل جاهلية، أهل عناد واستكبار، أهل طغيان وجبروت، أهل أنفة وعزة، لو كان عندهم أدنى قدرة على معارضة القرآن أو الإتيان بمثله، وقد تحداهم واستثارهم لذلك، ما ترددوا وما تلكؤوا، ولكنهم يعلمون من فورهم أن بينهم وبين ذلك بعد ما بين المشرقين، أو قل: بعد ما بين السموات والأرضين.

نعم عجزوا وهم أهل اللغة وأهل البيان «أجل، لقد سجل التاريخ هذا العجز على أهل اللغة أنفسهم في عصر نزول القرآن. وما أدراك ما عصر نزول القرآن؟ هو أزهى عصور البيان العربي، وأرقى أدوار التهذيب اللغوي»[٢]. جمعوا الحشود في الصحراء، ورفعوا المنابر في الأسواق وعرضوا فيها أنفَس بضائعهم، وأجود صناعاتهم، وما البضاعة إلا بضاعة الكلام، وما الصناعة إلا صناعة الشعر والخطابة، يتبارون في

---

(١) المغني في أبواب التوحيد والعدل: جـ١٦، (إعجاز القرآن) ص٢٢٦.

(٢) النبأ العظيم: د. عبدالله دراز، ص٨٣.

عرضها، ويتنافسون في نقدها، «فما هو إلا أن جاء القرآن.. وإذا الأسواق قد انفضت إلا منه، وإذا الأندية قد صفرت إلا عنه، فما قدر أحد منهم أن يباريه أو يجاريه»[١]. كرروا النظر ورجعوا البصر علهم يجدون فيه فجوة ينفذون منها فعاد إليهم البصر خاسئًا وهو حسير.

«ولم يسد القرآن عليهم باب المعارضة بل فتحه على مصراعيه، فدعاهم إليه أفرادًا أو جماعات، بل تحداهم وكرر عليهم ذلك التحدي في صور شتى، متهكمًا بهم، متنزلًا معهم إلى الأخف فالأخف...، وأباح لهم في كل مرة أن يستعينوا بمن شاؤوا ومن استطاعوا، ثم رماهم والعالم كله بالعجز في غير مواربة فقال: ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[٢]، وقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾[٣]، فانظر أي إلهاب وأي استفزاز!! لقد أجهز عليهم بالحكم البات المؤبد في قوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ ثم هددهم بالنار، ثم سواهم بالأحجار، فوالله لو كان فيهم لسان يتحرك، لما صمتوا عن منافسته وهم الأعداء الألداء، وأباة الضيم الأعزاء، وقد أصاب منهم موضع عزتهم وفخارهم، ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته ولا سلمًا يصعدون به إلى مزاحمته، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طود شامخ، فما اسطاعوا أن يظهروه، وما استطاعوا له نقبًا... حتى إذا استيأسوا من قدرتهم واستيقنوا عجزهم ما كان جوابهم: إلا أن ركبوا متن الحتوف، واستنطقوا السيوف بدل الحروف، وتلك هي الحيلة التي يلجأ إليها كل مغلوب في الحجة والبرهان، وكل من لا يستطيع دفعًا عن نفسه بالقلم واللسان»[٤].

---

(١) المرجع السابق: ص٨٣-٨٤ بتصرف.

(٢) سورة الإسراء، الآية:٨٨.

(٣) سورة البقرة، الآية:٢٤.

(٤) النبأ العظيم، ص٨٤-٨٥ بتصرف.

سلكوا مع الرسول ﷺ كل سبيل للتوقف عن دعوته، ساوموه بالمال، وعرضوا عليه الملك، وقاطعوه ومن معه حتى يموتوا جوعًا، وتآمروا على قتله، وأخرجوه من بلده، وسلكوا أصعب الطرق، وأعرضوا كل الإعراض عن الطريق الوحيد الذي عرضه عليهم الرسول ﷺ لإبطال دعوته، وهو أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فوجدوا أن كل سبيل أهون من هذا السبيل، وكل مشقة دون هذا المطلب، فأي شيء يكون العجز إن لم يكن هذا هو العجز كل العجز[١].

ولو أُثِرَ عنهم معارضة للقرآن الكريم، أو محاولة جادة لتطاير خبرها في الأجيال، ولتداولتها الألسن وسطرتها الأقلام، ولكن ذلك لم ولن يكون ما دام هناك مسكة من عقل، أو ذرة من كرامة.

عناية العلماء به وأهم المؤلفات فيه:

كان للعلماء - رحمهم الله تعالى - عناية كبيرة واهتمام عظيم بإعجاز القرآن الكريم. وسبق أن ذكرنا أن مصطلح (المعجزة) أو (إعجاز القرآن) لم يرد في الكتاب ولا في السنة ولا في أقوال الصحابة ﭫ، وإنما ورد التعبير عن هذا المعنى بالآية.. والبرهان.. والسلطان.. وغير ذلك.

وهي العبارات التي كان يتداولها العلماء في القرنين الأول والثاني الهجريين عند حديثهم عن إعجاز القرآن، وليس هناك تحديد دقيق لتأريخ ظهور مصطلح إعجاز القرآن.

وقد استعمل هذا المصطلح في نهاية القرن الثاني وأوائل القرن الثالث، ويؤيد هذا أن الإمام أحمد بن حنبل יּ (ت٢٤١هـ) استعمل كلمة (معجزة) للأمر الخارق المؤيد للأنبياء ولما استعمل له من بعده مصطلح (الكرامة)[٢].

---

(١) المرجع السابق، ص٨٧-٨٨ بتصرف.

(٢) انظر: «فكرة إعجاز القرآن»: نعيم الحمصي، ص٨.

كما ظهر استعمال هذا المصطلح عند النَّظّام (ت٢٣١هـ) أحد أئمة المعتزلة حين زعم أن إعجاز القرآن كان بالصَّرْفَة - كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى - فتصدى له علماء السنة والجماعة، وردوا عليه، وأبطلوا زعمه، فشاع مصطلح المعجزة، وقَلَّ استعمال مصطلح الآية والبرهان والسلطان وغيرها.

وللمعتزلة عناية خاصة بإعجاز القرآن، ولعل عنايتهم تلك نتيجة عدم اعتمادهم في إثبات نبوة محمد ﷺ إلا على معجزة القرآن دون سواها من المعجزات. يقول الهمداني: «لم يعتمد شيوخنا في إثبات نبوة محمد ﷺ على المعجزات»[١].

ويقول عن المعجزات: «فلا يصح أن يستدل بها على صحة النبوة، ولذلك اعتمد شيوخنا في تثبيت نبوة محمد ﷺ على القرآن»[٢]. ويوضح هذا الأمر فيقول: «إن شيوخنا أثبتوها معجزة ودلالة، لكنهم لم يجوزوا الاعتماد عليها في مكالمة المخالفين»[٣]. ولهذا كثرت مؤلفاتهم في إعجاز القرآن وبلاغته ومناظراتهم ومجادلاتهم وشطحاتهم.

أما أول كتاب يحمل هذا المصطلح في عنوانه فهو كتاب «إعجاز القرآن» الذي ألفه محمد بن زيد الواسطي المتوفى سنة (٣٠٦هـ)[٤]، وهو كتاب مفقود. إلا أن أقدم كتاب خاص بإعجاز القرآن وصل إلينا هو «النكت في إعجاز القرآن» لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني (ت٣٨٤)[٥]، وهو من أئمة المعتزلة.

---

(١) المغني في أبواب التوحيد والعدل: عبدالجبار الهمداني، جـ١٦، ص١٥٢.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

(٤) الفهرست: ابن النديم، ص١٧٢ أو ص٢٤٥، والأعلام: الزركلي، جـ٦، ص١٣٢، وانظر فكرة إعجاز القرآن: نعيم الحمصي، ص٨، وإعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة: د. منير سلطان، ص٥٠.

(٥) مباحث في إعجاز القرآن: د. مصطفى مسلم، ص٤٣.

ثم تتابعت المؤلفات بعد ذلك وكثرت كثرة لا تكاد تحصى قديمًا وحديثًا، وليس من السهل حصرها كلها، وسأذكر بعض هذه المؤلفات إجمالًا، فمن المؤلفات قديمًا:

١- **النكت في إعجاز القرآن**: لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني (ت٣٨٤هـ) وهي رسالة مختصرة جاءت جوابًا لسؤال عن ذكر النكت في إعجاز القرآن دون التطويل بالحجاج، وتقع في سبع وثلاثين صفحة طبعت ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

٢- **بيان إعجاز القرآن**: لأبي سليمان حَمْد بن محمد الخطابي (ت٣٨٦هـ)، وهي أيضًا رسالة مختصرة تقع في (٤٧) صفحة، وطبعت ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

٣- **إعجاز القرآن**: لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت٤٠٣هـ) طبع بتحقيق: عماد الدين أحمد حيدر في مجلد واحد يقع في (٣٢٥) صفحة.

٤- **الرسالة الشافية**: لأبي بكر عبدالقاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) وهي رسالة موجزة لكنها شاملة، قرر فيها أن الإعجاز ثابت عن طريق عجز العرب عن معارضة القرآن، وقرر أن العبرة بعجز العرب المعاصرين لنزوله دون المتأخرين عن زمانه، ورد على القول بالصَّرْفة، وتقع هذه الرسالة في حوالي (٤٠) صفحة وطبعت ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

٥- **دلائل الإعجاز**: وهو أيضًا لعبد القاهر الجرجاني في مجلد طبع أكثر من مرة بتحقيق: أحمد مصطفى المراغي، وطبع كذلك بتحقيق: محمد عبدالمنعم خفاجي.

٦- **نهاية الإيجار في دراية الإعجاز**: للفخر الرازي (ت٦٠٦هـ) اختصر فيه كتابي «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة» لعبدالقاهر الجرجاني، وزاد فيه بعض الفوائد، وبين يدي طبعة مطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة (١٣١٧هـ).

٧- **البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن**: لعبدالواحد الزملكاني (ت٦٥١هـ) طبع بتحقيق: د. خديجة الحديثي؛ ود. أحمد مطلوب، في بغداد، الطبعة الأولى عام (١٣٩٤هـ)، وتقع مع الفهارس في (٤٣٢) صفحة. وللزملكاني أيضًا كتاب «التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن» طبع في بغداد أيضًا عام (١٣٨٣هـ).

٨- **معترك الأقران في إعجاز القرآن**: لجلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) طبع في ثلاثة مجلدات الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).

أما المؤلفات الحديثة فكثيرة جدًّا في مختلف أوجه الإعجاز، أذكر بعض أشهرها:

١- **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**: للأستاذ مصطفى صادق الرافعي (ت١٣٥٦هـ) طبع عدة مرات في مصر. وهو بحق من أفضل المؤلفات في موضوعه قديمًا وحديثًا.

٢- **النبأ العظيم**: د. محمد عبد الله دراز (ت١٣٧٧هـ) وهو كتاب في الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم، أحد ثلاثة أنواع من الإعجاز، وعدَ المؤلف بالكتابة عنها فأتم الأول، وتوفي قبل تمام الباقي، وامتاز بأسلوبه الأدبي المتميز، ودقة استنباطه، وسلاسة لفظه، يقع في (٢١٦) صفحة، وطبع أكثر من مرة.

٣- **مباحث في إعجاز القرآن**: د. مصطفى مسلم، وكتبه مؤلفه لطلاب قسم القرآن وعلومه في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لمادة إعجاز القرآن، وهو كتاب قيم يقع في حوالي ثلاث مئة صفحة.

٤- **فكرة إعجاز القرآن**: تأليف: نعيم الحمصي، وهو في أصله مقالات نشرها في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ثم جمعها في هذا الكتاب، وصدرت طبعته الأولى عام (١٣٧٤هـ) والثانية (١٤٠٠هـ) ويقع في حوالي خمس مئة صفحة، وهو عرض لقضية إعجاز القرآن الكريم منذ البعثة إلى حين تأليفه.

مراحل التحدي بالقرآن:

ورد التحدي بالقرآن الكريم في خمس آيات من خمس سور، هي على ترتيب السور[١]:

١- في سورة البقرة: الآية ٢٣ ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ الآية.

٢- في سورة يونس: الآية ٣٨ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ الآية.

٣- سورة هود: الآية ١٣ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾.

٤- سورة الإسراء: الآية ٨٨ ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾.

٥- سورة الطور: الآية ٣٣، ٣٤ ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

والتحدي في هذه الآيات كما ترى جاء مرة بالإتيان بمثل القرآن كله، ومرة بعشر سور، ومرة بسورة، ومرة بحديث مثله، فهل جاء التحدي بالقرآن متدرجًا من الأكثر إلى الأقل أم لا؟

للعلماء في مراحل التحدي بالقرآن الكريم أقوال:

القول الأول: وهو قول جمهور علماء التفسير والبلاغة أن التحدي كان متدرجًا بالقرآن كله كما في سورة الإسراء والطور، ثم تحداهم بعشر سور في سورة هود، ثم تحداهم بسورة في سورة يونس، ثم بسورة من مثله في سورة البقرة، ولكن هذا القول لا يساعد عليه ترتيب نزول القرآن الكريم.

---

(١) أما على ترتيب النزول فأولها: آية الإسراء، وثانيها: آية يونس، وثالثها: آية هود. ورابعها: آية الطور (وكلها مكي) ثم نزل خامسها: آية البقرة في المدينة. انظر البرهان: الزركشي جـ١ ص١٩٣، والإتقان: السيوطي جـ١ ص٢٧، ويرى الزمخشري والبيضاوي والرازي وأبو حيان وابن كثير وابن عاشور والرافعي وغيرهم أن آية هود نزلت قبل آية يونس.

القول الثاني: رتب آيات التحدي ترتيب النزول وأنه كان متدرجًا أيضًا، إلا أن التحدي بسورة وقع قبل التحدي بعشر سور. ثم ذهب أصحاب هذا القول يعللون ذلك بتعليلات ليس فيها ما يقنع.

القول الثالث: وهو ما أرى صوابه أن القولين السابقين قاما على تصور أن الإتيان بمثل القرآن أصعب من الإتيان بمثل عشر سور، وأن الإتيان بالعشر أصعب من الإتيان بسورة، وهذا غير صحيح؛ لأن القرآن كله قليله وكثيره على حد سواء في الإعجاز، فليس الإتيان بسورة أسهل من الإتيان بالقرآن كله، فالتحدي في القرآن بالكيف لا بالكم، وبالنوع لا بالمقدار، فلا يهم إذًا أن يكون التحدي بسورة جاء قبل التحدي بعشر سور أو قبل التحدي بالقرآن كله.

واستحالة المجيء بمثل سورة من القرآن كاستحالة المجيء بعشر سور، واستحالة المجيء بمثل القرآن كله على حدٍّ سواء، فكل ذلك متعذر، ولذا فلا أثر للاختلاف في ترتيب آيات التحدي ما دام لا يترتب عليه أثر في قوة التحدي، والعجز كان عن الإتيان بجنس القرآن لا عن مقداره.

مقدار المعجز من القرآن الكريم:

ومما يتصل بالحديث عن مراحل التحدي بالقرآن، الحديث عن القدر المعجز من القرآن الكريم، فقد وقع في هذا القدر خلاف أيضًا على أقوال هي:

القول الأول: أن الإعجاز متعلق بجميع القرآن لا ببعضه، وهذا القول مردود بالآيات التي تتحدى بعشر سور وبسورة واحدة أو حديث مثله.

القول الثاني: أن الإعجاز متعلق بسورة تامة طويلة أو قصيرة. وهذا رأي الجمهور، وزاد بعضهم أنه يتعلق أيضًا بقدر سورة تامة[1] من الكلام بحيث يظهر به تفاضل قوى البلاغة، وأقصر سورة في القرآن هي سورة الكوثر ثلاث آيات، فيكون مقدار هذه السورة من الآيات معجزًا.

القول الثالث: أن الإعجاز يتعلق بقليل القرآن وكثيره لقوله تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[2]، والتحدي بجنس القرآن لا بالمقدار كما مر بنا بيانه، وهذا هو ما نرجحه، والله أعلم.

استمرار التحدي بالقرآن الكريم:

والتحدي في القرآن الكريم ليس خاصًّا بأمة دون أمة أو عصر دون عصر، بل هو باق ما بقي القرآن يعلن للناس تحديه، فقوله عز شأنه: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ ﴾ ... الآية[3] عام يشمل جميع الإنس في جميع العصور.

ولأن القرآن خاتم الكتب، والرسول ﷺ خاتم الرسل، والإسلام خاتم الأديان، فقد اقتضت الحكمة بقاء المعجزة لتكون شاهدة على كل جيل، كما هي شاهدة على الجيل الأول.

ولئن عجز الجيل الأول، وهم أهل الفصاحة والبلاغة، وأهل البيان والبديع عن الإتيان بمثل هذا القرآن أو بعضه، أو مجرد محاولة ذلك لعلمهم سلفًا بعجزهم عن ذلك، فإن مَنْ بعدهم أعجز وأبعد عن الاستطاعة، فالإعجاز مستمر، والتحدي قائم إلى يوم القيامة.

---

(١) إعجاز القرآن: الباقلاني، ص٢٦١.

(٢) سورة الطور، الآية:٣٤.

(٣) سورة الإسراء، الآية:٨٨.

وجوه الإعجاز في القرآن الكريم:

من المُسلَّم به بين المسلمين عامة أن القرآن معجزة لا يمكن للبشر أن يأتوا بمثله، لكنهم اختلفوا في بيان وجه الإعجاز فيه، وذكروا أقوالًا كثيرة، ومذاهب مختلفة، وهم في هذا بين مصيب ومخطئ، ومحسن ومسيء.

تعددت الأقوال في وجه أو أوجه الإعجاز في القرآن الكريم، فمنهم من لم يذكر للإعجاز إلا وجهًا واحدًا، ومنهم من ذكر وجهين أو أكثر، بل قال السيوطي: «أنهى بعضهم وجوه إعجازه إلى ثمانين»(١)، ثم قال: «والصواب أنه لا نهاية لوجوه إعجازه»(٢)، وذكر هو في كتابه «معترك الأقران في إعجاز القرآن» خمسة وثلاثين وجهًا ضمنها المجلد الأول منه. وذكر غيره وجوهًا أخرى غير ما ذكره السيوطي.

والحق أن بين بعض هذه الوجوه تداخلًا، وليس مرادنا هنا حصرها أو ذكرها كلها، فلنذكر بعض هذه الأقوال:

القول الأول: أن الإعجاز كان بالصَّرْفَة:

القول بالصَّرْفَة هو الباعث على نشأة البحث في وجوه الإعجاز للقرآن الكريم، فقد كان المسلمون مُسَلِّمين بإعجاز القرآن، وألفوا في ذلك كتبًا تشير بصورة غير مباشرة إلى إعجاز القرآن من غير أن يخوضوا أو يتعمقوا في بيان وجهه، حتى أظهر النَّظَّام (ت٢٣١هـ) مقولته بالصَّرْفَة، فثار العلماء لإنكار قوله والرد عليه، ومن ثَمَّ تحديد الوجه أو أوجه الإعجاز الصحيحة في القرآن الكريم.

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن: السيوطي، جـ١، ص٥.

(٢) المرجع السابق.

وأول من قال: إن إعجاز القرآن الكريم كان بالصَّرْفَة هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النَّظَّام (ت٢٣١هـ) أحد أئمة المعتزلة، وصار له مذهب خاص ينسب إليه، وقلده آخرون في هذه المقولة، وتشعب القول فيها إلى شعبتين:

١- **القول الأول**: للنَّظَّام وآخرين أن المراد بالصَّرْفَة أن الله صرف العرب عن الاهتمام بمعارضة القرآن الكريم مع قدرتهم عليها، ولو توجهوا إليها لقدروا على الإتيان بمثل هذا القرآن.

٢- **والقول الثاني**: للمرتَضَىٰ من الرافضة، ومراده بالصَّرْفَة أن الله سلب العرب العلوم التي يحتاجون إليها للإتيان بمثل هذا القرآن، ولو توجهوا للإتيان بمثله لما استطاعوا لسلبهم هذه العلوم.

والفرق بين رأي النَّظَّام وأتباعه والمرتضى ومن معه أن النَّظَّام يرى أن العرب لو أرادوا الإتيان بمثله لاستطاعوا، ولكن همتهم لم تتوجه لذلك، أما المرتضى فيرى أن العرب لا يستطيعون الإتيان بمثله، ولو أرادوا ذلك؛ لأنهم لا يملكون العلوم التي تمكنهم من ذلك. فالفرق بينهما أن النَّظَّام يرى أن العرب يستطيعون لو أرادوا، والمرتضى يرى عدم استطاعتهم، وكلا القولين غير صحيح.

ونرد على ذلك بثلاثة ردود:

الأول: رد مشترك على القولين لإبطال القول بالصَّرْفَة عامة.

والثاني: رد على مذهب النَّظَّام.

والثالث: رد على مذهب المرتضى.

أما الرد العام على القول بالصَّرْفَة: فإنَّا نقول: إنه يلزم من القول بالصَّرْفَة أن الإعجاز ليس في القرآن ذاته، وإنما في غيره، وهو عدم استطاعتهم، فالقرآن بزعمهم ليس معجزًا، إنما الإعجاز في المنع، وهذا باطل.

قال أبو بكر الباقلاني: «ومما يبطل القول بالصَّرْفَة أنه لو كانت المعارضة ممكنة، وإنما منع منها الصرفةُ، لم يكن الكلام معجزًا، وإنما يكون المنع معجزًا، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه»[١].

ونقول أيضًا: إن ديوان العرب محفوظ شعره ونثره، وليس فيه قبل أن يسلبوا الاهتمام بالإتيان بمثله، أو تسلب منهم العلوم كما يزعم هؤلاء وأولئك، ما يماثل القرآن أو يدانيه.

أما الرد على النَّظَّام ومن معه: فإنا نقول: كيف يصح القول: إن همتهم لم تتجه للإتيان بمثل القرآن، وهم الذين لم يتركوا سبيلًا للقضاء على دعوة محمد ﷺ، وسلكوا كل طريق شاق، حاربوه، وناوَءُوه، وقاطعوه، وآذوه مع إبطاله لمعتقداتهم، وإثارته لحفيظتهم، واستفزازه لمشاعرهم، وإلهابه لغيرتهم، وأصاب موضع عزتهم وفخارهم، وقد مَكَّنهم من نفسه لو استطاعوا، فداعهم وتحداهم أن يأتوا بمثل سورة من القرآن، ولو كان فيهم أدنى قدرة، أو عرفوا أحدًا يملكها في أقصى الأرض لبعثوا إليه، كما بعثوا لليهود يسألونهم عما يسألون محمدًا ﷺ عنه ليحرجوه، فلا يصح بعد هذا أن يقال: إن همتهم لم تتجه للإتيان بمثله.

---

(١) إعجاز القرآن: أبو بكر الباقلاني، ص٥٤.

وأما الرد على المرتضى ومن معه: ففي قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[١].

وفي هذا دليل على أن عجزهم كان مع بقاء قدرتهم، ولو لم يكن عندهم قدرة لما صح تحديهم، إذ لا يصح لأحد أن يتحدى الموتى، إذ ليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره[٢]، كما لا يصح أن يتحدى المبصر الأعمى، وإنما يصح التحدي إذا تحدى مَن يملك البصر، أما إذا سلب البصر لم يصح تحدي مثله، كما أن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ يدل على وجود القدرة؛ لأن المعاونة والمظاهرة إنما تكمن مع القدرة، ولا تصح مع العجز والمنع[٣].

القول الثاني: أن وجه الإعجاز في القرآن الكريم هو الأخبار الغيبية فيه:

وذلك أن القرآن الكريم تضمن عددًا من الأخبار الغيبية في الماضي والحاضر والمستقبل؛ وإذا علمنا أن الرسول ﷺ كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، وعلمنا أن أمته أمية لا تقرأ ولا تكتب، وليس عندها علم يذكر في تاريخ الأمم الماضية، ومع هذا كله فقد ورد في القرآن الكريم الحديثُ عن الأمم الماضية بما يظهر أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون إلا من عند الله الذي يعلم الغيب في السموات والأرض.

والأخبار الغيبية الواردة في القرآن ثلاثة أنواع:

الأول: الأخبار الغيبية الماضية (غيب الماضي):

وهي الأخبار التي تحدثت عن الأمم الماضية والأنبياء السابقين عليهم السلام، وذلك لعدم تلقي الرسول ﷺ لهذه الأخبار عن أحد من البشر، ولم يقرأها في كتاب، فلم يبق إلا أن

(١) سورة الإسراء، الآية:٨٨.

(٢) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٥١.

(٣) المغني في أبواب التوحيد والعدل: عبدالجبار الهمداني، جـ١٦، ص٣٢٣.

يكون تلقاها عن طريق الوحي، ولهذا كان القرآن كثيرًا ما يشير إلى هذا المعنى، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[1]، وكقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[2]، وكقوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[3]، وقال ﷻ: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ ﴾[4]، وقوله جل جلاله: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ ﴾[5] وغير ذلك من الآيات.

الثاني: الأخبار الغيبية عما يقع بغير حضرة الرسول ﷺ (غيب الحاضر):

إذ كثيرًا ما تحدث بعض الأحداث وتقع بعض القضايا ولا يشهدها الرسول ﷺ ولا يحضرها، ومع هذا ينزل عليه الوحي والخبر الصادق حتى قبل أن يصل أحد ممن رآها إلى الرسول ﷺ، وحتى كان الكفار يقول بعضهم لبعض: اخفضوا أصواتكم حتى لا يسمعكم إله محمد. ولهذا كان المنافقون يحذرون ذلك، قال تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[6]،

---

(١) سورة العنكبوت، الآية:٤٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية:٤٤.

(٣) سورة يونس، الآية:١٦.

(٤) سورة صٓ، الآيات:٦٧-٧٠.

(٥) سورة هود، الآية:٤٩.

(٦) سورة التوبة، الآية:٦٧.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾(١)، وكقوله تعالى عن المنافقين: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾(٢) وغير ذلك من الآيات.

الثالث: الأخبار الغيبية عن أمور مستقبلة (غيب المستقبل):

وكثيرًا ما أخبر القرآن عن أمور ستحدث في المستقبل، ووقعت كما جاءت في القرآن، فمن ذلك قوله تعالى عن ظهور الإسلام وسيادته، وقد كان ذلك فيما بعد: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾(٣)، وعن القرآن أخبر أنهم لن يأتوا بمثله ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾(٥)، وحتى الآن لم يأت أحد بمثله، ولن يفعل أحد ذلك.

(١) سورة التوبة، الآية:٧٤.
(٢) سورة التوبة، الآية:١٠٧.
(٣) سورة التوبة، الآية:٣٣.
(٤) سورة الإسراء، الآية:٨٨.
(٥) سورة البقرة، الآيتان:٢٣-٢٤.

ومنه قوله تعالى عن الكفار: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾[(١)] وقد نزلت هذه الآية وعائشة رضي الله عنها بمكة جارية تلعب[(٢)]، وتحقق ذلك فيما بعد، ومنه قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ﴾[(٣)]، وكقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾[(٤)]، ومنه قوله تعالى عن أبي لهب: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾﴾ وعن امرأته: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾﴾[(٥)]، والخبر الغيبي في هذا أنه أخبر أنهما في النار، ويقتضي هذا موتهما على الكفر، وقد كان ذلك.

ومثله عن أبي جهل[(٦)] ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾[(٧)] فمات على كفره.

وكذلك أُبيّ بن خلف قال عنه[(٨)]: ﴿ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾﴾[(٩)] فمات على الكفر،

---

(١) سورة القمر، الآية:٤٥.

(٢) انظر صحيح البخاري، جـ٦، ص٥٤.

(٣) سورة الروم، الآيات:١-٤.

(٤) سورة الفتح، الآية:٢٧.

(٥) سورة المسد، الآيتان:٣-٤.

(٦) أسباب النزول: الواحدي، ص٣٩٨.

(٧) سورة الدخان، الآيات:٤٧-٤٩.

(٨) لباب النقول: السيوطي، ص٢٣٤.

(٩) سورة الهمزة، الآية:٤.

والنضر بن الحارث[١] ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ⁽⁷⁾﴾[٢] والوليد بن المغيرة[٣]﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ⁽²⁶⁾﴾[٤].

ومع قوة هذا الوجه من الإعجاز وتحققه في القرآن الكريم، إلا أنه لا يصح الزعم بأنه وجه الإعجاز في القرآن الكريم، لخلو كثير من الآيات القرآنية من الأخبار الغيبية مع تحقق الإعجاز فيها.

الرابع: أن وجه الإعجاز في القرآن الكريم هو: نظمه:

ومن أدلة أصحاب هذا القول قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾[٥]، فحين زعم الكفار أن أخبار القرآن افتراء وكذب، قطع جدلهم بأن طلب منهم على التسليم بأنه مفترى، أن يأتوا بعشر سور في نظمه وأسلوبه، لا صدق خبره حسب زعمهم. فالتحدي هنا بالنظم لا بالأخبار فضلًا عن الأدلة الأخرى الكثيرة على إدراك العرب بذوقهم لإعجاز القرآن في نظمه واستيلائه على ألبابهم.

وقال بهذا الإعجاز عدد من أئمة اللغة والبيان كالواسطي، والجاحظ الذي ألف كتابًا عن نظم القرآن، ومنهم الجرجاني والخطابي وغيرهم.

وقد فسَّر الخطابي هذا الوجه بقوله: «وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور منها: أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني

---

(١) لباب النقول: السيوطي، ص١٦٩.

(٢) سورة لقمان، الآية:٧.

(٣) لباب النقول: السيوطي، ص٢٢٣-٢٢٤.

(٤) سورة المدثر، الآية:٢٦.

(٥) سورة هود، الآية:١٣.

والحوامل، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة:

١- لفظ حامل.

٢- ومعنى به قائم.

٣- ورباط لهما ناظم.

وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئًا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظمًا أحسن تأليفًا وأشد تلاؤمًا وتشاكلًا من نظمه، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها.

وقد توجه هذه الفضائل الثلاث على التفرقة في أنواع الكلام، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه، فلم توجد إلا في كلام العليم القدير الذي أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا».

ثم ذكر بعض ما احتوى عليه القرآن في أحكام التوحيد والعبادة، والتحليل والتحريم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأمر بمحاسن الأخلاق والزجر عن مساوئها، ثم قال: «ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قُدَرُهم، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله أو مناقضته في شكله»[1].

(١) بيان إعجاز القرآن: الخطابي، ص٢٤-٢٥.

الخامس: أن وجه الإعجاز هو بلاغته:

التي فاقت ما عرفته العرب من صور البلاغة، وعجزوا عن الإتيان بمثلها، وقال بهذا القول عدد من أئمة البلاغة والبيان كالعسكري[١]، وحازم القرطاجني[٢]، والسكاكي الذي ذكر أربعة أقوال لوجه الإعجاز في القرآن فردها كلها، ثم قال: «فهذه أقوال أربعة يخمسها ما يجده أصحاب الذوق من أن وجه الإعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة، ولا طريق لك إلى هذا الخامس إلا طول خدمة هذين العلمين بعد فضل إلهي»[٣].

السادس: أن وجه الإعجاز في القرآن الكريم علومه ومعارفه:

وذهب إلى هذا القول عدد من العلماء قديمًا وحديثًا، قال به الغزالي (ت٥٠٥هـ)، والفخر الرازي (ت٦٠٦هـ)، والزركشي (ت٧٩٤هـ)، والسيوطي (ت٩١١هـ)، ومن المتأخرين: الجوهري والإسكندراني والكواكبي والمراغي ومحمد رشيد رضا ومحمد فريد وجدي والقاسمي ومصطفى الرافعي ومحمود شكري الألوسي وابن باديس والغمراوي وعبدالرزاق نوفل وغيرهم كثير[٤]، وسيأتي إن شاء الله مزيد بيان لهذا الوجه.

والأقوال في وجه الإعجاز في القرآن الكريم كثيرة، وكثرتها ناشئة من تكرار بعضها، إذ إن بعض هذه الأوجه داخل في بعض.

---

(١) فكرة إعجاز القرآن: نعيم الحمصي، ص٦٥.

(٢) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٥٢.

(٣) مفاتح العلوم: السكاكي، ص٢١٦.

(٤) انظر كتابي اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، جـ٢، ص٥٥٠ وما بعدها.

قال الألوسي: «قد أطال العلماء الكلام على وجه إعجاز القرآن وأتوا بوجوه شتى، الكثير منها خواصه وفضائله»(١).

والرأي الراجح في وجه الإعجاز في القرآن أن لا يقتصر على وجه واحد، فإعجازه مركب من وجوه عدة، فهو معجز في نظمه، وفي أسلوبه، وفي بلاغته، وفي أخباره، وفي علومه ومعارفه، كما قال الزركشي ﵀ وهو يعدد أوجه الإعجاز: «الثاني عشر: وهو قول أهل التحقيق أن الإعجاز وقع بجميع ما سبق من الأقوال، لا بكل واحد عن انفراده فإنه جمع كلَّه، فلا معنى لنسبته إلى واحد منها بمفرده مع اشتماله على الجميع، بل وغير ذلك مما لم يسبق»(٢).

وقال الألوسي في ترجيحه: «والذي يخطر بقلب هذا الفقير أن القرآن بجملته وأبعاضه حتى أقصر سورة منه معجز بالنظر إلى نظمه وبلاغته وإخباره عن الغيب وموافقته لقضية العقل ودقيق المعنى، وقد يظهر كلها في آية، وقد يستتر البعض كالأخبار عن الغيب، ولا ضير ولا عيب فيما يبقى كافٍ في العرض وافٍ.

نجوم سماء كلما انقض كوكب ... بدا كوكب تأوي إليه كواكب(٣)

وسنذكر بعد ذلك بعض أوجه إعجاز القرآن الكريم بشيء من التفصيل المناسب للمقام.

---

(١) روح المعاني: الألوسي، جـ١، ص٢٩.

(٢) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، جـ٢، ص١٠٦.

(٣) روح المعاني: الألوسي، جـ١، ص٣١، والبيت لأبي الطمحان القيني، انظر الشوارد: للأستاذ عبدالله بن خميس، جـ١، ص٦٠ والقافية عنده (كواكبه).

الإعجاز اللغوي:

وهو أبرز وجوه الإعجاز وأظهرها؛ إذ هو المطابق لأحوال العرب وقت نزول القرآن، فالتحدي يكون بجنس ما برز فيه القوم وتفوقوا، وهم تفوقوا في البيان والبلاغة والفصاحة، ولم يتفوقوا في العلوم والمعارف وأخبار الغيب أو التشريع أو نحو ذلك، فكان الإعجاز بالبيان أظهر وجوه التحدي وأبرزها.

والقوم أدركوا أول ما أدركوا إعجازه البياني، فملك منهم الألباب واستولى على الأفئدة.

ويطلق على هذا الوجه عدة مصطلحات، فيسمى: (الإعجاز اللغوي) و(الإعجاز البياني) و(الإعجاز البلاغي)، وتدخل في هذا المعنى أيضًا أقوالهم المختلفة في أن إعجاز القرآن (بلاغته) أو (فصاحته) أو (ما تضمنه من البديع) أو (نظمه) أو (أسلوبه) أو غير ذلك من فروع اللغة العربية.

والناظر في هذا القرآن الكريم لا يخلو من حالتين(١):

الأولى: أن لا يكون ممن أُوتوا قوة المعرفة للفصل بين درجات الكلام والتفريق بين البليغ والأبلغ والفصيح والأفصح.

الثانية: أن يكون قد أُوتي حظًّا من التمييز بين الأساليب ومعرفة درجات البلاغة والفصاحة.

فإن كنت من الفئة الأولى فلا سبيل لك لمعرفة إعجاز القرآن وبلاغته بحسك وذوقك، وإنما سبيلك أن تقنع بشهادة أهل الخبرة والمعرفة، وهم هنا أهل الفصاحة والبلاغة، والبيان والبديع، وأعلمهم بذلك سليقة، وأجودهم فطرة، وأتقنهم تربية وسماعًا هم من نزل عليهم القرآن، وأولئك قد أقروا بذلك في مشاهد عديدة، وأقوال كثيرة، فهذا الوليد بن المغيرة يقول لمن أنكر عليه سماعه للقرآن وتأثره به: «والله ما فيكم

---

(١) لمزيد من التوسع والبيان انظر كتاب النبأ العظيم: د. محمد عبد الله دراز، ص٩٢ وما بعدها، ومنه اقتبست أفكار هذا المبحث وزينته ببعض ألفاظه.

رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته. قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر. فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره، فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾[1][2]. وقد وصف الله تفكيره بقوله: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾[3].

قال الدكتور محمد عبد الله دراز: «فانظر تصوير القرآن للجهد العنيف الذي بذله الرجل في إصدار حكمه الثاني حيث يقول: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾﴾، ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾﴾، ومعنى هذا كله أنه كان يقاوم فطرته، ويستكره نفسه على مخالفة وجدانه، وأنه كان في حيرة وضيق بما يقول.. وأخيرًا استطاع أن يقول ما قال نزولًا على إرادة قومه. وانظر الفرق بين هذا الحكم المصطنع وبين حكم البديهة العربية في قوله أول مرة: إنه يعلو وما يعلى وإنه يحطم ما تحته. هذه شهادة أهل اللغة نفسها، وهي شهادة خصم، والفضل ما شهدت به الأعداء.

وإذا لم تـــرَ الهـــلال فـــسَلِّم لأنـــاس رأوه بالأبـــصار

---

(١) سورة المدثر، الآية:١١.

(٢) رواه الحاكم في مستدركه، جـ٢، ص٥٠٦-٥٠٧ وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.

(٣) سورة المدثر، الآيات:١٨-٢٥.

وإن كنت من الفئة الثانية، وهم الذين أوتوا حظًّا من تذوق البيان، وشيئًا من إدراك الفصاحة والبلاغة، فدونك نصوص البلغاء، وأبيات الشعراء، وكلمات الخطباء، اختر منها ما شئت من أرقى عصور البلاغة، وأعلى صور البيان، ثم انظر في آية من آيات القرآن، ستجد البون شاسعًا، والفرق كما بين الثرى والثريا أو السماء والأرض.

فإن قلت: نعم، لقد نثرت كنانة الكلام بين يدي وعجمت سهامها، فما وجدت كالقرآن أصلب عودًا. ولقد وردت مناهل القول وتذوقت طعومها فما وجدت كالقرآن أعذب موردًا، وقد آمنت أنه كما وصفتموه، غير أن الذي أحس به من ذلك معنى يتجمجم في الصدر لا أحسن تفسيره ولا أملك تعليله، فهل من سبيل إلى عرض شيء من ذلك علينا لتطمئن به قلوبنا، ونزداد إيمانًا إلى إيماننا؟

قلنا: إن هذا أمر جسيم، ومرام بعيد لا يمكن رسمه في هذه العجالة ولو طالت، ولعلنا نذكر ما يقرب البعيد ويدنيه.

ونتحدث عن أمرين:

أولهما: ألفاظه وهي القشرة البادية.

ثانيهما: معانيه وهي اللآلئ الكامنة.

فأول ما يلاقيك من ألفاظه خاصية تأليفه الصوتي في شكله وجوهره.

١ - دع القارئ المجود يقرأ القرآن يرتله حَقَّ ترتيله نازلًا بنفسه على هوى القرآن، لا بنفس تاليه، ثم انتبذ منه مكانًا قصيًا لا تسمع فيه جرس حروفه، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها، ومداتها وغُنَّاتها، ووصلها وسكتها، ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية، وستجد اتساقًا وائتلافًا يسترعي سمعك، لا يعروك منه على كثرة ترداده ملل ولا سأم. هذا الجمال في لغة القرآن لا يخفى على أحد ممن يسمع القرآن، حتى الذين لا

يعرفون لغة العرب، فكيف يخفى على العرب أنفسهم. إنه النظام الصوتي البديع الذي قسمت فيه الحركة والسكون تقسيمًا منوعًا، ووزعت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعًا بالقسط يساعد على ترجيع الصوت به، وتهادي النَّفَس فيه آنًا بعد آن.

٢- وإذا ما قربت أذنك قليلًا قليلًا، فطرقت سمعَك جواهرُ حروفه خارجةً من مخارجها الصحيحة، فاجأتك منه لذة أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها وعلاقاتها مع بعضها، فهذا يُنْقَر، وهذا يُصْفَر، وذاك يُهْمَس وذلك يُـجْهَر، وآخر ينزلق عليه النَّفَس، وآخر يحتبس عنده النَّفَس وهلُمَّ جرًّا، فترى الجمال اللغوي ماثلًا أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة.

من هاتين الصفتين السابقتين تتألف القشرة السطحية للجمال القرآني، وليس الشأن في هذا الغلاف إلا كشأن الأصداف مما توحيه اللآلئ النفيسة؛ فاقتضت حكمته تعالى أن يصون معاني القرآن الكريم السامية بألفاظ عذبة تغري بطلاوتها، وتكون بمنزلة (الحُداء) يستحث النفوس على السير إليها، ويهون عليها عناء السفر في طلبها، لا جرم اصطفى لها من هذا اللسان العربي المبين ذلك القالَب العذب الجميل، ومن أجل ذلك سيبقى صوت القرآن أبدًا في أفواه الناس وآذانهم ما دامت فيهم حاسةٌ تذوقُ، وحاسة تسمع، وإن لم يكن لأكثرهم قلوب يفقهون بها حقيقة سِرِّه، وينفذون بها إلى بعيد غَوْره.

ثانيًا: المعاني:

فإن لم يلهك جمال القشرة البادية عن سامي المعاني المستترة، فكشفت الصدفةُ عن دُرِّها، ونفذتَ من هذا النظام اللفظي إلى ذلك النظام المعنوي، تجلى لك ما هو أبهى وأبهر، ولقيتَ ما هو أروع وأبدع، ولا تحسبن ذلك الأمر لا يظهر أمره إلا في مجموع القرآن، بل يظهر ذلك في القطعة منه، ويظهر في السورة.

وسنعرض لك لمحة سريعة عن هاتين المرتبتين:

أولًا: بيان القرآن في قطعة قطعة منه:

فمن صفاته:

١- القصد في اللفظ والوفاء بالمعنى:

وهما طرفان متقابلان، الميل لأحدهما ميل عن الآخر، فمن أوجز في لفظه لا ينفك من أن يحيف على المعنى قليلًا أو كثيرًا، ومن يعمد إلى الوفاء بالمعنى، وإبراز كل دقائقه، لا يجد في قليل اللفظ ما يشفي صدره، فيسترسل استرسالًا يشعرك بتضاؤل قوة نشاطك، واضمحلال باعثة إقبالك؛ فإن سرك أن ترى كيف تجتمع هاتان الغايتان على تمامهما بغير فترة ولا انقطاع، فانظر حيث شئت من القرآن الكريم تجد وفاء الألفاظ بحق المعاني، واحتواء المعاني للألفاظ، بحيث لا يستغني معنى عن لفظة، ولا تقصر لفظة عن معنى، كما قال ابن عطية: «لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد»[(١)].

٢- خطاب العامة وخطاب الخاصة:

وهما أيضًا غايتان متباعدتان، فما تخاطب به الذكي لا تخاطب به الغبي، وما تخاطب به الطفل لا تخاطب به الكبير، أدرك العرب ذلك وسدوا عجزهم عنه بعبارات مثل «لكل مقام مقال» ونحو ذلك.

وجاء القرآن الكريم وقد ملك الغايتين فهو قرآن واحد، يراه البلغاء أوفى كلام وأبلغه، ويراه العامة أحسن كلام وأوضحه.

---

(١) المحرر الوجيز: ابن عطية، جـ١، ص٦٠-٦١.

٣- إقناع العقل وإمتاع العاطفة:

وفي كل إنسان قوتان:

أ - قوة تفكير.

ب- قوة عاطفة ووجدان.

والقوة الأولى تغوص باحثة عن الحقائق المستترة والمعاني الباطنة، وأما الثانية فتطفو تبحث عن الجمال الظاهر في القشرة البادية. والنفس الإنسانية إما أن تغوص مع تلك أو تطفو مع هذه، ولا تستطيع أن تغوص وتطفو في آن واحد أو لحظة واحدة.

وحين تظهر (قوة الوجدان) تضعف (قوة التفكير) فلا يتقن عقله فكرًا، فإن وَفَى المتكلمُ بحق العقل بخس حق العاطفة، وإن وَفَى بحق العاطفة بخس حق العقل، فإما أن يأتي بكلام علمي مجرد يرضي به عقله، أو بكلام أدبي منمق يرضي به عاطفته، حتى بات الناس يقسمون الأساليب إلى نوعين لا ثالث لهما:

أ - أسلوب علمي.

ب- أسلوب أدبي.

وقسمت الدراسة في عصورنا هذه إلى علمية أو أدبية؛ فلا تطمع من إنسان في أن يهب لك هاتين الطلبتين على سواء، وهو لم يجمعهما في نفسه على سواء، وما كلام المتكلم إلا نتاج قوته، إما قوة التفكير، وإما قوة الوجدان، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.

حاشا القرآن الكريم الذي جمع (قوة الحقيقة البرهانية) (وقوة المتعة الوجدانية). تدبروا في آيات القرآن الكريم فسترون أنها في معمعة البراهين والأحكام لا تنسى نصيب القلب والوجدان؛ ذلك أنها كلام الله رب العالمين الذي لا يشغله شأن عن شأن.

٤ – البيان والإجمال:

وهما أيضًا أمران متقابلان لا يكادان يجتمعان في كلام، إنْ وجد الأول اضمحل الثاني، وإن وجد الثاني تلاشى الأول. فكلام البشر إما أن يكون مجملًا، وإما أن يكون مبينًا، وأنى له أن يكون مجملًا مبينًا في آن واحد.

أما القرآن الكريم كلام الله ﷻ فالأمر غير ذلك، تقرأ الآية القرآنية فتجد فيها من الوضوح والظهور ما يبوئها الدرجة العليا في البيان بأسلوب محكم خال من كل غريب عن الغرض، يسبق معناها إلى نفسك دون كد ذهن، ولا إعادة تلاوة، فإن أعدت النظر مرة أخرى، لاح لك منها معانٍ جديدة، فإن زدت التدبر زاد العطاء، وانكشف لك ما يجعلك توقن أن في الآية (إجمالًا) لمعانٍ عديدة مع بيان ووضوح.

ثانيًا: بيان القرآن في سورة سورة منه:

وهي أيضًا مرتبة من مراتب البيان في القرآن لها صفات وخصائص أهمها:

الكثرة والواحدة:

فالكلام هو مرآة المعنى، فإن ساء نظمه، تبددت معانيه كما تتبدد الصورة الواحدة على المرآة المهشمة أو غير المستوية السطح.

ولا بد لإبراز المعنى ووضوحه من إحكام ألفاظه، وإتقان بيانه، وذلك بتمام التقارب بين كلماته، والترابط بين جمله، حتى تتماسك وتتعانق أشد ما يكون التماسك وأقوى ما يكون العناق.

وليس ذلك بالأمر الهيّن، بل هو مطلب شاق يحتاج إلى مهارة وحذق، ولطف وحس في اختيار أحسن المواقع لتلك الأجزاء، أيها أحق أن يجعل أصلًا أو تتمة، وأيها أحق أن يبدأ به أو يختم، ثم اختيار أحسن الطرق للمزج بينها بالإسناد أو التعليق أو بالعطف، وغير ذلك من أسباب الترابط، ذلك حال المعنى الواحد الذي تتصل أجزاؤه فيما بينها،

فما ظنك بالمعاني المختلفة في جوهرها، كم تحتاج من المهارة والحذق؟

ولهذه المشقة نرى كثيرًا من البلغاء حين ينتقل من معنى إلى معنى لا يستغني عن استعمال بعض الأدوات لسد الثغرة التي يحدثها الانفصال بين المعاني، من نحو قولهم: (وبعد) أو (ونعود) أو (ننتقل إلى الحديث عن) أو (وسنتحدث) أو (بقي علينا) ونحو ذلك.

وهذا شأن البلغاء في الحديث الواحد في المجلس الواحد، فكيف لو جاء حديثه في أماكن مختلفة، وأزمان متباعدة، ألا تكون سمات الانفصال وظواهر الانقطاع أقوى وأشد.

حاشا القرآن فقد اشتملت السورة منه على وصف، وقصص، وتشريع، وجدل، وعقائد، وأمر، ونهي، ونزلت السورة في أوقات مختلفة وأزمان متباعدة، ورتبت آياتها بطريقة عجيبة، يرسم مكان الآية ويحدد قبل أن تنزل الآية التي قبلها أو التي بعدها، ثم لا يحدث أن تنقل من موضعها إلى آخر، فإذا نزل ما حولها من الآيات رأيت الترابط والتلازم كأنهن قطعة واحدة، بل رأيتهن مع بقية آيات السورة كأنهن سبيكة واحدة، فلا تجد فرقًا، ولا يستبين لك أمر في معرفة ما نزل من السورة منجمًا، وما نزل منهن مفرقًا، فجاءت الكثرة الكاثرة من المعاني في السورة كأنهن معنى واحدًا أو آية واحدة محكمة السبك متقنة السرد(١)(٢).

---

(١) إن شئت دراسة وافية دقيقة لنموذج تطبيقي لهذا المعنى فانظر ما كتبه الدكتور محمد عبد الله دراز عن الكثرة والواحدة في سورة البقرة في كتابه النبأ العظيم من ص١٤٢ إلى نهاية الكتاب.

(٢) إلى هنا انتهى ما اقتبسته مما كتبه في هذا الموضوع الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه القيم «النبأ العظيم» من ص٩٢، ولمزيد بيان انظر ما كتبه الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني في كتابه «مناهل العرفان» جـ٢ ص٣٢٥-٣٥٣. والأستاذ مصطفى صادق الرافعي في كتابه «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» ص٢١٣- ٣٠٩.

الإعجاز العلمي:

القرآن الكريم كلام الله، والكون كله من خلق الله، ولا يشك مؤمن في التطابق التام بين كلام الله تعالى وبين حقائق هذا الكون ونظامه.

ولا ريب أن المؤمن حين يقرأ اكتشافًا علميًّا جديدًا أثبته العلماء بالبرهان القاطع، ثم يجد ذلك مذكورًا في القرآن أو ما يوافقه، فإنه يشعر بزيادة الطمأنينة القلبية كالتي طلبها إبراهيم عليه السلام، وبفرح وسرور كفرح الرسول ﷺ بحديث الجساسة[(١)].

لكن هذه المقارنة أو التوفيق بين النص القرآني الكريم والاكتشاف العلمي الجديد ينبغي أن تكون له ضوابطه، وأن تكون له موازينه. ولهذا وقع الاختلاف بين العلماء في التفسير العلمي للقرآن الكريم بين مؤيد ومعارض.

المراد به:

يراد بالتفسير العلمي: «اجتهاد المفسر في كشف الصلة بين آيات القرآن الكريم ومكتشفات العلم التجريبي، والربط بينهما بوجه من الوجوه». وهذا تعريفه بما هو عليه، أما تعريفه بما ينبغي أن يكون عليه فهو: «كشف الصلة بين النصوص القرآنية وحقائق العلم التجريبي».

والفرق بينهما أن في الأول خلطًا بين النظريات والحقائق، بحيث نجد كثيرًا من المفسرين يفسرون القرآن بهما من غير تحقيق. وما ينبغي أن يكون هو التمييز بين النظريات والحقائق، والاقتصار على الثانية دون الأولى في تفسير القرآن الكريم.

---

(١) انظر حديث الجساسة في صحيح مسلم، جـ٤، ص٢٢٦١.

أقوال العلماء في الإعجاز العلمي[١]:

مما لا شك فيه أن مثل هذا اللون من التفسير في جدته وتجدده سيكون له خصوم، وسيكون له أنصار، يلتمس كل منهم دليلًا، ينصر به رأيه، ويؤيده به، ثم يكر على دليل الخصم فيبطله.

وقد كان هذا الأمر في التفسير العلمي للقرآن الكريم منذ لحظات بزوغه، ونحن وإن كنا لا نعرف هذا الحدث باليوم أو بالسنة، إلا أن العلماء اتفقوا على أنَّ الإمام الغزالي المتوفى سنة (٥٠٥هـ) من أوائل المتكلمين في هذا النوع من التفسير، وعلى هذا فيكون ظهوره على وجه التقريب في أواخر القرن الخامس الهجري، واتفقوا أيضًا على أن الغزالي نفسه أكثر من استوفى بيان هذا القول إلى عهده[٢].

ومما لا شك فيه أن الغزالي لم يكن وحيدًا في الميدان يجول ويصول، فقد نزل معه أنصار ونازله خصوم، وما زالت المعركة قائمة لم يهدأ لها بال، ولم تقعد لها قائمة، وانقسموا إلى فريقين أو ثلاثة:

١- المؤيدون للتفسير العلمي.

٢- المعارضون.

٣- المعتدلون.

---

(١) نقلت هذا المبحث بتصرف يسير من كتابي اتجاهات التفسير، جـ٢، ص٥٥٠، وما بعدها.

(٢) انظر مثلًا: التفسير معالم حياته: أمين الخولي، ص٢٠، والتفسير والمفسرون: الذهبي، جـ٣ ص١٤٠، ولمحات في علوم القرآن: محمد الصباغ، ص٢٠٣، والتفسير العلمي للقرآن الكريم: عبد الله الأهدل، ص١٨٥، واتجاهات التفسير في العصر الراهن: عبدالمجيد المحتسب، ص٢٤٧، وغيرهم.

المؤيدون للتفسير العلمي:

ومن المؤيدون للتفسير العلمي: الإمام الغزالي، الفخر الرازي، الزركشي، السيوطي، البيضاوي، نظام الدين النيسابوري، ومن المعاصرين: الألوسي، وطنطاوي الجوهري، والإسكندراني، والكواكبي، ومحمد فريد وجدي، والرافعي، والقاسمي وغيرهم.

من أدلة المؤيدين للتفسير العلمي:

استدل المؤيدون للتفسير العلمي بأدلة كثيرة منها[(١)]:

١- الاستدلال بظاهر عموم بعض الآيات:

كقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَيْءٍ﴾[(٢)]، وقوله سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[(٣)]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾[(٤)]، وقوله سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[(٥)] وغير ذلك من الآيات الداعية إلى التفكر والتدبر في خلق الله عز شأنه.

---

(١) نقلت هذه الأدلة بتصرف من بحث «التفسير بمكتشفات العلم التجريبي» للدكتور محمد الشايع، مجلة جامعة الإمام، العدد الرابع ١٤١١هـ، ص٣٧-٤٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

(٣) سورة النحل، الآية: ٨٩.

(٤) سورة ق، الآية: ٦.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٥٢.

٢- الاستدلال بظاهر عموم بعض الأحاديث والآثار:

كحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «**ستكون فتن**». قيل: وما المخرج منها؟ قال: «**كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم...**» الحديث[١].

وما أخرجه سعيد بن منصور عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «من أراد العلم فعليه بالقرآن فإن فيه خبر الأولين والآخرين»[٢].

٣- وقالوا: إن الله سبحانه وتعالى ملأ كتابه من الاستدلال على العلم والقدرة والحكمة بأحوال السموات والأرض، وتعاقب الليل والنهار، وكيفية أحوال الضياء والظلام، وأحوال الشمس والقمر والنجوم، وذكر هذه الأمور في أكثر السور وكررها وأعادها مرة بعد أخرى، فلو لم يكن البحث عنها والتأمل في أحوالهم جائزًا لما ملأ الله كتابه منها[٣].

٤- أن العلم الحديث قد يكون ضروريًّا لفهم بعض المعاني القرآنية، وليس هناك ما يمنع من أن يكون فهم بعض الآيات فهمًا دقيقًا متوقفًا على تقدم بعض العلوم، فتكون الحقيقة العلمية من قواعد الترجيح في التفسير إذا كان للآية أكثر من معنى، فيتعين أن يؤخذ بالمعنى الذي تؤيده الحقائق العلمية.

٥- تحقق فوائد كثيرة ومنافع كبيرة من التفسير العلمي، منها[٤]:

أ- إدراك وجوه جديدة للإعجاز في القرآن الكريم بإثبات التوافق بين حقائق القرآن الكريم وحقائق العلم.

---

(١) رواه الترمذي جـ٥، ص١٧٢، سبق تخريجه ص٥٢.

(٢) الإتقان: السيوطي جـ٢، ص١٢٦.

(٣) تفسير الرازي، جـ٤ ص١٢١.

(٤) انظر كتابي «اتجاهات التفسير» جـ٢، ص٦٠٢.

ب- استمالة غير المسلمين إلى الإسلام وإقناعهم به ببيان إعجاز القرآن العلمي، وإقامة الحجة عليهم بذلك.

جـ- امتلاء النفوس إيمانًا بعظمة الله جل جلاله وعظيم سلطانه وقدرته بعد الوقوف على أسرار الكون التي كشفها القرآن.

المعارضون للتفسير العلمي:

ومن المعارضون للتفسير العلمي: أبو حيان الأندلسي، والشاطبي، ومحمود شلتوت، وأمين الخولي، وسيد قطب وغيرهم.

من أدلة المعارضين[١]:

واستدل المعارضون للتفسير العلمي بأدلة منها:

١- أن للتفسير شروطًا وقيودًا قررها العلماء ينبغي الالتزام بها، فلا يكون تفسير القرآن مباحًا لكل من حصل علمًا من العلوم، وغابت عنه علوم أخرى لا بد منها للمفسر. ومن ذلك عدم تحميل ألفاظ القرآن معاني وإطلاقات لم توضع لها ولم تستعمل فيها.

٢- أن القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد، وليس بكتاب تفصيل لمسائل العلوم ونظرياته، ودقائق الاكتشافات والمعارف، ومن طلب ذلك من القرآن فقد أساء فهم طبيعة هذا القرآن ووظيفته.

٣- أن التفسير العلمي مدعاة إلى الزلل لدى أكثر الذين خاضوا فيه من المعاصرين؛ لأن عملية التوفيق تفترض غالبًا محاولة للجمع بين موقفين يتوهم أنهما متعاديان ولا عداء، أو يظن أنهما متلاقيان ولا لقاء[٢].

---

(١) انظر كتابي اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، جـ٢، ص٦٠٢-٦٠٣، والتفسير بمكتشفات العلم التجريبي: د. محمد الشايع، ٢٨- ٣٣.

(٢) معالم الشريعة: د. صبحي الصالح، ص٢٩٠.

٤- أن تناول القرآن بهذا المنهج يضطر المفسر إلى مجاوزة الحدود التي تحتملها ألفاظ النص القرآني؛ لأنه يحس بالضرورة متابعة العلم في مجالاته المختلفة، فيتعجل تلمس المطابقة بين القرآن والعلم تعجلًا غير مشروع.

٥- أن ما يكشف من العلوم إنما هو نظريات وفروض قابلة دائمًا للتغيير والتبديل، والتعديل، والنقض، والإضافة، بل قابلة لأن تنقلب رأسًا على عقب، ومن ثم فلا يصح أن نعلق الحقائق القرآنية النهائية بمثل تلك النظريات؛ حتى لا نقف محرجين عند ثبوت بطلان تلك النظرية.

الرأي المختار(١):

قبل أن نذكر ما نراه صوابًا يجب أن نذكر حقيقة ينبغي إدراكها وهي التفريق بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي. فالأول هو مثار البحث والمناقشة، وأما الثاني فقضية مسلمة لا نزاع فيها.

ذلكم أن المؤيدين للتفسير العلمي والمعارضين له أيضًا كلهم بلا استثناء يقرون ويعترفون أن القرآن الكريم لم ولن يصادم حقيقة علمية.

لم يقولوا هذا عن عاطفة مجردة، ولم يقله أتباع القرآن فحسب، وإنما قاله أولئك، وقاله خصومه أيضًا، بعد أن تناولوا آيات عديدة منه، وقلبوها دراسة وتأملًا وتدبرًا، ونظروا فيما بين أيديهم من النظريات والحقائق العلمية حتى انتهوا إلى ما انتهوا إليه.

وقد يحسب أحد أن السلامة من مصادمة الحقائق العلمية أمر هين، فما على المتكلم إلا أن يتجنب الخوض في مجالاتها، ويحذر من الوقوع في مبهمات العلوم، وغوامض المعارف، وأسرار الكون وخفايا العلم، وبذا يظفر بهذه السمة.

---

(١) نقلته بتصرف من كتابي اتجاهات التفسير، جـ٢ ص ٦٠٠-٦٠٤.

والأمر حق لو كان القرآن سلك هذا المسلك، لكنه وقد أُنزل قبل أربعة عشر قرنًا من الزمن عرض لكثير من مظاهر هذا الكون كخلق السموات والأرض وخَلْق الإنسان، وسَوْقِ السحب وتراكمه، ونزول المطر، وجريان الشمس، وتحدث عن القمر والنجوم والشهب وأطوار الجنين، وعن النبات والبحار وغير ذلك كثير. ومع ذلك كله لم يسقط العلم كلمة من كلماته، ولم يصادم جزئية من جزئياته[1]، فإذا كان الأمر كذلك فإن هذا بحد ذاته يعتبر إعجازًا علميًّا للقرآن، حتى ولو لم يتم الربط بين الآية والاكتشاف العلمي الحديث.

وهذا أمر يدركه ويقره كل العلماء، لا ينكره أحد، فالإعجاز العلمي في القرآن متحقق مدرك ثابت، لا خلاف فيه.

ثم انقسم العلماء بعد ذلك إلى قسمين: فمنهم من قال: ما دام الإعجاز العلمي متحققًا في القرآن وثابتًا فما علينا أن نطبقه بين آياته واحدة واحدة وبين الحقائق العلمية واحدة واحدة. وامتنعت طائفة أخرى عن تطبيقه لا خوفًا عليه من النقض وليس لخشية على حقائقه، ولكن لعدم الثقة في مداركنا نحن البشر، فقد نحسب نظرية علمية حقيقة علمية، فما تلبث إلا قليلًا حتى تتقوض بعد رسوخ، وتتزعزع بعد ثبوت، ولات حين مناص نقع في الحرج الشديد، فيُكَذَّبُ القرآن وهو الصادق، فتكون البلية، فالعيب والنقص في مداركنا وليس في حقائق القرآن.

وبهذا تدرك أن الجميع يقول بالإعجاز العلمي في القرآن، لكن منهم من قال بجواز التفسير العلمي، ومنهم من منعه، والذي نراه صوابًا هو الوسط بين الفريقين.

---

(١) انظر كتابي «خصائص القرآن الكريم» ص٧٥- ٧٦.

فلا رفض ولا إنكار للتفسير العلمي يمنع من إدراك وجوه الإعجاز الجديدة، ويدفع مزاعم القائلين بالعداوة بين الدين والعلم، ويمنع من استمالة غير المسلمين أو يحث على الانتفاع بقوى الكون.

ولا تسليم مطلق للتفسير العلمي لأن إعجاز القرآن ثابت، وغني عن أن يسلك في بيانه هذا المسلك، كما أن الدعوة إلى النظر في الكون دعوة لمواضع العبرة والعظة، وليس بالضرورة إلى بيان دقائقها وكشف علومها؛ ولأن التفسير العلمي مدعاة إلى الزلل لدى أكثر الذين خاضوا فيه، وأن تناول القرآن بهذا المنهج يضطر المفسر إلى مجاوزة الحدود التي تحتملها ألفاظ القرآن، ويحملها ما لا تحتمل، فضلًا عن أن ما يكشف من العلوم إنما هو فروض ونظريات قابلة دائمًا للتغيير والتعديل والنقص والإضافة.

إذًا فلا رفض مطلق، ولا قبول مطلق، بل وسط بين طرفين، وجمع بين حقيقتين: حقيقة قرآنية ثابتة بالنص الذي لا يقبل الشك، وحقيقة علمية ثابتة بالتجربة والمشاهدة القطعيين.

لهذا فلا بأس - فيما أرى - من إيراد الحقائق العلمية الثابتة في تفسير القرآن بشروط:

١ - ألا تطغى تلك المباحث على المقصود الأول من القرآن، وهو الهداية.

٢ - أن تذكر تلك العلوم لأجل تعميق الشعور الديني لدى المسلم والدفاع عن العقيدة ضد أعدائها.

٣ - أن تذكر تلك الأبحاث على وجه يدفع المسلمين إلى النهضة العلمية.

٤ - أن لا تذكر هذه الأبحاث على أنها هي التفسير الذي لا يدل النص القرآني على سواه، بل تذكر لتوسيع المدلول، وللاستشهاد بها على وجه لا يؤثر بطلانها فيما بعد على قداسة النص القرآني، ذلك أن تفسير النص القرآني بنظرية قابلة للتغير والإبطال يثير

الشكوك حول الحقائق القرآنية في أذهان الناس كلما تعرضت نظرية للرد أو البطلان[١].

فإذا تحققت هذه الشروط فلا مانع من إيراد الحقائق العلمية في كتب التفسير، والله أعلم.

من المؤلفات في الإعجاز العلمي:

هناك مؤلفات كثيرة في الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، أذكر منها:

١ - الجواهر في تفسير القرآن الكريم: طنطاوي جوهري.

٢ - كشف الأسرار النورانية القرآنية: محمد بن أحمد الإسكندراني.

٣- القرآن ينبوع العلوم والعرفان: علي فكري.

٤ - ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان: محمود شكري الألوسي.

٥ - التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن: حنفي أحمد.

والمؤلفات في ذلك كثيرة جدًّا، وهناك محاضرات وأفلام على هذا النحو، كما أُنشِئت في المملكة العربية السعودية هيئة للإعجاز العلمي في القرآن والسنة تابعة للمجلس الأعلى للمساجد، تعقد الندوات والمحاضرات، وتطبع الكتب المتعلقة بذلك.

أمثلة للتفسير العلمي:

والأمثلة على الحقائق العلمية والآيات القرآنية التي توافقها ولا تخالفها كثيرة، ليس بوسعنا أن نوردها بالتفصيل، بل نذكر الآية وما تشير إليه بإيجاز شديد.

---

(١) مجلة كلية أصول الدين، العدد الثاني ص٥٨، مقال: نظرات في مدرسة التفسير الحديثة. د. مصطفى مسلم.

ومن أراد التوسع فدونه كتب الإعجاز العلمي:

١- في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾[١] تفريق بين الشمس والقمر ثم أدركه العلماء بعد ذلك.

٢- في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾[٢] إشارة إلى شكل الجبل الظاهر والباطن، وأدركه العلماء بعد ذلك.

٣- في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾[٣] إشارة إلى مراحل خلق الإنسان في الرحم، ولم يدركها العلماء إلا في العصور الحديثة.

٤- في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾[٤] إشارة إلى موضع تَكَوُّن النطفة، وهو أمر لم يدركه العلماء إلا حديثًا.

٥- في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾[٥] في تخصيص البنان بالذكر صفة تميزه عن غيره من أعضاء الجسم لم يكتشفها العلم إلا حديثًا، وهو علم البصمات.

٦- في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ﴾[٦] إشارة إلى مركز الحس بالألم في الإنسان وهو الجلد.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٥.

(٢) سورة النبأ، الآيتان: ٦-٧.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

(٤) سورة الطارق، الآيات: ٥- ٧.

(٥) سورة القيامة، الآية: ٤.

(٦) سورة النساء، الآية: ٥٦.

٧- في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[1] إشارة إلى ضيق صدر مَن يصعد إلى السماء، وهو أمر لم يكتشفه العلم إلا حديثًا حيث يقل الأوكسجين وينخفض الضغط.

٨- وفي قوله تعالى: ﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾[2] إشارة إلى ما اكتشف العلم الحديث بعضه من عظمة هذا الكون واتساعه الذي يقصر عن إدراكه إنسان.

٩- وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾[3] إشارة إلى ما كان مجهولًا من تحديد مصدر اللبن في الأنعام.

١٠- وفي قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾[4] إشارة إلى أن الإنسان يخلق من جزء ضئيل جدًّا (نطفة) من المني، وهذا ما كشفه العلم الحديث.

وسبحان الذي أحاط بكل شيء علمًا.

الإعجاز التشريعي:

والمراد بهذا الوجه ذلكم (التشريع) الذي جاء به القرآن الكريم الشامل الكامل المحكم المتقن.

(شامل) لكافة أوجه التشريع، سواء ما يتعلق منها بالفرد أو في المجتمع، وسواء أكان في العقيدة أو العبادة أو المبادئ والأخلاق، أو الاجتماع، أو الاقتصاد أو السياسة في السلم أو الحرب، في السفر أو الحضر، في الليل أو النهار.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.

(٢) سورة الواقعة، الآيتان: ٧٥-٧٦.

(٣) سورة النحل، الآية: ٦٦.

(٤) سورة القيامة، الآيتان: ٣٦- ٣٧.

(كامل) لاستيفائه لدقيق المسائل وجليلها، وصغيرها وكبيرها.

(محكم متقن) لا نقص فيه ولا عيب، ولا قصور ولا خلل.

أحكم تشريع، وأكمل نظام، عجز البشر ولا زالوا عاجزين عن الإتيان بمثل تشريعه، أو الإتيان بمثل سياسته أو نظامه، فحين ننظر في التشريعات البشرية والقوانين الوضعية نرى البون الشاسع بين هذا وذاك، مما يكشف لنا وجه الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم.

فهذا التشريع بشموله وكماله وإحكامه أكبر من أن تحيط به العقول البشرية في جيل واحد أو في مجموعة من الأجيال فضلًا عن أن يحيط به عقل بشري واحد في جيل واحد.

وليس من السهل أن نرسم في أسطر معالم هذا التشريع المعجز، ولكنها إشارة مجرد إشارة بأصبع صغير إلى شيء عظيم. فنشير إلى أن القرآن نزل في مجتمع جاهلي سادت فيه الجاهلية العقدية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، وليس من السهل في مثل هذا المجتمع نقد أمر من أمورها فضلًا عن تغييره أو قلب الأمور كلها، فسلك القرآن مسلكًا عجيبًا.

*   *   *

القراءات والقراء

القراءات لغةً:

القراءات جمع قراءة، والقراءة مصدر سماعي لقرأ، تقول: قرأ يقرأ قراءة، وقرآنًا وقرءًا. والقرء في اللغة الجمع والضم، تقول: قرأت الماء في الحوض، إذا جمعته. وسميت القراءة قراءة؛ لأن القارئ يجمع الحرف مع الحرف فتكون الكلمة، والكلمة مع الكلمة فتكون جملة، والجملة مع الجملة. فهو يقرأ، يعني: يجمع ذلك كله.

القراءات اصطلاحًا:

يخلط كثير من الباحثين بين تعريف القراءات وتعريف علم القراءات، والفرق بين القراءات وعلم القراءات كالفرق بين القرآن الكريم وعلوم القرآن الكريم.

فالقراءة: هي مذهب من مذاهب النطق بالقرآن الكريم؛ يذهب إليه إمام من الأئمة مذهبًا يخالف غيره مع اتفاق الروايات والطرق عنه، سواء أكانت هذه المخالفة في نطق الحروف أم في نطق هيئاتها[١].

ومذهب النطق بالكلمة القرآنية له مسميات هي: قراءة، رواية، طريق، وجه.

فالقراءة: ما نسب إلى أحد أئمة القراءات إذا اتفقت الروايات والطرق عنه.

والرواية: ما نسب إلى الآخذ عن هذا الإمام ولو بواسطة.

والطريق: ما نسب إلى الآخذ عن الراوي ولو نزل.

والوجه: ما نسب إلى تخير القارئ من قراءة يثبت عليها وتؤخذ عنه[٢].

---

(١) مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص٤١٠.

(٢) إتحاف فضلاء البشر: البنا، جـ١، ص١٠٢.

قال السيوطي: «الخلاف إن كان لأحد الأئمة السبعة أو العشرة أو نحوهم، واتفقت عليه الروايات والطرق عنه، فهو قراءة. وإن كان للراوي عنه، فرواية، أو لمن بعده فنازلًا فطريق، أو لا على هذه الصفة مما هو راجع إلى تخير القارئ فيه، فوجه»[١].

تعريف علم القراءات:

وأما علم القراءات:

فهو: علم يعرف به كيفية النطق بالكلمات القرآنية، وطريق أدائها اتفاقًا أو اختلافًا، مع عزو كل وجه لناقله[٢]، أو «علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها معزوًّا لناقله»[٣].

موضوعه:

كلمات القرآن الكريم من حيث أحوال النطق بها، وكيفية أدائها.

شروط القراءة الصحيحة:

وضع علماء القراءات شروطًا أو ضوابط للقراءة الصحيحة، جمعها ابن الجزري وحررها، وفصَّل القول فيها حتى صارت تنسب إليه واقترنت باسمه.

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٩٩.

(٢) البدور الزاهرة: عبدالفتاح القاضي، ص٥.

(٣) منجد المقرئين: ابن الجزري، ص٣، لطائف الإشارات: القسطلاني، ص١٧٠، وإتحاف فضلاء البشر: البنا، جـ١، ص٦٧.

قال في الطيبة:

فَكُلُّ ما وافقَ وَجْهَ نَحْوِ ... وكانَ للرَّسْمِ احْتمالًا يَحْوِي
وصحَّ إسنادًا هُو القرآنُ ... فهذه الثلاثةُ الأركانُ
وحيثُما يَخْتَلُّ رُكْنٌ أثْبِتِ ... شُذوذَه لو أنه في السَّبْعَةِ[(١)]

وفصل القول في ذلك في كتابه «النشر في القراءات العشر»[(٢)] فقال: «كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحب العثمانية ولو احتمالًا، وصح سندها، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ووجب على الناس قبولها، سواء كانت عن الأئمة السبعة، أم عن العشرة، أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين. ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة، سواء كانت عن السبعة أم عمن هو أكبر منهم؛ هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف، صرح بذلك الإمام أبو عمرو الداني، ونص عليه مكي بن أبي طالب، وأبو العباس المهدوي، وأبو شامة.. وهو مذهب السلف الذي لا يعرف عن أحد منهم خلافه».

وبهذا يظهر أن ضوابط أو شروط القراءة الصحيحة ثلاثة هي:

الأول: موافقة اللغة العربية ولو بوجه من الوجوه.

فلا بد أن توافق القراءة اللغة العربية، ولا يلزم أن توافق الأفشى في اللغة؛ بل يكفي أن توافق أي وجه من أوجه اللغة. قال ابن الجزري: «وقولنا في الضابط: (ولو بوجه) نريد وجهًا من وجوه النحو؛ سواء كان أفصح أم فصيحًا مجمعًا عليه أم مختلفًا فيه اختلافًا

(١) طيبة النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، ص٣٢.
(٢) النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، جـ١، ص٩، (بتصرف يسير).

لا يضر مثله، إذا كانت القراءة مما شاع وذاع وتلقاه الأئمة بالإسناد الصحيح؛ إذ هو الأصل الأعظم والركن الأقوم، وهذا هو المختار عند المحققين في ركن موافقة العربية، فكم من قراءة أنكرها بعض أهل النحو، أو كثير منهم، ولم يعتبر إنكارهم، بل أجمع الأئمة المقتدى بهم من السلف على قبولها كإسكان ﴿**بَارِئْكُمْ**﴾[١] و﴿**يَأْمُرْكُمْ**﴾[٢] ونحوه.. وضم ﴿**الْمَلَائِكَةُ اسْجُدُوا**﴾[٣]، ونصب ﴿**كُنْ فَيَكُونَ**﴾[٤]، وخفض ﴿**والأَرْحَامِ**﴾[٥]، ووصل ﴿**وإِنَّ الْيَاسَ**﴾[٦]، وألف ﴿**إِنْ هَذَانِ**﴾[٧].. وغير ذلك.

قال أبو عمرو الداني في كتابه (جامع البيان): وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة، والأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر، والأصح في النقل والرواية، وإذا ثبت عنهم لم يردها قياس عربية، ولا فشو لغة؛ لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها»[٨].

الثاني: موافقة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالًا.

وذلك أن الصحابة ﷺ عندما كتبوا القرآن في عهد عثمان ﷺ تعمدوا كتابته بطريقة تشتمل على جميع القراءات الثابتة عن الرسول ﷺ إما صراحة أو احتمالًا، وأيُّ

---

(١) سورة البقرة، من الآية:٥٤؛ وهي قراءة أبي عمرو بخلف عن الدوري.

(٢) سورة البقرة، من الآية:٦٧؛ وهي قراءة أبي عمرو بخلف عن الدوري.

(٣) سورة البقرة، من الآية:٦٧؛ وهي قراءة أبي عمرو بخلف عن الدوري.

(٤) سورة البقرة، من الآية:٣٤؛ وهي قراءة أبي جعفر.

(٥) سورة النساء، من الآية الأولى؛ وهي قراءة حمزة.

(٦) سورة الصافات، من الآية:١٢٣؛ وهي قراءة ابن ذكوان بخلف عنه.

(٧) سورة طه، من الآية:٦٣ وقرأها أبو عمرو بالياء، وقرأها الباقون بالألف.

(٨) النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، جـ١، ص١٠-١١ (بتصرف يسير).

قراءة لا توافق رسم المصحف فإن ذلك يعني أن الصحابة لا يعرفونها وإلا لكانوا قد كتبوها، والقراءة التي لا يعرفها الصحابة ليست بقراءة صحيحة، فمن ذا الذي يدعي معرفة قراءة لا يعرفها الصحابة رضي الله عنهم !!

قال ابن الجزري: «ونعني بقولنا بـ (موافقة أحد المصاحف) ما كان ثابتًا في بعضها دون بعض، كقراءة ابن عامر ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾[1] بدون واو، ﴿وبالزُّبُرِ وَبِالكِتَـٰبِ المُنِيرِ﴾[2] بزيادة الباء في الاسمين ونحو ذلك، فإن ذلك ثابت في المصحف الشامي، وكقراءة ابن كثير ﴿تَجْرِي مِن تَحْتَهَا الأَنْهَارُ﴾[3] في الموضع الأخير من سورة براءة بزيادة (من)، فإن ذلك ثابت في المصحف المكي..

وقولنا بعد ذلك: (ولو احتمالًا) نعني به ما يوافق الرسم ولو تقديرًا؛ إذ موافقة الرسم قد تكون تحقيقًا وهو الموافقة الصريحة، وقد تكون تقديرًا وهو الموافقة احتمالًا، فإنه قد خولف صريح الرسم في مواضع إجماعًا؛ نحو (السمٰوات والصٰلحٰت، واليل، والصلوة، والزكوة، والربوا).. وقد توافق بعض القراءات الرسم تحقيقًا، ويوافقه بعضها تقديرًا نحو (**ملك يوم الدين**) فإنه كتب بغير ألف في جميع المصاحف. فقراءة الحذف تحتمله تحقيقًا وقراءة الألف محتملة تقديرًا».

الثالث: صحة الإسناد.

قال ابن الجزري: «نعني به أن يروي تلك القراءة العدل الضابط عن مثله كذا حتى تنتهي، وتكون مع ذلك مشهورة عند أئمة هذا الشأن الضابطين له، غير معدودة عندهم

(١) سورة البقرة، الآية:١١٦

(٢) سورة آل عمران، الآية:١٨٤

(٣) سورة التوبة، الآية:١٠٠

من الغلط أو مما شذ بها بعضهم. وقد شرط بعض المتأخرين التواتر في هذا الركن، ولم يكتف فيه بصحة السند، وهذا مما لا يخفى ما فيه، فإن التواتر إذا ثبت لا يحتاج فيه إلى الركنين الأخيرين من الرسم وغيره؛ إذ ما ثبت من أحرف الخلاف متواترًا عن النبي ﷺ وجب قبوله، وقطع بكونه قرآنًا سواء وافق الرسم أم خالفه، وإذا اشترطنا التواتر في كل حرف من حروف الخلاف انتفى كثير من أحرف الخلاف الثابتة عن هؤلاء الأئمة السبعة وغيرهم»[١].

أنواع القراءات:

اشتهر لدى المتأخرين خاصة علماء أصول الفقه تقسيم القراءات إلى نوعين: متواتر وشاذ أو آحاد[٢]. وقسمها البلقيني إلى ثلاثة أقسام: متواتر وشاذ وآحاد[٣].

وقد حرر السيوطي من كلام متقن لابن الجزري أن القراءات أنواع هي[٤]:

الأول: المتواتر:

وهو ما رواه جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم إلى منتهى السند. ومثاله: ما اتفقت الطرق في نقله عن السبعة، وهذا هو الغالب في القراءات وكقوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾[٥] وهي قراءة متواترة قرأ بها عاصم والكسائي ويعقوب وخلف، وقرأ الباقون بحذف الألف **(مَلِكِ يوم الدين)**[٦].

---

(١) النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، جـ١، ص١٣.

(٢) قراءة عبدالله بن مسعود، مكانتها، مصادرها، إحصاؤها: د. محمد أحمد خاطر، ص٤٧.

(٣) الإتقان: للسيوطي، جـ١، ص٩٩.

(٤) المرجع السابق، جـ١، ص١٠٢.

(٥) سورة الفاتحة، الآية:٤.

(٦) البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة: عبدالفتاح القاضي، ص١٥.

الثاني: المشهور:

وهو ما صح سنده ولم يبلغ درجة التواتر ووافق الرسم والعربية، واشتهر عند القراء فلم يَعُدُّوه من الغلط ولا من الشذوذ.

ومثاله ما اختلفت الطرق في نقله عن السبعة، فرواه بعض الرواة عنهم دون بعض.

وأمثلة ذلك كثيرة في فرش الحروف من كتب القراءات كالمتواتر، ومثالها: قراءة أبي جعفر **(ما أشْهَدْناهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ والأَرْضِ ولا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وما كُنْتَ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُدًا)**[١] بفتح التاء في (وما كنتَ)، وقرأها الباقون (وما كنتُ)، وبلفظ الجمع في (ما أشهدناهم)، وقرأها الباقون بالإفراد (ما أشهدتهم).

الثالث: الآحاد:

وهو ما صح سنده، وخالف الرسم أو العربية، أو لم يشتهر الاشتهار المذكور. وهذا النوع لا يقرأ به، ولا يجب اعتقاده.

وعقد الترمذي في «جامعه»[٢] والحاكم في «مستدركه»[٣] لذلك بابًا أخرجا فيه شيئًا كثيرًا صحيح الإسناد.

ومن ذلك ما أخرجه الحاكم في «مستدركه» من طريق عاصم الجحدري، عن أبي بكرة أن النبي ﷺ قرأ: (متكئين على رفارف خضر وعباقري حسان)[٤].

---

(١) سورة الكهف، الآية:٥١.

(٢) جامع الترمذي: أبواب القراءات، ص٦٥٨-٦٦٠.

(٣) المستدرك: للحاكم، جـ٢، ص٢٣٠-٢٥٧.

(٤) المستدرك: جـ٢، ص٢٥٠، والقراءة المتواترة ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ٧٦﴾ [الرحمن:٧٦].

وكقراءة ابن عباس رضي الله عنهما (وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبًا) بزيادة صالحة، و(أمامهم) بدل (وراءهم)(١).

وقراءة ابن مسعود رضي الله عنه (فصيام ثلاثة أيام متتابعات)(٢).

واختلف في حكم القراءة بها في الصلاة، والجمهور على منع ذلك، وأجاز بعض العلماء ذلك فيما لا يجب من القراءة.

أما الاحتجاج بها في الأحكام الشرعية فحكمها حكم أحاديث الآحاد يحتج بها، ونفاه الشافعي، وأثبته أبو حنيفة واحتج به وبنى عليه وجوب التتابع في صوم كفارة اليمين بقراءة ابن مسعود وهي آحاد (فصيام ثلاثة أيام متتابعات)(٣).

الرابع: الشاذ:

وهو: ما لم يصح سنده. ونقل ابن الجزري عن مكي بن أبي طالب في تعريف الشاذ أنه: «ما نقله غير ثقة، أو نقله ثقة، ولا وجه له في العربية. وقيل هو: ما صح سنده ووافق العربية ولو بوجه وخالف رسم المصحف(٤).

---

(١) النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، جـ١، ص١٤، والقراءة المتواترة: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾[الكهف:٧٩].

(٢) معاني القرآن: الفراء، جـ١، ص٣١٨، وتفسير القرطبي، جـ٦، ص٢٨٣، والبحر المحيط: لأبي حيان، جـ٤، ص١٢، والقراءة المتواترة ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾[المائدة:٨٩].

(٣) تفسير القرطبي، جـ٦، ص٢٨٣.

(٤) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ١٣، ص٣٩٣-٣٩٤، وقد وسع بعض العلماء هذا المدلول حتى شمل كل ما خرج من أوجه القراءات عن أركان القراءة المتواترة، فيدخل في القراءات الشاذة: ما يسمى بالقراءات الآحاد والضعيفة والموضوعة والمدرجة والمنكرة والغريبة والباطلة، وبعبارة أخرى فإن كل ما =

وذلك أن عثمان رضي الله عنه اقتصر في جمعه للقرآن على ما ثبت في العرضة الأخيرة، فسمى العلماء مِن بعده ما صح سنده ولو قرأ به النبي ﷺ، ولم يثبت في العرضة الأخيرة شاذًّا»[١].

والمؤلفات في القراءات الشاذة كثيرة، ومن أمثلة ما نقله غير ثقة - كما قال ابن الجزري - كثير مما في كتب الشواذ مما غالب إسناده ضعيف، كقراءة ابن السميفع وأبي السمال وغيرهما في ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ ننحيك بالحاء المهملة، **(وتكون لِمَنْ خَلَفَكَ آيَةً)**[٢] **(خَلَفَكَ)** بفتح سكون اللام.. وكالقراءة المنسوبة إلى أبي حنيفة رحمه الله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[٣] برفع الهاء ونصب الهمزة.. وقد راج ذلك على أكثر المفسرين ونسبها إليه وتكلف توجيهها، وإنَّ أبا حنيفة لبريءٌ منها.

ومثال ما نقله ثقة، ولا وجه له في العربية، ولا يصدر مثل هذا إلا على وجه السهو والغلط وعدم الضبط، ويعرفه الأئمة المحققون والحفاظ الضابطون وهو قليل جدًّا، بل لا يكاد يوجد، وقد جعل بعضهم منه رواية خارجة عن نافع (معائش)[٤] بالهمز، وما رواه يحيى عن ابن عامر من فتح ياء ﴿أَدْرِيَ أَقَرِيبٌ﴾[٥] مع إثبات الهمزة[٦].

خرج عن القراءات العشر التي يقرأ بها اليوم عن القراء العشرة فهي (القراءة الشاذة). انظر: المرشد الوجيز: أبو شامة المقدسي ص١٧٨، والتحبير في علم التفسير: السيوطي ص١٤٢.

(١) انظر ص٥٩-٩٨ من كتابنا هذا.

(٢) سورة يونس، الآية:٩٢.

(٣) سورة فاطر، الآية:٢٨.

(٤) سورة الأعراف، الآية:١٠، سورة الحجر، الآية:٢٠.

(٥) سورة الجن، الآية:٢٥.

(٦) النشر: ابن الجزري، جـ١، ص١٤، ١٦ (بتصرف يسير).

الخامس: الموضوع:

وهو الذي لا أصل له. أي: ما روي بلا إسناد. وذلك أن القراءات توقيفية.

قال ابن الجزري: «وبقي قسم مردود أيضًا، وهو ما وافق العربية والرسم ولم ينقل البتة، فهذا رده أحق، ومنعه أشد، ومرتكبه مرتكب لعظيم من الكبائر»[(١)]. ومثاله قراءة (مَلَكَ يومَ الدين) بصيغة الماضي[(٢)].

السادس: المدرج:

وهذا النوع مما أضافه السيوطي إلى أنواع القراءات، ويريد به «ما زيد في القراءات على وجه التفسير»[(٣)]، كقراءة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٌ﴾[(٤)] (من أم) أخرجها سعيد بن منصور[(٥)]، وقراءة ابن عباس رضي الله عنهما ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾[(٦)] (في مواسم الحج) أخرجها البخاري[(٧)].

وقراءة ابن الزبير ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ﴾[(٨)] (ويستعينون الله على ما أصابهم).

---

(١) المرجع السابق، جـ١، ص١٦.

(٢) البحر المحيط: لأبي حيان، جـ١، ص٢٠، والكشاف: الزمخشري، جـ١، ص٩.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص١٠٢.

(٤) سورة النساء، الآية:١٢.

(٥) البحر المحيط: لأبي حيان، جـ٣، ص١٩٠، والكشاف: الزمخشري، جـ١، ص٢٥٥.

(٦) سورة البقرة، الآية:١٩٨.

(٧) صحيح البخاري: حديث (١٧٧٠)، كتاب الحج، و(٤٥١٩) كتاب التفسير.

(٨) سورة آل عمران، الآية:١٠٤.

قال عمرو[١]: فما أدري أكانت قراءته أم فسَّر به؟ أخرجه سعيد بن منصور[٢]، وأخرجه الأنباري وجزم بأنه تفسير فقال: «وهذه الزيادة تفسير من ابن الزبير وكلام من كلامه غلط فيه بعض الناقلين فألحقه بألفاظ القرآن»[٣].

ثم نقل السيوطي عن ابن الجوزي قوله: «وربما كانوا يدخلون التفسير في القراءات إيضاحًا وبيانًا؛ لأنهم محققون لما تلقوه عن النبي ﷺ قرآنًا فهم آمنون من الالتباس، وربما كان بعضهم يكتبه معه. وأما من يقول: إن بعض الصحابة كان يجيز القراءة بالمعنى فقد كذب»[٤].

حكم هذه القراءات:

وقد لخص الأستاذ عبدالفتاح القاضي حكم هذه القراءات فأجاد حيث قال:

«والحاصل أن القراءة إن خالفت العربية أو الرسم فهي مردودة إجماعًا، ولو كانت منقولة عن ثقة مع أن ذلك بعيد، بل لا يكاد يوجد».

وإن وافقت العربية والرسم ونقلت بطريق التواتر فهي مقبولة إجماعًا.

وإن وافقت العربية والرسم ونقلت عن الثقات بطريق الآحاد فقد اختلف فيها، فذهب الجمهور إلى ردِّها وعدم جواز القراءة بها في الصلاة وغيرها. سواء اشتهرت واستفاضت أم لا. وذهب مكي بن أبي طالب وابن الجزري إلى قبولها وصحة القراءة بها، بشرط اشتهارها واستفاضتها، أما إذا لم تبلغ حد الاشتهار والاستفاضة فالظاهر المنع من القراءة بها إجماعًا.

---

(١) هو: عمرو بن دينار.

(٢) البحر المحيط: لأبي حيان، جـ٣، ص٢١، وتفسير الطبري، جـ٧، ص٩١-٩٢، وتفسير القرطبي، جـ٤، ص١٦٥، والإتقان: للسيوطي، جـ١، ص١٠٢.

(٣) تفسير القرطبي، جـ٤، ص١٦٥.

(٤) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص١٠٢، وانظر النشر في القراءات العشر: لابن الجزري، جـ١، ص٣٢.

ومن هنا يُعلم أن الشاذ عند الجمهور ما لم يثبت بطريق التواتر، وعند مكي ومن وافقه ما خالف الرسم أو العربية ولو كان منقولًا عن الثقات، أو ما وافق الرسم والعربية ونقله غير ثقة، أو نقله ثقة ولكن لم يتلق بالقبول، ولم يبلغ درجة الاستفاضة والشهرة.

إلى أن قال: «وإذا علمت أن القراءة الشاذة لا تجوز القراءة بها مطلقًا فاعلم أنه يجوز تعلُّمها وتعليمها، وتدوينها في الكتب، وبيان وجهها من حيث اللغة والإعراب والمعنى، واستنباط الأحكام الشرعية منها على القول بصحة الاحتجاج بها، والاستدلال بها على وجه من وجوه اللغة العربية، وفتاوى العلماء قديمًا وحديثًا مطبقة على ذلك، والله تعالى أعلم»[1].

قلت: وبقي النوعان الخامس والسادس وهما الموضوع والمدرج، ولا يخفى تحريم القراءة الموضوعة أو العمل بها. أما المدرجة فهي تفسير وليست بقرآن، فلا تقرأ، وإنما تستنبط بها الأحكام على أنها قول صحابي وليست بقرآن.

* * *

(١) القراءات الشاذة وتوجيهها من لغة العرب: عبدالفتاح القاضي، ص١٠.

الأحرف السبعة

الأحرف السبعة لغة:

الأحرف جمع حرف، وله في اللغة عدة معان:

١- يطلق على الحرف من حروف الهجاء المعروفة أ ب ت إلخ.

٢- يطلق على اللغة فيقال: حرف قريش، وحرف ثقيف، أي: لغة قريش ولغة ثقيف.

٣- يطلق على طرف الشيء، وشفيره، وَحَدّه، وجانبه. وفي الحديث «**فجاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر نقرة أو نقرتين في البحر فقال الخضر: يا موسى، ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في البحر**»[1]، وفي التنزيل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾[2] أي: على جانب السراء دون الضراء. وفي حديث ابن عباس «وكان من أمر أهل الكتاب أن لا يأتوا النساء إلا على حرف»[3]، أي: على جانب. ويقال: انحرف فلان إذا خرج عن حَدِّ الاستقامة.

٤- يطلق على وجه القراءة فيقال: حرف ابن مسعود، أي: قراءته.

وأما السبعة فهو العدد المعروف بين الستة والثمانية، ويطلق السبعة ويراد به المبالغة في الآحاد، كما تطلق السبعين للمبالغة في العشرات، والسبع مئة للمبالغة في المئات على سبيل المجاز.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم حديث رقم (١٢٢)، ومسلم كتاب الفضائل حديث رقم (٦١٦٣).

(٢) سورة الحج، الآية:١١.

(٣) سنن أبي داود، باب في جامع النكاح (٢١٦٣).

الأدلة على نزول القرآن على سبعة أحرف:

حكى العلماء ومنهم أبو عبيد القاسم بن سلام تواتر نزول القرآن على سبعة أحرف، فقال أبو عبيد: «قد تواترت هذه الأحاديث كلها على الأحرف السبعة...»(١).

وذكر السيوطي أنها رويت عن واحد وعشرين صحابيًّا فقال: (ورد حديث: «**نزل القرآن على سبعة أحرف**» من رواية جمع من الصحابة: أُبي بن كعب، وأنس، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن أرقم، وسمرة بن جندب، وسليمان بن صرد، وابن عباس، وابن مسعود، وعبدالرحمٰن بن عوف، وعثمان بن عفان، وعمر بن الخطاب، وعمر بن أبي سلمة(٢)، وعمرو بن العاص، ومعاذ بن جبل، وهشام بن حكيم، وأبي بكرة، وأبي جهيم، وأبي سعيد الخدري، وأبي طلحة الأنصاري، وأبي هريرة، وأم أيوب(٣)، فهؤلاء أحد وعشرون صحابيًّا)(٤).

كما روي حديث الأحرف السبعة عن علي بن أبي طالب، وعبادة بن الصامت، وزيد بن ثابت(٥)، رضي الله عنهم.

---

(١) المرشد الوجيز: أبو شامة المقدسي، ص٨٧.

(٢) في كثير من المصادر ورد اسمه (عمرو)، والصواب ما أثبته.

(٣) في كثير من طبعات «الإتقان» ورد: وأبي أيوب. وفي طبعة مؤسسة النداء بتحقيق د. القيسية، والأتاسي ١/ ٢١٠ وهو الصواب: وأم أيوب. وحديثها أخرجه الحميدي في «مسنده» (٣٤٠)، وأحمد في «مسنده» ٤٥/ ٤٣١ (٢٧٤٤٣) ط. مؤسسة الرسالة، والطبري في «تفسيره» ١/ ٣٠ (٢٠)، ١/ ٣١ (٢٣)، ١/ ٣٢ (٢٤) ط. دار المعارف، وابن كثير في فضائل القرآن: ص٦١ وفي تفسيره جـ١ ص٤٠، وانظر «النشر في القراءات العشر» ١/ ٢١ وجمال القراء وكمال الإقراء، للسخاوي، جـ٢ ص٥٤٩.

(٤) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦١.

(٥) انظر: حديث الأحرف السبعة: د. عبدالعزيز القاري، ص٩، والأحرف السبعة: د. حسن عتر ص١٠٨.

ونجد السيوطي نفسه يقول في موضع آخر: (... وحديث: «**نزل القرآن على سبعة أحرف**» من رواية سبع وعشرين)[١].

ومما يؤكد كثرة الرواة ما أخرجه أبو يعلى في «مسنده» أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال على المنبر: أذكر الله رجلًا سمع النبي ﷺ يقول: «إن القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها كاف شاف» لَمَّا قام. فقاموا حتى لم يحصوا فشهدوا بذلك. فقال: وأنا أشهد معهم»[٢].

وليس في وسعنا أن نذكر هذه الأحاديث كلها، ولذا سأذكر منها:

١ - حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سَلَّم، فلبَّبْته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ. فقلت: كذبت، فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت. فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها. فقال رسول الله ﷺ: «**أرسله، اقرأ يا هشام**». فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: «**كذلك أنزلت**». ثم قال: «**اقرأ يا عمر**». فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله ﷺ: «**كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه**»[٣].

---

(١) تدريب الراوي: السيوطي، جـ٢، ص١٧٩-١٨٠.

(٢) مجمع الزوائد: الهيثمي، جـ٧، ص١٥٢ وقال: رواه أبو يعلى في الكبير وفيه راوٍ لم يُسَمَّ.

(٣) صحيح البخاري حديث رقم (٤٩٩٢)، وصحيح مسلم حديث رقم (١٨٩٩).

٢- حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**أقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف**»[(١)].

٣- حديث أُبي بن كعب رضي الله عنه قال: إن النبي ﷺ كان عند أضاة[(٢)] بني غِفَارٍ، قال: فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إن الله يأمرك أن تَقْرَأَ أُمتُك القرآن على حرفٍ. فقال: «**أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك**». ثم أتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أُمتُك القرآن على حرفين. فقال: «**أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك**». ثم جاءه الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أُمتُك القرآن على ثلاثة أحرف. فقال: «**أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك**». ثم جاءه الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أُمتُك القرآن على سبعة أحرف، فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا[(٣)].

٤- حديث أُبي بن كعب رضي الله عنه قال: لقي رسول الله ﷺ جبريل عند أحجار المِرَاء[(٤)] فقال: «**إني بعثت إلى أمة أُمِّيِّن منهم الغلام والخادم والشيخ العاسي[(٥)] والعجوز**». فقال جبريل: «**فليقرؤوا القرآن على سبعة أحرف**»[(٦)].

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٤٩٩١)، وصحيح مسلم حديث رقم (١٩٠٢).

(٢) أضاة وجمعها أضًا كحصاة وحصى: الماء المستنقع كالغدير.

(٣) صحيح مسلم حديث رقم (١٩٠٦).

(٤) موضع بقباء، وقيل: هي قباء.

(٥) العاسي: يقال: عسا الشيخ إذا كبر سنه وضعف بصره وييس جلده وصلب.

(٦) رواه الإمام أحمد في مسنده، جـ٥، ص١٣٢، والترمذي حديث رقم (٢٩٤٤) وقال: «هذا حديث حسن صحيح» وقال أحمد شاكر: وهذا إسناد صحيح (تفسير الطبري، جـ١، ص٣٥).

٥- حديث أم أيوب رضي الله عنها قالت: إن النبي ﷺ قال: «**أنزل القرآن على سبعة أحرف أيها قرأت أصبت**»[١].

والأحاديث - كما ترى - كثيرة جدًّا، لكنها جاءت على ثلاث صور[٢]:

الصورة الأولى: أحاديث حوار بين الرسول ﷺ وجبريل عليه السلام كالحديث الثاني والثالث والرابع هنا.

الصورة الثانية: خلاف بين الصحابة رضي الله عنهم في القراءة، واحتكامهم إلى الرسول ﷺ فيما اختلفوا فيه كالحديث الأول.

الصورة الثالثة: خبر من الرسول ﷺ غير مرتبط بحادثة كالحديث الخامس.

المراد بالأحرف السبعة:

اختلف العلماء كثيرًا في المراد بالأحرف السبعة المذكورة في هذه الأحاديث حتى قال ابن حبان: «اختلف أهل العلم في معنى الأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولًا»[٣].

ثم سرد هذه الأقوال وعقب عليها بقوله: «فهذه خمسة وثلاثون قولًا لأهل العلم واللغة في معنى إنزال القرآن على سبعة أحرف، وهي أقاويل يشبه بعضها بعضًا، وكلها محتملة وتحتمل غيرها»[٤].

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، جـ٦، ص٤٣٣، وقال ابن كثير: «وهذا إسناد صحيح ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة» تفسير ابن كثير، جـ١، ص٤٠، وصحح أحمد شاكر إسناده. تفسير الطبري، جـ١، ص٣٠-٣١.

(٢) ذكر هذا التقسيم د. إسماعيل الطحان في كتابه (من قضايا القرآن) ص١٠.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦٥.

(٤) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦٦.

أما السيوطي فقال: «اختلف في معنى هذا الحديث على نحو أربعين قولًا»[١].

وقال المرسي: «هذه الوجوه أكثرها متداخلة، ولا أدري مستندها، ولا عمن نقلت»[٢].

ولعلنا نقسم أصحابها إلى أربع طوائف:

الطائفة الأولى: وهم الذين أوَّلُوا الأحرف السبعة، ولهم قولان:

القول الأول: أن هذا الحديث من المشكل المتشابه الذي لا يُعلم معناه.

القول الثاني: ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد، وإنما هو رمز إلى ما ألفه العرب من معنى الكمال في هذا العدد، وهو إشارة إلى كمال القرآن في لغته وبيانه ومعانيه وإعجازه.

الطائفة الثانية: رأت أن هذه الأحرف تتعلق بالمعاني وليس بالألفاظ.

الطائفة الثالثة: رأت أن المراد بالأحرف السبعة الوجوه التي يقع بها التغاير والاختلاف في الكلمات القرآنية، ولا يخرج عنها، وقد اتفقوا أنها سبعة.

الطائفة الرابعة: رأت أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب.

الترجيح:

بادئ ذي بدء ينبغي أن نقرَّ ونعترف بأنه لا يمكن لأحد الجزم بمعنى الأحرف السبعة، وإنما هي اجتهادات لا يسلم كلُّ قول منها على كثرتها من اعتراضات وإشكالات، وقد سئل الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - صاحب أضواء البيان - رحمه الله عما ترجح لديه في معنى حديث الأحرف السبعة فقال: الذي ترجح لدي أني لا أعرف معناه[٣].

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦١.

(٢) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص٦٦.

(٣) حديث الأحرف السبعة: د. عبدالعزيز القاري، ص٥.

وقبله قال ابن الجزري: «لا زلت أستشكل هذا الحديث وأفكر فيه، وأمعن النظر من نيف وثلاثين سنة، حتى فتح الله عليّ بما يمكن أن يكون صوابًا إن شاء الله»[١].

ولذا فلا تطمع أن تجد هنا أكثر من ذلك، أو مثله، لكن هذا لا يعني أن الأقوال كلها على درجة واحدة من القرب أو البعد عن الصواب، فمنها ما هو ظاهر الضعف، وهو ما ذكرناه من أقوال الطائفتين الأولى والثانية، وهي أقوال كثيرة تقارب الثلاثين قولًا.

وإذا علمنا أن أحاديث الأحرف السبعة تدل على أمرين:

الأول: أن الأحرف السبعة في القراءة وليس في المعنى.

الثاني: أن الحكمة منها التخفيف والتيسير على الأمة والرحمة بهم.

ظهر لنا أن الصواب أقرب إلى قول الطائفتين الثالثة والرابعة. وعلى هذا فإن هذين القولين هما الأقرب للصواب، وهما قولان لا يتعارضان بل يتداخلان، وتداخلها يزيدهما قوة وظهورًا.

ولنا أن نقول: إن المراد بالأحرف السبعة هو: تغاير الألفاظ مع اتفاق المعنى - كما قال أبو الفضل الرازي - في سبع لغات من لغات العرب - كما قال ابن جرير الطبري.

قال ابن حجر ﷺ: «يمكن الجمع بين القولين بأن يكون المراد بالأحرف تغاير الألفاظ مع اتفاق المعنى مع انحصار ذلك في سبع لغات»[٢].

وذلك أن اختلاف القبائل العربية فيما مضى كان يدور على اللهجات في كثير من الحالات، والتخفيف على الأمة بنزول القرآن على سبعة أحرف يتحقق بملاحظة

(١) النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، جـ١، ص٢٦.

(٢) فتح الباري: ابن حجر العسقلاني، جـ٩، ص٢٨.

اختلاف اللهجات، إذ إنَّ اختلاف اللغة في جوهرها أيسر من اختلاف اللهجة، فقد يسهل على المرء أن ينطق بكلمة من غير لغته، ولا يسهل عليه أن ينطق بكلمة من غير لغته نفسها بلهجة غير لهجته، وطريقة في الأداء غير طريقته[١].

أي: أن القرشي مثلًا يسهل عليه أن ينطق بلغة هذيل في جوهرها، لكنه يشق عليه أن ينطق لغة هذيل بلهجة أهلها.

ولما كانت الأحرف بمعنى اللغات فإن الوجوه التي ذكرتها الطائفة الثانية ليست إلا الفوارق بين اللغات السبع التي نزل القرآن عليها.

وإنَّ حصر الفروق في سبعة أمر لا موجب له، ولو زادت عن السبعة أو نقصت لما كان مخالفًا لنص شرعي، طالما حققنا أن الأحرف هي اللغات السبع التي أنزل القرآن وفقها، فلا عبرة عندئذٍ لعدد الفروق بينها سواء أزادت عن السبعة أم نقصت[٢].

والخلاصة

أن المراد بالأحرف السبعة وجوه القراءات المتغايرة في سبع لغات من لغات العرب، وليست لغات القبائل على حَدّ سواء، بل بعضها أسعد من بعض بهذه الوجوه.

ونختم هذا بالتأكيد أن هذا ما قلناه، ونحن ندرك أنَّ عليه مآخذ وفيه إشكالات تظهر للمتأمل، كغيره من الأقوال، والله أعلم.

---

(١) مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص١٦٤.

(٢) الأحرف السبعة: د. حسن عتر، ص١٨٠.

النسخ في القرآن الكريم

كان الناس في الجاهلية يعبدون الأصنام والأوثان، فنزلت الآيات لتقرير العقيدة الصحيحة. والعقيدة لا يطرأ عليها تغيير ولا تبديل لقيامها على الإيمان بأصول ثابتة اتفقت دعوة الرسل عليها. واقتضت حاجة الأمة الجديدة تشريعات تعبدية ومعاملات، واقتضت حكمة الله تعالى - رحمة بالأمة - التدرج في تقريرها، فكانت هذه الأحكام تنزل مفرقة بين حين وآخر، فإذا نزل حكم شرعي وعمل الناس به ارتقى بهم إلى حكم آخر يناسب الحال التي وصلوا إليه ورفع الحكم السابق، وهذا ما يسمى بالنسخ.

وقد اعتنى العلماء بدراسة هذا النوع من الآيات، وأفردوه بمؤلفات مستقلة، أذكر منها:

١ - الناسخ والمنسوخ في كتاب الله تعالى: قتادة بن دعامة السدوسي (ت١١٧هـ). طبع بتحقيق: د. حاتم الضامن.

٢- الناسخ والمنسوخ: ابن شهاب الزهري (ت١٢٤هـ). طبع بتحقيق: د. حاتم الضامن.

٣- الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز: أبو عبيد القاسم بن سلّام الهروي (ت٢٢٤هـ). طبع بتحقيق: محمد بن صالح المديفر.

٤- الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم: محمد بن أحمد بن حزم الظاهري (ت٣٢٠هـ).

٥- الناسخ والمنسوخ: أبو جعفر النحاس (ت٣٣٨هـ). طبع بتحقيق: د. محمد عبدالسلام محمد.

٦- الناسخ والمنسوخ من كتاب الله عز وجل: هبة الله بن سلامة بن نصر المقرئ (ت٤١٠هـ). طبع بتحقيق: زهير الشاويش ومحمد كنعان.

٧- الناسخ والمنسوخ: أبو منصور عبدالقاهر البغدادي (٤٢٩هـ). طبع بتحقيق: د. حلمي عبدالهادي.

٨- الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم: أبو بكر بن العربي (ت٥٤٣هـ).

٩- نواسخ القرآن: ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ). طبع بتحقيق: محمد أشرف الملباري. وله أيضًا: المصفى بأكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ. طبع بتحقيق: د. حاتم الضامن.

١٠- الناسخ في القرآن الكريم: د. مصطفى زيد، طبع في مجلدين.

والمؤلفات في الناسخ والمنسوخ كثيرة جدًّا، وإنما ذكرت أشهرها، وأفضلُ من كتب في ذلك من المتقدمين أبو عبيد القاسم بن سلاّم، ومن المتأخرين: د. مصطفى زيد[(١)].

تعريفه:

النسخ لغة:

يطلق بمعنى الرفع والإزالة، يقال: نسخت الشمسُ الظلَّ، ونسخت الريحُ الأثَرَ: إذا أزالته، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢﴾[(٢)].

ويطلق ويراد به: نقل الشيء من موضع إلى موضع، ومنه: تناسخ المواريث؛ لانتقال المال من وارث إلى وارث. وتناسخ الأرواح عند القائلين به، ونسخ الكتاب، ويقال: نسخه الله قردًا بمعنى مسخه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٩﴾[(٣)]، والمراد نقل الأعمال إلى الصحف.

النسخ اصطلاحًا:

رفع الحكم الشرعي بخطاب شرعي متراخٍ عنه.

---

(١) انظر: الآيات المنسوخة في القرآن الكريم: د. عبدالله بن الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ص٩.

(٢) سورة الحج، الآية:٥٢.

(٣) سورة الجاثية، الآية:٢٩.

والمراد بقولنا: (**رفع**) أي: قطع العمل به. وخرج بهذا القيد ما ليس برفع كالتخصيص فإنه لا يرفع الحكم، وإنما يقصره على بعض أفراده[(١)].

وبقولنا: (**الحكم الشرعي**) خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين. وخرج به رفع البراءة الأصلية، كإيجاب الصلاة والزكاة فإنه رافع للبراءة الأصلية لذمة الإنسان منها قبل ورود الشرع بها، ولا يقال لهذا: نسخ؛ لأنها حكم عقلي لا شرعي.

والمراد بقولنا: (**بخطاب شرعي**) الكتاب والسنة. وخرج بذلك رفع الحكم الشرعي بدليل عقلي، كسقوط التكليف عن الإنسان بموته أو جنونه، وكذلك خرج به رفع الحكم الشرعي بالإجماع أو القياس.

وخرج بقولنا: (**متراخٍ عنه**) ما كان متصلًا بالحكم، كقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشۡرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾[(٢)]، فإن قوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ غير ناسخ لإباحة الأكل والشرب، وإنما هو بيان وتتمة للمعنى فلا يعتبر نسخًا.

شروط النسخ:

ويظهر من التعريف أن شروط النسخ أربعة:

١- أن يكون الحكم المنسوخ شرعيًّا.

٢- أن يكون الحكم الناسخ خطابًا شرعيًا متراخيًا عن الخطاب المنسوخ حكمه.

٣- أن لا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيدًا بوقت معين، وإلا فالحكم ينتهي بانتهاء وقته، ولا يُعَدُّ هذا نسخًا[(٣)].

---

(١) مناهل العرفان: الزرقاني، جـ٢، ص١٩١.

(٢) سورة البقرة، الآية:١٨٧.

(٣) انظر مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص٢٣٢.

٤- أن يكون بين الدليلين تعارض حقيقي بحيث لا يمكن الجمع بينهما أو إعمالهما معًا(١).

مذاهب الناس في النسخ:

ولهم في ذلك أربعة مذاهب:

١- ذهب اليهود إلى إنكار النسخ، وزعموا أنه يستلزم البداء على الله، وهو الظهور بعد الخفاء، أو نشأة رأي جديد لم يكن نتيجة تَجَدُّد علمٍ كان مجهولًا، وهذا محال على الله تعالى.

واستدلالهم هذا فاسد؛ لأن النسخ ليس لتجدد علم الله - تعالى وعزوجل - وإنما لتجدد حاجة الأمة، وتغير أحوالهم وحاجتهم إلى حكم جديد في كل حالة من حالاتهم. فما يناسبهم في حال الضعف في مكة مثلًا قد لا يناسبهم في حال القوة في المدينة، وليس هذا من البداء في شيء.

٢- مذهب الرافضة: وهؤلاء غالوا في إثبات النسخ بل وأجازوا على الله البداء - الذي نزَّه اليهود عنه الله تعالى - ووضعوا أحاديث نسبوها إلى عليٍّ رضي الله عنه كقوله: «لولا البداء لحدثتكم بما هو كائن إلى يوم القيامة».

٣- مذهب أبي مسلم الأصفهاني: وإنما نسب إليه لأنه أول من قال به. وهو من أئمة المعتزلة، حيث قال بجواز النسخ عقلًا، وامتناع وقوعه شرعًا، واحتج بقوله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾(٢) على معنى أن أحكام القرآن لا تبطل أبدًا ويحمل آيات النسخ على التخصيص.

---

(١) مناهل العرفان: الزرقاني، جـ٢، ص١٩٢، ١٩٦.

(٢) سورة فصلت، الآية:٤٢.

ويرد عليه بأن معنى الآية أن القرآن لا يأتيه خلل ولا نقص ولا تحريف ولا تبديل، ولا يمكن أن يتطرق إليه شيء من ذلك، والنسخ ليس من الباطل بل هو من الحق، فالناسخ والمنسوخ كلاهما وحي من الله تعالى، ووحي الله كله حق لا باطل.

٤- مذهب جمهور علماء المسلمين: على جواز النسخ عقلًا ووقوعه شرعًا للنصوص الشرعية الكثيرة الدالة على ذلك، كقوله تعالى: ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾[2] وغير ذلك من الأدلة في الكتاب والسنة.

ما يقع فيه النسخ:

اعلم أن النسخ لا يكون إلا في (الأوامر) و(النواهي) سواء كانت:

١- صريحة في الطلب.

كالأمر في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾[3].

٢- أو كانت بصيغة الخبر.

كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[4]، وكقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾[5].

---

(١) سورة البقرة، الآية:١٠٦.

(٢) سورة النحل، الآية:١٠١.

(٣) سورة المجادلة، الآية:١٢.

(٤) سورة البقرة، الآية:١٨٣.

(٥) سورة النور، الآية:٣.

ولا يقع النسخ في:

١- مسائل العقيدة المتعلقة بذات الله تعالى وصفاته وكتبه ورسله واليوم الآخر؛ لأن العقائد حقائق ثابتة لا تقبل التغيير أو التبديل فلا يدخلها النسخ،

كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾(١)، وقوله سبحانه: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾(٢).

٢- أصول العبادات والمعاملات فلا يقع النسخ في فرض الصلاة أو الصيام أو الحج أو البيع أو الشراء أو الزواج؛ لأن هذا وغيره من الأمور التي يشترك فيها الأنبياء كلهم ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾(٣)، وقال سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾(٤)، وقوله سبحانه: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾(٥).

٣- الأخلاق والآداب كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾(٦) ونحو ذلك.

٤- الأخبار المحضة كقصص الأنبياء وما جرى للأمم السابقة.

---

(١) سورة البقرة، الآية:٢٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية:١٥٨.

(٣) سورة الشورى، الآية:١٣.

(٤) سورة البقرة، الآية:١٨٣.

(٥) سورة المائدة، الآية:٤٥.

(٦) سورة لقمان، الآية:١٨.

طرق لمعرفة الناسخ والمنسوخ:

لمعرفة الناسخ والمنسوخ ثلاثة طرق هي:

١- أن يكون في أحد النصين ما يدل على تعيين المتأخر منهما، كقوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾[1]، وكقوله سبحانه: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾[2]، وكقول الرسول ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث فأمسكوا ما بدا لكم، ونهيتكم عن النبيذ إلا في سقاء فاشربوا في الأسقية كلها، ولا تشربوا مسكرًا»[3].

٢- أن ينعقد إجماع من الأمة في أي عصر من العصور على أن هذا ناسخ وهذا منسوخ.

٣- معرفة المتقدم من المتأخر في النزول.

ولا يعتمد في معرفة الناسخ من المنسوخ على:

١- الاجتهاد من غير سند.

٢- قول المفسر: هذا ناسخ وهذا منسوخ من غير دليل.

٣- التعارض بين الأدلة ظاهرًا.

٤- تأخر إسلام أحد الراويين.

---

(١) سورة المجادلة، الآية:١٣.

(٢) سورة الأنفال، الآية:٦٦.

(٣) رواه مسلم، كتاب الجنائز ح(٢٢٦٠).

قال ابن الحصار: «إنما يرجع في النسخ إلى نقل صريح عن رسول الله ﷺ أو عن صحابي يقول: آية كذا نسخت كذا. قال: وقد يحكم به عند وجود التعارض المقطوع به مع علم التاريخ ليعرف المتقدم والمتأخر. قال: ولا يُعتمد في النسخ قولُ عوام المفسرين، بل ولا اجتهاد المجتهدين من غير نقل صحيح ولا معارضة بينة؛ لأن النسخ يتضمن رفع حكم وإثبات حكم تقرر في عهده ﷺ، والمعتمد فيه النقل والتاريخ دون الرأي والاجتهاد. قال: والناس في هذا بين طرفي نقيض، فمن قائل: لا يقبل في النسخ أخبار الآحاد العدول، ومن متساهل يكتفي فيه بقول مفسر أو مجتهد. والصواب خلاف قولهما»[١].

أقسام النسخ:

والنسخ أربعة أقسام:

الأول: نسخ القرآن بالقرآن:

وأجمع القائلون بالنسخ على جوازه ووقوعه، وهو ثلاثة أنواع سيأتي بيانها إن شاء الله تعالى.

ومن أمثلته: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾[٢] نسخ بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[٣].

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص٣٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣٤.

الثاني: نسخ القرآن بالسُّنَّة:

وهو نوعان:

١- نسخ القرآن بالسنة الآحادية:

وجمهور العلماء على عدم جوازه؛ لأن القرآن متواتر يفيد اليقين، والسنة الآحادية ظنية، ولا يرفع اليقين بالظن.

ومثاله: قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾[1] قيل: إنها منسوخة بحديث: «**إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث**»[2].

والصحيح أن الآية منسوخة بآية المواريث[3]، كما يدل على هذا أول الحديث نفسه: «**إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه**».

٢- نسخ القرآن بالسنة المتواترة:

وأجازه أبو حنيفة ومالك وأحمد في رواية، وقالوا: إن السنة وحي كما أن القرآن وحي، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾[5]، والنسخ نوع من البيان.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٠.

(٢) رواه الترمذي برقم (٢١٢١)، وابن ماجه برقم (٢٧١٢).

(٣) البرهان: الزركشي، جـ٢، ص٣٢.

(٤) سورة النجم، الآيتان: ٣-٤.

(٥) سورة النحل، الآية: ٤٤.

ومنعه الشافعي وأحمد في رواية أخرى لقوله تعالى: ﴿ ۞ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ ﴾[١]، والسنة ليست خيرًا من القرآن ولا مثله.

ويجاب على ذلك بأن الخيرية في الفضل، وليس في وجوب الاتباع والدلالة على الأحكام، فالسنة يجب العمل بها كما يجب العمل بالقرآن سواء بسواء.

ومثاله قوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ ﴾[٢] فإن جلد المحصن منسوخ بالرجم كما جاء في السنة المتواترة. والذي أراه أن هذا تخصيص وليس بنسخ، ولم أجد مثالًا آخر[٣]، ويظهر لي أن هذا النوع جائز عقلًا، ولم يقع في القرآن.

٣- نسخ السنة بالقرآن:

وأجازه الجمهور، ومثاله التوجه إلى بيت المقدس في الصلاة كان ثابتًا بالسنة ونسخه قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ ﴾[٤]، وصيام عاشوراء ثبت بالسنة ونسخه قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ ﴾[٥].

ومنعه الشافعي ﵀ في رواية عنه، وذلك أن الشافعي لا يرى نسخ القرآن بالسنة ولا نسخ السنة بالقرآن. قال ﵀: «حيث وقع نسخ القرآن بالسنة فمعها قرآن عاضد لها، وحيث وقع نسخ السنة بالقرآن فمعه سنة عاضدة ليتبين توافق القرآن والسنة»[٦].

---

(١) سورة البقرة، الآية:١٠٦.

(٢) سورة النور، الآية:٢.

(٣) انظر النسخ في القرآن الكريم. د. مصطفى زيد، جـ٢، ص٨٣٨.

(٤) سورة البقرة، الآية:١٤٤.

(٥) سورة البقرة، الآية:١٨٥.

(٦) الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، جـ٢، ص٢٧.

ووصف الزركشي من فهم من هذا النص مَنْعَ الشافعي لنسخ القرآن بالسنة بأنه لم يفهم مراده، وقال: «إنما مراد الشافعي أن الكتاب والسنة لا يوجدان مختلفين إلا ومع أحدهما مثله ناسخ له، وهذا تعظيم لقدر الوجهين وإبانة تعاضدهما وتوافقهما، وكل من تكلم على هذه المسألة لم يفهم مراده»[١].

٤ - نسخ السنة بالسنة:

وتحته أربعة أنواع:

أ- نسخ المتواتر بالمتواتر.

ب- نسخ الآحاد بالآحاد.

جـ- نسخ الآحاد بالمتواتر.

وهذه الأنواع الثلاثة جائزة عند الجمهور.

د- نسخ المتواتر بالآحاد، وفيه الخلاف الوارد في نسخ القرآن بالسنة الآحادية، والجمهور يمنعه ولا يجيزه.

أما نسخ كل من الإجماع والقياس والنسخ بهما فالصحيح عدم جوازه[٢].

أنواع نسخ القرآن بالقرآن:

وهو القسم الأول من أقسام النسخ في القرآن الكريم. وهو ثلاثة أنواع:

الأول: نسخ التلاوة والحكم معًا:

وأجمع القائلون بالنسخ على وقوعه، ومثاله ما ورد في حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نسخن بخمس

---

(١) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، جـ٢، ص٣٢.

(٢) مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص٢٣٧.

معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ وهي فيما يقرأ من القرآن»[١]. فجملة (عشر رضعات معلومات يحرمن) كانت من القرآن، ثم نسخت تلاوتها وحكمها.

وحكى القاضي أبو بكر في «الانتصار» عن قوم إنكار هذا القسم؛ لأن الأخبار فيه أخبار آحاد، ولا يجوز القطع على إنزال قرآن ونسخه بأخبار آحاد لا حجة فيها[٢].

ويجاب عن ذلك أن التواتر شرط لإثبات لفظ قرآني، أما النسخ فيكفي لإثباته خبر الآحاد، والمقام هنا مقام إثبات نسخ آية لا إثباتها.

الثاني: نسخ الحكم وبقاء التلاوة:

وهذا النوع من أشهر الأنواع، وهو الذي ألفت فيه الكتب. وتفاوت المؤلفون في عدد الآيات المنسوخ حكمها مع بقاء تلاوتها بين مكثر جدًّا وبين منكر.

والصحيح أن عددها قليل يقارب العشرين يزيد قليلًا أو ينقص كذلك عند المحققين.

ومن أمثلته: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾[٣] فتلاوتها باقية في المصحف، وحكمها منسوخ بقوله تعالى: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾[٤].

ومن الأمثلة كذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم

---

(١) رواه مسلم، كتاب النكاح، باب التحريم بخمس رضعات ح(٣٥٩٧).

(٢) البرهان: الزركشي، جـ٢، ص٣٩-٤٠.

(٣) سورة المجادلة، الآية:١٢.

(٤) سورة المجادلة، الآية:١٣.

﴿مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾[١]، فتلاوتها باقية.

وحكمها نسخه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[٢].

حكمة نسخ الحكم وبقاء التلاوة:

فإن قلت: وما الحكمة من بقاء التلاوة ورفع الحكم؟

قلنا: من الحكم:

١- أن الآية يتعبد بالعمل بها ويتعبد بتلاوتها، ورفع أحدهما لا يلزم منه رفع الآخر، فبقيت تلاوتها للتعبد بها.

٢- أن النسخ غالبًا يكون إلى الأخف كما في المثالين السابقين، فبقاء التلاوة تذكير بنعمة رفع المشقة.

حكمة نسخ الآية قبل العمل بحكمها:

كما هو في آية الصدقة عند النجوى، وحكمة ذلك - والله أعلم - الثواب على مجرد الإيمان والقبول، وعلى نية الطاعة والتوجه إليها[٣].

الثالث: نسخ التلاوة وبقاء الحكم:

وأنكر هذا النوع بعض العلماء، وأجازه آخرون، ومن أمثلته حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال: «إنا كنا نقرأ سورة نشبهها في الطوال والشِّدَّةِ بسورة براءة، فأُنسيتُها، غير أني قد حفظت منها: (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديًا ثالثًا،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٤.

(٣) البرهان في علوم القرآن: الزركشي: جـ٢، ص٣٩.

ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب). وكنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المُسَبِّحات فأُنسيتُها، غير أني قد حفظت منها: (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون فتكتب شهادةً في أعناقكم، فتسألون عنها يوم القيامة)[١]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: فلا أدري من القرآن هو أم لا[٢]. وقال أُبي بن كعب رضي الله عنه: كنا نُرى هذا من القرآن حتى نزلت ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾[٣]»[٤].

ومن أمثلته حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه خطب على منبر رسول الله ﷺ فقال: «إن الله قد بعث محمدًا ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل الله عليه آية الرجم، قرأناها ووعيناها وعقلناها، فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده..»[٥] الحديث. وفي حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة**». فقال عمر: لما أنزلت هذه أتيت رسول الله ﷺ فقلت: أكتبنيها[٦].

وقد يقال: إن الآية والحكم المستفاد منها متلازمان؛ لأن الآية دليل على الحكم، فإذا نسخت تلاوة الآية دون حكمها وقع الناس في لبس.

ويجاب عن ذلك بأن التلازم بين الآية وحكمها مشروط بانتفاء القرينة والدليل، أما إذا نصب الشارع دليلًا على نسخ التلاوة وبقاء الحكم كما في رجم المحصن فلا لبس ولا إشكال[٧].

---

(١) رواه مسلم كتاب الزكاة ح(٢٤١٩).

(٢) رواه البخاري كتاب الرقاق ح(٦٤٣٧).

(٣) سورة التكاثر، الآية:١.

(٤) رواه البخاري كتاب الرقاق ح(٦٤٤٠).

(٥) رواه البخاري، كتاب الحدود ح(٦٨٣٠)، ومسلم، كتاب الحدود ح(٤٤١٨)

(٦) رواه الإمام أحمد في مسنده، جـ٥، ص١٨٣، ح(٢١٠٨٦).

(٧) انظر مناهل العرفان: الزرقاني، جـ٢، ص٢٣٥-٢٣٦.

النسخ إلى بدل وإلى غير بدل:

وقد يكون نسخ الحكم إلى بدل وقد يكون إلى غير بدل.

أ- النسخ إلى غير بدل:

كنسخ الصدقة بين يدي نجوى الرسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾[1]، فقد نسخت بالعفو عن ذلك إلى غير بدل في قوله تعالى: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[2].

ب- وقد يكون النسخ إلى بدل:

وله أحوال ثلاثة:

١- النسخ إلى بدل أخف.

كآية الاعتداد بالحول نسختها آية الاعتداد بأربعة أشهر وعشرًا.

٢- النسخ إلى بدل مماثل.

كنسخ وجوب التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى المسجد الحرام.

٣- النسخ إلى بدل أثقل:

كنسخ جواز قتال المشركين إلى الوجوب ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ﴾[3]، ونسخ وجوب صوم عاشوراء إلى وجوب صيام شهر رمضان، ونسخ حبس الزانية إلى الجلد للبكر والرجم للثيب.

ولعل حكمة هذا النوع إرادة الخير بالأمة، وزيادة الأجر والثواب؛ لأن الأجر على قدر المشقة.

---

(١) سورة المجادلة، الآية:١٢.

(٢) سورة المجادلة، الآية:١٣.

(٣) سورة البقرة، الآية:٢١٦.

حكمة النسخ:

وللنسخ حكم كثيرة منها:

١- رحمة الله بالأمة ومراعاة مصالحها، فقد يكون الحكم الشرعي في حينٍ خيرًا للأمة، وغيره خيرًا لها في حين آخر، فاقتضت حكمة الله تقرير الحكم الشرعي الذي فيه مصلحتها في كل حين.

٢- تطور التشريع إلى مرتبة الكمال حسب تطور الدعوة وتطور حال الأمة حين نزول القرآن، وسبق تفصيل هذه الحكمة في حِكَمِ نزول القرآن الكريم منجمًا.

٣- ابتلاء المكلف واختباره بالامتثال وعدمه، حيث إنَّ في تبدل الأحكام وتغيرها امتحانًا للقلوب ليميز الخبيث من الطيب.

٤- إرادة الخير للأمة والتيسير عليها، وذلك أن النسخ إن كان إلى أشق ففيه زيادة ثواب، فالأجر على قدر المشقة، وإن كان إلى أخف ففيه التيسير على الأمة مع ثبات الأجر(١).

* * *

(١) انظر مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص٢٤٠، ومناهل العرفان: الزرقاني، جـ٢، ص٢١٠-٢١٣.

القسم في القرآن الكريم

في القرآن الكريم خمس عشرة سورة مبدوءة بالقسم، وجاء القسم في أثناء سور كثيرة من القرآن الكريم.

ويأتي القسم في اللغة العربية لتأكيد المقسم عليه، وتمكينه من النفس. والقرآن يخاطب الناس كافة وفيهم المنكر وفيهم الشاك، وفيهم الخصم الألد، وفيهم المؤمن المصدق، ولكل منهم الأسلوب الذي يناسبه من المؤكدات أو عدمها، فجاء القسم لإقامة الحجة، وتأكيد الخبر، ولتطمئن نفس المؤمن.

المؤلفات فيه:

وقد اعتنى العلماء بدراسة القسم في القرآن الكريم، وأفردوه بمؤلفات مستقلة منها:

١- التبيان في أقسام القرآن: لابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، وطبع مرات كثيرة.

٢- الإمعان في أقسام القرآن: عبدالحميد الفراهي (مطبوع).

٣- آيات القسم في القرآن الكريم: أحمد كمال محمد المهدي[1].

تعريفه:

لغة: الحلف واليمين والقسم بمعنى واحد.

والحِلْف بكسر الحاء: العهد يكون بين القوم. وحالفه، أي: عاهده. والحَلِف هو اليمين، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠﴾[2]، وقال عليه الصلاة والسلام: «من حَلَفَ على يمين فرأى غيرها خيرًا منها فليكفر وليأت الذي هو خير»[3].

(١) تقدم بها لنيل درجة الماجستير من كلية أصول الدين في الأزهر ١٩٦٨م.

(٢) سورة القلم، الآية: ١٠.

(٣) رواه مسلم، جـ٢، ص٢٣ كتاب الأيمان.

وسمي يمينًا؛ لأنهم إذا تحالفوا تصافقوا بأيمانهم، ولا يزال الناس إلى يومنا هذا يفعلون ذلك أحيانًا، ولذلك سمي الحلف يمينًا.

وسمي قسمًا مِن قَسَّم الشيء بمعنى جَزَّأه وفرَّقه، وذلك أن اليمين تقسم على أولياء القتيل إذا ادعوا على رجل أنه قتل صاحبهم، فيحلفون خمسين يمينًا تقسم عليهم، ثم صار اسمًا لكل حَلِف، فكأنه كان في الأصل تقسيم أيمان، ثم صار يستعمل في نفس الحَلِف والأيمان[١]. وتسمى هذه المسألة عند الفقهاء القسامة.

اصطلاحًا:

أما في الاصطلاح فهو: «ربط النفس بالامتناع عن شيء أو الإقدام عليه أو على صحته أو بطلانه بمعنى معظم عند الحالف حقيقة أو اعتقادًا»[٢].

أرأيتم ذلك الصحابي الجليل الذي ربط نفسه بسارية المسجد حتى يتوب الله عليه في حادثة الثلاثة الذين خلفوا[٣]، للدلالة على عزمه وإصراره على التوبة. فذلك مثل الذي يربط نفسه ربطًا معنويًا لتأكيد عزمه على الشيء بمعنىً معظم عنده، سواء كان معظمًا حقيقة كالذات الإلهية، أو بمجرد اعتقاده كالكفار الذين يقسمون باللات والعزى وأمثالهم.

صيغته:

وصيغة القسم الأصلية أن يؤتى بالفعل «أقسم» أو «أحلف» متعديًا بالباء إلى المقسم به ثم يأتي المقسم عليه وهو جواب القسم.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن: للراغب الأصفهاني، ص٦٧٠.

(٢) انظر: مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص٢٩١.

(٣) هو كعب بن مالك رضي الله عنه، وانظر قصته مع صاحبيه في كتب التفسير للآية ١١٨ سورة التوبة.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾[(١)].

أركان القسم:

وعلى هذا فأركان القسم أربعة:

الأول: فعل القسم (أقسم) أو (أحلف).

الثاني: أداة القسم، أو حروف القسم وهن (الباء، والواو، والتاء، واللام، ومِن). ولم يرد القسم في القرآن إلا بالأحرف الثلاثة الأولى. أما اللام فقال سيبويه: «وبعض العرب يقولون في هذا المعنى: لله، فيجيء باللام، ولا تجيء إلا أن يكون فيها معنى التعجب»[(٢)]. وأما (مِن) فقال سيبويه أيضًا: «واعلم أن مِن العرب مَن يقول: مِن ربي لأفعلنَّ ذلك... ولا يدخلونها في غير ربي كما لا يدخلون التاء في غير «الله»»[(٣)]. والواو أكثر ما يستعمل في القسم.

الثالث: المقسم به، وهو الله ﷻ. ولا يجوز القسم بغير الله، ولله سبحانه أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

الرابع: المقسم عليه أو جواب القسم.

أنواع القسم:

وهو نوعان:

١- قسم ظاهر:

وهو ما توافرت فيه أركان القسم الأربعة كما جاء في المثال السابق، أو حذف منه أولها، وهو فعل القسم كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ

---

(١) سورة النحل، الآية:٣٨.

(٢) الكتاب: سيبويه، جـ٣، ص٤٩٧. قلت: وقد يرد عند بعض العامة ذلك، ولكن في مقام النفي.

(٣) المرجع السابق، جـ٣، ص٤٩٩.

﴿...﴾(٢٣)[١]، وقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧)﴾[٢]، أو حذف منه جواب القسم إذا كان في نفس المقسم به ما يدل على المقسم عليه، وهي طريقة القرآن، فإن المقصود يحصل بذكر المقسم به، فيكون حذف المقسم عليه أبلغ وأوجز[٣] كقوله تعالى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ (١)﴾[٤]، ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ (١)﴾[٥].

٢- قسم مضمر:

وهو ما حذف منه فعل القسم وأداته والمقسم به. وتدل عليه اللام المؤكدة للقسم، والتي تدخل على جواب القسم، كقوله تعالى: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾[٦]، أي: والله، وكقوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ (١٥)﴾[٧].

المقسم به في القرآن الكريم:

وهو نوعان: النوع الأول: قسم بالله تعالى:

أقسم الله تعالى بنفسه في خمسة مواضع:

١- قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا (٦٥)﴾[٨].

---

(١) سورة الذاريات، الآية:٢٣.

(٢) سورة الأنبياء، الآية:٢٣.

(٣) التبيان في أقسام القرآن: ابن القيم، جـ١، ص٥٨.

(٤) سورة قٓ، الآية:١.

(٥) سورة صٓ، الآية:١.

(٦) سورة آل عمران، الآية:١٨٦.

(٧) سورة العلق، الآية:١٥.

(٨) سورة النساء، الآية:٦٥.

٢ - قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾[(١)].

٣- قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾[(٢)].

٤ - قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾[(٣)].

٥ - قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾[(٤)].

كما ورد القسم بالله على لسان أنبيائه أو أمرًا لهم عليهم السلام بالقسم في أربعة مواضع:

١ - قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾[(٥)].

٢ - وأمره سبحانه لنبيه بالقسم في قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾[(٦)].

٣- وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[(٧)].

٤ - وقوله سبحانه: ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ﴾[(٨)].

---

(١) سورة الحجر، الآيتان:٩٢-٩٣.

(٢) سورة مريم، الآية:٦٨.

(٣) سورة الذاريات، الآية:٢٣.

(٤) سورة المعارج، الآيتان:٤٠-٤١.

(٥) سورة الأنبياء، الآية:٥٧.

(٦) سورة التغابن، الآية:٧.

(٧) سورة سبأ، الآية:٣.

(٨) سورة يونس، الآية:٥٣.

كما جاء القسم بالله في آيات أخرى منها:

١- كقول إخوة يوسف لأبيهم عليه السلام: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾[(١)].

٢- وكقوله: ﴿تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦﴾[(٢)].

٣- وقوله سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾[(٣)] وغير ذلك.

النوع الثاني: قسم الله تعالى بمخلوقاته:

وهو كثير في القرآن، والقسم بها لدلالتها على عظمة خالقها وبارئها، وفيه إشارة:

إما لفضيلتها، كقوله سبحانه: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ۝١﴾[(٤)]، وقوله: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾[(٥)]﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣﴾[(٦)]، ﴿قٓ ۚ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١﴾[(٧)].

وإما لنفعها، كقوله سبحانه: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١﴾[(٨)].

---

(١) سورة يوسف، الآية:٨٥.

(٢) سورة الصافات، الآية:٥٦.

(٣) سورة النحل، الآية:٣٨.

(٤) سورة البلد، الآية:١.

(٥) سورة التين، الآية:٢.

(٦) سورة التين، الآية:٣.

(٧) سورة الصافات، الآية:١.

(٨) سورة التين، الآية:١.

وإما لكونها من أعظم آياته ومخلوقاته، كقوله سبحانه: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢﴾[١]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ١﴾[٢]، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢﴾[٣]، وقوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١﴾[٤].

ولله ﷻ أن يحلف بما شاء من خلقه، وليس لأحد غيره أن يحلف بغير الله، وفي الحديث: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»[٥]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت**»[٦].

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: «إن الله يقسم بما شاء من خلقه، وليس لأحد أن يقسم إلا بالله»[٧].

المقسم عليه في القرآن الكريم:

قال ابن تيمية رحمه الله: «والمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه، فلا بد أن يكون مما يحسن فيه ذلك كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها، فأما الأمور المشهودة الظاهرة كالشمس والقمر، والليل والنهار، والسماء والأرض، فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها»[٨].

---

(١) سورة الشمس، الآيتان:٢-٣.

(٢) سورة الطارق، الآية:١.

(٣) سورة الليل، الآيتان:١-٢.

(٤) سورة القيامة، الآية:١.

(٥) رواه الترمذي، أبواب النذور والأيمان، باب ما جاء في أن من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك، ح رقم (١٥٣٥).

(٦) رواه البخاري ح رقم (٦٦٤٦) كتاب الأيمان والنذور، ومسلم في كتاب الأيمان ح(٤٢٥٧).

(٧) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٧٠.

(٨) مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ١٣، ص٣١٥، وانظر التبيان في أقسام القرآن لابن القيم، جـ١، ص٤٦. وكثير من الباحثين ينسب النص لابن القيم رحمه الله خطأ. انظر مثلًا الإتقان للسيوطي، جـ٢، ص١٧٠-١٧١.

والأمور التي أقسم الله عليها في القرآن الكريم هي أصول الإيمان[١] التي يجب على الخلق معرفتها، ويمكن إجمالها بـ:

١- التوحيد:

كقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرًا ٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ٤﴾[٢].

٢- أن القرآن حق:

كقوله تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧﴾[٣].

٣- أن الرسول ﷺ حق:

كقوله سبحانه: ﴿يسٓ ١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣﴾[٤] وقوله سبحانه: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤﴾[٥].

---

(١) في القرآن أقسام كثيرة ليست على أصول الإيمان، لكنها ليست قسمًا من الله تعالى، بل من المخلوقين، ولهذا أرى عدم دقة عبارة بعض الباحثين حين يقصرون القسم كله في القرآن على هذه الأصول.

(٢) سورة الصافات، الآيات: ١-٤.

(٣) سورة الواقعة، الآية: ٧٥-٧٧.

(٤) سورة يس، الآيات: ١-٣.

(٥) سورة النجم، الآيات: ١-٤.

٤ - أن القيامة حق:

كقوله سبحانه: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ٦﴾[(١)]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ١﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ٧﴾[(٢)].

٥ - بعض أحوال الإنسان وما فطره الله عليه من صفات:

كقوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ١ وَطُورِ سِينِينَ ٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٦﴾[(٣)]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤﴾[(٤)]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦﴾[(٥)]، وقوله سبحانه: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١﴾ إلى قوله: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ٤﴾[(٦)(٧)].

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه:

ولك أن تتأمل في الحكمة في أن يقسم الله على ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢﴾ بـ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١﴾، وعلى ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ٧﴾ بـ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ﴾، لِمَ لَمْ يقسم على ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢﴾ بالضحى مثلًا أو بالصافات أو المرسلات، وقل مثل هذا في الأقسام الأخرى.

---

(١) سورة الذاريات، الآيات:١-٦.

(٢) سورة المرسلات، الآيات:١-٧.

(٣) سورة التين، الآيات:١-٦.

(٤) سورة الليل، الآيات:١-٤.

(٥) سورة العاديات، الآيات:١-٦.

(٦) سورة البلد، الآيات:١-٤.

(٧) ذكر هذه الأحوال مع أمثلتها ابن القيم في كتابه التبيان في أقسام القرآن، جـ١، ص٤٩-٥٦.

فإن فعلت فإنك ستدرك في أقسام القرآن وجهًا بلاغيًّا من أظهر أوجه الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، وهو الصلة بين المقسم به والمقسم عليه.

من الأمثلة على ذلك:

١- قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ۝٨﴾[١].

قال البيضاوي: «ولعل النكتة في هذا القسم تشبيه أقوالهم في اختلافها وتنافي أغراضها بطرائق السموات في تباعدها واختلاف غاياتها»[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤﴾[٣].

والمقسم به هنا النجم الذي يهتدي به السائرون في ظلمة الليل، والمقسم عليه نفي ضلال الرسول ﷺ، وإثبات صدقه ونبوته وهدايته للناس، فكأنه النجم الذي يهتدي به الناس إلى الحق والنجاة.

قال ابن القيم ﵀: «وبين المقسم به والمقسم عليه من التناسب ما لا يخفى. فإن النجوم التي ترمي الشياطين آيات من آيات الله يحفظ بها دينه ووحيه، وآياته المنزلة على رسوله بها ظهر دينه وشرعه وأسماؤه وصفاته، وجعلت هذه النجوم المشاهدة خدمًا وحرسًا لهذه النجوم الهادية»[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾[٥].

---

(١) سورة الذاريات، الآيتان:٧-٨.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي، جـ٥، ص٩٥.

(٣) سورة النجم، الآيات:١-٤.

(٤) التبيان في أقسام القرآن: ابن القيم، جـ٢، ص١٠.

(٥) سورة الضحى، الآيات:١-٣.

قال ابن القيم رحمه الله: «فتأمل مطابقة هذا القسم، وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل للمقسم عليه، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه حتى قال أعداؤه: وَدَّع محمدًا ربُّه. فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل، على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه.

وأيضًا فإن فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار هو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة فهذان للحس، وهذان للعقل.

وأيضًا فإن الذي اقتضت رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمدًا، بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم، لا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغي، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم.

فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه، وتأمل هذه الجزالة والرونق الذي على هذه الألفاظ، والجلالة التي على معانيها»[١].

(لا) النافية للقسم:

وردت (لا) وهي أداة نفي مقترنة مع فعل القسم (أقسم) في سبعة مواضع من القرآن الكريم هي:

١- قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩﴾[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾[٤].

(١) التبيان في أقسام القرآن: لابن القيم، جـ١، ص١٥٨-١٥٩.

(٢) سورة الواقعة، الآية:٧٥.

(٣) سورة الحاقة، الآيتان:٣٨-٣٩.

(٤) سورة المعارج، الآية:٤٠.

٤- قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾[١].

٥- قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥﴾[٢].

٦- قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦﴾[٣].

٧- قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١﴾[٤].

واختلف العلماء في (لا) على أقوال:

١- أنها نافية للقسم:

فقيل: إن المعنى أن الأمر من الوضوح والظهور بحيث لا يحتاج إلى قسم فلا أقسم.

وهذا مردود بقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾[٥] فأثبت القسم.

٢- أنها صلة، أي: زائدة:

ثم اختلفوا في توجيهها:

فقيل: إن (لا) زائدة لتوكيد القسم، والمعنى أقسم، قاله ابن خالويه[٦] والزمخشري[٧]. وأجازه أبو علي الفارسي[١] وغيرهم.

---

(١) سورة القيامة، الآيتان:١-٢.

(٢) سورة التكوير، الآية:١٥.

(٣) سورة الانشقاق، الآية:١٦.

(٤) سورة البلد، الآية:١.

(٥) سورة الواقعة، الآيتان:٧٥-٧٦.

(٦) إعراب ثلاثين سورة من القرآن: ابن خالويه، ص٨٧.

(٧) الكشاف: الزمخشري، جـ٤، ص٥٨.

وهذا مردود؛ لأن حكم التوكيد لا يتقدم على المؤكَّد بل يتأخر عنه[٢]، ولا يصح أن يبدأ بجحد ثم يجعل صلة؛ لأن هذا لو كان كذلك لم يعرف خبر فيه جحد من خبر لا جحد فيه[٣].

وقيل: إنها زيدت توطئة وتمهيدًا لنفي جواب القسم.

ففي قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١﴾[٤] يكون المعنى: لا أقسم بيوم القيامة لا يتركون سدى[٥].

وهذا مردود بمثل قوله تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾[٦] فإن جوابه ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧﴾[٧]، وهو مثبت وليس بمنفي.

٣- وقيل: إنها نافية لمحذوف يناسب المقام لا للقسم:

ومثال ذلك ما قاله القرطبي في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١﴾[٨]: «وقال بعضهم: (لا) رد لكلامهم حيث أنكروا البعث، فقال: ليس الأمر كما زعمتم. قلت: وهذا قول الفراء»[٩].

---

(١) المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات: أبو علي الفارسي، ص٥٧١.

(٢) انظر: شرح المفصل: ابن يعيش، جـ٨، ص١٣٦.

(٣) تفسير القرطبي، جـ١٩، ص٦٠.

(٤) سورة القيامة، الآية:١.

(٥) مغني اللبيب: ابن هشام، ص٣٢٨-٣٢٩.

(٦) سورة الواقعة، الآية:٧٥.

(٧) سورة الواقعة، الآية:٧٧.

(٨) سورة القيامة، الآية:١.

(٩) تفسير القرطبي، جـ١٩، ص٦٠.

٤- أن (لا أقسم) صيغة من صيغ القسم:

وذلك أن القسم المسبوق بالنفي عبارة من عبارات القسم، وليست لا نافية للقسم، وليست بصلة، وإنما لتأكيد القسم.

وتأكيد الأمر عن طريق النفي مألوف في لغة العرب، فإنك إذا قلت لصاحبك: لا أوصيك بفلان، فإنما تريد تأكيد التوصية به، وتبالغ في الاهتمام به، فتبلغ بالنفي ما لا تبلغه بالأسلوب الصريح المباشر[(١)].

فإن قلت: إذاً لا يعرف خبر فيه نفي من خبر لا نفي فيه - كما قال القرطبي - **قلتُ**: إن دلالة القرينة كافية لمعرفة ذلك والتفريق بينهما، وذلك كقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾[(٢)] بعد قوله سبحانه: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾[(٣)].

وكما ترى فإن القولين الثالث والرابع أقوى الأقوال، وإن كنت أميل إلى الثالث منهما، والله أعلم.

من فوائد القسم:

١- تأكيد المقسم عليه:

يقول ابن تيمية رحمه الله: «والمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه، فلا بد أن يكون مما يحسن فيه ذلك كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها. فأما الأمور المشهودة الظاهرة كالشمس والقمر، والليل والنهار، والسماء والأرض، فهذه يقسم بها ولا يقسم

(١) الكشف والبيان في علوم القرآن: د. سمير شيلوه، ص٣١٦.
(٢) سورة الواقعة، الآية:٧٦.
(٣) سورة الواقعة، الآية:٧٥.

عليها»[١].

٢- لفت الأنظار إلى ما يحويه الكون من أسرار عجيبة، وآيات عظيمة، وما فيه من نظام بديع محكم، والدلالة على عظمة خالقها، ولهذا يتبع المقسم به قوله مثلًا: ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ۝٥﴾[٢] وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾[٣] كما يتبع قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٤﴾[٤][٥] الآيات الكونية، وهذا أمر زائد على جواب القسم.

٣- إقامة الحجة على المشركين وإثبات صدق الرسول ﷺ، وذلك أن العرب تعتقد أن الأيمان الكاذبة تهلك صاحبها، وقد أكثر الرسول ﷺ من الأيمان ولم يصب بمكروه، بل ارتفع شأنه وعلا ذكره، فكان ذلك دليلًا على صدقه.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ١٣، ص٣١٥.

(٢) سورة الفجر، الآية:٥.

(٣) سورة الواقعة، الآية:٧٦.

(٤) سورة النحل، الآية:١٢.

(٥) وقبلها قوله تعالى: ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾[النحل:١٢].

٤- إظهار فضل المقسم به وعظمته:

كما قال ابن تيمية رحمه الله: «وإقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته»[(١)].

٥- امتناع إنكار الخصم في القسم:

وبيان ذلك أن القسم يتكون من جملتين: إنشائية وهي المقسم به، وخبرية أو إنشائية وهي جواب القسم، والجملة الإنشائية لا يتطرق إليها التكذيب أو الإنكار، ولذا نرى في المقسم به حشد من قضايا العقيدة تساق مساق الجملة الإنشائية التي لا يمكن تكذيبها.

بل يحذف - أحيانًا - جواب القسم وهو جملة خبرية، ويكتفي بالمقسم به ليبادرهم بكلام آخر مؤيد لجواب القسم المحذوف؛ لكيلا يجد الخصم فرصة لتحويل الإنشاء إلى الخبر فينازع فيه، وكأن المقسم بهذا يهيئ فرصة للسماع وانتظار الجواب، فيهجم عليه بما يؤيد جواب القسم المحذوف، كقوله تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢﴾[(٢)]، فاكتفى بالمقسم به ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ واستغنى عن الجواب بما ذكره من صفة القرآن ﴿ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١﴾، وفي الوقت الذي ينتظر فيه المخاطب جواب القسم يأتيه ما يؤكد معناه ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢﴾ فكأنه يقول: والقرآن ذي الذكر إنه لحق، ولكن الكفار استكبروا عن قبوله.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ١٣، ص٣١٤.

(٢) سورة ص، الآيتان:١-٢.

٦- بلاغة الإيجاز في القسم:

فهو يجمع بين عدة أدلة متتابعة في جمل قصيرة موجزة، كما ترى في القسم في سورة الطور والفجر والبلد والشمس والليل والتين، فذكر في الأخيرة مثلًا التين، والزيتون، وطور سينين، والبلد الأمين.

٧- حسن المطلع في السور المبدوءة بالقسم:

وهو وجه من أوجه البلاغة، وذلك أن أسلوب القسم يعطي أوائل السور من نضرة بهجتها، ورونق ديباجتها، فتلمع الأقسام في قسمات السور كالغرة البارقة، وفي ذلك تهيئة نفسية لقبول ما بعدها، وشتان بين قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ وقولك: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾[1][2].

* * *

(١) سورة الضحى، الآيات:١-٣.

(٢) انظر هذه الفوائد وغيرها في: الإمعان في أقسام القرآن: لعبدالحميد الفراهي ص٥٦-٦٣، وجاءت هذه الأغراض بتصرف يسير في: علوم القرآن: د. عدنان زرزور ص٣٥٤-٣٥٦، ولغة القرآن الكريم: د. عبدالجليل عبدالرحيم ص٢٦٧-٢٦٩، ونقل ذلك عنهما بتصرف د. سامي عطا حسن في بحثه: «أسلوب القسم الظاهر في القرآن الكريم بلاغته وأغراضه» بحث منشور في العدد ٥٣ مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، ولم يشر أحد منهم إلى المصدر الأصلي «الإمعان».

فواتح السور وخواتيمها

يحرص الأدباء والشعراء وأهل البلاغة على حسن المطلع في كلامهم، سواء كان شعرًا أو نثرًا؛ لأنه أول ما يقرع السمع، فإن كان حسنًا بليغًا بديعًا أقبل السامع على الكلام ومن ثمَّ وعاه، وإلا أعرض عنه، ولو كان ما بعده في غاية الحسن.

لذا ينبغي أن يكون المطلع بأعذب الألفاظ وأجزلها، وأسلسها وأحسنها نظمًا وسبكًا، وأصحها معنى وأوضحه، فإذا اشتمل على ذلك كانت (براعة الاستهلال) أو (حسن المطلع).

وكما حرص أولئك على الفواتح حرصوا على الخواتم، إذ هي آخر ما يطرق السمع، وربما بقيت في الذاكرة من بين سائر الكلام لقرب العهد بها، لذا ينبغي أن تكون كالمطلع في غاية الجزالة، وحسن النظم مع تضمنها معنى تامًا يؤذن السامع بأنه الغاية والنهاية، وهذا ما يسمى (حسن الخاتمة أو الختام).

وقد تأمل أهل البلاغة وأربابُها في فواتح سور القرآن وخواتمها فوقفوا على أحسن الفواتح وأبلغها، وأكمل الخواتم وأفضلها، مع معانٍ بديعة وأسرار عجيبة(١).

وممن ألف في ذلك ابن أبي الأصبع وكتابه «الخواطر السوانح في أسرار الفواتح» طبع بتحقيق: د. حنفي محمد شرف.

وفي العصر الحديث ظهرت مؤلفات أغلبها إن لم يكن كلها في نوع واحد من أنواع الفواتح وهو الأحرف المقطعة في أوائل بعض السور، ومنها:

١- فواتح سور القرآن: د. حسين نصار.

---

(١) انظر من أسرار البلاغة في القرآن: د. محمود السيد شيخون، ص٢٠١-٢٠٢.

٢- براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور: د. محمد بدري عبدالجليل.

٣- الفواتح الهجائية وإعجاز القرآن: د. السيد عبدالمقصود جعفر.

٤- حروف المعجم في فواتح السور ورد التأويلات الباطلة: د. محمد أحمد إبراهيم أبو فراخ.

٥- وجوه التحدي والإعجاز في الأحرف المقطعة في أوائل السور: د. فهد بن عبدالرحمن الرومي.

وهناك مؤلفات كثيرة في الأحرف الهجائية في أوائل السور لا تخلو من أوهام تأويلات باطلة.

فواتح السور:

من المعلوم أن سور القرآن الكريم مئة وأربع عشرة سورة. وقد قسم العلماء فواتح هذه السور إلى عشرة أنواع هي:

أولًا: الاستفتاح بالثناء:

والثناء قسمان:

١- إثبات صفة مدح: وذلك في سبع سور: خمس مبدوءة بـ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ وهن: الفاتحة، الأنعام، الكهف، سبأ، فاطر. وافتتحت سورتان بـ﴿تَبَارَكَ﴾ وهما: الفرقان، والملك.

٢- تنزيه عن صفات النقص: وذلك -أيضًا- في سبع سور: وكلها بصيغة التسبيح: بالمصدر في سورة الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾.

وبالماضي في الحديد، والحشر، والصف: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾.

والمضارع في الجمعة والتغابن: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾.

والأمر في الأعلى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ①﴾.

وبهذا استوعب تنزيه الله تعالى وتسبيحه كل الأوقات، وجميع جهات الكلمة وهي أربع: المصدر والماضي والمضارع والأمر.

وبهذا تكون السور المبدوءة بالثناء أربع عشرة سورة سبع بالمدح وسبع بالتنزيه.

ثانيًا: الاستفتاح بحروف التهجي:

وذلك في تسع وعشرين سورة على النحو التالي:

١ - السور المبدوءة بحرف واحد: (٣ سور)

﴿صٓ﴾: ص.

﴿قٓ﴾: ق.

﴿نٓ﴾: القلم.

٢ - السور المبدوءة بحرفين: (٩ سور)

﴿حمٓ ۝١﴾: غافر، فصلت، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف.

﴿طه ۝١﴾: طـه.

﴿طسٓ﴾: النمل.

﴿يسٓ ۝١﴾: يس.

٣ - السور المبدوءة بثلاثة أحرف: (١٣ سورة)

﴿الٓمٓ ۝١﴾: البقرة، آل عمران، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة.

﴿الٓرٓ﴾: يونس، هود، يوسف، إبراهيم، الحجر.

﴿طسٓمٓ ۝١﴾: الشعراء، القصص.

٤ - السور المبدوءة بأربعة أحرف: (سورتان)

﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾: الأعراف.

﴿الٓمٓرۚ﴾: الرعد.

٥ - السور المبدوءة بخمسة أحرف: (سورتان)

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾: مريم.

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾: الشورى.

واعلم أن عدد الحروف المقطعة في أوائل السور (٧٨) حرفًا، وبدون التكرار (١٤) حرفًا، أي: نصف الحروف الهجائية، ويجمعها قولك: «نص حكيم قاطع له سر» أو «طرق سمعك النصيحة»، أو «صن سرًّا يقطعك حمله».

قال الزمخشري: «وإذا تأملت الحروف التي افتتح الله بها السور وجدتها نصف أسامي حروف المعجم، أربعة عشر: الألف، واللام، والميم، والصاد، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والطاء، والسين، والحاء، والقاف، والنون، في تسع وعشرين سورة عدد حروف المعجم. ثم تجدها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف المهموسة، والمهجورة، والشديدة، والمطبقة، والمستعلية، والمنخفضة، وحروف القلقلة،... فسبحان الذي دقَّت في كل شيء حكمته»(١).

(١) البرهان: الزركشي، جـ١، ص١٦٥-١٦٦. وقد نقل كلام الزمخشري مختصرًا من تفسيره جـ١، ص١٧، وقد ذكرت هذا القول والردود عليه في كتابي «وجوه التحدي والإعجاز في الأحرف المقطعة في أوائل السور» ص٣٦-٤٣.

ومن أحكام هذه الحروف:

١ - أن البصريين لم يعدوا شيئًا منها آية، وأما الكوفيون فمنها ما عدوه آية، ومنها ما لم يعدوه آية. وهو علم توقيفي لا مجال للقياس فيه.

٢ - أنه يوقف عليها جميعًا وقف التمام إن حملت على معنى مستقل غير محتاج إلى ما بعده، وذلك إذا لم تجعل أسماء للسور.

٣- أنها كتبت في المصحف على صورة الحروف أنفسها ﴿الٓمٓ ۝١﴾ مثلًا لا على صورة أساميها (ألف، لام، ميم).

معاني الأحرف المقطعة في أوائل السور:

وقد اختلف العلماء في معاني الأحرف المقطعة في أوائل السور على قولين:

الأول: أنها علم مستور استأثر الله بعلمه:

قال الشعبي: «إنها من المتشابه، نؤمن بظاهرها، ونكل العلم فيها إلى الله عز وجل»[(١)].

وقال أبو حاتم: «لم نجد الحروف المقطعة في القرآن إلا في أوائل السور، ولا ندري ما أراد الله جل وعزَّ بها»[(٢)].

ونسب القرطبي هذا القول إلى الخلفاء الأربعة وابن مسعود رضي الله عنهم[(٣)]، وقاله عامر الشعبي وسفيان الثوري، واختاره ابن حبان.

(١) البرهان: الزركشي، جـ١، ص١٧٣.

(٢) تفسير القرطبي، جـ١، ص١٥٤.

(٣) المرجع السابق.

الثاني: أن المراد منها معلوم:

ثم اختلف أولئك في معناها إلى أكثر من عشرين قولًا منها البعيد ومنها القريب، ومن ذلك:

١- أنها حروف مقتضبة من أسماء الله تعالى وصفاته المفتتحة بأحرف مماثلة لهذه الحروف المقطعة، فالألف إشارة إلى (أحد)، واللام إلى (لطيف)، والميم إلى (ملك) ونحو ذلك.

٢- أن العرب كانوا إذا سمعوا القرآن لغوا فيه، وقال بعضهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾[(١)]، فأنزل الله هذا النظم البديع ليعجبوا منه، ويكون تعجبهم سببًا لاستماعهم، واستماعهم له سببًا لاستماع ما بعده، فترق القلوب وتلين الأفئدة[(٢)].

٣- أنها أسماء للسور.

٤- أنها من أسماء القرآن.

٥- أن هذه الحروف ذكرت لتدل على أن القرآن مؤلف من هذه الحروف التي هي «ا ب ت ث.. فجاء بعضها مقطعًا، وجاء تمامها مؤلفًا، ليدل القوم الذين نزل القرآن بلغتهم أنه بالحروف التي يعقلونها، ويبنون كلامهم منها»[(٣)]. وقال بهذا القول مجاهد وأبو عبيدة والفراء وقطرب والمبرد وابن تيمية، والمزي، وابن القيم وابن كثير. ومن المعاصرين: الشنقيطي والطاهر بن عاشور وابن عثيمين وغيرهم. وبهذا يظهر أنه أرجح الأقوال، والله أعلم.

---

(١) سورة فصلت، الآية:٢٦.

(٢) البرهان: الزركشي، جـ١، ص١٧٥.

(٣) المرجع السابق.

ثالثًا: الاستفتاح بالنداء:

وذلك في عشر سور:

خمس منها نداء للرسول ﷺ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ في الأحزاب والطلاق والتحريم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ في سورة المدثر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ في سورة المزمل.

وثلاث منها نداء للمؤمنين:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ في المائدة، والحجرات، والممتحنة.

وفي سورتين نداء للناس:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ في النساء، والحج.

رابعًا: الاستفتاح بالجملة الخبرية:

وذلك في ثلاث وعشرين سورة منها:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾، ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾، ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾، ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾، ﴿عَبَسَ﴾.

خامسًا: الاستفتاح بالقسم:

وذلك في خمس عشرة سورة:

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾، ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾، ﴿وَٱلطُّورِ ۝١﴾، ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾، ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾، ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾، ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١﴾، ﴿وَٱلشَّمْسِ﴾، ﴿وَٱلَّيْلِ﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾،

﴿وَٱلتِّينِ﴾، ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾، ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١﴾.

سادسًا: الاستفتاح بالشرط:

وذلك في سبع سور:

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾، ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾، ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾، ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾، ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾.

سابعًا: الاستفتاح بالأمر:

وذلك في ست سور:

﴿قُلْ أُوحِىَ﴾، ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾.

ثامنًا: الاستفتاح بالاستفهام:

وذلك في ست سور:

﴿هَلْ أَتَىٰ﴾، ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾، ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾، ﴿۞ أَلَمْ تَرَ﴾، ﴿أَرَءَيْتَ﴾.

تاسعًا: الاستفتاح بالدعاء:

وذلك في ثلاث سور:

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾، ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾، ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾.

عاشرًا: الاستفتاح بالتعليل:

وذلك في سورة واحدة: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾.

وقد جمعت هذه الأنواع العشرة في بيتين:

أثنى على نفسه سبحانه بثبو ... ت المدح والسلب لما استفتح السورا
والأمر شرط النداء التعليل والقسم الـ ... دعاء حروف التهجي استفهم الخبرا

خواتم السور:

وقد تعددت الخواتم وتنوعت، ولم يحصر العلماء أنواعها كما حصروا الفواتح وذلك لاشتمال الخاتمة أحيانًا على أكثر من معنى، وذكروا من أنواع الخواتم:

أولًا: الختام بما يشعر بانتهاء السورة:

ومن أوضحه خاتمة سورة إبراهيم ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾[٥٢]، وخاتمة سورة الأحقاف ﴿بَلَٰغٌۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾[٣٥].

ثانيًا: الختام بتفصيل جملة المطلوب:

كخاتمة سورة الفاتحة، فبعد أن وجه عباده بطلب الهداية إلى الصراط المستقيم ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾[٦] فصل ذلك ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾[٧].

ثالثًا: الختام بالدعاء:

كخاتمة سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾[٢٨٦] إلى آخر السورة.

رابعًا: الختام بالوصايا:

كخاتمة سورة آل عمران: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾[٢٠٠].

خامسًا: الختام بالتعظيم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

كخاتمة سورة المائدة: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾[١٢٠].

سادسًا: الختام بالوعد والوعيد:

كخاتمة سورة الأنعام: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾[١٦٥].

* * *

المناسبات بين الآيات والسور

سلك القرآن منهجًا خاصًّا فريدًا في عرضه للقضايا، فلم يلتزم الطريقة المعروفة بتقسيم الكتاب إلى أبواب، والأبواب إلى فصول، يتناول كل باب موضوعًا خاصًّا، ويعرض كل فصل جانبًا من جوانب هذا الموضوع حتى اكتمال الموضوع وتمامه.

والقرآن الكريم ليس كذلك، فهو ينوع في العرض بالترغيب مرة، والترهيب أخرى، وبالموعظة حينًا، والقصة حينًا آخر، ويذكر طرفًا من الموضوع مرة، ثم ينتقل إلى غيره، ثم يعود إلى إتمامه مرة أخرى؛ مما جعل العلماء يقبلون على دراسة هذا الأسلوب وأسرار الانتقال من موضوع إلى آخر، ويبينون وجه الارتباط بين الآيات ذات الموضوعات المختلفة مع بعض، حتى نشأ علم خاص سموه (علم المناسبات بين الآيات والسور).

وقد اعتنى المفسرون كثيرًا ببيان المناسبة بين الآيات والسور في تفاسيرهم، بل حكى الزركشي خلاف العلماء في أيها أولى البداءة بسبب النزول أو بالمناسبة؛ لأنها المصححة لنظم الكلام، وهي سابقة على النزول. ثم حقق الخلاف بأنه إذا كان وجه المناسبة متوقفًا على معرفة سبب النزول فهذا ينبغي فيه تقديم ذكر السبب؛ لأنه حينئذٍ من باب تقديم الوسائل على المقاصد، وإن لم يتوقف على ذلك فالأولى تقديم وجه المناسبة[1].

وإذا علمنا أن معرفة المناسبات هو العلم الثاني الذي تحدث عنه الزركشي بعد حديثه عن النوع الأول وهو سبب النزول، علمنا مكانة هذا العلم ودرجته في التفسير.

---

(١) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٣٤.

ولذا فقد أفرده العلماء بمؤلفات كثيرة منها:

١- البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن، لأبي جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي (ت٧٠٨هـ) طبع بتحقيق: محمد شعباني. كما طبع بتحقيق: د. سعيد الفلاح.

٢- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين البقاعي (ت٨٨٥هـ) وهو تفسير طبع في الهند في اثنين وعشرين مجلدًا.

٣- ألف السيوطي (ت٩١١هـ) ثلاثة كتب في هذا الموضوع هي «قطف الأزهار في كشف الأسرار» و«تناسق الدرر في تناسب السور» و«مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع». وقد طبعت كلها محققة.

٤- «الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره»: د. محمد أحمد يوسف القاسم.

٥- جواهر البيان في تناسب سور القرآن: عبدالله بن محمد الصديق الغماري.

ومع هذا فقد تحدث العلماء عن المناسبة في أبواب مستقلة من كتبهم المؤلفة في علوم القرآن، واعتنى به المفسرون في تفاسيرهم، ومن أشهر التفاسير التي تظهر فيها العناية ببيان المناسبة «البرهان في متشابه القرآن» للكرماني، و«الكشاف» للزمخشري، و«مفاتيح الغيب» للرازي، و«البحر المحيط» لأبي حيان الأندلسي، و«في ظلال القرآن» لسيد قطب وغيرهم.

تعريف المناسبة:

لغـة: المناسبة: المقاربة والمشاكلة، يقال: فلان يناسب فلانًا، أي: يقرب منه ويشاكله. ومنه النسيب وهو القريب المتصل. ومنه المناسبة في العلة في باب القياس، وهي الوصف المقارن للحكم؛ لأنه إذا حصلت مقارنته للحكم ظُنَّ عند وجود ذلك الوصف وجود

الحكم، كالإسكار في الشراب علة التحريم، والمناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول[(١)].

واصطلاحًا: المناسبة هي وجه الارتباط بين الآية والآية التي تليها، والسورة والسورة التي تليها، وفاتحة السورة وخاتمتها ونحو ذلك.

أو هي ارتباط أجزاء القرآن بعضها ببعض.

أهمية هذا العلم ومكانته:

أكد العلماء كثيرًا على أهمية هذا العلم ومكانته وفضله.

يقول الزركشي: «اعلم أن المناسبة علم شريف تحرز به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول»[(٢)].

وقال ابن العربي: «ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى يكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم»[(٣)].

وقال الرازي: «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط»[(٤)]. وقال: «إن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضًا معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا: إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك»[(٥)].

---

(١) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٣٥.

(٢) المرجع السابق.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص١٠٨.

(٤) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٣٦.

(٥) تفسير الرازي، جـ٧، ص١٢٨.

فوائد علم المناسبات:

ولهذا العلم فوائد كثيرة منها:

١- جعل أجزاء الكلام بعضها آخذ بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء، وبهذا يظهر وجه من أوجه الإعجاز البلاغي.

٢- إبطال الشبهات وإزالة الشك الحاصل في القلب بسبب خفاء وجه الاتصال بين بعض الآيات، وبالتأمل والتدبر يزول الإشكال.

٣- إدراك بعض أسرار التشريع وحكمته، والتلازم التام بين أحكام الشريعة، فإذا قرأت قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾[(١)]، وتعرفت على المناسبة بين الأمر بغض البصر وحفظ الفرج، علمت ما بينهما من التلازم. فحفظ الفرج لا يتم إلا بغض البصر، ومن أطلق بصره في الحرام فحري أن تزل قدمه في الآثام.

٤- أنه يعين على فهم الآية وتحديد المراد منها، ومثال ذلك خلاف المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١﴾[(٢)] حيث قال الجمهور: هي الملائكة، وقال آخرون: هي الطير، والصحيح الأول؛ لأنه ذكر في آخر السورة قول الملائكة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ۝١٦٥﴾[(٣)].

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الصافات، الآية: ١.

(٣) سورة الصافات، الآية: ١٦٥.

٥- كشف حكمة تكرار بعض قصص القرآن، وأن القصة تكرر حسب المناسبة، ولذلك ترى اختلافًا في ترتيب القصة ونظمها ومقدار ما يذكر منها بحسب المناسبة، وإن كانت القصة في أصلها واحد[١].

خلاف العلماء في المناسبات:

للعلماء في المناسبات في القرآن الكريم قولان:

الأول: المنع:

وذهب إلى ذلك العز بن عبدالسلام رحمه الله حيث قال: «المناسبة علم حسن، ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر».

قال: «ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا برباط ركيك يصان عنه حسن الحديث فضلًا عن أحسنه، فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة ولأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض»[٢]. كما ذهب إلى هذا الرأي أيضًا الشوكاني في تفسيره[٣].

الثاني: الجواز:

وذهب إلى ذلك جمهور العلماء وعامتهم.

قال ولي الدين الملّوي: «قد وهم من قال: لا يطلب للآي الكريمة مناسبة؛ لأنها على

(١) انظر في هذه الفوائد «علم المناسبات في القرآن» محمد بن عبدالعزيز الخضيري، مجلة البيان، العدد ١٤٦، ص٢٠.

(٢) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٣٧، والإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٠٨.

(٣) فتح القدير: الشوكاني، جـ١، ص٧٢-٧٣.

حسب الوقائع المتفرقة. وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلًا، وعلى حسب الحكمة ترتيبًا وتأصيلًا. فالمصحف على وفق ما في اللوح المحفوظ مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف»[١].

ووضح ذلك د. محمد عبدالله دراز فقال عن آيات القرآن الكريم: «إن كانت بعد تنزيلها قد جمعت عن تفريق فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع، كمثل بنيان كان قائمًا على قواعده، فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه، قدرت أبعاده، ورقمت لبناته، ثم فُرِّقَ أنقاضًا، فلم تلبث كل لبنة أن عرفت مكانها المرقوم، وإذا البنيان قد عاد مرصوصًا يشد بعضه بعضًا كهيئته أول مرة»[٢].

أنواع المناسبات:

المناسبات في القرآن الكريم أنواع كثيرة منها:

١ - المناسبة بين الآية والآية التي تليها:

ومثاله قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾[٣] حيث ذكر محاسبته على الحسنات، فناسب أن يذكر محاسبته على السيئات ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾[٤].

(١) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٣٧، والإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٠٨.

(٢) النبأ العظيم: د. محمد عبدالله دراز، ص١٥٤-١٥٥.

(٣) سورة الزلزلة، الآية:٧.

(٤) سورة الزلزلة، الآية:٨.

ومنها قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾[(١)] جاء بعدها ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾[(٢)].

فإن قيل: ما وجه الجمع بين الإبل والسماء والجبال والأرض في هذه الآيات؟

فالجواب: أنه جمع بينها على مجرى الإلف والعادة بالنسبة إلى أهل الوبر، فإن كل انتفاعهم في معايشهم من الإبل، فتكون عنايتهم مصروفة إليها، ولا يحصل إلا بأن ترعى وتشرب، وذلك بنزول المطر، وهو سبب تقلب وجوههم في السماء، ثم لا بد لهم من مأوى يؤويهم، وحصن يتحصنون به، ولا شيء في ذلك كالجبال، ثم لا غنى لهم - لتعذر طول مكثهم في منزل - عن التنقل من أرض إلى سواها، فإذا نظر البدوي في خياله وجد صورة هذه الأشياء حاضرة، فيه على الترتيب المذكور[(٣)].

٢- المناسبة بين أول السورة وخاتمتها:

ومثاله أول سورة البقرة: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [٣]، وفي آخرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾... [٢٨٥].

وأول سورة المؤمنون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾[١]، وآخرها: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾[١١٧].

---

(١) سورة الغاشية، الآية:١٧.

(٢) سورة الغاشية، الآيات:١٨-٢٠.

(٣) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٤٥.

وأول سورة صٓ: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١﴾ [١]، وآخرها: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٤﴾ [٨٧].

وأول سورة نٓ: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢﴾ [٢]، وآخرها: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ۝٥١﴾ [٥١].

٣- المناسبة بين خاتمة السورة وفاتحة السورة التي تليها:

ومثال ذلك آخر سورة الإسراء: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ [١١١]، وأول سورة الكهف التي تليها: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١﴾[١].

وآخر سورة الطور: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾ [٤٩]، وأول سورة النجم التي تليها: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ [١].

وآخر سورة الواقعة: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [٩٦]، وأول سورة الحديد: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١﴾ [١].

وجوه المناسبات:

ووجه المناسبة بين الآيات له أنواع كثيرة منها:

١- التنظير:

فإن إلحاق النظير من شأن العقلاء.

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾ [(١)] بعد قوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾[(٢)]، فإن الله تعالى أمر رسوله أن

---

(١) سورة الأنفال، الآية:٥.

(٢) سورة الأنفال، الآية:٤.

يمضي لأمره في الغنائم على كره من أصحابه، كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير في غزوة بدر وهم كارهون. وذلك أنهم اختلفوا في القتال يوم بدر في الأنفال، وحاجوا النبي ﷺ وجادلوه، وكره كثير منهم تقسيم الغنائم كما كرهوا الخروج، وقد تبين لهم في الخروج خير كثير من الظفر والنصر والغنيمة وعز الإسلام وانتصار المسلمين وهزيمة المشركين، فكذا ما فعله في قسمة الغنائم، فليطيعوا أمره ويتركوا هوى أنفسهم[١].

٢- المضادة:

وذلك كقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾[٢]، ذكر بعد ذلك ما يضاده ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾[٣].

٣- الاستطراد:

كقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾[٤].

قال الزمخشري: «هذه الآية واردة على الاستطراد عقيب ذكر بدو السوءات وخصف الورق عليها، إظهارًا للمنة فيما خلق من اللباس، ولما في العري وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعارًا بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى»[٥].

---

(١) انظر الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٠٩، والبرهان: الزركشي، جـ١، ص٤٧.

(٢) سورة التحريم، الآية:١٠.

(٣) سورة التحريم، الآية:١١.

(٤) سورة الأعراف، الآية:٢٦.

(٥) الكشاف: الزمخشري، جـ٢، ص٧٤.

٤- الانتقال:

ويراد به الانتقال من حديث إلى آخر تنشيطًا للسامع، ومثاله: لما انتهى في سورة صٓ من الحديث عن الأنبياء عليهم السلام قال سبحانه: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾﴾[١]، فانتقل إلى نوع آخر من الحديث وهو ذكر الجنة وأهلها، ولما انتهى من الحديث عن ذلك انتقل إلى نوع ثالث فقال: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾﴾[٢]، فذكر النار وأهلها.

قال ابن الأثير: «(هذا) في هذا مقام من الفصل الذي هو أحسن من الوصل، وهي علاقة أكيدة بين الخروج من كلام إلى آخر»[٣].

* * *

(١) سورة صٓ، الآية:٤٩.

(٢) سورة صٓ، الآية:٥٥.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١١٠.

المحكم والمتشابه[١]

تختلف قوى البشر ومداركهم العقلية كما تختلف قواهم ومداركهم الجسمية، فهناك من الأعمال ما يستطيع أن يفعله كل البشر، ومنها ما لا يستطيع فعله إلا الأقوياء منهم، ومنها ما لا يستطيع أحد من البشر فعله. وكذا في المدارك العقلية هناك من المعاني ما يفهمه كل البشر، ومنها ما لا يفهمه إلا العلماء، ومنها ما لا يدرك المراد به أحد من البشر، ولا يعلمه إلا الله.

ومن معاني القرآن الكريم ما هو ظاهر الدلالة، واضح المعاني، ومنه ما خفيت دلالته، وغمض معناه. وتدبر العلماء في معاني الآيات القرآنية، ودرسوا هذين النوعين في باب المحكم والمتشابه.

وينقسم المحكم والمتشابه إلى قسمين:

الأول: الإحكام والتشابه العام.

الثاني: الإحكام والتشابه الخاص.

أولًا: الإحكام والتشابه العام:

أ- الإحكام العام:

دليله: وردت آيات كثيرة تصف القرآن الكريم كله بأنه محكم، منها: قوله تعالى:

(١) في هذه المباحث الأصولية التالية أعني (المحكم والمتشابه) و(العام والخاص) و(المطلق والمقيد) و(المنطوق والمفهوم) بعض المسائل العلمية الدقيقة التي لا يحتاجها بعض الطلاب والطالبات في بعض المقررات، لذا أقترح الاقتصار على المسائل الرئيسية وحذف ما يشكل منها تيسيرًا للمادة ومراعاة للمستوى العلمي لهم. والله أعلم.

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾[(١)]، وقوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾[(٢)]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ﴾[(٣)]، ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾[(٤)]، ﴿ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ٥٨﴾[(٥)]، ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾[(٦)]، ﴿يسٓ ١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ٢﴾[(٧)]، وغير ذلك.

معنـاه:

الإحكام بكسر الهمزة له معان متعددة، ترجع كلها إلى معنى واحد هو «المنع» عن الفساد، ولا يعتبر المنع عن الإصلاح إحكامًا، بل هو خاص بالمنع عن الفساد، ومنه:

قولهم: أحكم الأمر، أي: أتقنه ومنعه من الفساد.

وقولهم: أحكمه عن الأمر، أي: منعه منه.

وقولهم: حكم نفسه وحكم الناس، أي: منع نفسه ومنع الناس عما لا ينبغي.

وقولهم: أحكم الفرس، أي: جعل له «حَكَمَة»، وهي ما أحاط بالحنك من لجام الفرس «تمنعه» من الاضطراب[(٨)].

---

(١) سورة هود، الآية:١.

(٢) سورة يونس، الآية:١.

(٣) سورة الرعد، الآية:٣٧.

(٤) سورة الإسراء، الآية:٣٩.

(٥) سورة آل عمران، الآية:٥٨.

(٦) سورة يونس، الآية:١.

(٧) سورة يسٓ، الآيتان:١-٢.

(٨) انظر مناهل العرفان: الزرقاني، جـ٢، ص٢٨٩.

وقول جرير[(١)]:

أبني حنيفة أَحْكِمُوا سفهاءكم   إني أخاف عليكُمُ أن أغضبا

ومنه سميت «الحكمة»، وهي إصابة الحق لمنعها صاحبها من الوقوع في الباطل، ولذا سُمي الحكيم حكيمًا لمعرفة الحكمة.

وعلى هذا فالقرآن الكريم كله محكم، أي: متقن يمتنع عنه الخلل والنقص في ألفاظه ومعانيه، ولهدايته إلى الحق والطريق المستقيم ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[(٢)]، ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾[(٣)].

ب- التشابه العام:

دليله: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾[(٤)].

معناه: التشابه في الأصل هو التماثل بين شيئين فأكثر حتى يشق التمييز بينهما، ثم أطلق بعد ذلك على كل ما فيه غموض والتباس في تحديد معناه أو حقيقته.

ومن الأول: قولك: فلان يشبه فلانًا، أي: يماثله ويقاربه، سواء كان في الصفات الحسية كالجسم أو الوجه، أو في الصفات المعنوية كالأخلاق والآداب.

ومن الثاني: قولهم: «شُبِّه عليه الأمر» إذا التبس، وقولهم: «فلان مشبوه» إذا التبست براءته من الجريمة باقترافه لها.

---

(١) ديوان جرير: ص٤٧.

(٢) سورة النساء، الآية:٨٢.

(٣) سورة فصلت، الآية:٤٢.

(٤) سورة الزمر، الآية:٢٣.

«وذلك أن التشابه والتماثل قد يكون سببًا للعجز عن التمييز بين الأشياء مما يؤدي إلى الالتباس والغموض، ولذلك سمي هذا الالتباس أو الغموض متشابهًا من باب إطلاق السبب على المسبب»[(١)].

ومنه في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًاۖ﴾[(٢)]، أي: يشبه بعضه بعضًا، وقوله عن بني إسرائيل: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا﴾[(٣)]، أي: اختلط أمره علينا، والتبس المقصود منه، وقوله سبحانه: ﴿تَشَـٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْۗ﴾[(٤)]، أي: تماثلت في الغي والجهالة.

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «إن الحلال بَيِّنٌ، وإن الحرام بَيِّنٌ، وبينهما أمور مشتبهات، لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه» الحديث[(٥)]، أي: أمور تشتبه على كثير من الناس هل هي من الحلال أم من الحرام[(٦)].

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا﴾[(٧)] «أي: يشبه بعضه بعضًا في الفصاحة والإعجاز وعدم تناقضه، وإبداع ألفاظه، واستخراج حكمه»[(٨)] وهذا هو التشابه العام بين آيات القرآن.

---

(١) المحكم والمتشابه: د. عبدالرحمن المطرودي، ص١٣.

(٢) سورة البقرة، الآية:٢٥.

(٣) سورة البقرة، الآية:٧٠.

(٤) سورة البقرة، الآية:١١٨.

(٥) متفق عليه.

(٦) جامع العلوم والحكم: ابن رجب، ص٥٨.

(٧) سورة الزمر، الآية:٢٣.

(٨) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي، جـ٢، ص١٢٩٧.

ثانيًا: الإحكام الخاص والمتشابه الخاص:

وإذا كان القرآن الكريم كله محكم بمعنى: أنه متقن لا يتطرق إليه الخلل والنقص، وهو كله متشابه بمعنى: أن آياته يشبه بعضها بعضًا في الإعجاز والفصاحة، فإنه قد وردت آية قرآنية تصف القرآن بأن بعضه محكم وبعضه متشابه، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾(١)، فلا بد أن يكون للإحكام والتشابه هنا معنى غير المعنى الأول، وهو خاص ببعض الآيات دون بعض، ولهذا وقع الاختلاف بين العلماء في تعريف المحكم والمتشابه هنا.

أقوال العلماء في المحكم والمتشابه:

للعلماء في تعريف المحكم الخاص والمتشابه الخاص أقوال كثيرة منها:

الأول: المحكم ما عرف المراد منه، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة، وخروج الدجال، والحروف المقطعة في أوائل السور. وينسب هذا القول إلى أهل السنة.

الثاني: المحكم ما لا يحتمل إلا وجهًا واحدًا، والمتشابه ما احتمل أكثر من وجه. وهو قول الأصوليين، ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الثالث: المحكم الذي يعمل به، والمتشابه الذي يؤمن به، ولا يعمل به. وروي هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة وقتادة(٢).

الرابع: المحكم هو ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان، والمتشابه ما لا يستقل بنفسه ويحتاج إلى بيان. وهو قول الإمام أحمد.

---

(١) سورة آل عمران، الآية:٧.

(٢) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص٤.

الخامس: المحكم ما اتضح دليله، والمتشابه ما يحتاج إلى تدبر، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾[١] فأولها محكم، وآخرها متشابه. وهو قول الأصم[٢].

السادس: المحكم ما تضمن حكمًا، والمتشابه ما تضمن أخبارًا وقصصًا.

السابع: المحكم هو الناسخ، والمتشابه هو المنسوخ. وقيل: المحكم ناسخه، وحلاله، وحرامه، وحدوده، وفرائضه. والمتشابه: منسوخه ومقدمه، ومؤخره، وأمثاله، وأقسامه. وهو قول ابن عباس ومجاهد[٣] وقتادة.

الثامن: المحكم ما كانت دلالته راجحة كالنص والظاهر. والمتشابه ما كانت دلالته غير راجحة، أي: أن دلالة اللفظ عليه وعلى غيره متساوية كالمجمل والمؤول والمشكل[٤].

أقسام المتشابه:

والتشابه في بعض آيات القرآن الكريم ثلاثة أنواع:

الأول: التشابه من جهة اللفظ.

الثاني: التشابه من جهة المعنى.

الثالث: التشابه من جهة اللفظ والمعنى.

---

(١) سورة الزخرف، الآية:١١.

(٢) تفسير الرازي، جـ٧، ص١٧٠-١٧١.

(٣) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص٤.

(٤) تفسير الرازي، جـ٧، ص١٧٠-١٧١.

الأول: التشابه من جهة اللفظ:

وهو ما كان خفاء معناه ناشئًا من جهة اللفظ، وهو نوعان:

أ- تشابه لفظي يرجع إلى المفردات.

إما لغرابتها وقلة استعمالها مثل ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١﴾[١]، وكقوله: ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ۝٩٤﴾[٢]، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ۝١١٤﴾[٣]، ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦﴾[٤]، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «لا أدري ما الأواه وما الغسلين»[٥].

وإما لجهة الاشتراك اللفظي كالقرء في قوله: ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾[٦]؛ حيث يطلق على الحيض والطهر، ومثل ﴿عَسْعَسَ ۝١٧﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧﴾[٧]، فإنه يطلق على إقبال الليل وإدباره.

ب- تشابه لفظي يرجع إلى التركيب للألفاظ وهي الجمل:

وهو ثلاثة أقسام:

أحدها: لاختصار الكلام كقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ

---

(١) سورة عبس، الآية:٣١.
(٢) سورة الصافات، الآية:٩٤.
(٣) سورة التوبة، الآية:١١٤.
(٤) سورة الحاقة، الآية:٣٦.
(٥) التحرير والتنوير: ابن عاشور، جـ٣، ص١٥٩.
(٦) سورة البقرة، الآية:٢٢٨.
(٧) سورة التكوير، الآية:١٧.

﴿ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ﴾(١)، والمعنى: ألا تقسطوا في اليتامى إذا تزوجتموهن.

ثانيها: بسط الكلام كقوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾(٢)، ففي ذكر الكاف بسط للكلام، ولو قال: (ليس مثله شيء) لظهر المعنى، فاشتبه المراد بذكرها مع ظهور المعنى بدونها.

ثالثها: نظم الكلام كقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾ قَيِّمٗا﴾(٣)، فجاءت جملة ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾﴾ فاصلة بين الصفة والموصوف وأصل الكلام: أنزل على عبده الكتاب قيمًا، ولم يجعل له عوجًا. وكقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾(٤) ففصل بين المصدر ومعموله، وأصل الكلام: وإنه على رجعه يوم تبلى السرائر لقادر.

الثاني: التشابه من جهة المعنى:

ويتعلق هذا النوع بالغيبيات؛ إذ لا يمكن للإنسان أن يتصور ما غاب عن حواسه على حقيقته، فالتخيل والتصور عنده لا يبتعد عن المحسوسات، فلا تدرك(٥) صفات الله تعالى ولا ما في الجنة من النعيم، ولا ما في النار من عذاب إلا على سبيل التقريب.

---

(١) سورة النساء، الآية:٣.

(٢) سورة الشورى، الآية:١١.

(٣) سورة الكهف، الآيتان:١-٢.

(٤) سورة الطارق، الآيتان:٨-٩.

(٥) المفردات: الأصفهاني ص٢٥٥، عمدة الحفاظ: السمين، جـ٢، ص١٢٩٩، وانظر المحكم والمتشابه: د. عبد الرحمن المطرودي، ص٦٩.

الثالث: التشابه من جهة اللفظ والمعنى:

وهو خمسة أنواع:

الأول: من جهة الكمية كالعموم والخصوص نحو ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[١].

الثاني: من جهة الكيفية كالوجوب والندب، كقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ﴾[٢].

الثالث: من جهة الزمان؛ كالناسخ والمنسوخ؛ نحو قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[٣].

الرابع: من جهة المكان؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ الآية[٤]، وكقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾[٥]، فإن من لا يعرف عادة أهل الجاهلية في ذلك يتعذر عليه تفسير هذه الآية.

الخامس: من جهة الشروط التي يصح بها الفعل أو يفسد كشروط الصلاة والنكاح[٦].

---

(١) سورة التوبة، الآية:٥.

(٢) سورة النساء، الآية:٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية:١٠٢.

(٤) سورة البقرة، الآية:١٨٩.

(٥) سورة التوبة، الآية:٣٧.

(٦) انظر المفردات: الأصفهاني ص٢٥٤-٢٥٥، وعمدة الحفاظ: السمين جـ٢، ص١٢٩٨-١٣٠٠، والمحكم والمتشابه: المطرودي، ٦٥-٧٠.

قال الراغب الأصفهاني بعد ذكره لهذه الأقسام: «وهذه الجملة إذا تصورت، علم أن كلَّ ما ذكره المفسرون في تفسير المتشابه لا يخرج عن هذه التقاسيم»[١].

معرفة المتشابه[٢]:

اختلف العلماء في المتشابه؛ هل يمكن معرفته أم لا؟

والحقيقة أنه ينقسم من حيث إمكانية معرفته وعدمها إلى ثلاثة أنواع هي:

الأول: المتشابه الحقيقي:

وهذا النوع لا يعلمه أحد من البشر، ولا سبيل للوقوع عليه؛ كوقت قيام الساعة، وحقيقة الروح، وغير ذلك من الغيبيات التي اختص الله بعلمها.

الثاني: المتشابه الإضافي:

وهو ما اشتبه معناه لاحتياجه إلى مراعاة دليل آخر، فإذا تقصى المجتهد أدلة الشريعة وجد فيها ما يبين معناه؛ كالألفاظ الغريبة، والأحكام الغَلِقَة، والتي تحتاج إلى استنباط وتدبر، وبعض مسائل الإعجاز العلمي[٣].

الثالث: المتشابه الخفي:

وهو ضرب متردد بين الأمرين، يختص بمعرفته بعض الراسخين في العلم ويخفى على من دونهم، وهو الضرب المشار إليه في دعوة الرسول ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل**».

---

(١) المفردات: الأصفهاني، ص٢٥٥.

(٢) المرجع السابق: نفس الموضع. والموافقات: الشاطبي جـ٣، ص٩١- ٩٣.

(٣) انظر التحرير والتنوير، جـ٣، ص١٥٧ و١٥٩ لبيان وجه كون الإعجاز العلمي من المتشابه عند قوم ومحكم عند من بعدهم.

سبب الاختلاف في معرفة المتشابه:

ويرجع بعض الباحثين السبب في الاختلاف في معرفة المتشابه إلى الاختلاف في الوقف في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾(١) وهذا ليس بصحيح؛ إذ إن الوقف أو الوصل مبني على الاختلاف في معنى التأويل. فسبب الاختلاف إذًا في معرفة المتشابه هو الاختلاف في المراد بالتأويل في قوله سبحانه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾، وفيه ثلاثة أقوال:

الأول: أن التأويل بمعنى التفسير:

وعلى هذا فالتأويل: يعلمه الراسخون في العلم. ومنه دعوة الرسول ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**»(٢)، وقول ابن عباس رضي الله عنهما: «أنا ممن يعلم تأويله»(٣)، وقول مجاهد: «الراسخون في العلم يعلمون تأويله»(٤)، وقول ابن جرير الطبري: «واختلف أهل التأويل في هذه الآية»، وقوله: «القول في تأويل قوله تعالى..». وهو أيضًا المعنى الذي قصده ابن قتيبة وأمثاله ممن يقول: إن الراسخين في العلم يعلمون التأويل ومرادهم به التفسير(٥).

---

(١) سورة آل عمران، الآية:٧.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده: جـ١، ص٢٦٦، والطبراني في المعجم الكبير (١٠٦١٤) و(١٢٥٠٦).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره: جـ٦، ص٢٠٣، رقم (٦٦٣٢).

(٤) تفسير مجاهد، جـ١، ص١٢٢.

(٥) درء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية، جـ٥، ص٣٨١، ٣٨٢.

وهو قول متقدمي المفسرين وابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد، ومحمد بن جعفر بن الزبير، وابن إسحاق، وابن قتيبة، والربيع بن أنس، والضحاك، والنووي، وابن الحاجب[(١)].

وعليه فإن الوقف يكون على قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾، وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول، وقالوا: الخطاب بما لا يفهم بعيد[(٢)].

القول الثاني: أن التأويل هو الحقيقة التي يؤول إليها الخطاب:

وهي نفس الحقائق التي أخبر الله عنها.

فتأويل ما أخبر به عن اليوم الآخر هو نفس ما يكون في اليوم الآخر، وتأويل ما أخبر به عن نفسه هو ذاته المقدسة الموصوفة بصفاته العلية.

وهذا التأويل هو الذي لا يعلمه إلا الله، ولهذا كان السلف يقولون: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول»، فيثبتون العلم بالاستواء، وهو التأويل الذي بمعنى التفسير، وهو معرفة المراد بالكلام حتى يُتدبر، ويُعقل، ويُفقه، ويقولون: الكيف مجهول، وهو التأويل الذي انفرد الله بعلمه، وهو الحقيقة التي لا يعلمها إلا هو[(٣)].

وعليه فإن الوقف يكون على لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، والواو للاستئناف، والراسخون مبتدأ، و(يقولون) خبره. وقال بهذا القول نيف وعشرون رجلًا من الصحابة والتابعين والقراء والفقهاء وأهل اللغة، فمن الصحابة: عائشة وابن عباس وابن مسعود، وابن عمر، وأُبي بن

---

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية جـ ١، ص٢٠٥، والقطع والائتناف: النحاس، ص٢١٥، والإتقان: السيوطي، جـ٢، ص٤.

(٢) تفسير ابن كثير، جـ٢، ص١١.

(٣) درء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية، جـ٥، ص٣٨٢.

كعب، وجابر بن عبد الله، رضي الله عنهم. فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «بلغ رسوخهم في العلم إلى أن قالوا: آمنا به»، وفي رواية «ولم يعلموا تأويله»، وما أخرجه الشيخان وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: «تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾. قالت: قال رسول الله ﷺ: «**فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم**». وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقرأ: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاَّ اللهُ ويقولُ الرَّاسِخُونَ في العِلْمِ آمَنَّا بِهِ). وهي قراءة على التفسير. وقراءة ابن مسعود رضي الله عنه (وإن تأويله إلا عند الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به) أخرجه ابن أبي داود في «المصاحف».

وقال به من التابعين ثلاثة: الحسن وابن نهيك والضحاك. وقال به من الفقهاء مالك بن أنس. ومن القراء ثلاثة: نافع ويعقوب والكسائي. ومن النحويين: الأخفش وسعيد، والفراء وسهيل بن محمد. ويروى عن عمر بن عبد العزيز وعروة بن الزبير وأبي عبيد، وابن جرير، وأبي إسحاق، وابن كيسان، والسدي[(١)].

ويدل على ذلك «أن الآية دلت على ذم متبعي المتشابه، ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة، وعلى مدح الذين فوضوا العلم إلى الله وسلموا إليه، كما مدح الله المؤمنين بالغيب»[(٢)].

---

(١) القطع والائتناف: النحاس، ص٢١٢-٢١٣، ودرء تناقض العقل والنقل: ابن تيمية جـ ١، ص٢٠٥، والإتقان السيوطي جـ٢، ص٤، وانظر تفسير ابن جرير الطبري، جـ٦، ص٢٠٢، ٢٠٤، وفتح القدير: الشوكاني جـ١، ص٣١٥.

(٢) الإتقان: السيوطي جـ ٢، ص٤.

وقال ابن تيمية عن هذا المعنى: إنه هو معنى التأويل في القرآن والمراد به في مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾[١] وقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾[٢] وقال يوسف: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ﴾[٣][٤]. وقال عن هذا المعنى: إنه لغة القرآن التي نزل بها.. فتأويل الأحاديث التي هي رؤيا المنام هي نفس مدلولها التي تؤول إليه كما قال يوسف: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ﴾.. وقال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾[٥] قالوا: أحسن عاقبة ومصيرًا، فالتأويل هنا تأويل فعلهم، الذي هو الرد إلى الكتاب والسنة، والتأويل في سورة يوسف تأويل أحاديث الرؤيا، والتأويل في الأعراف ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ﴾[٥٣] ويونس ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [٣٩] تأويل القرآن، وكذلك في سورة آل عمران.

وقال تعالى في قصة موسى والعالم: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾[٦] إلى قوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾[٧]

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.

(٤) درء تعارض العقل والنقل جـ١، ص٢٠٦.

(٥) سورة النساء، الآية:٥٩.

(٦) سورة الكهف، الآية:٧٨.

(٧) سورة الكهف، الآية:٨٢.

فالتأويل هنا تأويل الأفعال التي فعلها العالم من خرق السفينة بغير إذن صاحبها، ومن قتل الغلام، ومن إقامة الجدار، فهو تأويل عمل لا تأويل قول، وإنما كان كذلك؛ لأن التأويل مصدر أوَّله يؤوله تأويلًا.. وقولهم: آل يؤول، أي: عاد إلى كذا ورجع إليه، ومنه «المآل» وهو ما يؤول إليه الشيء، ويشاركه في الاشتقاق الأكبر «الموئل» فإنه من وَأَلَ، وهذا من أَوَلَ، والموئل المرجع، قال تعالى: ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلًا ۝٥٨﴾[1][2].

القول الثالث: وهو اصطلاح طوائف من المتأخرين، قالوا: إن التأويل هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به.

ويريدون بذلك صرف الألفاظ القرآنية عن معانيها الحقيقية إلى معانٍ باطلة ليؤيدوا بها مذاهبهم وآراءهم المنحرفة، فهم اعتقدوا رأيًا ثم حملوا نصوص القرآن عليه لتوافق ما ذهبوا إليه.

وهؤلاء كما قال ابن تيمية ﵀: «صاروا مراتب ما بين قرامطة وباطنية يتأولون الأخبار والأوامر، وما بين صابئة وفلاسفة يتأولون عامة الأخبار عن الله وعن اليوم الآخر، حتى عن أكثر أحوال الأنبياء، وما بين جهمية ومعتزلة يتأولون بعض ما جاء في اليوم الآخر، وفي آيات القدر، ويتأولون آيات الصفات، وقد وافقهم بعض متأخري الأشعرية على ما جاء في بعض الصفات، وبعضهم في بعض ما جاء في اليوم الآخر، وآخرون من أصناف الأمة وإن كان تغلب عليهم السنة، فقد يتأولون أيضًا مواضع يكون تأويلهم من تحريف الكلم عن مواضعه»[3].

---

(١) سورة الكهف، الآية:٥٨.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية: جـ١٣، ص٢٩٠-٢٩١ باختصار وتصرف يسير.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية: جـ١٣، ص٢٨٧.

وذكر في موضع آخر أمثلة لهذه التأويلات فقال: «كتأويل من تأوَّل استوى بمعنى استولى ونحوه، فهذا عند السلف والأئمة باطل لا حقيقة له، بل هو من باب تحريف الكلم عن مواضعه والإلحاد في أسماء الله وآياته.

فلا يقال في مثل هذا التأويل: لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم، بل يقال فيه: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾[1] كتأويلات الجهمية والقرامطة الباطنية، كتأويل من تأوَّل الصلوات الخمس بمعرفة أسرارهم، والصيام بكتمان أسرارهم، والحج بزيارة شيوخهم، والإمام المبين بعلي بن أبي طالب، وأئمة الكفر بطلحة والزبير، والشجرة الملعونة في القرآن ببني أمية، واللؤلؤ والمرجان بالحسن والحسين، والتين والزيتون وطور سينين، وهذا البلد الأمين بأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، والبقرة بعائشة، وفرعون بالقلب، والنجم والقمر والشمس بالنفس والعقل ونحو ذلك.

فهذه التأويلات من باب تحريف الكلم عن مواضعه والإلحاد في آيات الله، وهي من باب الكذب على الله وعلى رسوله وكتابه، ومثل هذه لا تجعل حقًّا حتى يقال: إن الله استأثر بعلمها، بل هي باطل، مثل شهادة الزور، وكفر الكفار، يعلم الله أنها باطل، والله يُعَلِّم عباده بطلانها بالأسباب التي بها يعرف عباده، من نصب الأدلة وغيرها»[2].

وقال: «وهذا التأويل هو الذي يتكلمون عليه في أصول الفقه ومسائل الخلاف، فإذا قال أحدهم: هذا الحديث، أو هذا النص مؤول، أو هو محمول على كذا، قال الآخر: هذا نوع تأويل، والتأويل يحتاج إلى دليل... وهو أيضًا التأويل الذي يتنازعون

(١) سورة يونس، الآية:١٨.

(٢) درء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية جـ ٥، ص٣٨٢-٣٨٣.

فيه في مسائل الصفات إذا صنف بعضهم في إبطال التأويل، أو ذم التأويل أو قال بعضهم: آيات الصفات لا تؤول، وقال الآخر: بل يجب تأويلها، وقال الثالث: بل التأويل جائز.. إلخ»[١].

وبهذا يظهر بطلان القول الثالث وانحرافه وأنه ليس من أقوال السلف.

وأما القولان الأول والثاني:

فإن الأول: هو معنى التأويل عند الصحابة والتابعين.

والثاني: هو معنى التأويل في القرآن نفسه.

فمن قال: إن الراسخين في العلم يعلمون تأويله فقد أخذ بالقول الأول، وهو أن معنى التأويل التفسير.

ومن قال: إن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويله فقد أخذ بالقول الثاني، وهو أن التأويل هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، وهذا لا يعلمه إلا الله.

ولا تعارض بين هذين القولين ولا اختلاف، فالجميع يسلم بأن الراسخين في العلم يعلمون تأويله بمعنى تفسيره، ومن زعم أنهم لا يعلمون تأويله بمعنى تفسيره نازعه فيه عامة الصحابة والتابعين الذين فسروا القرآن كله، وقالوا بأنهم يعلمون معناه[٢]، والراسخون في العلم لا يعلمون تأويله بمعنى الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، وبهذا يظهر التوافق والتطابق والتكامل بين القولين.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية جـ ١٣، ص٢٨٨، باختصار.

(٢) درء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية جـ ١، ص٢٠٨.

الحكمة من ذكر المتشابهات في القرآن الكريم:

ولأن المتشابه منه ما يمكن علمه للراسخين في العلم، ومنه ما لا يمكن علمه ولا يعلمه إلا الله، فإن لذكر كل نوع حِكَم خاصة أذكر بعضها:

من حِكَم ذكر المتشابه الذي يمكن علمه:

أولًا: الحث على زيادة التفكر والتدبر في آيات القرآن الكريم، والبحث عن دقائقه، ولذا كرر القرآن الأمر بالتدبر كثيرًا ليظهر في الثانية ما خفي في الأولى.

ثانيًا: ظهور التفاضل والتفاوت بين العلماء كل حسب طاقته وقدرته وما بذله من جهد في التفكر والتدبر.

ثالثًا: زيادة الأجر والثواب؛ لأن الأجر على قدر المشقة، فمعرفة المتشابه أشق وأصعب، وكلما كان الوصول إلى الحق أشق وأصعب كان الأجر أعظم وأكبر، «وزيادة المشقة توجب زيادة الثواب، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾[(١)]»[(٢)].

رابعًا: تحصيل العلوم الكثيرة؛ لأن معرفة المتشابه تحتاج إلى آلات ووسائل ليمكن بها معرفتها كعلم اللغة والنحو، وأصول الفقه[(٣)]، وغير ذلك من العلوم والمعارف.

خامسًا: حمل الناس على تلقي العلم جثيًا على الركب من الراسخين في العلم واضطرارهم لذلك، فإنهم إذا حضروا مجالسهم حَصَّلُوا علومًا أخرى، وآدابًا أكمل، وعرفوا شأن العلماء، وعلو مقامهم، ووالوهم وزادت محبتهم.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٢.

(٢) تفسير الرازي: جـ٧، ص١٧٢.

(٣) تفسير الرازي: جـ٧، ص١٧٢.

سادسًا: بيان فضل العلماء الراسخين في العلم وعلو مقامهم ومكانتهم واختلاف مراتبهم.

سابعًا: تعظيم شأن القرآن وبيان علو معانيه وسموها، واحتياج الناس لمعرفتها إلى التزود بالعلوم والمعارف حتى يرتقوا إلى مداركها، ويحظوا بمعانيها.

ثامنًا: زيادة التعلق بمعاني القرآن، فإن الإنسان إذا حصل الشيء بمشقة كان تمسكه به، ومحافظته عليه، واهتمامه به أكبر.

تاسعًا: بيان رحمة الله وفضله بالأمة؛ إذ لو كان القرآن كله من هذا النوع لكان في تحصيله مشقة عظيمة على الأمة، فاقتضت رحمة الله أن يجعل من القرآن ما هو محكم يدرك الناس معناه وهو أكثر القرآن(١)، وما يحتاجون إليه في أمور دينهم ضرورة؛ ومنه أخر متشابهات لا يدركها إلا الراسخون في العلم، وتذكر الناس بنعمة الآيات المحكمات. وقريب من هذا المعنى حكمة نسخ الحكم وبقاء التلاوة؛ إذ إن فيه تذكيرًا بالنعمة في رفع المشقة.

من حِكَمِ ذكر المتشابه الذي لا يمكن علمه:

أولًا: رحمة الله بالإنسان الذي لا يطيق معرفة كل شيء، ولو كشف الله الحجب للبشر لعمَّتْ الأضرار، وانتفت المصالح، فلو علم الناس حقيقة جهنم وما فيها من ألوان العذاب ورأوه رأي العين، لقضى عليهم الخوف، وانقطعت قواهم عن العمل رهبة، ولو علم الناس بموعد قيام الساعة لقعدوا عن الاستعداد لها، ولو علموا بموعد

---

(١) قال الشاطبي رحمه الله: «قوله في المحكمات ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يدل على أنها المعظم والجمهور، وأمُّ الشيء معظمه وعامته، كما قالوا: أم الطريق بمعنى معظمه» الموافقات، جـ٣، ص٨٦.

آجالهم لعم الفساد، وانقطع باب العمل الصالح عند كثير من الناس حتى موعد وفاتهم، ولو علموا بما سيرزقون لاتكلوا وانقطعوا عن العمل.

ثانيًا: إقامة الحجة على عجز الإنسان وجهله، وقصور قواه ومداركه، فمهما بلغ من العلم والمعرفة، ومهما تقدم في الاكتشافات وجال في الفضاء، وهبط على القمر إلا أنه يبقى حائرًا جاهلًا أمام أشياء قريبة منه كل القرب كالروح مثلًا ما هي، وما وقت خروجها، وغير ذلك كثير، وليس له إلا أن يقول ما قالته الملائكة: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾[1].

ثالثًا: ابتلاء العباد واختبارهم بالوقوف عند ما استأثر الله بعلمه، والإيمان بالغيب: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾[2].

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧.

العام والخاص

نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين. وفي اللغة العربية صيغ عامة تشمل جماعة المخاطبين، وفيها ألفاظ خاصة، وأحيانًا يكون اللفظ عامًّا ويراد به الخصوص، والعكس كذلك. وفي القرآن الكريم ألفاظ نحت هذا النحو، ففيه صيغ تفيد العموم ويراد بها العموم، وألفاظ تفيد الخصوص ويراد بها الخصوص، وألفاظ تفيد العموم إلا أنه يراد بها الخصوص، وألفاظ تفيد الخصوص إلا أنه يراد بها العموم، والقرائن توضح ذلك وتزيل اللبس، ويبقى بعد ذلك ألفاظ هي موضع خلاف بين العلماء تؤثر في استنباط بعض الأحكام.

وهذا يظهر مكانة علم (العام والخاص) وأثره في استنباط الأحكام؛ ولذا نجد بسط مباحثه في كتب أصول الفقه خاصة. ونظرًا لتعلق الاستنباط بآيات القرآن فقد درسه أيضًا أرباب العلوم القرآنية، وأفردوه بمباحث خاصة في بطون مؤلفاتهم، وسأعرض لبعض قضاياه المتعلقة بالقرآن، مُعْرِضًا عن المباحث الأصولية الخاصة.

العام

العام لغة:

العَمَمُ: عِظَمُ الخَلْق في الناس وغيرهم، والعَمَمُ: الجسم التام،... وأمر عَمَمٌ: تام عام. وعَمَّهم الأمر يعمهم عمومًا: شملهم، يقال: عمهم بالعطية. والعامة: خلاف الخاصة[1].

وفي الاصطلاح:

هو: اللفظ المستغرق لجميع ما يصلح له بحسب وضع واحد، من غير حصر. فقولنا: (الرجال) يستغرق جميع ما يصلح له.

ولا يدخل فيه النكرة مثل (رجل)؛ لأنه يصلح لكل واحد من الرجال، لكنه لا يستغرقهم.

ولا التثنية ولا الجمع؛ لأن لفظ (رجلان) و(رجال) يصلحان لكل اثنين وثلاثة، ولا يفيدان الاستغراق.

وقولنا: (بحسب وضع واحد) للاحتراز من اللفظ المشترك، أو الذي له حقيقة ومجاز، فإن عمومه لا يقتضي أن يتناول مفهوميه معًا.

فإذا قلت: (رأيتُ كُلَّ العيون) فإن في لفظ العيون اشتراك حيث تشمل:

١- عيون الماء الجارية.

٢- العيون المبصرة.. وغير ذلك.

---

(١) لسان العرب: ابن منظور مادة (عمم) جـ١٢، ص٤٢٦.

وأنت لا تريد كل هذه المعاني، وإنما تريد أحدها، فلا يقتضي العموم أن يشمل كل معاني اللفظ؛ بل بحسب وضع أو معنى واحد من معانيه المختلفة.

وقولنا: (من غير حصر) يخرج أسماء الأعداد، فهي تدل على كثرة معينة محدودة، فإن كانت الكثرة كثرة معينة بحيث لا يتناول ما بعدها فهو اسم العدد، وإن لم تكن الكثرة كثرة معينة فهو العام.

وقيل في تعريفه أيضًا:

العام هو: اللفظ الدال على شيئين فصاعدًا، من غير حصر.

وقد تعقب القرافي هذا التعريف بأجزائه، وبمجموع حده، ونقضه بأمور منها:

أولًا: جموع التكسير: وهي على قسمين:

١- جموع القلة: من الثلاثة إلى العشرة، وهي ما جاءت على أوزان:

أ- أَفْعُل: أَفْلُس، وأَكْلُب.

ب- أفعال: أحمال.

جـ- أَفْعِلة: أقفزة، وأجربة.

د- فِعْلَة: صِبْيَة، غِلْمَة.

وهذه ألفاظ تدل على أكثر من شيئين، وليست عامة.

٢- جموع الكثرة: وهي موضوعة لما فوق العشرة فيصدق عليها التعريف.

ثانيًا: ومنها ألفاظ نكرات مفردات وضعت لما فوق الاثنين، مع أنها ليست من العموم إجماعًا، مع صدق الحد عليها؛ نحو كثير، وعدد.

ثالثًا: ألفاظ من هذا النمط؛ مثل طائفة، فرقة، رهط، فإنها تتناول الثلاثة فصاعدًا من غير حصر، ولا تفيد العموم[١].

وهناك تعريفات أخرى كثيرة، وأشمل هذه التعريفات وأصحها هو الأول.

صيغ العموم:

وللعموم صيغ كثيرة تدل عليه، ذكر منها القرافي مئتين وخمسين صيغة[٢]، ومن هذه الصيغ:

١- كل: وهي أقوى صيغ العموم، وتدل عليه؛ سواء كانت للتأسيس، مثل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[٣]، ومثل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[٤]، أو للتأكيد مثل: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾[٥]، ومثل: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٦]، ومثلها جميع ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾[٧] وديارًا ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾[٨].

---

(١) نقلت هذين التعريفين والتعقيب عليهما بتصرف من المحصول: للفخر الرازي، جـ٢، ق٢، ص٥١٣-٥١٦؛ والعقد المنظوم في الخصوص والعموم: شهاب الدين القرافي جـ١، ص٢٨٣- ٢٩٥.

(٢) العقد المنظوم في الخصوص والعموم: القرافي جـ١، ص٤٥٣-٥٤٦.

(٣) سورة آل عمران، الآية:١٨٥.

(٤) سورة الرحمن، الآيتان: ٢٦-٢٧.

(٥) سورة ص، الآية: ٧٣.

(٦) سورة الزمر، الآية: ٦٢.

(٧) سورة فاطر، الآية:١٠.

(٨) سورة نوح، الآية:٢٦.

٢- الأسماء الموصولة: مثل: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾[(١)]، ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا﴾[(٢)]، و﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾[(٣)]، ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾[(٤)]، ﴿وَٱلَّـٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾[(٥)].

٣- أسماء الشرط: مثل: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾[(٦)]، ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾[(٧)]، ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[(٨)].

٤- أسماء الاستفهام: كقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾[(٩)]، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[(١٠)]. ومَنْ تفيد العموم إذا كانت شرطية أو استفهامية، أما إذا كانت موصولة مثل: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾[(١١)] فإنها قد تكون للعموم وقد تكون للخصوص، والقرائن هي التي تفيد العموم أو الخصوص.

---

(١) سورة الأحقاف، الآية:١٧.

(٢) سورة النساء، الآية:١٦.

(٣) سورة البقرة، الآية:٢٧٥.

(٤) سورة البقرة، الآية:١٦٤.

(٥) سورة النساء، الآية:١٥.

(٦) سورة النساء، الآية:٩٢.

(٧) سورة البقرة، الآية:١٩٧.

(٨) سورة الإسراء، الآية:١١٠.

(٩) سورة البقرة، الآية:٢٤٥.

(١٠) سورة البقرة، الآية:٢٥٥.

(١١) سورة الأنعام، الآية:٢٥.

٥- المُعرَّف بأل التي ليست للعهد وإنما للاستغراق؛ سواء كان جمعًا، مثل: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾[١]، أو مفردًا مثل: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾[٢]، ومثل: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾[٣]، أو اسم جنس؛ وهو الذي لا واحد له من لفظه مثل الناس، الحيوان، الماء، التراب، فالناس في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾[٤] تفيد العموم، أو مثنى كقوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾[٥]، أي: كل أختين لا يجوز الجمع بينهما.

وعلامة (أل) المستغرقة للجنس أن يصح حلول (كل) محلها، وأن يصح الاستثناء من عمومها.

٦- كل ما أضيف إلى معرفة؛ سواء كان مفردًا، أو مثنى، أو جمعًا، أو اسم جنس[٦] مثل ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾[٧]، ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً ﴾[٨]، ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝٤٢﴾[٩]، وفي الاستثناء هنا إشارة إلى عموم اللفظ.

---

(١) سورة البقرة، الآية:٢٢٨.

(٢) سورة البقرة، الآية:٢٧٥.

(٣) سورة المائدة، الآية:٣٨.

(٤) سورة الناس، الآية:١.

(٥) سورة النساء، الآية:٢٣.

(٦) انظر إتحاف ذوي البصائر بشرح روضة الناظر: د. عبد الكريم النملة جـ٦، ص٣٦.

(٧) سورة النور، الآية:٦٣.

(٨) سورة التوبة، الآية:١٠٣.

(٩) سورة الحجر، الآية:٤٢.

٧- النكرة في سياق النفي أو النهي أو الشرط. مثالها في سياق النفي: قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾[١]، ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾[٢][٣]، ومثالها في النهي: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾[٤]، فإن (أحد) نكرة بعد نهي فتفيد العموم، ومثل ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾[٥]، ومثالها في الشرط: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾[٦].

أما إذا كانت النكرة في سياق الإثبات فلا تفيد العموم، فإذا قلت: ما رأيت رجلًا فهو نفي يفيد العموم، وإذا قلت: رأيت رجلًا فهو إثبات لا يفيد العموم.

أقسام العام:

وأقسام العام ثلاثة:

١- العام الذي لا يدخله التخصيص:

وهو العام الذي لا يمكن تخصيصه. وهذا النوع قليل جدًّا؛ إذ الأصل في العموم أن يقبل التخصيص.

ومع أن البلقيني قال عن هذا النوع: «ومثاله عزيز، إذ ما من عام إلا ويتخيل فيه

---

(١) سورة البقرة، الآية:١٩٧.

(٢) سورة الصافات، الآية:٤٧.

(٣) والغول ما يعتري شارب الخمر من الصداع والألم.

(٤) سورة التوبة، الآية:٨٤.

(٥) سورة الإسراء، الآية:٢٣.

(٦) سورة التوبة، الآية:٦.

التخصيص»[١] إلا أن الزركشي قال: «وهو كثير في القرآن»[٢].

وقد جمع السيوطي بينهما بأن مراد البلقيني أنه عزيز في الأحكام الفرعية، ومراد الزركشي أنه كثير في غير الأحكام الفرعية[٣].

ومثال هذا النوع قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٢٨٢﴾﴾[٤]﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾[٥]، ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾[٦]، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾[٧]، فالعموم هنا لا يمكن تخصيصه.

٢- العام الذي يدخله التخصيص:

وهو الذي يمكن تخصيصه. ولعل هذا النوع هو أشهر أنواع العموم، والذي ينصرف إليه الذهن عند إطلاق العموم، وهو ميدان الخلاف بين العلماء في تخصيصه أو بقائه على عمومه.

وأمثلته في القرآن كثيرة؛ منها: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾[٨]، فلفظ (الناس) عام خصص بقوله: ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾.

---

(١) الإتقان: السيوطي جـ٢، ص٢١.
(٢) البرهان: الزركشي جـ٢، ص٢١٧.
(٣) الإتقان: السيوطي جـ٢، ص٢١.
(٤) سورة النساء، الآية:١٧٦.
(٥) سورة الكهف، الآية:٤٩.
(٦) سورة النساء، الآية:٢٣.
(٧) سورة البقرة، الآية:٢٨٤.
(٨) سورة آل عمران، الآية:٩٧.

ومنها قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾[١]، فلفظ (أحدكم) يفيد العموم وخصص بقوله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾[٢]، فلفظ (المطلقات) عام يشمل الحامل وغير الحامل، وخصص بقوله تعالى: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[٣]، وغير ذلك من الأمثلة.

٣- العام المراد به الخصوص:

وهو ما دل لفظه على العموم ودلت القرينة على الخصوص، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ﴾[٤]، والمراد بالناس عبدالله بن سلام، فالآية دعوة لليهود إلى أن يؤمنوا كما آمن عبدالله بن سلام[٥] رضي الله عنه وقد كان يهوديًّا، ثم إن الناس لم يؤمنوا كلهم، فدلت القرينة على وجوب حمله على فئة منهم.

ومن أمثلته أيضًا قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾[٦].

---

(١) سورة البقرة، الآية:١٨٠.

(٢) سورة البقرة، الآية:٢٢٨.

(٣) سورة الطلاق، الآية:٤.

(٤) سورة البقرة، الآية:١٣.

(٥) البرهان: الزركشي جـ٢، ص٢٢١.

(٦) سورة آل عمران، الآية:١٧٣.

قال الزركشي: «وعمومه يقتضي دخول جميع الناس في اللفظين جميعًا، والمراد بعضُهم؛ لأن القائلين غير المقول لهم، والمراد بالأول: نعيم بن مسعود[١]، والثاني: أبو سفيان وأصحابه».

قال الفارسي: «ومما يقوي أن المراد بالناس في قوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ﴾ واحد، قوله: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾[٢]، فوقعت الإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إلى واحد بعينه، ولو كان المعني به جمعًا لكان: إنما أولئكم الشياطين[٣]، فهذه دلالة ظاهرة في اللفظ»[٤]، وإنما وصف نعيم بأنه الناس؛ لقيامه مقام كثير في تثبيطه المؤمنين عن ملاقاة أبي سفيان[٥].

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ ﴾[٦] والمراد بالناس هنا رسول الله ﷺ.

ومن أمثلته: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾[٧] والمراد إبراهيم عليه السلام. أو العرب من غير قريش.

---

(١) في البرهان: نعيم بن سعيد الثقفي، والصواب ابن مسعود.

(٢) سورة آل عمران، الآية:١٧٥.

(٣) في البرهان إنما الشياطين الشياطين، «وما أثبت من الإتقان».

(٤) البرهان: الزركشي جـ٢، ص٢٢٠.

(٥) أصول التفسير وقواعده: خالد العك، ص٣٨٧.

(٦) سورة النساء، الآية:٥٤.

(٧) سورة البقرة، الآية:١٩٩.

ومنها: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ ﴾[١]، والمراد بالملائكة جبريل عليه السلام.

ونستطيع بعد هذا أن نذكر تعريفًا آخر لأقسام العام الثلاثة فنقول:

١- عام مقيد بالعموم بحيث لا ينفك عن العموم مثل: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾[٢].

٢- عام مطلق يمكن أن يبقى على عمومه ويمكن تخصيصه، مثل: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ ﴾[٣]، فلو لم يقل: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ ﴾ لبقي عامًّا، فهو قابل للعموم والخصوص.

٣- عام مقيد بالخصوص، لا يمكن أن يراد به العموم، ولا ينفك عن الخصوص مثل: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾[٤].

الفرق بين العام المراد به الخصوص والعام الذي يدخله التخصيص[٥]:

وبين العام المراد به الخصوص والعام الذي يمكن أن يدخله التخصيص فروق منها:

١- أن العام المراد به الخصوص لا يراد شموله لجميع الأفراد، ويدرك ذلك من

---

(١) سورة آل عمران، الآية:٣٩.

(٢) سورة البقرة، الآية:٢٨٤.

(٣) سورة آل عمران، الآية:٩٧.

(٤) سورة البقرة، الآية:١٩٩.

(٥) انظر الإتقان: السيوطي جـ٢، ص٢١-٢٢.

أول وهلة[١]، وأما العام الذي يدخله التخصيص فأريد به العموم في أول الأمر، وشموله لجميع أفراده، فلفظ (الناس) في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ الآية[٢] يدرك السامع لأول وهلة خصوصها، وأنه لا يمكن أن يراد بها العموم لامتناع ذلك، أما لفظة (الناس) في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾يدرك السامع أن المراد بها جميع الناس، ولا يحوله عن هذا العموم إلا قوله: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

٢- الأول مجاز قطعًا؛ لنقل اللفظ عن موضعه الأصلي وهو العموم، واستعماله في بعض أفراده، بخلاف الثاني فاستعمل اللفظ بمعناه الحقيقي، وعليه أكثر الشافعية، وكثير من الحنفية، وجميع الحنابلة، ونقله الجويني عن جميع الفقهاء.

٣- أن قرينة الأول عقلية لا تنفك عنه، وقرينة الثاني لفظية وقد تنفك عنه.

٤- أن الأول يصح أن يراد به واحدًا اتفاقًا، مثل: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾[٣] يعني إبراهيم عليه السلام، أما الثاني ففي تخصيص عمومه بحيث لا يراد به إلا واحد بعد العموم خلاف[٤].

(١) قال في لسان العرب جـ١١، ص٧٣٧: «ولقيته أول وَهْلةٍ ووهَلة وواهِلة؛ أي: أول شيء، وقيل: هو أول ما تراه، وفي الحديث: فلقيته أول وهلة. أي أول شيء».

(٢) سورة آل عمران، الآية:١٧٣.

(٣) سورة البقرة، الآية:١٩٩.

(٤) انظر تفصيل ذلك في إتحاف ذوي البصائر بشرح روضة الناظر: د. عبد الكريم النملة، جـ٦، ص١٧٩-١٨٢.

الخاص

الخاص لغة:

يقال: خَصَّه بالشيء يَخُصُّه خَصًّا.. أفرده به دون غيره. ويقال: اختص فلان بالأمر وتخصص له إذا انفرد[١].

وفي الاصطلاح:

الخاص هو اللفظ الذي لا يستغرق الصالح له من غير حصر.

أما التخصيص فهو: قصر العام على بعض أفراده[٢].

وقيل: إخراج بعض ما تناوله الخطاب عنه[٣].

والمراد من قولنا: (قصر العام) قصر حكمه، وإن بقي لفظه على عمومه، فيكون العموم باللفظ لا بالحكم، وبذلك يخرج العام الذي يراد به الخصوص، فإن ذلك قصر إرادة لفظ العام لا قصر حكمه[٤].

ومثال التخصيص قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾[٥]، فلفظ المطلقات عام يشمل كل مطلقة، لكن حكمه مخصوص بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[٦].

---

(١) لسان العرب: ابن منظور جـ٧، ص٢٤.

(٢) إتحاف ذوي البصائر جـ٦، ص٢١١.

(٣) المحصول: الرازي جـ١، ق٣، ص٧.

(٤) إتحاف ذوي البصائر جـ٦، ص٢١١.

(٥) سورة البقرة، الآية:٢٢٨.

(٦) سورة الطلاق، الآية:٤.

حكم تخصيص العموم:

قال الشوكاني رحمه الله: «اتفق أهل العلم سلفًا وخلفًا على أن التخصيص للعمومات جائز، ولم يخالف في ذلك أحد ممن يعتد به، وهو معلوم من هذه الشريعة المطهرة، لا يخفى على من له أدنى تمسك بها»(١).

وهو جائز مطلقًا، سواء كان أمرًا مثل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ﴾(٢)، أو نهيًا مثل: ﴿وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ﴾(٣)، أو خبرًا مثل: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٣٠ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣١﴾(٤).

الفروق بين التخصيص والنسخ:

بين التخصيص والنسخ فروق منها(٥):

١- أن التخصيص يدل على أن ما خرج عن العموم لم يكن مرادًا، والنسخ يدل على أن المنسوخ كان مرادًا.

٢- أن النسخ يشترط تراخيه عن المنسوخ، والتخصيص يجوز اقترانه كالتخصيص بالصفة والشرط والاستثناء.

٣- أن النسخ رفع الحكم بعد ثبوته، والتخصيص بيان للمحل الذي لم يثبت الحكم

---

(١) إرشاد الفحول: الشوكاني، ص١٤٣.

(٢) سورة النور، الآية:٣٣.

(٣) سورة البقرة، الآية:٢٢٢.

(٤) سورة الحجر، الآية:٣٠-٣١.

(٥) انظر المحصول: الرازي جـ١، ق٣، ص٩-١١، والعقد المنظوم في الخصوص والعموم: القرافي جـ٢ ص١٧٧-١٧٨.

فيه؛ بمعنى أن النسخ يثبت فيه الحكم ثم يرفع، أما التخصيص فإن الحكم في المخصوص لم يثبت فيه أصلًا، فلا يحتاج إلى رفع.

٤- أن التخصيص قد يقع بخبر الواحد وبالقياس، والنسخ لا يقع بهما.

٥- أن التخصيص يكون في الأخبار، والنسخ لا يقع فيها.

٦- أن النسخ لا تبقى معه دلالة اللفظ على ما تحته، والتخصيص لا يمتنع معه ذلك.

قال الشوكاني رحمه الله: «التخصيص ترك بعض الأعيان والنسخ ترك الأعيان»[١].

٧- أنه لا يجوز تخصيص شريعة بشريعة، أما النسخ فيجوز؛ كما نُسخت النصرانية بالإسلام.

٨- أن التخصيص لا يرد إلا على العام، أما النسخ فيرد على العام والخاص.

وبهذا يظهر أن النسخ ليس بتخصيص.

أقسام المخصص:

والمخصص ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: المخصص المتصل.

وهو خمسة أنوع هي:

١- الاستثناء:

كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾[٢]، وكقوله سبحانه: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ

(١) إرشاد الفحول: الشوكاني، ص١٤٢، ونسبه إلى الإسفرائيني.

(٢) سورة القصص، الآية، ٨٨.

بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾[١].

٢- الصفـة:

والمراد بها الصفة المعنوية على ما حققه علماء البيان، لا مجرد النعت المذكور في علم النحو.

قال الجويني: «الوصف عند أهل اللغة معناه التخصيص». وقال المازري: «ولا خلاف في اتصال التوابع، وهي النعت والتوكيد والعطف والبدل»[٢].

وعلى هذا فالمراد بالصفة هنا كل ما أشعر بمعنى يتصف به أفراد العام؛ سواء كان الوصف نعتًا، أو عطف بيان، أو حالًا؛ وسواء كان مفردًا، أو جملة، أو شبه جملة[٣].

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ﴾[٤]، فلفظ «فتياتكم» عام يشمل المؤمنات والكافرات، لكنه خصص بوصف «المؤمنات».

ومن الأمثلة قوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾[٥]، فلفظ «نسائكم» يشمل جميع الزوجات المدخول بهن، وغير المدخول بهن، ولكن خصص العموم بوصف ﴿ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾.

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

(٢) إرشاد الفحول: الشوكاني ص١٥٣ (بتصرف).

(٣) انظر إتحاف ذوي البصائر: النملة، جـ٦، ص٣٣٩، والعقد المنظوم: القرافي جـ٢، ص٣٧٦.

(٤) سورة النساء، الآية: ٢٥.

(٥) سورة النساء، الآية: ٢٣.

٣- الشـرط:

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾[١]، فلفظ «أزواجكم» عام يشمل ذات الولد وغيرها، وخصص بالشرط ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾، فالزوجة التي يرث الزوج نصف مالها هي غير ذات الولد.

ومن الأمثلة قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾[٢]، فقوله: «أحدكم» عام يوجب الوصية على من ترك مالًا وغيره، وخصص بالشرط ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾، فأصبحت الوصية واجبة على من ترك مالًا دون الآخر.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾[٣]، فالاسم الموصول «الذين» يفيد العموم، وخصص بشرط ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾.

٤- الغايـة:

والمراد بها: نهاية الشيء المقتضية لثبوت الحكم قبلها، وانتفائه بعدها، ولها لفظان: (حتى) و(إلى).

ومثال الأول: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾[٤].

---

(١) سورة النساء ـ الآية: ١٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٠.

(٣) سورة النور، الآية: ٣٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

ومثال الثاني: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾[(١)].

٥- بدل البعض من الكل:

وذلك كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾[(٢)]، فقوله: ﴿عَمُوا وَصَمُّوا﴾ يفيد العموم، وخصص ببدل البعض ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾.

وكقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[(٣)]، فلفظ ﴿النَّاسِ﴾ يفيد العموم، وخص بالبدل ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ بدل بعض من كل، هذه أنواع المخصص المتصل.

القسم الثاني: القسم المنفصل:

وهو أن يكون المخصص في موضع آخر غير متصل باللفظ العام اتصالًا لفظيًّا.

وهو أنواع منها:

١- التخصيص بآية:

فقوله تعالى: ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾[(٤)] عام يشمل كل مطلقة، إلا أنه خَصَّ الحوامل في قوله تعالى: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[(٥)]، كما خص الآيسات من الحيض ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ

(١) سورة المائدة، الآية: ٦.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٧١.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.
(٥) سورة الطلاق، الآية: ٤.

أَشْهُرٍ﴾[١]، وخص غير المدخول بها قال تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾[٣] يشمل كل مشركة كتابية كانت أو غير كتابية، وجاء التخصيص في قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾[٤]، فخص الكتابية من المشركات بجواز الزواج منها.

٢- التخصيص بالسنة قولًا كان أو فعلًا:

فقوله تعالى بعد أن عدد المحرمات من النساء: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾[٥] مخصوص بحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها**»[٦]، حيث خص أربع نساء وهن عمة الزوجة وخالتها، وابنة أخيها، وابنة أختها.

وقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾[٧] عام يدل على أن جميع الأولاد يرثون من آبائهم، لكنه مخصوص بقول الرسول ﷺ: «**لا يرث المسلم**

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ٤.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٢١.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٥.

(٥) سورة النساء، الآية: ٢٤.

(٦) رواه مسلم كتاب النكاح، باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها في النكاح جـ٢، ص١٠٢٩.

(٧) سورة النساء، الآية: ١١.

الكافر، ولا الكافر المسلم»(١)، وبقوله ﷺ: «**لا يرث القاتل شيئًا**»(٢)، وبما رواه أبو بكر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا نورث، ما تركناه صدقة**»(٣)، فخرج أولاد الأنبياء فإنهم لا يرثون.

وقوله تعالى في المطلقة البائن: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾(٤)، وهذا عام في العقد والوطء، وخصه قول الرسول ﷺ لامرأة رفاعة: «**لا، حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك**»(٥).

وقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾(٦) عام يشمل المحصن وغير المحصن، وتواتر عنه ﷺ أنه رجم المحصن، وهو فعل.

٣- التخصيص بالإجماع:

ومذهب جمهور العلماء أن الإجماع من مخصصات العموم المنفصلة، وهناك ما يرى أن المخصص هو دليل الإجماع وليس الإجماع نفسه، ومن الأمثلة قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾(٧)، وهو عام يشمل الحر والعبد، والذكر والأنثى، وأجمعوا على أنه لا جمعة على عبد ولا امرأة(٨).

---

(١) رواه البخاري، كتاب الفرائض جـ٨، ص١١، ومسلم كتاب الفرائض جـ٣، ص١٢٣٣.

(٢) رواه أبو داود في سننه كتاب الديات، باب ديات الأعضاء، ص٦٩٢.

(٣) رواه البخاري كتاب الفرائض، جـ٨، ص٣، وورواه مسلم، جـ٣، ص١٣٨١.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٣٠.

(٥) رواه البخاري: كتاب الطلاق، باب ٣٧، جـ٦، ص١٨٢.

(٦) سورة النور، الآية: ٢٤.

(٧) سورة الجمعة، الآية: ٩.

(٨) إرشاد الفحول: الشوكاني ص١٦٠.

وكقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾(١)، فهو عام يشمل كل الأولاد الأحرار والأرقاء، وخص الرقيق بالإجماع؛ لأن الرق مانع من الإرث.

٤- التخصيص بالقياس:

وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ﴾(٢) فهو عام يشمل كل زان؛ حرًّا أو عبدًا، وكل زانية حرة أو أَمَة، لكن الأَمَةَ خصصت بآية أخرى هي قوله تعالى: ﴿فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ﴾(٣)، ولم يرد في العبد نص، فقاسه العلماء على الأَمَة بجامع الرق في كُلٍّ، فيكون حكمه نصف ما على الأحرار من الرجال.

وهناك أيضًا أنواع من المخصصات المنفصلة؛ كالتخصيص بالعقل، وبالحس، وبالعادة، وقرائن الأحوال، وبالمفهوم، وقول الصحابي، وبالسياق، وبقضايا الأعيان(٤).

حكم تخصيص السنة بالقرآن:

إذا كان القرآن الكريم يخصص بالسنة، فهل تخصص السنة بالقرآن؟

الجواب: اختلف العلماء في ذلك، وجمهور أهل العلم على جوازه(٥)، وعدَّ السيوطي أمثلة ذلك من العزيز، يعني: القليل أو النادر.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١.

(٢) سورة النور، الآية: ٢.

(٣) سورة النساء، الآية: ٢٥.

(٤) انظر إرشاد الفحول: الشوكاني، ص١٥٥-١٦٢، وإتحاف ذوي البصائر: د. النملة، جـ٦، ص٢١٦-٢٧٨.

(٥) إرشاد الفحول: الشوكاني، ص١٥٧.

ثم ذكر أمثلة ذلك[١]:

كقول الرسول ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله**»[٢]، فإنه مخصوص بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾[٣].

ونهي الرسول ﷺ عن الصلاة في الأوقات المكروهة عام يشمل النوافل وقضاء الفرائض، وهو مخصوص بقوله تعالى: ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾[٤] والمحافظة على الصلوات تقتضي قضاء الفوائت في كل وقت حتى أوقات النهي.

وقول الرسول ﷺ: «**ما أُبين من حيّ فهو ميت**»[٥] عام في تحريم كل ما يقطع من البهيمة وهي حية، وخصصه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾[٦].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «**لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي**»[٧] عام

---

(١) الإتقان: السيوطي جـ٢ ص٢٣.

(٢) رواه البخاري كتاب الزكاة، جـ٢ ص١١٠، ومسلم كتاب الإيمان، جـ١ ص٥١.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٢٩.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.

(٥) إتحاف السادة المتقين: الزبيدي المرتضى، جـ٢، ص٥٠٣، ورواه بلفظ: «ما قطع من البهيمة وهي حية فهو ميتة»، أحمد في مسنده ٥/ ٢١٨، والدارمي ٢/ ٩٣، وأبو داود ٣/ ٢٧٧ (٢٨٥٨)، والترمذي ٤/ ٧٤، والبيهقي ٩/ ٢٤٥، والحاكم جـ٤، ص٢٣٩، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. وقال الألباني في غاية المرام ص٤٣: الإسناد صحيح.

(٦) سورة النحل، الآية: ٨٠.

(٧) رواه الإمام أحمد في مسنده، جـ٢، ص١٩٢، ٣٨٩، جـ٥، ص٣٧٥، والنسائي في سننه، ص٣٦٠، حديث (٢٥٩٨).

يشمل الأغنياء والأقوياء، وهو مخصوص بقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾[١]؛ حيث يحل لهم الأخذ من الزكاة حتى ولو كانوا أغنياء وأقوياء.

وقوله ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»[٢] عام مخصوص بقوله تعالى: ﴿فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى﴾[٣].

عموم الخطاب وخصوصه:

وتحته مسائل:

الأولى: الخطاب الخاص بالرسول ﷺ هل يشمل الأمة أم لا؟

كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾[٤]، وقوله سبحانه: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾[٥].

الجواب: للعلماء في ذلك قولان:

الأول: أنه يشمل الأمة؛ لأن أمر القدوة أمر لأتباعه معه عُرفًا[٦] إلا ما دلَّ الدليل على أنه من خواصه؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٧]، فلو كان الخطاب الخاص بالرسول ﷺ لا

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٠.

(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، جـ١، ص١٣، ومسلم، كتاب الفتن، جـ٤، ص٢٢١٤.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ٩.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ١.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٤١.

(٦) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص٢٤.

(٧) سورة الأحزاب، الآية: ٥٠.

يشمل الأمة لما احتاج إلى التخصيص بقوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾.

الثاني: قول الأصوليين: أنه لا يشمل الأمة، وذلك لخصوص اللفظ، وإن شملهم فبدليل آخر، لا بمجرد النص المذكور[١].

المسألة الثانية: الخطاب العام بلفظ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ هل يشمل الرسول ﷺ أم لا؟

الجواب: للعلماء في ذلك أقوال:

الأول: أنه يشمل الرسول ﷺ لعموم الصيغة، وعليه الأكثرون، واختاره الغزالي والآمدي وابن الحاجب، والرازي، وابن قدامة، وأبو يعلى وأبو الخطاب الحنبلي.

الثاني: أنه لا يشمله؛ لما له من الخصائص دون الأمة، وهو قول الشيرازي.

الثالث: فيه تفصيل: إن كان الخطاب موجهًا لأمته، مثل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ الآية[٢] فلا يدخل. قال بعضهم: بلا خلاف[٣]، وإن كان الخطاب بلفظ يشمل الرسول ﷺ نحو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ و﴿يَٰعِبَادِ﴾ فإنه يشمله.

الرابع: إن سبق الخطاب بلفظ «قل» لم يشمله؛ كقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[٤] وإلا شمله، وهو قول الصيرفي والحليمي.

المسألة الثالثة: الخطاب العام بلفظ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ هل يشمل الكفار أم لا؟

---

(١) المحصول: الرازي، جـ١، ق٢، ص٦٢٠-٦٢١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٣) إرشاد الفحول: الشوكاني ص١٢٩.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

وذلك نحو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ١﴾[١].

الجواب: للعلماء في ذلك قولان:

الأول: أنه يشملهم لعموم الصيغة وهم من الناس. وهو قول الجمهور[٢].

الثاني: أنه لا يشملهم لعدم تكليفهم بالفروع.

المسألة الرابعة: الخطاب العام بلفظ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، مثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾[٣]، وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾[٤] هل يشمل الكافر أم لا؟

الجواب: للعلماء في ذلك قولان:

الأول: أنه لا يشمل الكفار؛ لأنهم غير مخاطبين بالفروع.

الثاني: أنه يشملهم لعموم التكليف بهذه الأمور واختصاص المؤمنين بالخطاب للتشريف. وقد ثبت تحريم الربا في حق أهل الذمة. قال الزركشي: وفيه نظر، والخلاف يرجع إلى أن الكفار هل هم مخاطبون بالفروع أم لا؟

---

(١) سورة الحج، الآية: ١.

(٢) إرشاد الفحول: الشوكاني ص١٢٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٧٨.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٩٠.

المسألة الخامسة: صيغة الجمع المذكر التي تفيد العموم هل تشمل النساء أم لا؟

الجواب: في ذلك تفصيل:

١- إن كان الجمع يتناول الذكور والإناث لغة ووصفًا مثل «الناس» فهذا يشمل الإناث بالاتفاق.

٢- إن كان الجمع بلفظ لا يتبين فيه التذكير والتأنيث؛ مثل أدوات الشرط؛ كقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧﴾[1] فإنه يشمل النساء باتفاق.

٣- إذا كان الجمع خاص بالذكور مثل لفظ «الرجال»، فلا يشمل النساء باتفاق.

٤- إذا كان الجمع خاص بالإناث مثل «النساء» و«بنات» فلا يشمل الرجال باتفاق.

٥- إذا كان الجمع بلفظ ظهرت فيه علامة التذكير مثل «المؤمنون» «الصابرون» «المسلمون» أو ضمير الجمع المذكر مثل: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾[2] ففيه خلاف:

فقيل: يشمل النساء، وهو مذهب أكثر الحنفية والحنابلة وبعض المالكية والشافعية، واستدلوا بأنه متى اجتمع المذكر والمؤنث غلب التذكير، ولذلك لو قال لمن بحضرته من الرجال والنساء: قوموا واقعدوا تناول جميعهم، ولو قال: قوموا وقمن واقعدوا واقعدن لعد تطويلًا ولَكْنَةً. وبيَّنه قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾[3]، وكان ذلك خطابًا لآدم وحواء وإبليس، فلو كانت النساء لا يدخلن لقيل لآدم وإبليس: اهبطا، ولحواء: اهبطي.

---

(١) سورة الزلزلة، الآية: ٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٨.

وأكثر خطاب الله تعالى في القرآن بلفظ التذكير، مثل: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[١] و﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ﴾[٢] وغير ذلك، والنساء يدخلن في جملته بالإجماع[٣].

وقيل: لا يشمل النساء، وهو مذهب أكثر الشافعية وأكثر الفقهاء والمتكلمين، واستدلوا بأنه ذكر المسلمات بلفظ متميز، فما يذكر بلفظ المسلمين لا يدخلن فيه إلا بدليل.

* * *

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣٦.

(٣) إتحاف ذوي البصائر: د. النملة، جـ٦، ص١٥٩-١٦١ (بتصرف يسير).

المطلق والمقيد

جاءت بعض الأحكام الشرعية في القرآن الكريم والسنة النبوية مطلقة غير مقيدة بشرط أو وصف أو غير ذلك، وجاء بعضها مقيدًا بوصف أو شرط أو غيرهما.

والأصل في المطلق أن يبقى على إطلاقه، إلا إذا صح الدليل على تقييده؛ لأن الإطلاق لحكمة كما أن التقييد لحكمة، وفي كل منها رعاية لمصلحة العباد في الدنيا والآخرة.

والدليل على تقييد المطلق أحيانًا يكون بالنص، وهذا ظاهر لا خلاف فيه، وأحيانًا لا يصرح بالقيد، وإنما تدل عليه الأحوال والقرائن من نصوص أخرى جاءت مقيدة. ومن العلماء من يحمل المطلق منها على المقيد ومنهم من لا يحمله، وعلى هذا قول الشافعي ﵀: «اللفظ بيِّنٌ في مقصوده ويحتمل في غير مقصوده»[1]، وهو ما يدرسه العلماء في باب المطلق والمقيد في كتب الأصول وعلوم القرآن والحديث.

تعريف المطلق:

المطلق في اللغة هو المنفك من كل قيد حسيًّا كان أو معنويًّا، تقول: أطلقت الدابة إذا فككت قيدها وسرحتها، وهذا إطلاق حسي. ويقال: طلق الرجل زوجته إذا فك قيدها من الارتباط به، وهذا إطلاق معنوي.

---

(١) البرهان: الزركشي جـ٢، ص١٨.

المطلق في الاصطلاح:

ذكر العلماء تعريفات كثيرة منها:

المطلق هو: ما دل على الماهية بلا قيد من حيث هي هي[(١)].

وقال ابن قدامة هو: «المتناول لواحد لا بعينه باعتبار حقيقة شاملة لجنسه»[(٢)].

وقال ابن فارس: «أما الإطلاق: فأن يذكر الشيء باسمه لا يقرن به صفة، ولا شرط، ولا شيء يشبه ذلك»[(٣)].

وعند الآمدي: المطلق هو «النكرة في سياق الإثبات»[(٤)].

قال القرافي: «كل شيء يقول الأصوليون: إنه مطلق، يقول النحاة: إنه نكرة.. وكل شيء يقول النحاة: إنه نكرة، يقول الأصوليون: إنه مطلق.. فكل نكرة في سياق الإثبات مطلق عند الأصوليون، فما أعلم موضعًا ولا لفظًا من ألفاظ النكرات يختلف فيها النحاة والأصوليون، بل أسماء الأجناس كلها في سياق الثبوت هي نكرات عند النحاة، ومطلقات عند الأصوليين»[(٥)].

ومن المعلوم أن النكرة عند النحاة: هي كل اسم شائع في جنسه، لا يختص به واحد دون آخر، مثل رجل، كتاب، فرس[(٦)].

---

(١) البحر المحيط: الزركشي، جـ٥، ص٥، وانظر إرشاد الفحول: للشوكاني، ص١٦٤.

(٢) روضة الناظر: ابن قدامة، ص١٣٦.

(٣) الصاحبي: ابن فارس، ص١٦٤.

(٤) الإحكام في أصول الأحكام: الآمدي، جـ٣، ص٣.

(٥) العقد المنظوم: القرافي، تحقيق محمد علوي بنصر، جـ١، ص٣٠٤.

(٦) المرجع السابق: القرافي، تحقيق د. أحمد الختم، جـ١، ص١٨٩ (الهامش).

ولهذا قال الآمدي بعد ذلك: وإن شئت قلت: «هو اللفظ الدال على مدلول شائع في جنسه»[١].

وعرف ابن الحاجب وغيره من الأصوليين المطلق بأنه: «ما دل على شائع في جنسه»[٢].

وبهذا يتبين أنه لا فرق بين المطلق والنكرة غير المستغرقة في سياق الإثبات بل هما بمعنى واحد في عرف النحاة والأصوليين[٣].

ومثال المطلق الرقبة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾[٤].

المقيد لغة:

هو ما يقابل المطلق في اللغة، فالقيد هو الربط حسيًّا كان أو معنويًّا، تقول: قيدت الدابة إذا ربطتها بحبل ونحوه، وهذا قيد حسي، وفي الحديث: «**الإيمان قيدُ الفتك، لا يفتكُ مؤمن**»[٥]. قال ابن منظور: «معناه أن الإيمان يمنع عن الفتك بالمؤمن»[٦].

---

(١) الإحكام: الآمدي، جـ٣، ص٣.

(٢) بيان المختصر (شرح مختصر ابن الحاجب): لأبي الثناء الأصفهاني، جـ٢، ص٣٤٩.

(٣) العقد المنظوم: القرافي، جـ١، ص١٨٩ (الهامش).

(٤) سورة المجادلة، الآية: ٣.

(٥) مسند الإمام أحمد جـ١، ص١٦٦، وسنن أبي داود، جـ٣، ص٨٧، مجمع الزوائد: جـ١، ص٩٦، والمستدرك، جـ٣، ص٣٥٢، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وصححه الألباني في الصحيحة، جـ١، ص٥٤١ حديث (٢٨٠٢).

(٦) لسان العرب: ابن منظور، جـ٣، ص٣٧٢.

ومنه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «قيِّدوا العلم بالكتاب»[١]. قلت: وهذا وذاك قيد معنوي.

والمقيد اصطلاحًا:

ذكر العلماء له تعريفات كثيرة، وهو ما يقابل المطلق على اختلاف التعريفات:

فقيل: هو ما دل على الماهية بقيد[٢].

وقيل: هو المتناول لمعين، أو لغير معين موصوف بأمر زائد على الحقيقة الشاملة لجنسه[٣].

ومثال المقيد الرقبة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾[٤]، فاشترط في الرقبة أن تكون مؤمنة، وهذا قيد لها، ولو لم يشترط لكانت الرقبة مطلقة.

الفرق بين العام والخاص والمطلق والمقيد:

يبحث الأصوليون المطلق والمقيد في كتاب العام والخاص.

قال القرافي: «وإنما وضع الأصوليون حمل المطلق على المقيد في كتاب الخصوص والعموم بسبب أن المطلق هو (قسيم) العام والتقييد (قسيم) الخاص. وهذه الأقسام تلتبس جدًّا على كثير من الفضلاء، وربما اعتقدوا المطلق عامًّا.. والتبس التقييد

(١) سنن الدارمي، جـ١، ص١٣٨.
(٢) إرشاد الفحول: الشوكاني، ص١٦٤.
(٣) روضة الناظر: ابن قدامة، ص١٣٦.
(٤) سورة النساء، الآية:٩٢.

بالتخصيص..»[١]. وقال في موضع آخر: «إن مدلول المطلق فائت ومتعذر، ولم أرَ أحدًا تعرض لذلك، بل يسوون في الأصول والفروع بين هذه المثل، ويجعلون البحث واحدًا، وليس كذلك»[٢]. وقال عن العموم: «اعلم أن مسمى العموم في غاية الغموض والخفاء، ولقد طالبتُ بتحقيقه جماعة من الفضلاء فعجزوا عن ذلك»[٣].

ومع هذا فقد عقد في كتابه: «العقد المنظوم في الخصوص والعموم» بابًا خاصًّا في الفرق بين العام والمطلق[٤] إضافة إلى ذكره الفروق بينهما في تعريفه للعام، ومن أظهر الفروق:

أن المطلق يقتصر بحكمه على فرد من أفراده دون الجميع كإعتاق الرقبة، فإنه إذا أعتق رقبة لا يلزمه إعتاق الباقي، أما العموم فإن حكمه يعم جميع أفراده بالتساوي، فإذا قتلنا مشركًا ثم وجدنا آخر وجب قتله أيضًا[٥].

بمعنى أن الحكم في العام يثبت لكل أفراده، أما المطلق فيثبت لأحد أفراده بلا تخصيص، فإذا قام في أحدها انقطع عن الباقي.

فإن قلت: هذا هو التخصيص.

قلت: لا، فإن التخصيص قبله عموم، ثم خرج بعض أفراده، وأما المطلق فالمراد به بعض أفراد العام من أول الأمر.

---

(١) العقد المنظوم: القرافي جـ٢، ص٤٧٠.
(٢) المرجع السابق: جـ٢، ص٤٨٨.
(٣) المرجع السابق: جـ١، ص٢٧٥.
(٤) انظر هذا الباب في جـ١، ص٢٩٣، ٣١٨.
(٥) المرجع السابق: جـ١، ص٢٨٢.

فإذا قال رجل: كل زوجة لي فهي طالق، فهذا اللفظ عام يوجب طلاق زوجاته جميعًا.

وإذا قال: كل زوجة لي فهي طالق إلا فلانة، فهذا تخصيص يوجب استثناءها من الطلاق بعد أن كان الحكم يشملها.

وإذا قال: إحدى زوجاتي طالق، فهذا لفظ مطلق يوجب طلاق إحدى زوجاته دون البقية، فإذا طلقت واحدة سلمت الأخريات.

وإذا قال: زوجتي الوسطى أو الكبيرة أو الصغيرة طالق، فهذا تقييد يوجب طلاقها بعينها من أول الأمر ومن غير أن يشمل غيرها. والله أعلم.

صور حمل المطلق على المقيد:

إذا ورد الخطاب مطلقًا لا مقيد له، وجب حمله على إطلاقه، وإذا ورد الخطاب مقيدًا لا مطلق له، وجب حمله على تقييده[(١)].

وإذا ورد الخطاب مطلقًا في موضع ومقيدًا في آخر فله أربع صور:

الصورة الأولى: أن يتحد السبب والحكم:

فقد ورد تحريم (الدم) مطلقًا في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾[(٢)]، وورد تحريمه مقيدًا بكونه مسفوحًا في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾[(٣)].

---

(١) البحر المحيط: الزركشي، جـ٥، ص٨، وإرشاد الفحول: الشوكاني، ص١٦٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٤٥.

والحكم في الآيتين واحد وهو (التحريم)، والسبب واحد، فاتحد الحكم والسبب، فيحمل المطلق على المقيد باتفاق؛ لأن العمل بالمقيد عمل بالآيتين، والعمل بالمطلق عمل بإحدى الآيتين دون الأخرى، والعمل بهما أولى من العمل بإحداهما، وبالعمل بالآيتين يخرج المكلف من العهدة بيقين(١).

وكقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾(٢) فإنه مطلق، وورد القيد في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾(٣)، فنصيبه هنا مقيد بأن يكون بعد الوصية والدين، فيحمل المطلق على المقيد في جميع المواريث، فلا يوزع شيء من التركة على الورثة إلا بعد الوصية والدين.

الصورة الثانية: أن يختلف السبب والحكم:

فإذا اختلف السبب والحكم، فلا يحمل المطلق على المقيد باتفاق، فقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾(٤) مطلق في الأيدي من غير تقييد لأي اليدين، أو إلى أي حد يكون القطع، أما غسل الأيدي في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾(٥) فمقيد إلى المرافق، ولا يصح هنا حمل المطلق على المقيد لاختلاف السبب (سرقة في المطلق) و(وضوء في المقيد)،

---

(١) إرشاد الفحول: الشوكاني جـ٢، ص٦ من تعليق المحقق.

(٢) سورة النساء، الآية: ١١.

(٣) سورة النساء، الآية: ١١.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٣٨.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٦.

ولاختلاف الحكم (قطع في المطلق) و(غسل في المقيد) فلا يحمل المطلق على المقيد باتفاق كما قال الشوكاني، وحكاه الباقلاني والجويني وإلكيا الهراس وابن برهان والآمدي وغيرهم[١].

الصورة الثالثة: أن يتحد السبب ويختلف الحكم:

فغسل الأيدي في الوضوء مقيد إلى المرافق في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾[٢]. ومسح الأيدي في التيمم مطلق في قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ﴾[٣].

ولو نظرنا في الآيتين لوجدنا سبب الوضوء والتيمم واحدًا، وهو (الحدث) ولكن الحكم مختلف، ففي الآية الأولى الحكم (الغسل) وفي الثانية (المسح). وفي هذه الصورة لا يحمل المطلق على المقيد.

قال الشوكاني ﵀: «لا خلاف في أنه لا يحمل أحدهما على الآخر بوجه من الوجوه سواء كانا مثبتين أو منفيين أو مختلفين، اتحد سببهما أو اختلف، وقد حكى الإجماع جماعة من المحققين آخرهم ابن الحاجب»[٤].

الصورة الرابعة: أن يختلف السبب ويتحد الحكم

وإذا كان العلماء في الصور الثلاث السابقة اتفقوا أو كادوا على حكم كل صورة، فإنهم في هذه الصورة قد اختلفوا.

---

(١) إرشاد الفحول: الشوكاني، جـ٢، ص٩.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٦.

(٤) إرشاد الفحول: الشوكاني جـ٢، ص١٢.

ولهذا الصورة حالتان:

الأولى: أن يكون القيد واحدًا.

فالرقبة (مطلقة) في كفارة الظهار في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾[(١)].

ومطلقة في كفارة اليمين في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ﴾[(٢)].

ومقيدة بالإيمان في كفارة القتل الخطأ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾[(٣)].

وإذا نظرنا إلى أسباب الكفارة في الآيات الثلاث وجدناها مختلفة، فالسبب في الآية الأولى (الظهار)، وفي الثانية (الحنث باليمين)، وفي الثالثة (قتل المؤمن خطأ).

وإذا نظرنا إلى الحكم وجدناه واحدًا وهو عتق الرقبة، لكنه في الظهار واليمين مطلق، وفي القتل مقيد، فهل يحمل المطلق في هذه الصورة على المقيد، فنوجب في كفارة الظهار واليمين أن تكون الرقبة مؤمنة أيضًا. هذا ما وقع الخلاف فيه بين العلماء.

فذهب الأحناف وأكثر المالكية وروي عن الإمام أحمد إلى أنه لا يحمل المطلق على المقيد، فيجوز في كفارة الظهار واليمين عتق الرقبة الكافرة. ولا يجوز في كفارة القتل إلا

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٨٩.

(٣) سورة النساء، الآية: ٩٢.

الرقبة المؤمنة.

وذهب أكثر الشافعية والحنابلة إلى حمل المطلق على المقيد، فيجب أن تكون الرقبة مؤمنة في جميع الكفارات.

الثانية: أن يكون القيد متعددًا.

فالصوم (مطلق) في كفارة اليمين في قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾[(١)]، وفي قضاء رمضان: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[(٢)].

ومقيد بالتتابع في كفارة القتل في قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾[(٣)]، وكذلك في كفارة الظهار في قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾[(٤)].

ومقيد بالتفريق في صوم المتمتع بالحج في قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾[(٥)].

واتفق العلماء على أنه لا يحمل المطلق على المقيد لاختلاف القيد وعدم وجود مرجح لأحد القيود. وحمله على أحدهما دون الآخر بلا دليل تَحَكُّمٌ فليس أحدهما بأولى من الآخر[(٦)].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٤.

(٣) سورة النساء، الآية: ٩٢.

(٤) سورة المجادلة، الآية: ٣.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

(٦) إتحاف ذوي البصائر: د. النملة، جـ٦، ص٣٦٣.

المنطوق والمفهوم

حين تريد نقل معنى من ذهن إلى ذهن، فإن الوسيلة لذلك هي الكلمات والألفاظ، فالألفاظ هي قوالب المعاني، أو الظروف الحاملة للمعاني، فكل لفظ ينقل جزءًا من المعنى حتى يتم نقل المعنى كاملًا.

ودلالة الألفاظ على المعاني، إما أن تستفاد من جهة النطق والتصريح أو من جهة التعريض والتلويح، ومن التصريح ما يخفى حتى يكاد أن يكون تلويحًا، ومن التلويح ما يظهر حتى يكاد أن يكون تصريحًا، وتحت هذه الحالات يدرس العلماء المنطوق والمفهوم.

المنطوق

وهو ما دل عليه اللفظ في محل النطق[١]، أو دلالة اللفظ على حكم نطق بـه مطابقـة أو تضمنًا أو التزامًا[٢].

وينقسم المنطوق إلى قسمين:

الأول: منطوق صريح:

ويراد به دلالة اللفظ على الحكم مطابقة أو تضمنًا. وقيل: هو ما وضع له اللفظ[٣]، وهو ثلاثة أنواع:

الأول: النص:

وهو ما أفاد بنفسه معنى صريحًا لا يحتمل غيره، وقيل: «ما لا يحتمل التأويل»[٤]، وقيل: ما أفاد معنى لا يحتمل غيره[٥]. ومثاله قوله تعالى: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ﴾[٦]، فإن قوله: (عشرة) دفع توهم دخول الثلاثة في السبعة، وقوله: (كاملة) تأكيد لهذا المعنى ودفع لأي احتمال آخر غير العشرة.

وقال قوم بندرة هذا النوع في الكتاب والسنة، ويجاب: بأن هذا إن عَزَّ حصوله

---

(١) بيان المختصر شرح مختصر ابن الحاجب: أبو الثناء الأصفهاني، جـ٢، ص٤٣٢، وإرشاد الفحول: الشوكاني جـ٢، ص٥٤.

(٢) بيان المختصر جـ٢، ص٤٣٣.

(٣) بيان المختصر: جـ٢، ص٤٣٣.

(٤) إرشاد الفحول: جـ٢، ص٥٤.

(٥) الإتقان: السيوطي جـ٢، ص٤١.

(٦) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

بوضع الصيغ ردًّا إلى اللغة فما أكثره مع القرائن الحالية والمقالية[١].

الثاني: الظاهر:

وهو ما أفاد بنفسه معنى صريحًا واحتمل غيره احتمالًا مرجوحًا. وقيل: «ما يسبق إلى الفهم منه عند الإطلاق معنى مع احتمال غيره احتمالًا مرجوحًا»[٢].

ومثال قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾[٣] فإنه يقال لانقطاع الدم: طهر، وللاغتسال منه: طهر، والثاني أظهر، وهو الراجح.

الثالث: المؤوَّل:

وهو ما حمل لفظه على المعنى المرجوح لدليل.

ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾[٤]، فالظاهر من كلمة جناح هو جناح الريش، ويستحيل حمله على الظاهر؛ لاستحالة أن يكون للإنسان أجنحة، فيحمل على الخضوع وحسن الخلق[٥]، وبهذا صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل وهو هنا الاستحالة.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٢٤.

(٥) الإتقان: السيوطي جـ٢، ص٤١.

الثاني: منطوق غير صريح:

ويراد به دلالة اللفظ على الحكم التزامًا، وهو نوعان:

الأول: دلالة الاقتضاء:

وهو ما توقفت دلالة اللفظ فيه على إضمار:

ومثاله قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[١]، فإن دلالة اللفظ على المعنى تلزم إضمار كلمة (فأفطر)، والمعنى فمن كان منكم مريضًا أو على سفر فأفطر فعدة من أيام أخر؛ لأن قضاء الصوم إنما يجب إذا أفطر، وليس لمجرد السفر أو المرض.

وكقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾[٢] فإن دلالة اللفظ على المعنى تلزم إضمار كلمة (وطء) أو (نكاح)؛ لأن التحريم ليس لأعيان الأمهات، فلزم إضمار فعل يتعلق به التحريم.

وكقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ﴾[٣]، أي: فحلق ففدية؛ لأن الفدية إنما تجب إذا حلق، وليس لمجرد المرض أو الأذى.

وهذا النوع من باب إيجاز القصر في علوم البلاغة. وسمي دلالة اقتضاء لاقتضاء الكلام لفظًا زائدًا على المنطوق[٤].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

(٤) مباحث في علوم القرآن: الشيخ مناع القطان، ص٢٥٢.

الثاني: دلالة الإشارة:

وهو: ما دل لفظه على ما لم يقصد به قصدًا أوليًّا بل من لازمه.

ومثاله: قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ﴾(١)، فإنه يلزم من جواز الأكل والشرب والجماع حتى الفجر بحيث لا يتسع الوقت للغسل من الجنابة أن يصبح الصائم على جنابة، فتكون دلالة اللفظ أشارت إلى جواز إصباح الصائم على جنابة، وهو معنى لم يقصد باللفظ قصدًا أوليًّا بل من لوازمه.

قال السيوطي: «وحُكِي هذا الاستنباط عن محمد بن كعب القرظي»(٢).

وكقوله تعالى في بيان مصارف الغنيمة: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾(٣)، ففي وصفهم بأنهم فقراء مع أن لهم أموالًا ودورًا في مكة إشارة إلى تملك الكفار أموالهم بالاستيلاء عليها. وهي دلالة غير مقصودة بالنص؛ لأنها إنما سيقت لبيان مصارف الفيء والغنيمة واستحقاقهم لسَهْم فيها، لا لبيان أن الكفار يملكون أموال المسلمين بالاستيلاء، لكن وقعت الإشارة إليه من حيث أن الله سماهم فقراء مع إضافة الأموال إليهم، فلو كانت أموالهم باقية على ملكهم لما صحت تسميتهم بالفقراء إلا مجازًا، وهو خلاف الأصل(٤).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

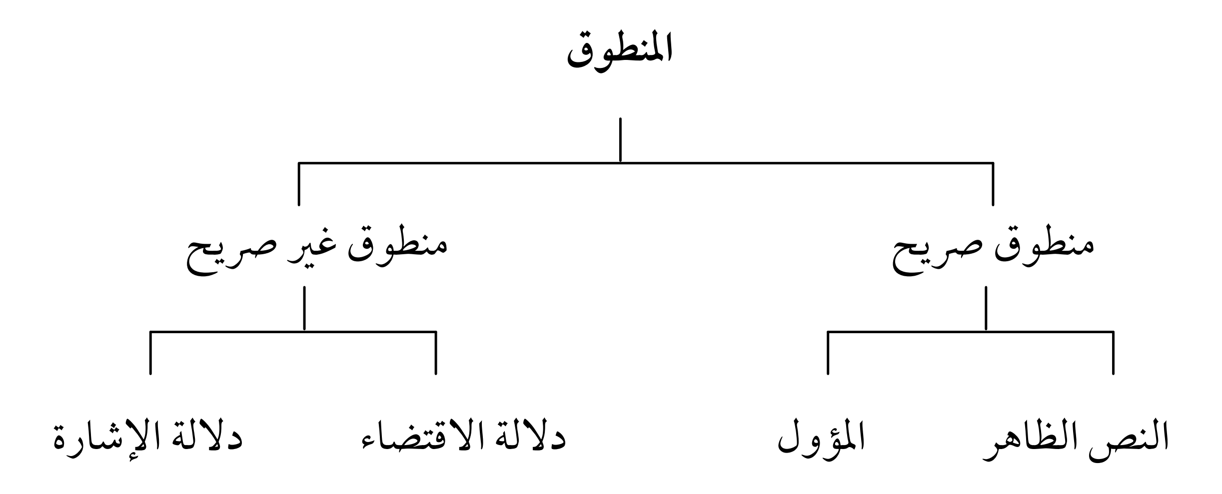
(٢) الإتقان، السيوطي: جـ٢، ص٤٢.

(٣) سورة الحشر، الآية: ٨.

(٤) البحر المحيط: الزركشي: جـ٥، ص١٢٣ - ١٢٤ (بتصرف).

وقد وقع خلاف بين العلماء في اعتبار دلالة الاقتضاء ودلالة الإشارة من المنطوق أو المفهوم، فجعلهما الآمدي وابن الحاجب والسيوطي وغيرهم من المنطوق، وجعلهما الغزالي في «المستصفى» والبيضاوي والزركشي من المفهوم[1].

والخلاصة أن المنطوق خمسة أقسام:



(١) انظر المرجع السابق: جـ٥، ص١٢٣، الإتقان للسيوطي جـ٢، ص٤١-٤٢.

المفهوم

وهو ما دل عليه اللفظ لا في محل النطق[(١)].

وينقسم إلى قسمين:

١- مفهوم موافقة.

٢- مفهوم مخالفة.

١- مفهوم الموافقة:

هو ما وافق حكمه حكم المنطوق. وهو نوعان:

النوع الأول: فحوى الخطاب:

وهو ما كان المفهوم فيه أولى بالحكم من المنطوق.

كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾[(٢)]، فإن تحريم التأفيف منطوق، والمفهوم تحريم الضرب وهو أولى بالحكم، فالضرب أشد حرمة من التأفيف مع أن تحريم التأفيف منطوق وتحريم الضرب مفهوم، وهو تنبيه بالأدنى على الأعلى.

وكقوله تعالى: ﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾[(٣)]، فالمنطوق أنه أمين على المبلغ الكثير، والمفهوم من باب أولى أنه لا يخون في المبلغ القليل، وهو تنبيه بالأعلى على الأدنى.

---

(١) بيان المختصر: الأصفهاني جـ٢، ص٤٣٢-٤٣٣، والإتقان: للسيوطي جـ٢، ص٤٢، وإرشاد الفحول: الشوكاني جـ٢، ص٥٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧٥.

النوع الثاني: لحن الخطاب:

وهو ما كان المفهوم فيه مساويًا لحكم المنطوق.

كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾[١]، فالمنطوق تحريم أكل مال اليتيم ظلمًا، والمفهوم تحريم إحراقه أو أي استهلاك له بغير حق؛ لأن ذلك مساوٍ للأكل في الإتلاف[٢].

٢- مفهوم المخالفة:

هو ما خالف حكمه حكم المنطوق. أو «دلالة اللفظ على ثبوت حكم للمسكوت عنه مخالف لما دل عليه المنطوق، لانتفاء قيد من القيود المعتبرة في الحكم»[٣].

والمخالفة بين المنطوق والمفهوم تتنوع بتنوع القيد في الحكم المنطوق، فقد تكون المخالفة بسبب الشرط في المنطوق دون المفهوم، أو الصفة أو غير ذلك، وعلى هذا فمفهوم المخالفة أنواع منها:

١- مفهوم الصفة:

والمراد بها الصفة المعنوية، وذلك بأن يكون في المنطوق صفة لا توجد في المفهوم فيختلف الحكم، سواء كانت هذه الصفة:

نعتًا: كقوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[٤]، فالمنطوق أن شهادة الفاسق لا

(١) سورة النساء، الآية: ١٠.

(٢) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص٤٢.

(٣) تفسير النصوص: د. محمد أديب صالح، جـ١، ص٦٠٩.

(٤) سورة الحجرات، الآية:٦.

تقبل، والمفهوم أن شهادة العدل تقبل، فيجب قبول خبر الواحد الثقة.

حالًا: كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾[1]، فالمنطوق أن الجزاء يجب على من كان متعمدًا، والمفهوم أن غير المتعمد لا يجب عليه شيء.

ظرفًا: زمنيًّا كقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ﴾[2]، ومفهومه أن الحج في غير هذه الأشهر لا يصح. أو ظرفًا مكانيًّا كقوله سبحانه: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾[3]، ومفهومه أن ذكر الله عند غير المشعر الحرام لا يدخل في هذه الآية.

عددًا: كقوله تعالى: ﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾[4]، فالمنطوق ثمانين جلدة، والمفهوم ألا يجلدوا أقل من الثمانين ولا أكثر منها.

٢- مفهوم شرط:

وذلك بأن يكون في المنطوق شرط، لا يوجد في المفهوم فيختلف الحكم، كقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾[5]، والمفهوم أن غير الحامل لا تجب لها النفقة لعدم وجود الشرط وهو الحمل.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٨.

(٤) سورة النور، الآية: ٤.

(٥) سورة الطلاق، الآية: ٦.

٣- مفهوم غاية:

وهو أن يكون الحكم في المنطوق مقيدًا بغاية، والمفهوم أن الحكم يزول بعدها كقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشۡرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾[(١)]، فالمنطوق إباحة الأكل والشرب حتى طلوع الفجر، والمفهوم تحريم الأكل والشرب بعد طلوع الفجر.

وكقوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ﴾[(٢)]، فالمنطوق تحريم جماع الحائض قبل الطهر، والمفهوم إباحته بعد الطهر.

٤- مفهوم حصر:

وهو أن يكون الحكم محصورًا في صورة المنطوق، والمفهوم ألا يتحقق الحكم في غير هذه الصورة، كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾[(٣)]، فالمنطوق أن العبادة لله والاستعانة بالله، والمفهوم ألا يعبد غير الله، ولا يستعان بغيره.

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ﴾[(٤)]، فالمنطوق أن الإله هو الله، والمفهوم أن الألوهية لا تكون لغيره سبحانه.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

(٣) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

(٤) سورة طه، الآية: ٩٨.

حكم الاحتجاج بالمفهوم:

أما مفهوم الموافقة فاحتج به الجمهور، ولم يخالف في الاحتجاج به إلا الظاهرية.

وأما مفهوم المخالفة فاحتج به الجمهور، وخالفهم في ذلك الحنفية والظاهرية.

واستدل الجمهور على صحة الاحتجاج بمفهوم المخالفة بأدلة منها:

أولًا: لما نزل قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[١] قال الرسول ﷺ: «**إني خيرت فاخترت وقد قيل لي:** ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، **فلو أني أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له لزدت**»[٢].

وفي رواية: «**قد خيرني ربي، فوالله لأزيدن على السبعين**»[٣]، ففهم الرسول ﷺ أن ما زاد على السبعين بخلاف السبعين[٤].

ثانيًا: في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[٥]، فمنطوق الآية أنه يباح لمن لم يستطع الزواج من الحرة أن يتزوج أمة، والمفهوم أن من يستطيع أن يتزوج حرة فلا يجوز له أن يتزوج أمة. وقد أجمع العلماء على ذلك واشترطوا لإباحة الزواج من أمة عدم القدرة

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٨٠.

(٢) تفسير الطبري جـ١٤، ص٤٠٨.

(٣) مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص٢٥٥.

(٤) المرجع السابق.

(٥) سورة النساء، الآية: ٢٥.

على الزواج من حرة احتجاجًا بمفهوم المخالفة في هذه الآية[١].

ثالثًا: استدلوا بما ذهب إليه ابن عباس رضي الله عنهما من عدم توريث الأخت مع البنت احتجاجًا بمفهوم المخالفة من قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾[٢][٣]، فالمفهوم أنه إذا كان له ولد (ابن أو بنت) فإن الأخت لا ترث.

رابعًا: استدلوا بما روي أن يعلى بن أمية قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما بالنا نقصر وقد أَمِنّا، وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ﴾[٤]. فقال عمر: لقد عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال لي: «**هي صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته**». فمنطوق الآية أن الصلاة تقصر في حالة الخوف والمفهوم أن لا تقصر في حالة الأمن، وهذا ما فهمه يعلى وفهمه عمر رضي الله عنه قبله.

خامسًا: ومن الأدلة العقلية[٥]:

أنه لو كانت الصلاة تقصر في حالة الأمن وحالة الخوف لما كان في ذكر الخوف في الآية فائدة؛ لأنها تقصر بدونه، فدل ذكره على أن عدمه يؤثر في الحكم تأثيرًا مخالفًا، وهكذا في بقية الأمثلة.

---

(١) المهذب: الشيرازي، جـ٢، ص٤٤-٤٥، وتبيين الحقائق: الزيلعي، جـ٢، ص١١١، وتفسير النصوص: د. محمد أديب صالح، جـ١، ص٦٧١.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٧٦.

(٣) تفسير الطبري: جـ٩، ص٤٤٣.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٠١.

(٥) انظر تفسير النصوص: د. محمد أديب صالح، جـ١، ص٦٧١-٦٧٢.

واستدل الحنفية ومن وافقهم على عدم الاحتجاج بمفهوم المخالفة بأدلة منها[١]:

١- أن فوائد القيود التي يقيد بها اللفظ كثيرة، ولا يلزم أن تكون محصورة بتقييد الحكم، فلا نستطيع أن نحكم أن الفائدة لذلك القيد هي تخصيص الحكم بالمنطوق، ونفيه عما لا قيد فيه.

٢- لم يعمل بمفهوم المخالفة في كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، إذ لو عمل به لأدت هذه النصوص إلى معانٍ فاسدة، أو أحكام تنافي المقرر شرعًا.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾[٢] لم يكن تخصيص الأربعة بالحرم دليلًا على إباحة الظلم في غيرها من الأشهر.

٣- لو كان مفهوم المخالفة معتبرًا لما احتيج إلى النص عليه صراحة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾[٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾[٤]. ففي الآيتين نص الله سبحانه على حكم المسكوت عنه، ولم يكف مفهوم المخالفة لمعرفة حكم المسكوت عنه.

والرد على هذا القول ظاهر ببيان الشروط التي ذكرها الجمهور للاحتجاج بمفهوم المخالفة.

(١) أصول الفقه الإسلامي: وهبة الزحيلي، جـ١، ص٣٦٨.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

(٤) سورة النساء، الآية: ٢٣.

شروط الاحتجاج بمفهوم المخالفة:

وقد اشترط العلماء للاحتجاج بمفهوم المخالفة شروطًا منها:

أولًا: ألا يكون للمسكوت عنه المراد إعطاؤه حكمًا مخالفًا لحكم المنطوق دليلٌ خاصٌ يدل على حكمه:

ومثاله قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ﴾[(١)]، فمفهوم الآية أنه في حالة الأمن لا تقصر الصلاة، والصواب أنه لا يصح الاحتجاج بهذا المفهوم؛ لأن قصر الصلاة في حالة الأمن ورد بنص آخر صريح ومنطوق، وهو أقوى من المفهوم في هذه الآية.

ثانيًا: ألا يكون القيد خرج مخرج الغالب:

وذلك كالقيد بالحجور في قوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم﴾[(٢)]، فالربيبة وهي بنت الزوجة تحرم على زوج الأم، ومفهوم المخالفة أنها إذا لم تكن في حجر الزوج لا تحرم عليه، والصحيح أنها تحرم سواء كانت في حجره أم لم تكن، وإنما ذكر القيد لأن الغالب أن بنت الزوجة تعيش عند أمها مع الزوج الجديد، ولا أثر لذلك في الحكم.

ثالثًا: أن لا يكون القيد المذكور لبيان فائدة أخرى غير تقييد الحكم:

كالترغيب، أو الامتنان، أو التنفير، أو التفخيم، أو لبيان الواقع، فإن كان القيد

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠١.

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٣.

لفائدة أخرى غير تقييد الحكم لم يكن له أثر في تقييد الحكم[١].

فقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَـٰفٗا مُّضَـٰعَفَةٗۖ﴾[٢] لا يدل على أن الربا لا يحرم إلا إذا كان أضعافًا مضاعفة، فهو يحرم ولو كان قليلًا، وإنما وصف بالأضعاف المضاعفة للتنفير مما كانوا عليه في الجاهلية من الظلم.

وكقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾[٣] فالقيد بالطري للامتنان، وليس لتحريم غير الطري.

* * *

(١) تفسير النصوص: د. محمد أديب، صالح جـ١، ص٦٧٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٠.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٤.

الأمثال في القرآن الكريم

جرى الناس على اختلاف مشاربهم على ضرب المثل في أحاديثهم لما يرمز إليه من معان كثيرة وإشارات دقيقة، حتى صارت الأمثال جارية على ألسنة الناس كالحِكَم، وذلك أن المثل نتيجة تجربة أو تجارب كثيرة وخلاصة فكر عبر العصور، وهو في عرفهم صادق في مدلوله(١).

والقرآن يخاطب الناس بما يعرفون، وبالأساليب التي يدركون، فجاءت الأمثال في القرآن الكريم لغايات وأهداف سامية، ولتكشف للناس العبر بسهولة ويسر، ولتربط الحاضر بالماضي لأخذ العظة والعبرة.

وأقبل العلماء والباحثون يدرسون الأمثال في القرآن الكريم ويتدبرونها، ويظهرون للناس معانيها ومراميها.

ومن أشهر المؤلفات في أمثال القرآن:

١- الأمثال القرآنية: علي بن محمد الماوردي.

٢- الأمثال في القرآن الكريم: لابن قيم الجوزية، وهو جزء من كتابه (إعلام الموقعين) طبع بتحقيق: د. ناصر بن سعد الرشيد.

٣- أمثال القرآن: للجنيد القواريري (ت٢٩٨هـ).

٤- أمثال القرآن: لمحمد بن الحسين السُّلَمي (ت٤١٢هـ).

٥- أمثال القرآن: نفطويه.

٦- الأمثال في القرآن الكريم: سميح عاطف الزين.

(١) انظر الأمثال في القرآن الكريم: سميح عاطف الزين، ص٧.

٧- موسوعة الأمثال القرآنية: د. محمد عبدالوهاب عبداللطيف في جزئين.

٨- الأمثال القرآنية: عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني.

٩- ضرب الأمثال في القرآن أهدافه التربوية وآثاره: عبدالمجيد البيانوني. وغير ذلك.

تعريف المثل:

لغة: المَثل والمِثل والمَثِيل كالشَّبَه والشِّبْه والشبيه لفظًا ومعنى.

قال الراغب الأصفهاني: «(مثل) أصل المثول الانتصاب، والمُمَثَّل المُصَوَّر على مثال غيره يقال: مثل الشيء، أي: انتصب وتصور، ومنه قوله ﷺ: «**من أحب أن يمثل له الرجال فليتبوأ مقعده من النار**»[(١)]، والتمثال: الشيء المصور، وتمثل كذا: تصور، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾[(٢)].

والمثل: عبارة عن قول في شيء يشبه قولًا في شيء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره، نحو قولهم: «الصيفَ ضيعتِ اللبن» فإن هذا القول يشبه «أهملتَ وقتَ الإمكان أمْرَكَ...»[(٣)].

والمثل عند الأدباء: القول السائر المشبه مضربه بمورده. وعلى هذا الوجه ما ضرب الله تعالى من الأمثال في القرآن، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد برقم (٩٧٧)، وأبو داود في سننه برقم (٥٢٢٩) واللفظ له، وصححه الألباني في الصحيحة.

(٢) سورة مريم، الآية:١٧.

(٣) المفردات: الراغب الأصفهاني، ص٤٦٢ مادة (مثل).

﴿إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[١]، وعلى هذا شاع إطلاق اسم المثل إذا أطلق»[٢].

قال النَّظّام: «يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة»[٣].

أما المثل في القرآن الكريم: فهو إبراز المعنى في صورة حسية موجزة تكسبه روعة وجمالًا، ولها وقعها في النفس سواء كانت تشبيهًا أو قولًا مرسلًا.

والمثل بهذا المعنى لا يشترط أن يكون له مورد، كما لا يشترط أن يكون مجازًا مركبًا[٤].

أنواع الأمثال في القرآن الكريم:

الأمثال في القرآن ثلاثة أنواع[٥]:

١ - الأمثال المصرحة:

وهي التي يصرح فيها بلفظ المثل أو بما يدل عليه من تشبيه أو تنظير أو سياق أو آية أو غير ذلك. وهذا النوع كثير في القرآن الكريم.

ومن أمثلة ما صرح فيه بلفظ (المثل) قوله تعالى في المنافقين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ

(١) سورة العنكبوت، الآية:٤٣.
(٢) زهر الأكم في الأمثال والحكم: الحسن اليوسي، ص٢٠.
(٣) مجمع الأمثال: الميداني، جـ١، ص٦.
(٤) انظر: مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص٢٨٣.
(٥) انظر الإتقان، السيوطي، جـ٢، ص١٦٧-١٦٩.

فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾[١]، وقوله سبحانه: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾[٢].

ومن أمثلة التشبيه بحرف الكاف قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾[٤].

ومن أمثلة ما جاء بلفظ الآية قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾[٥].

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومًا لأصحاب النبي ﷺ: فيمن ترون هذه الآية نزلت: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم. فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين. فقال: يا ابن أخي، قل ولا تحقر نفسك. قال ابن عباس: ضربت مثلًا لعمل. قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لعمل، قال عمر: لرجلٍ غنيٍّ يعمل بطاعة الله عز وجل ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله»[٦].

(١) سورة البقرة، الآيتان:١٧-١٨.
(٢) سورة الكهف، الآية:٤٥.
(٣) سورة النور، الآية:٣٩.
(٤) سورة النحل، الآية:٩٢.
(٥) سورة البقرة، الآية:٢٦٦.
(٦) رواه البخاري، كتاب التفسير، سورة البقرة، جـ١، (٤٥٣٨).

٢- الأمثال الكامنة:

وهي التي لم يصرح فيها بلفظ المثل، ولكنها دلت على معان رائعة موجزة، ولها وقعها إذا نقلت إلى ما يشبهها.

وآيات هذا النوع قريبة الصلة بمعاني أمثال معروفة سائرة، فهي أمثال بمعانيها لا بألفاظها، ومن هنا سميت ألفاظًا كامنة.

ومن أمثلة ذلك ما رواه الماوردي أن مضارب بن إبراهيم سأل الحسين بن الفضيل: إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن، فهل تجد في كتاب الله (خير الأمور أوساطها)؟ قال: نعم. في أربعة مواضع:

أ- قوله تعالى: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾[(١)].

ب- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾[(٢)].

جـ- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾[(٣)].

د- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾[(٤)].

قلت: فهل تجد في كتاب الله: (من جهل شيئًا عاداه)؟

قال: نعم في موضعين:

---

(١) سورة البقرة، الآية:٦٨.

(٢) سورة الفرقان، الآية:٦٧.

(٣) سورة الإسراء، الآية:٢٩.

(٤) سورة الإسراء، الآية:١١٠.

أ- قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾[(١)].

ب- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾[(٢)].

قلنا: فهل تجد في كتاب الله (احذر شر من أحسنت إليه)؟

قال: نعم قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[(٣)].

قال: فهل تجد في كتاب الله: (ليس الخبر كالعيان)؟

قال: في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[(٤)].

وذكر أمثلة أخرى[(٥)]، وهذه كلمات آيات قرآنية لم يصرح فيها بلفظ المثل، ولكنها موافقة لمعاني أمثال معروفة سائرة.

٣- الأمثال المرسلة:

وهي آيات من القرآن جرت مجرى المثل.

ومن أمثلة ذلك: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾[(٦)]، ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾[(٧)]، ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾[(٨)]، ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ﴾[(٩)].

---

(١) سورة يونس، الآية:٣٩.

(٢) سورة الأحقاف، الآية:١١.

(٣) سورة التوبة، الآية:٧٤.

(٤) سورة البقرة، الآية:٢٦٠.

(٥) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٦٨-١٦٩.

(٦) سورة النجم، الآية:٥٨.

(٧) سورة يوسف، الآية:٥١.

(٨) سورة هود، الآية:٨١.

(٩) سورة الأنعام، الآية:٦٧.

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[(١)]، ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾[(٢)]، ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[(٣)]، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[(٤)]، ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ٣٨﴾[(٥)]، ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾[(٦)]، ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾[(٧)].

وغير ذلك كثير.

حكم استعمال الأمثال المرسلة:

جرت عادة بعض الناس على ضرب المثل بالآيات القرآنية في بعض الأحوال، وقد اختلف العلماء في ذلك:

فمنهم من منعه كالرازي وغيره، فقد قال في تفسير قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ٦﴾[(٨)]: «جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية عند المتاركة، وذلك غير جائز؛ لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به، بل ليتدبر فيه، ثم يعمل بموجبه، والله ﷻ أعلم وأحكم»[(٩)].

وقال الزركشي: «يكره ضرب الأمثال بالقرآن». وفي كتاب «فضائل القرآن» لأبي

(١) سورة فاطر، الآية:٤٣.
(٢) سورة الحشر، الآية:١٤.
(٣) سورة الإسراء، الآية:٨٤.
(٤) سورة البقرة، الآية:٢١٦.
(٥) سورة المدثر، الآية:٣٨.
(٦) سورة المائدة، الآية:٩٩.
(٧) سورة التوبة، الآية:٩١.
(٨) سورة الكافرون، الآية:٦.
(٩) تفسير الرازي، جـ٣٢، ص١٤٨.

عُبيد، عن النخعي قال: كانوا يكرهون أن يتلوا الآية عند شيء يعرض من أمور الدنيا. قال أبو عبيد: وكذلك الرجل يريد لقاء صاحبه أو يَهمُّ بحاجته فيأتيه من غير طلب فيقول كالمازح: ﴿جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ۝٤٠﴾[(١)] فهذا من الاستخفاف بالقرآن. ومنه قول ابن شهاب الزهري: لا تناظر بكتاب الله ولا بسنة رسول الله ﷺ، قال أبو عبيد: يقول: لا تجعل لها نظيرًا من القول ولا الفعل»[(٢)].

وأجازه آخرون. قال محمد الخضر حسين: «ولا حرج فيما يظهر أن يتمثل الرجل بالقرآن في مقام الجد، كأن يأسف أسفًا شديدًا لنزول كارثة قد تقطعت أسباب كشفها عن الناس فيقول: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾[(٣)]. أو يحاور صاحب مذهب فاسد يحاول استهواءه إلى باطله فيقول: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾[(٤)]، والإثم الكبير في أن يقصد الرجل إلى التظاهر بالبراعة، فيتمثل بالقرآن حتى في مقام الهزل والمزاح»[(٥)]، وهذا الرأي بهذا التفصيل هو الراجح عندي، والله أعلم.

(١) سورة طه، الآية:٤٠.
(٢) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٤٨٣.
(٣) سورة النجم، الآية:٥٨.
(٤) سورة الكافرون، الآية:٦.
(٥) بلاغة القرآن: محمد الخضر حسين، ص٣٣.

خصائص ومزايا الأمثال القرآنية:

للأمثال في القرآن الكريم خصائص كثيرة منها[١]:

١- دقة التصريح مع إبراز العناصر المهمة من الصور التمثيلية كقوله تعالى في الكفار الذين لم يستجيبوا لنداء الرسول ﷺ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾[٢].

٢- التصوير المتحرك الحي الناطق كقوله تعالى في أعمال الكفار: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾[٣].

٣- صدق المماثلة بين الممثل والممثل له كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾[٤].

٤- كثيرًا ما يحذف من المثل القرآني مقاطع اعتمادًا على فهم المخاطب، وقد تحذف من الممثل له مقاطع أيضًا، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ

(١) من كتاب الأمثال القرآنية: عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ٨١-١٠٠ (بتصرف واختصار). ولمزيد من التوسع انظر: ضرب الأمثال في القرآن: عبدالمجيد البيانوني، ص٥١-٥٨.

(٢) سورة البقرة، الآية:١٧١.

(٣) سورة إبراهيم، الآية:١٨.

(٤) سورة آل عمران، الآيتان:١١٦-١١٧.

﴿٣٩﴾[(١)]، ففي المثل أبرزت صورة السراب ثم صورة الظامئ الذين ظنه ماءً، ثم خيبته عند وصوله إليه، وحذف ما عدا ذلك لإدراك المخاطب له.

وفي الممثل له لم يذكر إلا عمل الذين كفروا، وطوى ما عدا ذلك لإدراك المخاطب له. وهذا من بلاغة القرآن.

فوائد الأمثال في القرآن الكريم وأغراضها:

للأمثال في القرآن الكريم أغراض ومقاصد، ولها فوائد كثيرة منها:

١- إظهار المعنى المعقول المجرد في صورة حية ملموسة متحركة:

كالمثل الذي يضرب الله تعالى لمن ينفق ماله رئاء الناس بقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾[(٢)].

وكقوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٞ ٢٢ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ ٢٣﴾[(٣)] وقوله سبحانه: ﴿۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا ١٩﴾[(٤)].

---

(١) سورة النور، الآية:٣٩.

(٢) سورة البقرة، الآية:٢٦٤.

(٣) سورة الواقعة، الآيتان:٢٢-٢٣.

(٤) سورة الإنسان، الآية:١٩.

٢- قوة الإقناع والحجة:

ففي قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾(١).

فالحجة في مثل هذا تثبت أن انفراد المالك الذي تجب طاعته أفضل وأكرم للمملوك من تعدد المالكين، فالأمران ليسا بمتساويين ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾(٢).

٣- الترغيب:

كقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾(٣).

٤- الترهيب:

كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾(٤).

٥- المدح:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

(١) سورة الزمر، الآية:٢٩.

(٢) الأمثال القرآنية: عبدالرحمن حبنكه الميداني، ص٥٤.

(٣) سورة البقرة، الآية:٢٦١.

(٤) سورة النحل، الآية:١١٢.

﴿يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٥﴾[١].

٦- التنفير:

كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ﴾[٢].

قال الزركشي: «وضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة: التذكير والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحسن. وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر، قال تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ۝٤٥﴾[٣]، فامتن علينا بذلك لَمَّا تضمنت هذه الفوائد»[٤].

وقد عدَّ الشافعي رحمه الله معرفة الأمثال مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن.

وقال الشيخ عز الدين: «إنما ضرب الأمثال في القرآن تذكيرًا ووعظًا، فما اشتمل منها على تفاوت في ثواب، أو على إحباط عمل، أو على مدح، أو ذم أو نحوه فإنه يدل على الأحكام»[٥].

---

(١) سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٤-٢٥.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٤٥.

(٤) البرهان: الزركشي، جـ١، ص٤٨٦-٤٨٧.

(٥) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٦٧.

أثر الأمثال في التربية والتعليم[١]:

تختلف أمثال القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة اختلافًا جذريًّا عما يضر بالناس من الأمثال، فهي أمثال حق وصدق، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، ولا يدخلها نقص في أي جانب من جوانبها[٢]. وحقٌّ على رجال التربية والتعليم أن يتخذوها نموذجًا تربويًّا فريدًا، ويستلهموا منها العِبر والأساليب التربوية، وليس من السهل في هذه العجالة استيفاء هذه الآثار، ولنذكر منها[٣]:

١- شد انتباه السامع، وحمله على التفاعل مع الموضوع.

٢- التنويع في أسلوب المتكلم مما يدفع الملل والسآمة، ويجدد النشاط الذهني للطلاب.

٣- تثبيت الفكرة في الأذهان، وسرعة انتشارها وسريانها بين الناس، وذلك أن كلمات المثل قليلة يسهل حفظها وفهمها واستيعابها.

٤- توسيع آفاق الطالب الفكرية والنفسية بتدريبه على ربط المعقولات بالمحسوسات، وقياس الغائب على الشاهد.

٥- استثمار الانفعالات النفسية عند الطالب الدافعة (كالفرح، والحب، والرغبة في التملك) أو الرادعة (كالرهبة، والخوف، والخشية)، وعلى المربي الناجح أن يتعامل مع مزيج متكافئ متوازن من هذه الانفعالات.

---

(١) هناك مؤلفات خاصة بهذا الموضوع منها: ضرب الأمثال في القرآن أهدافه التربوية وآثاره للأستاذ عبدالمجيد البيانوني، وكتاب بعض الأبعاد التربوية لعدد من الأمثال في القرآن الكريم للدكتورة آمال حمزة المرزوقي.

(٢) ضرب الأمثال في القرآن: عبدالمجيد البيانوني، ص١٠-١١.

(٣) انظر: ضرب الأمثال في القرآن: عبدالمجيد البيانوني، ص٧٣-١٠٠.

فتعامل المربي مع تلميذه بعصا الرهبة وحدَها سبب ظاهر لهلاكه، ودفعه بعامل الفرح أو الرغبة وحدَها سبب خطير لإفساده، وإنما يصلح سبيل التربية إذا نهض على مزيج معتدل من هذه الأساليب.

❊ ❊ ❊

قصص القرآن الكريم

لا شك أن القصة من أفضل أساليب التربية والتعليم، وهي عامل رئيس من عوامل جذب انتباه المستمعين، فهي أسلوب تربوي تعليمي ناجح، سلكه المربون والمصلحون والأدباء والمعلمون في كل مكان وزمان.

ولتأثير القصة ومكانتها فإنَّ القرآن يعرض لنا كثيرًا من قضايا العقيدة والصراع بين الحق والباطل بأسلوب قصصي مميز للعظة والاعتبار.

تعريف القصة:

لغة: القصُّ: هو تتبع الأثر ماديًّا كان أو معنويًّا.

فالمادي يقال: قصصت أثره، أي: تتبعته، قال تعالى: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤﴾[1]، أي: رجعا يتتبعان أثرهما، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾[2]، أي: اتبعي أثره، ومنه القصاص، قال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾[3] لما فيه من تتبع أثر الجاني ومجازاته بمثل فعله، من قتل أو قطع أو جرح، ومنه المقص الذي يقطع به القماش، والقصيصة الزاملة الضعيفة كأنها سميت بذلك لأنها تكون منقطعة عن القافلة وتسير على أثر النوق النجيبة، والقصيصة شجرة تنبت في أصل الكمأة سميت بذلك لدلالتها على الكمأة كما يقتص الأثر وغير ذلك[4].

---

(١) سورة الكهف، الآية:٦٤.

(٢) سورة القصص، الآية:١١.

(٣) سورة البقرة، الآية:١٧٩.

(٤) انظر: لسان العرب: لابن منظور، جـ٧، ص٧٣-٧٥ مادة (قصص).

والمعنوي كتتبع أخبار الأمم الماضية، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾[١]، وقال سبحانه: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[٢] أي: أخبارهم.

والقصة: الخبر والأمر والحديث[٣].

وقصص القرآن اصطلاحًا:

أخباره عن أحوال الأمم الماضية والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة[٤].

أنواع القصص في القرآن الكريم[٥]:

ومن التعريف نستطيع أن نعرف أن أنواع القصص في القرآن الكريم ثلاثة:

النوع الأول: قصص الأنبياء السابقين:

كقصة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، التي تضمنت أخبار دعوتهم لقومهم إلى الإسلام، والمعجزات التي أيدهم الله بها، وموقف أقوامهم منهم، والعقوبات الإلهية التي نزلت بهم.

النوع الثاني: قصص تتعلق بحوادث غابرة وأشخاص لم تثبت نبوتهم: كقصة أهل الكهف، وذي القرنين، وأصحاب السبت، ومريم، وأصحاب الأخدود وغيرهم.

---

(١) سورة آل عمران، الآية:٦٢.

(٢) سورة يوسف، الآية:١١١.

(٣) لسان العرب: جـ٧، ص٧٤.

(٤) مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص٣٠٦.

(٥) انظر: المرجع السابق: ص٣٠٦.

النوع الثالث: قصص تتعلق بأحداث وقعت في عصر الرسول ﷺ:

كغزوة بدر وأحد في (سورة آل عمران)، وحنين وتبوك في (سورة التوبة) والأحزاب في سورتها، والإسراء في سورتها، وغير ذلك.

فوائد القصة في القرآن الكريم:

من أهم فوائد القصة في القرآن الكريم:

١ - تثبيت فؤاد الرسول ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾[١].

وذلك أن الرسول ﷺ حين يخبره الله بما جرى للأنبياء عليهم السلام من قبله مع أقوامهم يسلو قلبه ويتجدد عزمه، فيصبر كما صبر أولو العزم من الرسل.

٢ - إيضاح أسس الدعوة إلى الله تعالى واشتراك كل الأنبياء فيها:

فإن الرسل كلهم عليهم السلام يدعون إلى عبادة الله وحده ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[٢]، فليس هناك دين غير الإسلام ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾[٣].

---

(١) سورة هود، الآية: ١٢٠.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

٣- تأكيد صدق الأنبياء السابقين عليهم السلام:

فالقرآن يصرح برسالتهم ونبوتهم وصدقهم، ويصرح بأسمائهم، ويشهد لهم بالصدق وتبليغ الدعوة، فليس لأحد أن يشك في نبوتهم، ولذا كان الإيمان بالرسل من أركان الإيمان لمجيئه عن طريق القرآن المتواتر.

٤- إظهار صدق الرسول ﷺ:

فالرسول ﷺ كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، ولم يعرف عنه مجالسة لأحبار اليهود والنصارى، وورود هذه القصص من مثله عليه الصلاة والسلام دليل على رسالته وتلقيه للوحي.

٥- التهديد والوعيد للكفار، والعظة والاعتبار للمؤمنين بأن ما جرى لعصاة الأمم السابقة قد يجري لعصاة هذه الأمة، ولهذا لما أرسلت قريش عتبة بن ربيعة إلى الرسول ﷺ ليطلب منه ترك الدعوة قرأ عليه عليه الصلاة والسلام سورة فصلت، حتى إذا بلغ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾[1] أمسك عتبة على فيه، وناشده بالرحم، ورجع إلى أهله، ولما جاءته قريش أخبرهم الخبر وفيه: فأمسكت بفيه، وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدًا إذا قال شيئًا لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب[2].

---

(١) سورة فصلت، الآية:١٣.

(٢) تفسير البغوي، جـ٤، ص١١٠.

٦- والقصة ضرب من ضروب الأدب يصغي إليه السمع، وترسخ عبره في النفس[١]، وتثبت معانيه، وتدرك مراميه ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[٢].

مزايا القصة القرآنية:

تمتاز القصة في القرآن بمزايا عديدة منها:

١- ربانية المصدر:

فالقصة تبعًا للقرآن الكريم كله من الله تعالى، لها من الخصائص ما للقرآن الكريم نفسه، وليس للرسول ﷺ فيها إلا البلاغ ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾[٣].

٢- مطابقة الواقع والصدق وأنها حقيقة لا خيال:

وبيان ذلك أن كل ما جاء في القرآن من قصص وأحداث وأخبار واقع حقيقة كما أخبر الله تعالى، وليس نسج خيال.

وإنما يلجأ البشر إلى الخيال حين تعجز قدراتهم العلمية عن الإحاطة بأحداث التاريخ، واستخراج الحدث الذي يحتوي على ما يريدون إظهاره من أفكار وآراء، وهذا شأنهم، وتلك قدرتهم، فيعوضون ذلك العجز بالخيال، وكثيرًا ما يتمنى الإنسان بلوغ شيء فيعجز عن حقيقة، فيلجأ إلى الخيال يصور ماذا سيفعل لو كان، وهذا شأن الأدباء البشر في قصصهم أحيانًا.

---

(١) مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص٣٠٧.

(٢) سورة يوسف، الآية:١١١.

(٣) سورة النجم، الآيتان:٣-٤.

أما الله ﷻ فلا يعجزه شيء، وهو العليم الخبير بما كان وما سيكون، فيحكي من أحداث الأمم الماضية الواقعة ما يناسب موضوع السورة.

وقد وصف الله تعالى قصص القرآن بذلك ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ﴾[١]، و﴿ نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾[٢]، ﴿ ۞وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ ﴾[٣]، ﴿ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٣﴾[٤]، وهكذا قصص القرآن حق وحقيقة.

٣- الاختيار للعظة والعبرة:

يختار الله ﷻ من القصة أو الحدث أجزاء تناسب أهداف الموضوع أو السورة ومقاصدها للعظة والاعتبار، يستوي في ذلك قصر المقطع أو طوله، ولا شك أن ما اختاره منها فيه الوفاء كل الوفاء بالغرض المراد.

٤- الإعجاز:

وهذا الإعجاز تبع لإعجاز القرآن الكريم كله، لكن إعجاز القصص يظهر في أن العرض البشري يكون متأثرًا بشخصية الراوي التي غالبًا ما تكون متأثرة بأفكاره وآرائه وتصوراته القاصرة، ويحكي منها ما أدركته طاقته البشرية، وهي محدودة في علمها وقصورها عن الإحاطة بكل الأمور.

---

(١) سورة آل عمران، الآية:٦٢.

(٢) سورة الكهف، الآية:١٣.

(٣) سورة المائدة، الآية:٢٧.

(٤) سورة القصص، الآية:٣.

أما قصص القرآن فمن الله الذي أحاط بالأحداث كلها، ويعلم ما تخفي الصدور، وشتان بين صورة واضحة كاملة صادقة، وصورة لا تخلو من نقص أو قصور أو خطأ في التصور.

٥- التكـرار:

وإذا كان الله ﷻ يعرض من القصة ما يلائم موضوع السورة، فإن هذا يقتضي تكرار عرض القصة في أكثر من سورة، سواء كان عرضًا كاملًا مختلفًا عن العرض الأول أو عرضًا جزئيًا.

فوائد تكرار القصة في القرآن الكريم:

ولتكرار القصة في القرآن الكريم فوائد وحكم عديدة منها:

١- قـوة الإعجاز.

كما قال الباقلاني: «وأعيد كثير من القصص في مواضع مختلفة على ترتيبات متفاوتة، ونبهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأ به ومكررًا، ولو كان فيهم تمكن من المعارضة لقصدوا تلك القصة، فعبروا عنها بألفاظ لهم تؤدي معناها.. وجعلوها بإزاء ما جاء به، وتوصلوا بذلك إلى تكذيبه وإلى مساواته فيما جاء به، كيف وقد قال لهم: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[1]، فعلى هذا يكون المقصد بتقديم بعض الكلمات وتأخيرها إظهار الإعجاز على الطريقين»[2].

(١) سورة الطور، الآية:٣٤.

(٢) إعجاز القرآن: الباقلاني، جـ١، ص٩٤.

وقال الزركشي: «كرر ذكر القصة في مواضع إعلامًا بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأي نظم جاؤوا، وبأي عبارة عبروا»[١].

ولا شك أن القصة الواحدة حين تكون معجزة بوجه ثم معجزة بوجه آخر، فإن هذا يعني قوة في الإعجاز، وزيادة في التحدي.

٢- بيان بلاغة القرآن الكريم في أعلى مراتبها:

يقول الباقلاني: «إن إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحدًا من الأمر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة، وتتبين فيه البلاغة»[٢].

من خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد في صورة مختلفة، والقصة المتكررة ترد في كل موضع بأسلوب يتمايز عن الآخر، وتصاغ في قالب غير القالب، ولا يمل الإنسان من تكرارها، بل تتجدد في نفسه معان لا تحصل له بقراءتها في المواضع الأخرى[٣].

٣- أن المعاني التي اشتملت عليها القصة الواحدة من هذه القصص صارت متفرقة في تارات التكرير، فيجد البليغ - لما فيها من التغيير - ميلًا إلى سماعها؛ لما جبلت عليه النفوس من حب التنقل في الأشياء المتجددة التي لكل منها حصة من الالتذاذ به مستأنفة[٤].

---

(١) البرهان: الزركشي، جـ٣، ص٢٧.

(٢) إعجاز القرآن: الباقلاني، جـ١، ص٩٤.

(٣) مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص٣٠٨.

(٤) البرهان: الزركشي، جـ٣، ص٢٨.

٤- أنه إذا كرر القصة زاد فيها شيئًا لم يذكره في المرة الأولى، فقد يوجد في ألفاظها زيادة أو نقصان، وتقديم أو تأخير[١]، ويذكر في كل منها ما لم يذكر في الأخرى لتنويع الفوائد وتوزيعها.

٥- الاهتمام بشأن القصة لتمكين عبرها في النفس، فإن التكرار من طرق التأكيد وإمارات الاهتمام، بل التكرار أبلغ من التأكيد، فالتكرار تأسيس، والتأكيد فرع، وتكرار التأسيس أقوى من التأكيد.

٦- اختلاف الغاية التي تساق من أجلها القصة، فتذكر بعض معانيها الوافية بالغرض في مقام، وتبرز معان أخرى في مقام آخر حسب أهداف السورة وأغراضها[٢].

كيفية الاستفادة من القصة في مجال التربية والتعليم:

يدرك رجال التربية أن أقوى أساليب التربية نفاذًا إلى القلوب، وتأثيرًا في النفوس ما عرض في أسلوب قصصي يحمل على المشاركة الوجدانية للأشخاص والتأثر بالأحداث، والتفاعل مع المواقف.

ومن هنا كان الترابط الوثيق بين الوسائل والأهداف في مناهج التربية، فبحيوية العرض في القصة الموجهة، وقوة التخييل والتصوير فيها، وتهيئة اللحظة الحاسمة التي تبلغ فيها حرارة الانفعال النفسي درجة الانصهار، يحصل من التأثر بالتوجيه التربوي ما لا يحصل عند إقحام ذلك التوجيه على النفس وهي في راحتها واسترخائها[٣].

---

(١) المرجع السابق، ص٢٦-٢٧.

(٢) انظر: مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ص٣٠٨.

(٣) سيكولوجية القصة في القرآن: د. التهامي نفره، ص٥٤٤.

ويفيد التحليل النفسي للعادات الفاسدة أنها تبطل وتزول بمجرد اقتلاع العقدة مثل ما يزول المفعول الكهربائي بانقطاع التيار[١]. فلم يبدأ الرسول ﷺ بنهيهم عن عادة شرب الخمر أو الزنا مثلًا، بل اقتلع من قلوبهم عقدة الشرك فانقادوا لترك تلك العادات السيئة وغيرها[٢].

لذلك أقام القصص القرآني منهجه على العقيدة بنبذ عقيدة الشرك، وغرس عقيدة الإيمان بالله وحدَه، وبذلك وحدَه يقتلع الإنسان من نفسه عاداته الفاسدة، وينقاد لمبادئ الإسلام الصحيحة.

ويذكر الإيمان في القرآن متبوعًا في الغالب بعمل الصالحات كنتيجة حتمية له؛ لأن الإيمان ليس في الحقيقة مجرد شعور عن علم ومعرفة، ولكنه تكييف للإنسان في صلته بربه، وتدبيره لنفسه، وعلاقته بغيره[٣].

فالإيمان سمو بالنفس، واتصال بالله، وتكوين للشخصية المتزنة التي تعمل جميع طاقاتها الجسمية والفكرية والروحية في اعتدالٍ وتوازن؛ لأن لصاحبها قوة منظمة لاندفاعاته الفطرية، ومُهَذِّبة لغرائزه الحيوانية، وموجهة له نحو المثل العليا.

---

(١) علم النفس والأخلاق: هادفيلد، ترجمة محمد عبدالحميد أبو العزم، ص٦٤.

(٢) وهذا الأسلوب هو ما سلكه بعض الزعماء في محاربة الدعوة الإسلامية بما وصفوه بـ«تجفيف المنابع»، ويعنون به قطع التعليم الديني عن الشباب حتى ينشأ جيل لا يعرف عن الإسلام شيئًا، ويسهل توجيهه إلى ما يريدون ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ [الصف:٨].

(٣) سيكولوجية القصة في القرآن، ص٥٤٨.

وتلك هي الشخصية المتكاملة كما يسميها علماء التربية «وهي التي يتسم سلوكها وتصرفاتها ودوافعها بالاتزان الانفعالي»[١].

والقصص بهذا من أهم وسائل التربية القرآنية توجيهًا وتعليمًا وترسيخًا للعقيدة الصحيحة، وقد جاءت التربية في القرآن الكريم ملائمة لعناصر القصة الثلاثة (الأحداث) (الشخصيات) (الحوار)، فجاءت التربية بالقصة القرآنية على ثلاثة محاور[٢].

التربية بالأحداث:

وتعرف هذه التربية بقوة تأثيرها، وشدة سيطرتها على النفس؛ لأنها تثير الانتباه الذي يجمع الفاعلية النفسية حول ظاهرة ما عن طريق الحس وطريق التأمل، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾[٣].

كما تثير الخوف من وقوع العقاب المماثل كما مَرَّ بنا أن عتبة بن ربيعة وضع يده على فم الرسول ﷺ حين قرأ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾[٤]؛ لعلمه أنه وعيد صادق، فإذا كانت هذه صورة من وقع الإنذار بالأحداث على قلب لم يؤمن، فكيف بوقعه على قلوب المؤمنين؟!.

---

(١) الصحة النفسية: مصطفى فهمي، ص٢٨١.

(٢) سيكولوجية القصة في القرآن، ص٥٧٢-٥٨٥ (باختصار وتصرف). وقد كتب المؤلف فصلًا عن الجانب التربوي في قصص القرآن، فأجاد، وحريٌّ بك الرجوع إليه.

(٣) سورة الفرقان، الآية:٤٠.

(٤) سورة فصلت، الآية:١٣.

التربية بالشخصية:

والقصص القرآني يجسد شخصيات مثالية، فالأنبياء جعل منهم القرآن نماذج إنسانية عالية، ومع ذلك كان يشير إلى ما يُلمُّ ببعضهم عليهم السلام من لحظات الضعف البشري دون مداراة حتى لا يغلو بهم أحد إلى رتبة الألوهية - صنيع بعضهم في عيسى عليه السلام - رغم كمالاتهم؛ ليعرض النفس البشرية كما هي في قوتها وضعفها.

التربية بالحوار:

وأكثر ما يكون ذلك في القصص الطويلة التي تتسع للجدل، والقرآن يختار من هذا الجدال لقطات من الأقوال الموحية فيصوغها في عبارات موجزة بليغة، تفيض حكمة ورشدًا فيما يجري على ألسنة الهداة ودعاة الحق الذين يسلكون في الحوار مسلك الحكماء، أو ضلالًا وزيفًا فيما تنضح به القلوب المريضة والنفوس المنحرفة، كحوارات إبراهيم عليه السلام مع قومه ومع أبيه ومع الملك، وحوار موسى عليه السلام مع فرعون وغير ذلك.

وقد خَرَّجَ القرآن بهذه التربية منهجًا فريدًا لا يزال قدوة الأمة كلها حتى تقوم الساعة، ولذا حرص المربون والحكماء، والأدباء، والمصلحون... والمفسدون كذلك على سلوك أسلوب القصة؛ لتحقيق أغراضهم وأهدافهم، فحملوها كل ما يعتقدونه من آراء، وما يريدون بثه من أخلاق، فصاغوها على ألسنة الحيوانات والطيور، أو الصور المتحركة، بل وجسدوها بممثلين وممثلات، ولكل منهم أغراضه وأهدافه.

ولا شك أن القصة أسلوب تربوي وتعليمي ناجح، فالقصة تأخذ بمجامع القلوب، وتشد الأذهان، وتنفذ إلى النفس البشرية بسهولة ويسر، وتسترسل مع سياقها المشاعر، فلا تمل ولا تكل.

والدروس التلقينية والإلقائية تورث الملل، ويشق على الناشئة متابعتها، ولا تستوعب عناصرها إلا بصعوبة وشدة وإلى أمد قصير، ولذا كان الأسلوب القصصي أجدى نفعًا وأكثر فائدة[١].

فعلى المربين أن يوظفوا القصة في مجال التربية والتعليم، لاسيما التهذيب الديني، وفي قصص القرآن الكريم، وسيرة الأنبياء والصالحين، وأخبار الأمم الماضية، والحوادث الواقعة، والقصص الهادفة مجال رحب للإصلاح والتوجيه.

* * *

(١) انظر مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص٣١٠-٣١١.

ترجمة القرآن الكريم

أنزل الله تعالى القرآن الكريم بلسان عربي مبين، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾[(١)]، وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾[(٢)]، وقال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾[(٣)]، وغير ذلك من الآيات.

والرسول ﷺ بعث إلى الناس كافة عربهم وعجمهم، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[(٤)]، وقال سبحانه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾[(٥)]، وقال ﷻ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾[(٦)].

وإذا كان الأمر كذلك فإنه يجب تبليغ القرآن إلى العجم كل حسب قدرته وطاقته، كما قال الرسول ﷺ: «**بلِّغوا عني ولو آية**»[(٧)]، وذلك بترجمته أو ترجمة معانيه.

قال ابن تيمية رحمه الله: «إنه ليس فهم كل آية من القرآن فرضًا على كل مسلم، وإنما يجب على المسلم أن يعلم ما أمره الله به، وما نهاه عنه بأي عبارة كانت، هذا ممكن لجميع الأمم، ولهذا دخل في الإسلام جميع أصناف العجم من الفرس، والترك، والهند،

---

(١) سورة يوسف، الآية:٢.

(٢) سورة طه، الآية:١١٣.

(٣) سورة فصلت، الآية:٣.

(٤) سورة الأعراف، الآية:١٥٨.

(٥) سورة يوسف، الآية:١٠٤.

(٦) سورة الفرقان، الآية:١.

(٧) اقتبست أغلب ما كتبته هنا من كتابي (منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير) وكتابي (نقل معاني القرآن إلى لغة أخرى أترجمة أم تفسير).

والصقالبة، والبربر. ومن هؤلاء من يعلم اللسان، ومنهم من يعلم ما فرض الله عليه بالترجمة، وقد قدمنا أنه يجوز ترجمة القرآن في غير الصلاة والتعبير. كما يجوز تفسيره باتفاق المسلمين»[١].

معاني الترجمة لغة:

جاءت كلمة (ترجمة) في العربية لتدل على معاني أربعة[٢]:

أولها: تبليغ الكلام لمن لم يسمعه. ومنه قول الشاعر[٣]:

إن الثمانين وبلغتها ... قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

ثانيها: تفسير الكلام بلغته نفسها، ومنه سمي ابن عباس رضي الله عنهما (ترجمان القرآن).

ثالثها: تفسير الكلام بغير لغته. قال الجوهري: «وقد ترجمه، وترجم عنه: إذا فسر كلامه بلسان آخر»[٤].

رابعها: نقل الكلام من لغة إلى أخرى. قال الزبيدي: «وقيل: نقله من لغة إلى أخرى»[٥].

ولأن هذه المعاني الأربعة تشترك في أن معناها (البيان) أطلقت الترجمة على كل ما فيه بيان، فقيل: تَرجم لهذا الباب بكذا، أي: جَعل له عنوانًا يُبَيِّن ما تحته. وتَرجم لفلان، أي: بَيَّن تاريخه. وترجمة هذا الباب، أي: بيان المقصود منه ونحو ذلك.

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن تيمية، جـ١، ص١٩٤-١٩٥.

(٢) مناهل العرفان: الزرقاني، ٢/ ٥-٦ (بتصرف).

(٣) هو: عوف بن الْمُحَلَّم الشيباني.

(٤) تاج العروس: الزبيدي، ٨/ ٢١١.

(٥) المرجع السابق: نفس الموضع.

والذي يعنينا من هذه المعاني الثالث والرابع. ويكون المراد بالترجمة هنا أمرين[١].

الأول: الترجمة الحرفية:

وهي نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى مع مراعاة الموافقة في النظم والترتيب والمحافظة على جميع معاني الأصل المترجم.

ولا بد في الترجمة الحرفية من شرطين:

الأول: وجود مفردات في لغة الترجمة مساوية للمفردات في لغة الأصل؛ حتى يمكن للمترجم أن يحل كل مفرد من الترجمة محل نظيره من الأصل.

الثاني: تشابه اللغتين في الضمائر المستترة والروابط التي تربط الكلمات بعضها ببعض، وتطابُق في مواقع أحوال الكلمات كالفاعل والمفعول به، والصفات ونحو ذلك[٢].

وبهذين الشرطين يكون من المتعذر - بل من المستحيل - ترجمة نص ترجمة حرفية فضلًا عن ترجمة القرآن الكريم؛ لأن معناه الإتيان بمثل هذا القرآن بلغة أخرى.

حُكْمُ الترجمة الحرفية:

وإذا كانت الترجمة الحرفية غير ممكنة ومستحيلة، فإن ادعاء القيام بترجمة حرفية للقرآن تؤدي معانيه الأصلية ادعاء باطل. فتحرم، وهذا مما لا خلاف فيه بين علماء المسلمين الثقات.

---

(١) التفسير والمفسرون: الذهبي، جـ١، ص٢٣-٢٤.

(٢) مناهل العرفان: الزرقاني، جـ٢، ص٢ (بتصرف).

الثاني: الترجمة المعنوية أو التفسيرية:

وهي شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى بدون مراعاة لنظم الأصل وترتيبه، وبدون المحافظة على جميع معانيه المرادة منه.

حكم الترجمة المعنوية أو التفسيرية:

اختلف العلماء في حكمها بين مؤيد ومعارض:

ومن أدلة المؤيدين:

١- أن الدعوة الإسلامية دعوة عامة لا تختص بجيل دون جيل، أو أمة دون أخرى أو العرب دون العجم. وتحقيق ذلك يقتضي بيان القرآن لتلك الأمم وتوضيح معانيه باللغة التي يفهمونها.

٢- أن العجمي إذا كان لا يستطيع تذوق نظم القرآن بسبب اختلاف اللغة، فإنه قادر على التفكر في معانيه، والتدبر في أحكامه ودلالاته إذا ترجم القرآن له.

٣- إذا كان العربي بحاجة إلى من يفسر له القرآن، فإن العجمي أكثر حاجة إلى بيان القرآن له بلغته التي يفهمها.

ومن أدلة المعارضين:

١- أن ترجمة القرآن ترجمة حرفية متعذرة، والترجمة المعنوية عبارة عن فهم المترجم للقرآن، أو فهم من عساه يعتمد هو على فهمه من المفسرين، وحينئذٍ لا تكون هذه الترجمة هي القرآن، وإنما هي فهم رجل للقرآن يخطئ في فهمه ويصيب[١].

---

(١) تفسير المنار: محمد رشيد رضا، جـ٩، ص٣١٢-٣١٦.

٢- أن لنظم القرآن وأسلوبه تأثيرًا خاصًّا في نفس السامع لا يمكن أن ينقل بالترجمة.

٣- أن القرآن الكريم هو معجزة الرسول ﷺ الكبرى بل هو الآية الباقية من معجزات الأنبياء، والمحافظة عليه تقتضي عدم التغيير والتبديل والتحريف والتصحيف، والترجمة ليست كذلك.

❊ ❊ ❊



الفصل الثاني

الخلاصة

في أصول التفسير

تعريف علم أصول التفسير وبيان مكانته وفضله

تعريفه:

الأصول: لغة جمع أصل، وهو في اللغة: عبارة عما يُفتقَر إليه ولا يَفْتقِر إلى غيره. وفي الشرع: عبارة عما يُبْنَى عليه غيره، ولا يُبْنَى هو على غيره. والأصلُ ما يَثْبت حكمه بنفسه ويُبنى عليه غيره[(١)].

التفسير لغة:

اختلف علماء اللغة في لفظ (التفسير):

فقيل: هو (تفعيل) من (الفَسْر) بمعنى الإبانة وكشف المراد عن اللفظ المُشْكِل[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[(٣)]، أي: تفصيلًا[(٤)].

وقيل: هو (مقلوب) من (سَفَرَ) ومعناه أيضًا: الكشف. يقال: سَفَرَت المرأةُ سُفُورًا إذا ألقَتْ خِمَارَها عن وجهها وهي سافرة. وأسفر الصُبْحُ: أضاء. وإنما بَنَوا «فَسَرَ» على التفعيل فقالوا: «تفسير» للتكثير[(٥)].

وقال الراغب الأصفهاني: «(الفَسْرُ) و(السَفْرُ) يتقاربُ معناهما كتقارب لفظيهما لكن جُعِلَ الفَسْرُ لإظهار المعنى المعقول.. وجعل السَفْر لإبراز الأعيان للأبصار، فقيل: سَفَرت

---

(١) التعريفات: الجرجاني، ص٢٢.

(٢) تهذيب اللغة: الأزهري، جـ١٢، ص٤٠٧.

(٣) سورة الفرقان، الآية:٣٣.

(٤) البرهان في علوم القرآن: الزركشي، جـ١، ص١٤٨.

(٥) المرجع السابق: جـ١، ص١٤٧.

المرأةُ عن وجهها وأسفر الصبح»[١].

التفسير اصطلاحًا:

والتفسيرُ اصطلاحًا: عِلْمٌ يُفهم به كتابُ الله تعالى المُنَزَّلُ على نبيِّه محمد ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحِكَمِه[٢].

وقال أبو حيان: «التفسير علم يُبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك»[٣].

الفرق بين التفسير والتأويل[٤]:

والتأويل لغة من الأوْل، وأوَّلَ الكلامَ وتأوَّلَه: دَبَّره وقَدَّره، وأوَّلَه وتأوَّلَه: فَسَّره[٥].

والتأويل[٦] في اصطلاح المفسرين فيه خلاف:

فقالت طائفة: إن التفسير والتأويل مترادفان.

---

(١) المرجع السابق: جـ٢، ص١٤٨.

(٢) البرهان في علوم القرآن: للزركشي جـ١، ص١٣، وانظر الإتقان للسيوطي جـ٢، ص١٧٤.

(٣) البحر المحيط: لأبي حامد الأندلسي، جـ١، ص١٣-١٤.

(٤) للشيخ حامد العمادي (مفتي دمشق) رسالة لطيفة بعنوان «التفصيل في الفرق بين التفسير والتأويل» أقوم بتحقيقها.

(٥) لسان العرب لابن منظور مادة (أَوَلَ) جـ١١، ص٣٣.

(٦) لمن أراد مزيد البيان عن التأويل فلينظر درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية جـ١، ص٢٠١-٢٠٨ وجـ٥، ص٢٣٧ وص٣٨١-٣٨٤، وكتابه «الإكليل» ضمن مجموع الفتاوى جـ١٣، ص٢٨٨-٢٩٤.

قال أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب: «التأويل والمعنى والتفسير واحد»[١].

ونسب السيوطي هذا القول إلى أبي عبيد وطائفة، ومنه دعوة رسول الله ﷺ لابن عباس: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**»[٢].

وقول ابن عباس رضي الله عنهما: «إنا ممن يعلم تأويله»[٣]، وقول مجاهد: «الراسخون في العلم يعلمون تأويله»[٤] يعني القرآن. وقول ابن جرير الطبري في تفسيره: «القول في تأويل قوله تعالى...» وقوله: «واختلف أهل التأويل في هذه الآية». فإن المراد في التأويل هنا التفسير.

وقالت طائفة: إنَّ بين التفسير والتأويل فرقًا ثم اختلفوا:

١ - فمنهم من يرى أن الاختلاف بالعموم والخصوص.

أ- فقال بعضهم: إن التفسير أعَمُّ من التأويل.

قال الراغب الأصفهاني: «التفسير أعمُّ من التأويل وأكثر استعماله في الألفاظ ومفرداتها، وأكثر استعمال التأويل في المعاني والجُمَل كتأويل الرؤيا. وأكثر ما يستعمل - يعني التأويل - في الكُتب الإلهية، والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها»[٥].

ب- وقال بعضهم: إنَّ التأويل أعمُّ لجريانه في الكلام وغيره. يُقال: تأويل الكلام كذا، وتأويل الأمر كذا، أي: ما يؤلان إليه.. بخلاف التفسير فإنه يَخُصُّ الكلام ومدلوله،

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص١٧٣.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده: جـ١، ص٢٦٦، والطبراني في الكبير (١٠٦١٤) و(١٠٦١٥).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره: جـ٦، ص٢٠٣ رقم ٦٦٣٢.

(٤) تفسير مجاهد: جـ١، ص١٢٢.

(٥) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٧٣.

يُقال: تفسير الكلام كذا والقضية كذا[١].

٢- ومنهم من يرى أنَّ الاختلاف بينهما بالتباين، ثم اختلفوا:

أ- فقيل: التفسير هو القطع بأنَّ مُرادَ الله كذا، والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون قطع، وهذا قول الماتريدي[٢].

ب- ومنهم من قال: التفسير ما يتعلق بالرواية، والتأويل ما يتعلق بالدراية.

قال الخازن: «الفرق بين التفسير والتأويل أنَّ التفسير يتوقف على النقل المسموع، والتأويل يتوقف على الفهم الصحيح»[٣]. مثال التفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾[٤] هما الأوس والخزرج، وقوله تعالى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾[٥] هم فارس وأهل اليمن، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[٦] هو الأخنس بن شَريق، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[٧] هو صهيب، فهذا ونحوه من التفسير، ولا يتكلم فيه إلا بالسماع. ومثال التأويل قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾[٨]، قال بعضهم: أي شبانًا وشيوخًا. وقال آخرون:

---

(١) الإكسير في علم التفسير: الطوفي الصرصري، ص٢.

(٢) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٧٣.

(٣) تفسير الخازن: جـ١، ص١٠.

(٤) سورة الحجرات، الآية:٩.

(٥) سورة الفتح، الآية:١٦.

(٦) سورة البقرة، الآية:٢٠٤.

(٧) سورة البقرة، الآية:٢٠٧.

(٨) سورة التوبة، الآية:٤١.

أي فقراء وأغنياء، وقال قوم: أي عزبانًا ومتأهلين، وقال جماعة: أي أصحاء ومرضى، وقال طائفة: أي نشاطًا وغير نشطاء، فهذا من التأويل، وكله جائز مقبول، ولا بأس بالقول به بما يوافق الأصول ولم يخالف العقول[١].

جـ- وقيل: علم التفسير للخلق وعلم التأويل للحق، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾[٢]. وهو فيما يرجع إلى الغيب الذي أبهمه الله تعالى كالساعة متى وقوعها وأشراطها ومتى ظهورها.

د- وقال أبو طالب الثعلبي: «التفسير بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازًا، كتفسير الصراط بالطريق والصَيِّب بالمطر، والتأويل تفسير باطن اللفظ مأخوذ من الأوْلِ وهو الرجوع لعاقبة الأمر، فالتأويل إخبارٌ عن حقيقة المراد، والتفسير إخبار عن دليل المراد؛ لأن اللفظ يكشف عن المراد، والكاشف دليل، مثاله قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤﴾[٣] تفسيره: أنَّه من الرَّصْد، يُقال: رصدته رقبته، والمرصاد مفعال منه، وتأويله التحذير من التهاون بأمر الله والغفلة عن الأهبّة والاستعداد للعرض عليه»[٤].

تعريف أصول التفسير بمعناه المركب:

وأما (أصول التفسير) اصطلاحًا: فهي القواعد والأسس التي يقوم عليها علم التفسير، وتشمل ما يتعلق بالمفسر من شروط وآداب، وما يتعلق بالتفسير من قواعد وطرق ومناهج وما إلى ذلك.

---

(١) التفصيل في الفرق بين التفسير والتأويل: حامد العمادي، صفحة (٦) (مخطوطة).

(٢) سورة آل عمران، الآية:٧.

(٣) سورة الفجر، الآية:١٤.

(٤) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٧٣.

أو هو العلم الذي يُتوصل به إلى الفهم الصحيح للقرآن، ويكشف الطرق المنحرفة أو الضالة في تفسيره.

وهو علم واحد من علوم كثيرة أنشئت لخدمة القرآن الكريم كعلم التجويد والقراءات والرسم وغيرها.

وله صلة وثيقة بعلوم القرآن، فهو من أهمها وأبرزها، وقد يطلق على علوم القرآن الكريم (أصول التفسير) من باب إطلاق الجزء على الكل، وإظهارًا لمكانته فيها، وسُمِّيَ بأصول التفسير لأنه يُبنى عليها علمُ التفسير حسب قواعده وشروطه.

غاية أصول التفسير:

وغاية هذا العلم ضبطُ التفسير بوضع القواعد الصحيحة والطرق السليمة والمناهج السديدة للتفسير، والشروط المحكمة والآداب الفريدة للمُفَسِّر.

وكما أنَّ غاية التجويد النطق الصحيح لألفاظ القرآن فإن غاية أصول التفسير الفهم الصحيح لمعانيه.

فائدة أصول التفسير:

ولهذا العلم فوائد عديدة ليس من السهل حصرها، ومن أهمها:

١ - التزويد بالثقافة العالية من المعارف القيمة، والتسلح بسلاح العلم والمعرفة للدفاع عن القرآن الكريم ضد الأعداء الذين يبذلون وسعهم لتحريف معاني القرآن والإلحاد فيه.

٢ - معرفة الطرق الصحيحة لتفسير القرآن الكريم، وما يُقبل منها وما يُرد، ومعرفة من يصلح تلقي التفسير عنه، ومن لا يصح تفسيره للقرآن.

٣ - معرفة القواعد التي تُعِينُ على فهم كتاب الله تعالى الفهم الصحيح حتى يَبني المسلمُ عقيدته على قاعدة صحيحة ثابتة.

٤- الاطلاع على الجهود العظيمة التي بذلها علماء السلف للمحافظة على القرآن الكريم لفظًا ومعنى، ومن ثمَّ الاقتداء بهم في ذلك والسير على نهجهم.

موضوع أصول التفسير:

اعلم أنَّ موضوع كل علم هو الشيء الذي يبحث ذلك العلم عن أحواله العارضة لذاته(١)، وإذا كان الأمر كذلك فإنَّ أصول التفسير تبحث في علم التفسير من حيث تحديد قواعده وأُسسه وشروط تناوله وطرقه ومناهجه وما إلى ذلك. وموضوع علم التفسير هو القرآن الكريم من حيث بيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه.

فضل هذا العلم ومكانته:

لهذا العلم مكانة كبيرة وشرف عظيم؛ ذلك أنَّ شرف العلم من شرف المعلوم، وأصول التفسير تبحث في علم التفسير، وموضوع هذا العلم هو القرآن الكريم وهو خير الكلام لأنه كلام الله تعالى، فلا عجب أن تكون أصول التفسير من أشرف العلوم وأعلاها مكانة وأكثرها فضلًا.

* * *

(١) الإحكام في أصول الأحكام: الآمدي، جـ١، ص٧.

نشأة علم التفسير ومراحله

جرت سنة الله تعالى في إرسال الرسل وإنزال الكتب أن يبعث لكل أمة نبيًّا بلسان قومه، وأن يكون كتابه بلسانهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾[(١)].

وظهر محمد ﷺ في جزيرة العرب وأنزل الله عليه القرآن بلسان قومه اللسان العربي ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾[(٣)].

وكان القوم عَرَبًا خلصًا يفهمون القرآن الكريم بمقتضى السليقة العربية واللسان العربي، غير أنَّ القرآن يعلو على سائر كلام العرب بألفاظه وأساليبه اللغوية والبلاغية فضلًا عن معانيه، ولذا فقد كانوا يتفاوتون في فهمه وإدراكه، وإن كان كل منهم يدرك منه ما يوقفه على إعجازه، فكان بعضهم يفسر ما غمض على الآخر من معنى، فإن أشكلَ عليهم لفظ أو غمض عليهم مرمى ولم يجدوا مَنْ يفسره لهم سألوا الرسول ﷺ فبينه لهم. وبهذا نشأ علم التفسير.

(١) سورة إبراهيم، الآية:٤.

(٢) سورة يوسف، الآية:٢.

(٣) سورة الشعراء، الآيات:١٩٣-١٩٥.

ثم مَرَّ بمراحل أبرزها:

المرحلة الأولى: التفسير في عهد الرسول ﷺ:

فقد تكفل الله ﷻ بحفظ القرآن ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾[(١)]، كما تكفل لنبيه محمد ﷺ أن يجمع القرآن في صدره ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝١٧﴾[(٢)]، ثم كلف الله نبيه محمدًا عليه الصلاة والسلام أن يبين لهم القرآن وأن يفسره لهم قال تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾[(٣)].

ولذا فقد كان الصحابة ﵃ يرجعون إلى الرسول ﷺ فيما أشكل عليهم فهمه من القرآن فيجدون الجواب الشافي.

وقد اختلف العلماء في مقدار ما فسره الرسول ﷺ من القرآن إلى قولين:

الأول: أنَّ الرسول ﷺ بَيَّن لأصحابه معاني القرآن، كما بين لهم ألفاظه، وهذا قول ابن تيمية وغيره حيث قال: «يجب أن يُعلم أنَّ النبي ﷺ بَيَّن لأصحابه معاني القرآن، كما بَيَّن لهم ألفاظه، فقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ يتناول هذا وهذا»[(٤)].

واستدلوا بأدلة منها:

١- آية النحل: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾[(٥)].

---

(١) سورة الحجر، الآية:٩.

(٢) سورة القيامة، الآيتين:١٦-١٧.

(٣) سورة النحل، الآية:٤٤.

(٤) مقدمة في أصول التفسير: ابن تيمية، تحقيق د. عدنان زرزور، ص٣٥.

(٥) سورة النحل، الآية:٤٤.

والبيان يتناول الألفاظ والمعاني، وكما أنه بيَّن ألفاظه كلها فقد بيَّن معانيه كلها.

٢- حديث أبي عبدالرحمن السُّلمِي: «حدثنا الذين كانوا يُقرئوننا: أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعًا»[١].

٣- وحديث أنس بن مالك رضي الله عنه: «كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدَّ فينا»[٢]. وما ورد أنَّ ابن عمر رضي الله عنهما أقام على حفظ البقرة عدة سنين، قيل: ثمان سنين، ذكره مالك[٣]. قالوا: ولو كان المراد مجرد الحفظ لما احتاج إلا لزمن يسير، فَدَلَّ هذا على أنَّ المراد فهم المعاني.

٤- وقالوا: إنَّ كل كلام المقصود منه فهم معانيه، دون مجرد ألفاظه فالقرآن أولى، والعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابًا في فَنٍّ من العلم كالطبِّ والحساب ولا يستشرحوه، فكيف بكلام الله تعالى الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم[٤].

الثاني: قالت طائفة: أن الرسول ﷺ لم يُبيِّن لأصحابه إلا القليل من معاني الآيات.

---

(١) تفسير الطبري جـ١، ص٨٠، وقال الأستاذ أحمد شاكر: «هذا إسناد صحيح متصل وعَلَّلَ ذلك بأن إيهام الصحابي لا يضر، بل يكون حديثًا مسندًا متصلًا».

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده جـ٢، ص١٢٠.

(٣) الموطأ: مالك بن أنس جـ١، ص٢٠٥.

(٤) لخصت هذه الأدلة من مقدمة في أصول التفسير: لابن تيمية، ص٣٥-٣٧.

واستدلوا بأدلة منها[١]:

١- ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «لم يكن النبي ﷺ يفسر شيئًا من القرآن إلا آيًا بعدد، علمه إياه جبريل عليه السلام»[٢].

٢- قالوا: إن الله لم يأمر نبيه محمدًا ﷺ بالنَّصِّ على المراد في الآيات كلها لأجل أنْ يتفكر عباده في كتابه، والعلمُ بالمراد فيما لم يُنَص على معناه يُستنبَط بأمارات ودلائل[٣].

٣- وقالوا: لو بيَّنَ الرسولُ ﷺ كُلَّ معاني القرآن لَـمَا كان لدعائه لابن عباس: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**»[٤] فائدة؛ لأن الناس على حَدٍّ سواء في تأويله فكيف يخص ابن عباس بهذا الدعاء[٥].

الرأي الراجـح:

والذي أراه أنَّ الرسول ﷺ لم يبين معاني كل الآيات القرآنية لأن:

١- من الآيات ما يرجع فهمها إلى معرفة كلام العرب، والقرآن نزل بلغتهم، ومثل هذا لا يحتاج إلى بيان.

٢- ومنها ما يتبادر فهمه إلى الأذهان لظهوره وبيانه فلا يحتاج إلى بيان، مثل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ﴾[٦]، فالمتبادر تحريم الوطء، ولا يتبادر إلى الذهن وغيره.

---

(١) أورد هذه الأدلة الدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه التفسير والمفسرون جـ١، ص٥١ وما بعدها.

(٢) رواه الطبري في تفسيره جـ١، ص٨٤، وقال في ص٨٩: إنَّ فيه علة لا يجوز معها الاحتجاج به.

(٣) انظر الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٧٤-١٧٥.

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده جـ١، ص٢٦٦، وصححه الألباني شرح الطحاوية ص٢٣٤.

(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ١، ص٣٣.

(٦) سورة النساء، الآية:٢٣.

٣- ومنها ما استأثر بعلمه كقيام الساعة وحقيقة الروح وغير ذلك من الأمور الغيبية التي لم يُطلِعْ الله عليها نبيه محمدًا ﷺ نفسه، فكيف يُبينها لأصحابه وهو لا يعلمها.

٤- ومن الآيات ما لا فائدة في معرفة أكثر من معناها المتبادر، ولا طائل في معرفة ما وراء ذلك مثل معرفة لون كلب أصحاب الكهف وعصا موسى عليه السلام من أي الشجر كانت، وأنواع الطيور التي أحياها الله تعالى لإبراهيم عليه السلام، ومثل هذا لا يبينه الرسول ﷺ لأصحابه لما ذكرته.

وعلى هذا نستطيع الجزم بأنَّ الرسول ﷺ لم يفسر لأصحابه كلَّ آيات القرآن الكريم.

كما أنه لا يصح القول بأنَّ الرسول ﷺ لم يفسر لأصحابه إلا الآيات القليلة. وحديث عائشة رضي الله عنها الذي استدلوا به من رواية محمد بن جعفر الزبيري. قال الطبري: «إنه ممن لا يُعرف في أهل الآثار»[(١)]، وقال ابن كثير: «حديث منكر غريب»[(٢)]. وعلى فرض صحته فقد حمله أبو حيان على مغيبات القرآن وتفسيره لمجمله، ونحوه مما لا سبيل إليه إلا توقيف من الله تعالى[(٣)].

ويكفي في نقض هذا الرأي الروايات الكثيرة في كتب الصحاح المرفوعة للرسول ﷺ في بيان الكثير وليس القليل من آيات القرآن الكريم.

منهج الرسول ﷺ في التفسير:

لم يكن الرسول ﷺ يُطْنِب في تفسير الآية أو يخرج إلى ما لا فائدة في معرفته ولا ثمرة في إدراكه، فكان جُلُّ تفسيره ﷺ بيانًا لمجمل، أو توضيحًا لمشكل، أو تخصيصًا لعام، أو تقييدًا لمطلق أو بيانًا لمعنى لفظ أو متعلقه.

---

(١) تفسير الطبري جـ١، ص٨٩.

(٢) تفسير ابن كثير جـ١، ص٥.

(٣) البحر المحيط: أبو حيان جـ١، ص١٣.

المرحلة الثانية: التفسير في عهد الصحابة رضي الله عنهم:

ذكرنا آنفًا أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا عَرَبًا خُلَّصًا يفهمون القرآن، ويدركون معانيه ومراميه بمقتضى سليقتهم العربية فهمًا لا تُعكِّره عُجمة ولا يشوهه شيء من قبح الابتداع وتَحكّم العقيدة الزائفة[١].

وإذا خفي عليهم معنى أو دَقَّ عليهم مرمى رجعوا إلى الرسول ﷺ فبين لهم ذلك ووضحه، وإن لم يتيسر لهم ذلك رجعوا إلى اجتهادهم، وكان التفاوت بينهم واضحًا في هذه الرتبة، فكان بعضهم يرجع إلى بعض، إذ التفاوت بينهم راجع إلى التفاوت في قوة الفهم والإدراك، والتفاوت فيما أحاط بالآية من ظروف وملابسات، بل كانوا يتفاوتون في معرفة المعاني التي وضعت لها المفردات، فمن مفردات القرآن ما خفي معناه على بعض الصحابة[٢]، وظهر لآخرين منهم، ولا ضير في هذا، فإن اللغة وإنْ أحاط بها مجموع أهلها فإنه لا يُحيط بها كلُّ فرد من أهلها، فقد خفي على عمر بن الخطاب رضي الله عنه معنى الأبّ في قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾[٣]، ومعنى التخوف في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾[٤] حتى قال له رجل من هذيل: التخوف عندما التَّنَقُّص[٥].

(١) التفسير والمفسرون: الذهبي، جـ١، ص٦.

(٢) المرجع السابق، جـ١، ص٣٤.

(٣) سورة عبس، الآية:٣١.

(٤) سورة النحل، الآية:٤٧.

(٥) الموافقات: الشاطبي جـ٢، ص٨٧-٨٨.

وورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «كنت لا أدري ما فاطر السموات حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها يقول: أنا ابتدأتها»(١).

وهذا عدي بن حاتم رضي الله عنه لم يفهم المراد بقوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾(٢)، فكان يجعل عند رأسه عقالًا أبيض وعقالًا أسود حتى بين له الرسولُ ﷺ المراد(٣).

ويرجع تفاوتهم في فهم القرآن – كما أشرنا – إلى أمور عديدة منها:

١ – تفاوتهم في أدوات الفهم كالعلم باللغة، فمنهم من كان واسع الاطلاع فيها مُلِمًّا بغريبها، ومنهم دون ذلك.

٢ – وتفاوتهم في ملازمة الرسول ﷺ وحضور مجالسه.

٣– وتفاوتهم في معرفة أسباب النزول وغيرها مما له تأثيره في فهم الآية.

٤ – وتفاوتهم في العلم الشرعي.

وتفاوتهم في مداركهم العقلية شأنهم شأن غيرهم من البشر، كل هذا وغيره كان من أسباب تفاوتهم في معرفة القرآن وتفسيره، ولذا قال مسروق رحمه الله: «جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاذ (يعني الغدير) فالإخاذ يروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي العشرة، والإخاذ يروي المائة، والإخاذ لو نزل به أهلُ الأرض لأصدرهم»(٤).

---

(١) الإتقان: السيوطي جـ١، ص١٤٩.

(٢) سورة البقرة، الآية:١٨٧.

(٣) انظر صحيح البخاري جـ٥، ص١٥٦.

(٤) التفسير والمفسرون: الذهبي جـ١، ص٣٦.

وقد تميز تفسير الصحابة رضي الله عنهم بمزايا منها:

١- قلة الأخذ بالإسرائيليات، وتناولها في التفسير لحرصه ﷺ على اقتصار أصحابه على نبع الإسلام الصافي الذي لم تكدره الأهواء، ولم تَشُبْه الاختلافات والافتراءات، يدل على هذا المقصد غضبُه ﷺ حين رأى في يد عمر رضي الله عنه صحيفة من التوراة[١].

٢- لم يكن تفسيرهم يشمل القرآن كله، إذ إن بعض الآيات من الوضوح لديهم بحيث لا تحتاج إلى خوض في تفسيرها؛ لتضلعهم في اللغة ومعرفتهم بأحوال المجتمع آنذاك، وغير ذلك من الأسباب.

٣- وقد كانوا لا يتكلفون التفسير، ولا يتعمقون فيه تعمقًا مذمومًا، فقد كانوا يكتفون في بعض الآيات بالمعنى العام، ولا يلتزمون بالتفصيل فيما لا فائدة كبيرة في تفصيله، فيكتفون مثلًا بمعرفة أنَّ المراد بقوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ٣١﴾[٢] أنه تعداد لنِعَمِ الله تعالى على عباده[٣].

٤- قلة تدوينهم للتفسير، وأنَّ أغلب ما روي عنهم كان بالرواية والتلقين وليس بالتدوين، وإن كان بعض الصحابة يعتني بالتدوين، فقد دَوَّنَ عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه صحيفته التي يسميها الصادقة ويقول عنها: «هذه الصادقة، فيها ما سمعته من رسول الله ﷺ، ليس بيني وبينه فيها أحد»[٤]. وهي موجودة في مسند الإمام أحمد[٥]، لكن هذا التدوين كان نادرًا.

---

(١) مسند الإمام أحمد: جـ٣، ص٣٨٧، والدر المنثور: السيوطي، جـ٢، ص٤٨.

(٢) سورة عبس، الآية:٣١.

(٣) مجموع الفتاوى: ابن تيمية، جمع عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد، جـ١٣، ص٣٧٢.

(٤) الطبقات الكبرى: ابن سعد، ص١٨٩ قسم٢ جـ١٧، وتقييد العلم: الخطيب البغدادي، ص٨٤.

(٥) مسند الإمام أحمد: من ص٢٣٥، جـ٩، والجزءين (١٠) و(١١) بكاملها وجـ(١٢) إلى ص٥١.

منهج الصحابة رضي الله عنهم في التفسير:

يقوم منهج الصحابة رضي الله عنهم في التفسير على ثلاثة أسس:

الأول: تفسير القرآن بالقرآن:

فإن من آيات القرآن ما جاء مجملًا في موضع، وجاء في موضع آخر مبينًا، ومنه ما فيه إيجاز، وما فيه إطناب، ومنه ما فيه عموم وما فيه خصوص، وما فيه إطلاق، وما فيه تقييد، ومثل هذا يُفَسَّرُ بعضه ببعض.

فقصص القرآن مثلًا جاءت في بعض المواضع موجزة، وجاءت القصة نفسها في موضع آخر مفصلة كقصة آدم وإبليس، وقصة موسى عليه السلام مع فرعون.

وهذا النوع هو أحسن طرق التفسير كما قال ابن تيمية رحمه الله[١].

الثاني: تفسير القرآن بأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم:

وإن لم يجد الصحابة رضي الله عنهم تفسير الآية في القرآن رجعوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فسألوه عنها، فبينها لهم لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾[٢].

وقد أفردت كتب السنة بابًا للتفسير بالمأثور، ذكرت فيه كثيرًا من التفسير النبوي للقرآن الكريم.

والأمثلة على أسئلة الصحابة رضي الله عنهم للرسول صلى الله عليه وسلم في التفسير كثيرة، منها ما رواه أحمد والشيخان[٣] وغيرهم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ

---

(١) مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية، ص٩٣.

(٢) سورة النحل، الآية:٤٤.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده، جـ١، ص٣٧٨، ورواه البخاري في صحيحه، جـ٨، ص٤٨، ورواه مسلم في صحيحه، جـ١، ص١١٤-١١٥.

يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾[١] شَقَّ ذلك على الناس وقالوا: يا رسول الله! فأيّنا لا يظلم نفسه؟ قال: إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾[٢] إنما هو الشرك.

وروى الترمذي عن علي رضي الله عنه أنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن يوم الحج الأكبر، فقال: «**يوم النحر**»[٣].

وما أخرجه أحمد والشيخان[٤] عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من نُوقِشَ الحساب عُذِّب**» قلت: أليس يقول الله: ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ٨﴾[٥]. قال: «**ليس ذلك بالحساب ولكن ذلك العرض**».

وغير ذلك كثير في تفسير الرسول ﷺ للقرآن، بل كان كثير من تفسيره ﷺ ابتداءً من غير سؤال كما روى مسلم[٦] وغيره عن عُقْبَة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: «﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾[٧] **ألا وإنَّ القوة الرمي**».

---

(١) سورة الأنعام، الآية:٨٢.

(٢) سورة لقمان، الآية:١٣.

(٣) الجامع الصحيح: الترمذي، جـ٣، ص٢٩١.

(٤) مسند الإمام أحمد: جـ٦، ص٩١، وصحيح البخاري: جـ٧، ص١٩٧، وصحيح مسلم: جـ٤، ص٢٢٠٤.

(٥) سورة الانشقاق، الآية:٨.

(٦) صحيح مسلم: جـ٣، ص١٥٢٢.

(٧) سورة الأنفال، الآية:٦٠.

وما أخرجه أحمد ومسلم[١] عن أنس رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الكوثر نهر أعطانيه الله عز وجل في الجنة**».

الثالث: الاجتهاد والاستنباط:

فإن لم يجد الصحابة رضي الله عنهم التفسير في القرآن ولا في سنة رسول الله ﷺ اجتهدوا؛ لأنهم عرب خُلَّصٌ شاهدوا التنزيل، وحضروا مجالس الرسول ﷺ والقرآن نزل بلسان عربي مبين، وهذا فيما يحتاج إلى اجتهاد وإعمال ذهن، وقد توافرت عندهم أدوات الاجتهاد فهم[٢]:

أولًا: يعرفون أوضاع اللغة العربية وأسرارها، وهذا يعينهم على معرفة الآيات التي يتوقف فهمها على فهم اللغة العربية.

ثانيًا: يعرفون عادات العرب وأخلاقهم، وهذا يُعين على فهم ما يتعلق بإصلاح عاداتهم وتهذيب سلوكهم من الآيات، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾[٣]، وقوله: ﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾[٤]، ومثل هذا يَفهمُ المراد منه من كان يعرف عادات العرب في الجاهلية.

ثالثًا: معرفتهم بأحوال اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول القرآن الكريم، وهذا يُعينهم على معرفة الآيات التي تتحدث عن اليهود والنصارى وما يأتون من أمور وما يُدبرون للمسلمين.

---

(١) مسند الإمام أحمد: جـ٣، ص٢٣٦، وصحيح مسلم: جـ١، ص٣٠٠-٣٠١.

(٢) انظر التفسير والمفسرون: الذهبي، جـ١، ص٥٨-٥٩.

(٣) سورة التوبة، الآية:٣٧.

(٤) سورة البقرة، الآية:١٨٩.

رابعًا: معرفة أسباب النزول فهم الذين شاهدوا التنزيل وحضروا الأحداث والوقائع، ومعرفة ذلك تُعين على فهم كثير من الآيات، ولذلك قال ابن تيمية رحمه الله: «معرفة سبب النزول يُعين على فهم الآية، فإنَّ العلم بالسبب يورث العلم بالمُسَبَّب»[(١)].

خامسًا: قوة الفهم والإدراك فقد آتاهم الله عقلًا وفهمًا جَلَوا به كثيرًا من الأمور، وهذا أمر معلوم من سيرتهم رضي الله عنهم.

وبهذه الأمور فَهِمَ الصحابةُ كثيرًا من آيات القرآن الكريم التي لم يَرِدْ تفسيرها في الكتاب ولا في السنة.

وهم يتفاوتون في معرفة معاني القرآن حسب تفاوت مداركهم وتحصيلهم، وحسب تفاوت قدراتهم العقلية، ولذا يقع بينهم اختلاف في التفسير كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

واشتهر عدد من الصحابة بالتفسير هم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعبدالله بن مسعود وعبدالله بن عباس وعبدالله بن الزبير بن العوام، وأُبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعائشة رضي الله عنهم أجمعين. وهؤلاء هم الذين اشتهروا بالتفسير، وهناك عدد آخر من الصحابة نُقِلَ عنهم في التفسير نقلًا قليلًا لم يصل بهم إلى درجة الشهرة، ومنهم أنس وأبو هريرة وابن عمر وجابر بن عبدالله وعبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم.

أما أكثر الصحابة رضي الله عنهم رواية في التفسير فأربعة هم:

١ - علي بن أبي طالب.

٢ - عبدالله بن مسعود.

٣- عبدالله بن عباس.

٤- أُبي بن كعب.

(١) مقدمة في أصول التفسير: ابن تيمية، ص٤٧.

أما علي رضي الله عنه فيرجع السبب في ذلك إلى سعة علمه وتفرغه عن مَهَامِّ الخلافة مدة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، وتأخر وفاته إلى زمنٍ كثرت حاجةُ الناس فيه إلى مَنْ يُفَسِّر لهم القرآن لاتساع رقعة الإسلام وكثرة الداخلين فيه.

أما الثلاثة الباقون فلأنهم أنشأوا ما نستطيع أن نسميه بالمصطلح الحديث مدارس للتفسير وهي:

١- مدرسة ابن مسعود في الكوفة:

وابن مسعود رضي الله عنه سادس رجل دخل في الإسلام، وأول من جهر بالقرآن في مكة بعد الرسول ﷺ، وكان خادمًا لرسول الله ﷺ وصاحب طهوره وسواكه ونعله، ويمشي أمامه إذا سار، ويستره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، قرأ القرآن على الرسول ﷺ حتى فاضت عيناه، وكان الرسول ﷺ يقول: «**من سره أن يقرأ القرآن غضًّا كما أُنْزِلَ فيقرأه على قراءة ابن أمِّ عبد**»[(١)]. بعثه عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الكوفة ليُعلِّمَ أهلها. وقال: لقد آثرتُ أهلَ الكوفة بابن أمِّ عبد على نفسي؛ إنَّه من أطولنا فَوقَا، كنيف مُلئ عِلْمًا[(٢)].

ولما قدم علي بن أبي طالب رضي الله عنه الكوفة قال له أهل الكوفة: «ما رأينا رجلًا أحسن خُلُقًا، ولا أرفق تعليمًا ولا أحسن مجالسة ولا أشد ورعًا من ابن مسعود! فقال علي: نشدتكم الله، إنه لصِدْقٌ من قلوبكم؟ قالوا: نعم. فقال: اللهم إنِّي أشهدك، اللهم إني أقول فيه مثل ما قالوا أو أفضل»[(٣)].

---

(١) مسند الإمام أحمد: جـ١، ص٧.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد: جـ٦، ص٩. قال في القاموس ص١١٨٧: «فاق أصحابه فوقًا وفواقًا: علاهم بالشرف»، والكنيف تصغير للكِنْفِ وهو الوعاء.

(٣) الطبقات الكبرى: ابن سعد: جـ٣، ص١٥٦.

وقال ابن مسعود عن نفسه: «والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته»(١). توفي رضي الله عنه سنة (٣٢هـ).

ومن أشهر تلاميذه: مسروق بن الأجدع، وعلقمة بن قيس النخعي، والأسود بن يزيد، وقتادة بن دعامة السدوسي، وأبو عبدالرحمن السلمي، وعمرو بن شرحبيل وغيرهم.

٢- مدرسة عبدالله بن عباس رضي الله عنهما في مكة:

وابن عباس هو ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، وأمُّه لُبابة الكبرى بنت الحارث، وخالته ميمونة بنت الحارث زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم وأم المؤمنين. قال عنه ابن مسعود رضي الله عنه: «نِعْمَ ترجمان القرآن ابن عباس»(٢). وقال ابن عمر رضي الله عنهما: «ابن عباس أعلم من بقي بما أنزل الله على محمد»(٣). دعا له الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**»(٤)، وقيل لطاوس: لزمت هذا الغلام - يعني ابن عباس - وتركت الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم!! قال: إنِّي رأيتُ سبعين رجلًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تدارءوا في أمرٍ صاروا إلى قول ابن عباس(٥). وتوفي رضي الله عنه سنة (٦٨هـ).

ولمكانة ابن عباس رضي الله عنهما في التفسير ومنزلته الكبيرة فقد كثر الوضع عليه في هذا الباب.

---

(١) مقدمة في أصول التفسير: ابن تيمية، ص٩٦. وانظر تفسير الطبري: جـ١، ص٨٠.

(٢) سير أعلام النبلاء: الذهبي، جـ٣، ص٣٤٧، والطبقات الكبرى: لابن سعد، جـ٢، ص٣٦٦، والإصابة: لابن حجر، جـ٢، ص٣٣٢.

(٣) الإصابة: لابن حجر، جـ٢، ص٣٣٢.

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده، جـ١، ص٢٦٦، وصححه الألباني في شرح الطحاوية ص٢٣٤.

(٥) الإصابة: ابن حجر، جـ٢، ص٣٣٣.

ومن أشهر تلاميذ ابن عباس رضي الله عنه: مجاهد بن جبر، وسعيد بن جبير، وطاوس بن كيسان، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس.

٣- مدرسة أبي بن كعب رضي الله عنه في المدينة:

وهو من الخزرج من الأنصار، شهد العقبة وبدرًا، وأول من كتب للرسول ﷺ بعد قدومه للمدينة، وكان سَيِّدَ القُراء، وأحد كُتَّاب الوحي، قال عنه الرسول ﷺ: «**أقرؤهم لكتاب الله أُبيُّ بن كعب**»(١).

وروى أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال لأُبيٍّ بن كعب: «**إنَّ الله أمرني أن أقرأ عليك** ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾». قال: وسماني لك؟ قال: «**نعم**»، فبكى(٢). توفي رضي الله عنه في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وروى عنه أبو العالية الرياحي نسخة كبيرة في التفسير، أخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيرًا، وأخرج منها الحاكم في المستدرك والإمام أحمد في مسنده(٣).

ومن أشهر تلاميذه: أبو العالية الرياحي، وزيد بن أسلم، ومحمد بن كعب القرظي، وابنه الطُّفَيْلُ بن أُبيّ بن كعب.

---

(١) رواه الترمذي: جـ٥، ص٦٦٥، وابن ماجه، جـ١، ص٦٨.

(٢) مسند الإمام أحمد: جـ٣، ص١٣٠.

(٣) التفسير والمفسرون: الذهبي، جـ١، ص٩٣.

حكم تفسير الصحابي:

تفسير الصحابي ينقسم إلى قسمين:

١- إذا كان مما ليس للرأي فيه مجال كالأمور الغيبية، وأسباب النزول ونحوها، فله حُكْمُ المرفوع يجبُ الأخذُ به.

٢- وإذا كان غير ذلك مما يرجع إلى اجتهاد الصحابي فهو موقوف عليه ما دام لم يسنده إلى الرسول ﷺ، وأوجب بعضُ العلماء الأخذ بموقوف الصحابي لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها وليست لغيرهم(١).

قال ابن تيمية ﵀: «وحينئذٍ إذا لم تجد التفسير في القرآن - ولا في السنة رجعت في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدْرَى بذلك، لما شاهدوه من القرآن، والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح لاسيما علماؤهم وكبراؤهم»(٢).

وقال الزركشي ﵀ وهو يعد أمهات مآخذ التفسير: «الثاني: الأخذ بقول الصحابي، فإنَّ تفسيرهم عندهم بمنزلة المرفوع إلى النبي ﷺ كما قاله الحاكم في تفسيره»(٣). وقال في موضع آخر: «ينظر في تفسير الصحابي فإن فَسَّره من حيث اللغة فهم أهلُ اللسان، فلا شك في اعتمادهم، وإن فسره بما شاهده من الأسباب والقرائن فلا شك فيه»(٤).

---

(١) لمزيد بيان انظر كتابي (قول الصحابي في التفسير الأندلسي).

(٢) مقدمة في أصول التفسير: ابن تيمية، ص٩٥.

(٣) البرهان: الزركشي، جـ٢، ص١٥٧.

(٤) المرجع السابق، جـ٢، ص١٧٢.

المرحلة الثالثة: التفسير في عهد التابعين رحمهم الله تعالى:

لم يكن ثمة فارق كبير بين منهج الصحابة رضي الله عنهم ومنهج التابعين، فقد تَلَقَّى التابعون تفسيرهم من الصحابة رضي الله عنهم كما أسلفنا.

وكان التابعون يَتَحرَّجون من التفسير كما تَحَرَّج الصحابة رضي الله عنهم، فهذا سعيد بن المسيب رحمه الله كان إذا سُئلَ عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع[١]. وهذا الشعبيُّ يقول: «والله ما من آية ألا وقد سألت عنها ولكنها الرواية عن الله»[٢]. وهذا القول منهم رحمهم الله تعالى محمول على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا عِلْمَ لهم به، فأمَّا من تَكَلَّمَ بما يعلم من ذلك لغة وشرعًا فلا حرج عليه[٣].

منهج التابعين في التفسير:

يشترك التابعون رحمهم الله تعالى مع الصحابة رضي الله عنهم في أهم أسس التفسير، إلا أنهم نظرًا لتلقيهم التفسير عن الصحابة واتساع الفتوحات الإسلامية جَدَّت أُسُسٌ أخرى، فمنهج التابعين رحمهم الله تعالى يقوم على:

١- تفسير القرآن بالقرآن كما مر في منهج الصحابة رضي الله عنهم.

٢- تفسير القرآن بالسنة النبوية كما مر - أيضًا - في منهج الصحابة رضي الله عنهم.

٣- تفسير القرآن بأقوال الصحابة، فإنَّ التابعين رحمهم الله تعالى كانوا يرجعون إلى تفسير الصحابة رضي الله عنهم، ويُقدمونه على أقوالهم وهم الذين تلقوا التفسير عن الصحابة وعرضوه عليهم.

(١) مقدمة في أصول التفسير: ابن تيمية، ص١١٢.

(٢) المرجع السابق: ص١١٣.

(٣) المرجع السابق: ص١١٤.

كما قال مجاهد بن جبير: «عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كُلِّ آية منه وأسأله عنها»[١].

٤- الفهم والاجتهاد فإنْ لَـمْ يجد التابعون التفسير في القرآن ولا في السنة ولا في أقوال الصحابة اجتهدوا، فهم أهلٌ للاجتهاد، وهم الذين يعلمون لغة العرب ومناحيهم في القول، وقد تلقوا التفسير عن الصحابة وسمعوا منهم ما لم يسمعه غيرهم، فحق لهم أن يجتهدوا بعد ذلك.

٥- أقوال أهل الكتاب من اليهود والنصارى:

وذلك أنَّ القرآن الكريم يذكر قصص الأنبياء السابقين والأمم الماضية ذكرًا موجزًا، ولم يتعرض لتفاصيل هذه الأحداث والقصص، والنفوسُ تميلُ إلى الاستيفاء والاستقصاء، فلما اتسعت الفتوحات الإسلامية ودخل في الإسلام أمم من أهل الكتاب الذين يعرفون تفاصيل هذه القصص من التوراة والإنجيل صاروا يروون هذا للناس، وصار الناس يُقبلون على سماعها حُبًّا لسماع تفاصيل القصص والأخبار القرآنية، فدخل في التفسير طائفة من هذه الأخبار التي تعرف بالإسرائيليات.

وأكثر من رويت عنه الإسرائيليات: عبدالله بن سلام، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبدالملك بن جريج.

---

(١) المرجع السابق: ص١٠٢.

مزايا تفسير التابعين رحمهم الله تعالى:

ويتميز تفسير التابعين رحمهم الله تعالى بمزايا عديدة منها:

١ - دخول الإسرائيليات في التفسير.

٢ - لاتساع الفتوحات الإسلامية ودخول كثير من العجم في الإسلام زادت الحاجة إلى كثير من الآيات التي لم يتناولها الصحابة رضي الله عنهم لظهور معناها عندهم، فزاد التابعون تفسير ما احتاج الناس إلى تفسيره، فأتموا التفسير وشمل القرآن كله.

٣- ظل التفسير في هذا العهد محتفظًا بطابع التَّلَقِّي والرواية، وإن كانت هذه الرواية ذات صبغة خاصة؛ ذلك أنَّ أهل كل مصر يعنون بشكل خاص بالتلقي والرواية عن إمام مِصرِهِم، فالمكِّيُّون عن ابن عباس، والمدنيون عن أبَيٍّ، والعراقيون عن ابن مسعود[١].

٤- كثرة الخلافات التفسيرية وزيادتها عما كانت عليه في عهد الصحابة، فهم قد تناولوا ما اشتمل عليه تفسيرهم، وأضافوا إليه آراءهم حسب اجتهادهم، ومن ثَمَّ زادت الأقوال والتفسيرات في الآية الواحدة.

٥- ظهرت نواة الخلاف المذهبي، فظهرت بعض الآراء التي تحمل في طياتها بذور هذه المذاهب.

٦- كان التفسير في ذلك العهد مرويًّا بإسناد كل قول إلى صاحبه، ونسبته إليه حتى تُعرَف الأقوال ويُمَيِّز بين قويها وضعيفها، وصحيحها وسقيمها.

أشهر المفسرين من التابعين:

وممن اشتهر بالتفسير من التابعين:

مجاهد بن جبر، وسعيد بن جبير، وعطاء، وعكرمة، والحسن البصري، وزيد بن أسلم، وقتادة بن دعامة السدوسي، ومحمد بن كعب القرظي، وأبو العالية الرياحي، وعامر الشعبي، وغيرهم.

(١) انظر التفسير والمفسرون: الذهبي، جـ١، ص١٣١.

حكم تفسير التابعي:

اختلف العلماء في حكم الرجوع إلى تفسير التابعي للآية إذا لم يَرِد تفسيرٌ لها عن الرسول ﷺ ولا عن أحد من أصحابه ﷺ:

فقالت طائفة منهم ابن عقيل ورواية عن الإمام أحمد وشعبة أنه لا يجب الأخذُ بتفسير التابعي لأنهم:

١- ليس لهم سماع من الرسول ﷺ، فلا يُمكن أنْ يُحمل تفسيرهم على أنهم سمعوه من الرسول ﷺ كالصحابة.

٢- أنهم لم يشاهدوا القرائن والأحوال التي نَزَلَ عليها القرآن، فيجوز عليهم الخطأ في فهم المراد، وظن ما ليس بدليل دليلًا.

٣- أنَّ عدالة التابعين غير منصوص عليها كما نُصَّ على عدالة الصحابي، كما نقل عن أبي حنيفة رحمه الله أنَّه قال: ما جاء عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين، وما جاء عن أصحابه فلا أتركه، وما جاء عن التابعين فهم رجال اجتهدوا، ونحن رجال نجتهد[١].

وقالت طائفة: وهم أكثر المفسرين ورواية أخرى عن الإمام أحمد رحمه الله: أنه يؤخذ بقول التابعين في التفسير إذا لم نجد تفسيرها في السنة ولا في أقوال الصحابة رضي الله عنهم؛ لأنهم تلقوا التفسير عن الصحابة رضي الله عنهم وحضروا مجالسهم، ونَهَلُوا من علمهم وسمعوا منهم ما لم يسمعه غيرهم، فقد عَرَضَ مجاهد المصحف على ابن عباس ثلاث مرات يسأله عن كل آية - كما مَرَّ -. وقتادة بن دعامة يقول: «ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئًا»[٢].

---

(١) فواتح الرحموت بشرح مُسَلَّم الثبوت: ابن عبدالشكور، جـ٢، ص١٨٨.

(٢) طبقات المفسرين: الداودي، جـ٢، ص٤٣.

وقال الشعبي: «والله ما من آية إلا وقد سألت عنها»[١].

والرأي الراجح: التفصيل كما قال ابن تيمية ﷺ: فإن أجمعوا على تفسير واحد وَجَبَ الأخذُ به، ولا يُرتاب في كونه حجة.

وإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على مَنْ بعدهم، ويُرْجَعُ في ذلك إلى لغة القرآن، أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك[٢].

(قلت): وهذا مما لا خلاف فيه، وإنما الخلاف فيما إذا ورد التفسير عن تابعي، ولم يعرف له مخالف من التابعين، فهذا مما ينبغي الأخذ به وتقديمه على غيره لما لهم من فضل ومزية على من بعدهم في العلم.

المرحلة الرابعة: التفسير في عهد التدوين:

قلنا: إن التفسير في المراحل السابقة كان بالرواية والتلقين، وإن كان هناك تدوين فهو تدوين قليل تطغى عليه الرواية، وتستأثر بالصبغة العامة للمراحل المذكورة.

وقد بدأ عصر التدوين في أواخر القرن الأول الهجري حيث دون الحديث النبوي الشريف بمختلف موضوعاته وأبوابه، ونستطيع أن نقول: إن تدوين التفسير مَرَّ بمراحل هي:

المرحلة الأولى:

دُوِّن فيها التفسير على أنَّه بابٌ من أبواب الحديث كباب الطهارة وباب الصلاة وباب الزكاة وباب الحج وغيرها، ولم يُفرد للتفسير تأليف خاص لا يتناول إلا التفسير سورة سورة وآية آية من أول القرآن إلى آخره.

---

(١) مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية، ص١١٣.

(٢) المرجع السابق، ابن تيمية، ص١٠٥.

وممن دون التفسير في هذه المرحلة على أنه باب من أبواب الحديث:

- يزيد بن هارون السلمي (ت١١٧هـ).
- شعبة بن الحجاج (ت١٦٠هـ).
- وكيع بن الجراح (ت١٩٧هـ).
- عبد بن حميد (ت٢٤٩هـ).

وغير هؤلاء. وتتميز هذه المرحلة بمزايا منها:

١- كان لهم عناية خاصة بالإسناد.

٢- لم يكن جمعهم للتفسير مستقلًا، بل على أنه باب من أبواب الحديث.

٣- لم يقتصر على التفسير المرفوع للرسول ﷺ، بل اشتمل على تفسير الصحابي والتابعي.

المرحلة الثانية:

أصبح التفسير في هذه المرحلة علمًا مستقلًا قائمًا بنفسه شاملًا لآيات القرآن الكريم وسوره مرتبًا حسب ترتيب المصحف.

وقد نَصَّ ابن تيمية(١) وابنُ خِلِّكَان(٢) على أن أوَّل من صَنَّفَ في التفسير عبدالملك بن جريج (٨٠-١٤٠هـ).

وأشهر من أَلَّف في هذه المرحلة:

- ابن ماجه (ت٢٧٣هـ).
- ابن جرير الطبري (ت٣١٠هـ).

---

(١) مجموع الفتاوى: ابن تيمية، جـ٢٠، ص٣٢٢.

(٢) وفيات الأعيان: ابن خلكان، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، جـ٢، ص٣٣٨.

- أبو بكر المنذر النيسابوري (ت٣١٨هـ).
- ابن أبي حاتم (ت٣٢٧هـ).
- ابن حبان (ت٣٦٩هـ).
- الحاكم (ت٤٠٥هـ).
- ابن مردويه (ت٤١٠هـ).

وغير هؤلاء، ويتميز التدوين في تلك المرحلة بـ:

١- أنَّ ما دون فيها كان بالتفسير المأثور عن الرسول ﷺ وعن أصحابه وتابعيهم رضي الله عنهم.

٢- كان التفسير في تلك المرحلة بالإسناد المتصل إلى صاحب التفسير المروي عنه.

٣- لم تكن لهم عناية بالنقد وتحري الصحة في رواية الأحاديث في التفسير بل إن بعضهم ذكر ما رُوي في كلِّ آية من صحيح وسقيم ولم يتحر الصحة كابن جريج مثلًا[1] ويرجع السببُ في ذلك إلى ذكرهم للإسناد فهم يكتفون بذكر الإسناد عن بيان درجة المرويّ على حد قول القائل من أسند فقد أبرأ ذمته.

٤- اتسعت رواية الإسرائيليات فدُوِّن الكثيرُ منها ضِمْنَ التفسير.

المرحلة الثالثة:

كانت تلك المرحلة منعطفًا خطيرًا في تاريخ التفسير بدأت حين اتجه بعض المفسرين إلى اختصار الأسانيد ونقلوا الآثار المرية عن السلف دون أن ينسبوها إلى قائليها فاختلط الصحيح بالضعيف وكانت تلك الهفوة من أخطر الهفوات وأوسع الفجوات لنفوذ الأعداء إلى الدين ليَضعوا فيه ما لا يرتضيه، ويُنَحِّلوه ما ليس من مبادئه، لولا أن الله هَيَّأَ لهذا الأمر من علماء الإسلام من كشف زيف الزائفين ودَسَّ المُغرضين ومَيَّزَ بين الصحيح والسقيم وحفظ الله تعالى لهذه الأمة هذا الدين.

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٨٨.

كما ازداد في هذه المرحلة القولُ في التفسير بالرأي المحمود منه والمذموم وتجرأوا على القول في القرآن بغير علم، وحرص بعضهم على الإكثار من رواية الأقوال في تفسير الآية الواحدة، فصار كل من يسنح له قول يُورده من غير أنْ يخطر بباله شيء يَعتَّمد عليه فيأتي مَنْ بَعْدَه فيظن أنَّ لِـمَا أورد أصلًا غير مُلتَّفِت لصحة ولا باحثًا عن سند(١).

وتطورت كثيرًا رواية الإسرائيليات وتوسعت في استقصاء الأخبار الإسرائيلية والخوض فيما لا فائدة في معرفته واشتغلوا بهذا عن البحث الجَادّ الأسمى في أمور الدين.

المرحلة الرابعة:

وهذه نتيجة حتمية للمرحلة السابقة فقد انفتح بابُ التفسير على مصراعيه فدخل منه الغثُّ والسمين، والصحيح والعليل، ولم يَزلْ مفتوحًا إلى يومنا هذا فبعد أن كان التفسير يعتمد على النقل عن الرسول ﷺ وأصحابه والتابعين رأيناه في تلك المرحلة يعتمد على التفسير بالرأي وذلك نتيجة لنشأة كثير من الفرق والمِلَل والمذاهب في الإسلام فأصبح أصحابُ كل مذهب يتجهون إلى آيات القرآن ويفسرونها حسب ما يوافق مذاهبهم ومعتقداتهم كما اعتنى أرباب العلوم بما يوافق علومهم فكان كلُّ مَنْ بَرَعَ في علمٍ من العلوم غَلَبَ ذلك على تفسيره، فالفقيه يكاد يسرد فيه الفقه وربما استطرد إلى إقامة أدلَّة الفروع والرد على المخالفين، كالقرطبي والجصَّاص والإخباري ليس له هَمٌّ إلا سَرْدُ القصص واستيفاؤها.. كالثعلبي، والنحويُّ ليس له هَمٌّ إلا الإعراب وتكثير الأوجه المحتملة فيه كالزجاج والواحدي وأبي حيان.. وصاحبُ العلوم العقلية ملأ تفسيره بأقوال الحُكماء والفلاسفة وشبههم والرَدُّ عليهم كالفخر الرازي(٢).

---

(١) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٩٠.

(٢) الإتقان: السيوطي، جـ٢، ص١٩٠.

وهكذا نرى كُلَّ صاحب فن أو مذهب يُفسر القرآن بما يتناسب مع فنه، أو يوافق مشربه، أو يشهد لمذهبه ولو كان بعيدًا كُلَّ البعد عن المقصد الذي نَزَلَ من أجله القرآن(١).

تلكم أهمُّ المراحل التي مَرَّ بها تدوين التفسير. لكن ينبغي أن نُدرك أن تتابع هذه المراحل لا يعني أنَّ كُلَّ مرحلة منفصلة انفصالًا تامًّا عن المرحلة السابقة لها أو التالية، بل ظلت كل مرحلة موجودة في المرحلة أو المراحل التالية لها وقد توجد لها نواة أو بذور في المرحلة السابقة لها أيضًا.

أهم المؤلفات في عصر التدوين:

ليس من السهل ذكر المؤلفات في عصر التدوين الذي امتدَّ من نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني إلى عصرنا الحاضر، فضلًا عن استقصاء ذلك.

وإذا كان الأمر كذلك فسنذكر أهم المؤلفات إجمالًا:

فمن أهم المؤلفات في التفسير بالمأثور:

١- جامع البيان في تفسر القرآن — المعروف بتفسير الطبري.
٢- بحر العلوم — لأبي الليث السمرقندي.
٣- الكشف والبيان عن تفسير القرآن — للثعلبي.
٤- معالم التنزيل — البغوي.
٥- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز — لابن عطية.
٦- الدر المنثور في التفسير بالمأثور — السيوطي.
٧- تفسير القرآن العظيم — المعروف بـ«تفسير ابن كثير».

(١) انظر مناهل العرفان: الزرقاني، جـ١، ص٥٠١.

٨- الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي.

٩- فتح القدير الشوكاني.

١٠- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي.

ومن أهم المؤلفات في التفسير بالرأي:

١- الكشاف الزمخشري.

٢- مفاتيح الغيب الرازي.

٣- مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي.

٤- لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن.

٥- البحر المحيط أبي حيان.

٦- أنوار التنزيل وأسرار التأويل البيضاوي.

٧- تفسير الجلالين جلال الدين المحلي وجلال الدين السوطي.

٨- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود.

٩- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي.

١٠- تفسير المنار محمد رشيد رضا.

١١- في ظلال القرآن سيد قطب.

* * *

اختلاف المفسرين وأسبابه

كان الصحابة رضي الله عنهم يفهمون القرآن الكريم بمقتضى السليقة واللسان العربي، وإذا أشكل عليهم معنى سألوا الرسول ﷺ فبيَّنَه لهم، وكانوا رضي الله عنهم يجتهدون في استنباط معاني ودلالات بعض الآيات القرآنية، ويتفاوتون في ذلك نَتِيجَةَ تفاوتهم في معرفة أسباب النزول وما أحاط بالآيات من أحداث ومُلابسات، فضلًا عن تفاوت القُدُرات العقلية شأنهم شأن البشر، ولذا فقد كان يقعُ بينهم اختلاف في التفسير، إلا أن هذا الاختلاف كان قليلًا جدًا بين الصحابة لأمور منها:

١- وجود الرسول ﷺ بينهم ورجوعهم إليه إذا وُجِدَ بينهم خلاف، فقد كان يجلوه لهم حتى لا يبقى له أثر.

٢- أن الرسول ﷺ كان ينهاهم عن ما يؤدي إلى الاختلاف في القرآن كما روى عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده «أن نفرًا كانوا جلوسًا بباب النبي ﷺ فقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا؟ وقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا؟ فسمع ذلك رسول الله ﷺ فخرج فكأنما فُقِيء في وجهه حبُّ الرُّمان فقال: **أبهذا أُمِرْتُم؟ أو بهذا بُعِثْتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؟ إنَّما ضلَّت الأُمم قبلكم في مثل هذا، إنكم لستم مما ههنا في شيء، انظروا الذي أُمِرْتُم به فاعملوا به، والذي نُهيتُم عنه فانتهوا عنه**»[(١)].

٣- سعةُ علم الصحابة الشرعي ومعرفتهم للغة العربية وأساليبها ومعانيها مما يَسَّرَ لهم معرفة كثير من الآيات بمقتضى اللسان العربي.

٤- تأثيرُ العَصْرِ عليهم، فإنَّ للعصر تأثيره على أبنائه، ومن المعلوم أنَّ عصر الصحابة هو خير العصور، ولذا قال ابن تيمية رحمه الله: «كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن

(١) مسند الإمام أحمد: جـ٢، ص١٩٦، ورجاله ثقات.

قليلًا جدًّا، وهو وإن كان في التابعين أكثر منه في الصحابة فهو قليل بالنسبة إلى ما بعدهم، وكُلَّمَا كان العصر أشرف كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر»[١].

ولهذا نرى الاختلاف يزداد والرقعة تتسع كلما امتد الزمان.

ومع قلة الاختلاف بين الصحابة في تفسير القرآن الكريم، فإن أغلبه يرجع إلى اختلاف التنوع لا إلى اختلاف التضاد، وهو أيسر أنواع الاختلاف.

أنواع اختلاف التنوع:

ونستطيع أن نُرجعَ اختلاف السلف في التفسير إلى أنواع معدودة منها:

أولًا: أن يُعبِّرَ كُلُّ واحد من المفسرين عن المعنى المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى في المُسَمَّى غير المعنى الآخر مع اتحاد المُسَمَّى. ومثال ذلك تفسير «الصراط المستقيم»، فقد قال بعضهم: هو القرآن. وقيل: الإسلام. وقيل: هو السنة والجماعة. وقيل: العبودية. وقيل: طاعة الله ورسوله، فهذه الأقوال كلها تدل على ذات واحدة، لكن وصفها كل منهم بصفة من صفاتها[٢].

الثاني: أنْ يذكر كلُّ مُفسِّر من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع لا على سبيل الحَدِّ المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه.

ومثال ذلك: ما نُقِلَ في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴾[٣].

(١) مقدمة في أصول التفسير: ابن تيمية، ص٣٧.

(٢) المرجع السابق، ص٤١-٤٣.

(٣) سورة فاطر، الآية:٣٢.

فمن المفسرين مَنْ قال: السابق الذي يُصلِّي في أوَّلِ الوقت، والمقتصد الذي يصلي في أثنائه، والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر إلى الاصفرار. ومنهم مَنْ قال: السابق والمقتصد والظالم قد ذكرهم في آخر سورة البقرة، فإنه ذكر المحسن بالصدقة، والظالم بأكل الربا، والعادل بالبيع. ومنهم مَنْ قال: السابق المحسن بأداء المستحبات مع الواجبات، والظالم آكل الربا أو مانع الزكاة، والمقتصد الذي يؤدي الزكاة المفروضة ولا يأكل الربا، وأمثال هذه الأقاويل[١].

فكل قول من هذه الأقوال إنما يذكر نوعًا مما يتناوله نَصُّ الآية لتعريف المستمع وتنبيهه على نظائره، ولا يُضادّ ما ذكره غيره.

الثالث: ما يكون فيه اللفظ محتملًا للأمرين:

ومثاله لفظ «قسورة» فإنه يُراد بها الرامي، ويُراد بها الأسد. ولفظ «عسعس» يُراد به إقبال الليل وإدباره. ولفظ «القَرْء» يُراد به الحيض والطهر.

الرابع: أن يُعبروا عن المعاني بألفاظ متقاربة.

ومثاله أن يفسر أحدهم قوله تعالى: ﴿أَن تُبۡسَلَ﴾[٢] بـ«تُحْبَسَ»، ويقول الآخر: «تُرتَهن» ونحو ذلك.

وكل هذه الأنواع من اختلاف التنوع، وليست من اختلاف التضاد، وهو اختلاف لا ضرر فيه.

قال الزركشي: «يكثر في معنى الآية أقوالهم واختلافهم، ويحكيه المصنفون للتفسير بعبارات متباينة الألفاظ، ويظن مَن لا فهم عنده أنَّ في ذلك اختلافًا فيحكيه أقوالًا، وليس كذلك، بل يكون كل واحد منهم ذكر مَعْنىً ظهر من الآية، وإنَّما اقتصر عليه لأنه

---

(١) مقدمة في أصول التفسير: ابن تيمية، ص٤٣-٤٤.

(٢) من قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ [الأنعام:٧٠].

أظهر عند ذلك القائل، أو لكونه أليق بحال السائل، وقد يكون بعضهم يُخبر عن الشيء بلازمه ونظيره، والآخر بمقصوده وثمرته، والكل يَؤُولُ إلى مَعْنىً واحد غالبًا، والمراد الجميع، فليتفطن لذلك، ولا يُفهم من اختلاف العبارات اختلاف المرادات كما قيل:

عباراتنا شتى وحسنُك واحدُ وكلٌّ إلى ذاك الجمال يُشيرُ[١].

أسباب الاختلاف:

ولاختلاف السلف في التفسير أسباب كثيرة[٢] منها:

أولًا: أنْ يكون في الآية أكثر من قراءة، فيفسر كل منهم الآية على حسب قراءة مخصوصة.

مثال ذلك: ما أخرجه ابن جرير الطبري[٣] عن مجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[٤]، أنَّ معنى «سُكِّرَت» سُدَّت. ثم أخرج عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: سُكرت بمعنى: أخِذَت وسُحِرَت[٥].

ثم أورد قول قتادة[٦]: من قرأ «سُكِّرَت» مشددة يعني سُدَّت، ومن قرأ «سُكِرَت»[٧] مخففة فإنه يعني سحرت.

---

(١) البرهان: الزركشي، جـ٢، ص١٥٩-١٦٠.

(٢) انظر كتاب التسهيل لعلوم التنزيل: وهو تفسير ابن جزي جـ١، ص١٥، وللدكتور سعد الفنيسان كتاب هو (اختلاف المفسرين أسبابه وآثاره) وهو أطروحته للماجستير (مطبوع).

(٣) تفسير ابن جرير الطبري: جـ١٤، ص٩.

(٤) سورة الحجر، الآيتان:١٤-١٥.

(٥) تفسير ابن جرير الطبري: جـ١٤، ص١٠.

(٦) المرجع السابق: جـ١٤، ص١٠.

(٧) قرأ ابن كثير (سُكِرَت) بالتخفيف، وشَدَّده الباقون، انظر الكشف عن وجوه القراءات السبع: مكي بن أبي طالب القيسي: جـ٢ ص٣٠.

ومثاله أيضًا: ما أخرجه ابن جرير الطبري[١] عن الحسن في تفسير قوله تعالى: ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾[٢] أنَّ القطران الذي تُهْنَأ به الإبل، وروى عن ابن عباس وغيره[٣] أنَّه النحاس المُذَاب، فمن قرأ «قَطِرَان» قال بالتفسير الأول، ومن قرأ «قَطْرآن»[٤] قال بالتفسير الثاني، فالاختلاف يرجع إلى الاختلاف في القراءة.

ومثاله أيضًا: الاختلاف الوارد عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾[٥] هل هو الجماع أو اللمس باليد، فقد روى ابن جرير رحمه الله عن ابن عباس أنه الجماع[٦]، وروى عن غيره أنه اللمس باليد[٧]، فمن قرأ «لامستم» قال: إنه الجماع، ومن قرأ «لمستم»[٨] قال: إنه اللمس باليد.

ثانيًا: ومن أسباب اختلاف المفسرين الاختلاف في وجوه الإعراب، ولا شك أن للإعراب تأثيره في المعنى، فليس بين الفاعل والمفعول به مثلًا إلا الضبط بالشكل، ويكفر

(١) تفسير ابن جرير الطبري: جـ١٣، ص١٦٨.
(٢) سورة إبراهيم، الآية:٥٠.
(٣) تفسير ابن جرير الطبري: جـ١٣، ص١٦٨.
(٤) قال ابن جرير جـ١٣ ص١٦٨: «وبهذه القراءة - أعني - بفتح القاف وكسر الظاء وتصيير ذلك كله كلمة واحدة قرأ ذلك جميع قراءة الأمصار، وبها نقرأ لإجماع الحجة من القراء عليه، وقد روي عن بعض المتقدمين أنه كان يقرأ ذلك من قطرآن بفتح القاف وتسكين الطاء وتنوين الراء، وتصيير آن من نعته».
(٥) سورة النساء، الآية:٤٣.
(٦) تفسير ابن جرير، بتحقيق أحمد شاكر، جـ٨، ص٣٨٩.
(٧) المرجع السابق: جـ٨، ص٣٩٤.
(٨) قرأ حمزة والكسائي (أو لمستم) بغير ألف، وقرأ الباقون (أو لامستم) بالألف. انظر الكشف عن وجوه القراءات السبع: لمكي بن أبي طالب. جـ١، ص٣٩١-٣٩٢.

من لحَن مُتعمدًا في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ﴾[١] لو قرأها بكسر اللام من (رسوله)، وكذا قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ﴾[٢] لو قرأها بفتح الواو من المصور، وها أنت ترى أنه ليس بين الكفر والإيمان إلا حركة واحدة، كل هذا يدل على ما للإعراب من تأثير في المعاني.

ومثال الاختلاف في الإعراب، اختلافهم في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾[٣]، فقد اختلفوا في «والراسخون» فقيل: عطف نَسَق على اسم الله عزوجل.

وقيل: هم مرفوعون بالابتداء، والخبر في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾[٤].

ثالثًا: وقد يكون سببه الاختلاف في المراد باللفظ لاحتماله أكثر من معنى:

إما بسبب الاشتراك اللغوي، بمعنى أنَّ الكلمة بحكم وضعها لغة تستعمل لمعنيين مختلفين، فيُفسرها أحدُ العلماء بأحد المعنيين، ويُفسرها آخر بالمعنى الثاني، وكلا التفسيرين جائز وصحيح ما لم يَقُمْ دليل على أحد المعنيين، كلفظ «قسورة» الذي يُطلق على (الرامي) وعلى (الأسد)، ولفظ «عسعس» الذي يُرادُ به إقبال الليل وإدباره، ولفظ (الجون) يطلق على الأسود وعلى الأبيض، ولفظ (النكاح) يطلق على العَقدِ ويطلق على الوطء، ولفظ القَرْء يُراد به الحيض ويُراد به الطهر.

وكما يقع الاشتراك اللفظي في الأسماء والأفعال، فإنه يقع في الحروف كحرف (مِنْ) فإنه يأتي لابتداء الغاية كقوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ

---

(١) سورة التوبة، الآية:٣.

(٢) سورة الحشر، الآية:٢٤.

(٣) سورة آل عمران، الآية:٧.

(٤) المُكتفى في الوقف والابتداء: لأبي عمرو الداني، ص١٩٧.

﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ الآية[١]، وللتبعيض كقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٢]، وللسببية كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ﴾[٣]، وللجنس كقوله ﷻ: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾[٤].

ولما استعمل القرآن الكريم هذه الألفاظ المشتركة ونحوها كانت سببًا لاختلاف العلماء في التفسير.

وإمَّا لكونه متواطئًا في الأصل، لكن المراد به أحد النوعين أو أحد الشخصين كالضمائر في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾[٥]، وكأسماء الجنس مثل ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١﴾ و﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾ و﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾[٦] وما أشبه ذلك، فمثل هذا قد يجوز أن يُراد به كُلُّ المعاني التي قالها السلف، وقد لا يجوز ذلك[٧].

رابعًا: ومن أسباب الاختلاف احتمال الإطلاق والتقييد في الآية:

والمُطلق هو: ما دَلَّ على الماهية بلا قيد[٨].

والمُقَيَّد هو: ما دَلَّ على الماهية بقيد.

(١) سورة الإسراء، الآية:١.

(٢) سورة آل عمران، الآية:٩٢.

(٣) سورة نوح، الآية:٢٥.

(٤) سورة الحج، الآية:٣٠.

(٥) سورة النجم، الآيتان:٨-٩.

(٦) سورة الفجر، الآيات:١-٣.

(٧) مقدمة في أصول التفسير: ابن تيمية، ص٤٩-٥٠.

(٨) الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، جـ٢ ص٣١.

كالدم المقيد بالسفح في قوله تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾[(١)].

ومن المعلوم أنه يجب حَمْل المُطلق على المُقَيَّد إذا وُجِدَ دليل يقتضي التقييد، ويقع الخلاف بين السلف في هذا الدليل، فتراه طائفة فيحملون المُطلق على المُقيد، ولا تراه أخرى فيُبقُون المُطلق على إطلاقه والمقيد على تقييده.

ومثال ذلك عتقُ الرقبة في الكفارات، فقد وردت مقيدة في كفارة القتل الخطأ بالرقبة (المؤمنة) قال تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾[(٢)]، ووردت مُطلقة في كفارة الظهار قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾[(٣)]، ووردت مطلقة أيضًا في كفارة اليمين قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾[(٤)]، فالرقبة في كفارة الظهار واليمين مطلقة تشمل المؤمنة والكافرة، وفي كفارة القتل الخطأ مقيدة بالإيمان، فقالت طائفة بحمل المطلق على المقيد، فلا تجزئ عندهم الرقبة الكافرة في الظهار واليمين، بل لا بدَّ من رقبة مؤمنة كما هي في كفارة القتل الخطأ.

وقالت طائفة أخرى: لا يُحملُ المُطلق على المُقيَّد إلا بدليل، ولا دليل هنا، فيبقى المطلق على إطلاقه، فيجوز عتق الرقبة الكافرة في كفَّارة الظهار واليمين.

---

(١) سورة الأنعام، الآية:١٤٥.

(٢) سورة النساء، الآية:٩٢.

(٣) سورة المجادلة، الآية:٣.

(٤) سورة المائدة، الآية:٨٩.

خامسًا: ومن أسباب الاختلاف العموم والخصوص.

والعام هو اللفظ الواحد الدال على مُسَمَّيين فأكثر في وقت واحد[(١)]، ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾[(٢)]. فلفظ السارق وكذا السارقة عام يشمل كُلَّ مَنْ سَرَق أو سَرقَت من غير حصر في عدد مُعين ومن غير تخصيص.

والفرق بين العموم والاشتراك اللفظي أنَّ المشترك لفظ واحد يطلق على مسميين فأكثر إلا أنه ليس في وقت واحد، فالعين تطلق على الباصرة والحسد وعين الماء، لكن هذا الإطلاق ليس في وقت واحد، فإمَّا يُراد بها هذا أو ذاك، أما السارق فيطلق على أكثر من واحد في وقت واحد.

والخاص هو اللفظ الواحد الدال على مفرد معين، ومثاله لفظ «المائة» في قوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾[(٣)]، ولفظ الثمانين في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً ﴾[(٤)].

فهذه الأعداد تدل على العدد المعين الذي وضعت له لا يشترك معها فيه معنى آخر.

ومن أمثلته أيضًا الركوع والسجود المشار إليهما في قوله تعالى: ﴿ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ ﴾[(٥)]، فإنَّ دلالة اللفظ عليهما قطعية لا يَحْتَمِل معنى آخر غير المعنى المراد.

(١) الإحكام في أصول الأحكام: الآمدي، جـ٢، ص١٩٦.

(٢) سورة المائدة، الآية:٣٨.

(٣) سورة النور، الآية:٢.

(٤) سورة النور، الآية:٤.

(٥) سورة الحج، الآية:٧٧.

وقد يُستعمل اللفظ العام محل الخاص حسب ما يقتضيه الحال كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ١٧٣﴾(١)، فالناس الأولى عامَّة، والمرادُ بها خاص وهو نُعيم بن مسعود، والناس الثانية عامة، لكن المراد بها أبو سفيان وأصحابه.

والعموم والخصوص من أسباب الاختلاف بين المفسرين، فقد يختلفون في عموم لفظ أو خصوصه، كاختلافهم في عموم أو خصوص قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾(٢)، فقيل: إن لفظ المشركات عام يشمل الوثنيات والكتابيات، وقيل: خاص بالوثنيات، وعلى القول الأول فإن قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾(٣) مخصص لهذه الآية، وعند الآخرين غير مخصص؛ لأنه لا يشمل الكتابيات أصلًا.

سادسًا: ومن أسباب اختلاف المفسرين الحقيقة والمجاز:

والحقيقة هي اللفظ المستعمل فيما وُضِعَ لَه(٤).

والمجاز هو اللفظ المستعمل في غير ما وُضِعَ له على وجه يصح مع قرينة دالة على عدم إرادة المعنى الأصلي(٥).

وقد وقع اختلاف بين العلماء في وقوع المجاز، فقالت بوقوعه طائفة وأنكرته أخرى.

---

(١) سورة آل عمران، الآية:١٧٣.

(٢) سورة البقرة، الآية:٢٢١.

(٣) سورة المائدة، الآية:٥.

(٤) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول: الشوكاني، ص٢١.

(٥) شرح العقيدة النسفية: التفتازاني، ص١٧١.

ومثاله اختلاف العلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾[(١)]. فقد قال الحسن والكلبي في تفسيرها: أضحك أهل الجنة في الجنة، وأبكى أهل النار في النار. وقال سهل بن عبدالله: أضحك المطيعين بالرحمة، وأبكى العاصين بالسخط[(٢)]، وهذا التأويل وذاك بالمعنى الحقيقي للضحك والبكاء. وقال الضحاك: «أضحك الأرض بالنبات، وأبكى السماء بالمطر»[(٣)]، وهذا تأويل بالمعنى المجازي.

ومنه – أيضًا – فهم ذلك الصحابي للخيط في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾[(٤)] بمعناه الحقيقي حيث وضع عند رأسه عقالين أحدهما أبيض والآخر أسود، حتى بين له الرسول ﷺ أن المراد بهما بياض النهار وسواد الليل.

ومنها ما ورد في صحيح البخاري في تفسير قوله تعالى في وصف امرأة أبي لهب ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾﴾[(٥)]، حيث روي عن مجاهد قوله: «حمالة الحطب: تمشي بالنميمة»[(٦)]، وقال سعيد ابن جبير: «حمالة الخطايا والذنوب»[(٧)]، وهذان على المعنى المجازي. وفسره بعضهم بالمعنى الحقيقي لحمل الحطب فقيل: في النار، وقيل: إنها كانت تحمل الغضى والشوك فتطرحه في الليل على طريق النبي ﷺ كذا قال ابن زيد والضحاك والربيع بن أنس ومرة الهمداني»[(٨)].

---

(١) سورة النجم، الآية:٤٣.

(٢) فتح القدير: الشوكاني، جـ٥، ص١١٦.

(٣) فتح القدير: الشوكاني، جـ٥، ص١١٦.

(٤) سورة البقرة، الآية:١٨٧.

(٥) سورة المسد، الآية:٤.

(٦) صحيح البخاري: جـ٦ ص٩٥. وهو قول قتادة السدي أيضًا (فتح القدير: جـ٥ ص٥١٢).

(٧) فتح القدير: الشوكاني، جـ٥، ص٥١٢.

(٨) فتح القدير: الشوكاني، جـ٥، ص٥١٢.

سابعًا: ومن أسباب اختلاف المفسرين الإضمار والإظهار:

وبيان ذلك أنَّ المراد قد يكون ظاهرًا لا لبْسَ فيه ولا اختلاف كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾[(١)]، فإنَّ فاعل المجيء ظاهر لا لبس فيه، وكذا فاعلُ التكليم.

ويختلف المفسرون أحيانًا في مرجع الضمير إذ كان الفاعل مضمرًا نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾[(٢)]، فقيل: هو جبريل عليه السلام وهو قول أمِّ المؤمنين عائشة وابن مسعود وأبي ذرّ وأبي هريرة رضي الله عنهم، وقيل: دنا الربُّ من محمد صلى الله عليه وسلم، وهو قول ابن عباس وأنس بن مالك رضي الله عنهم[(٣)].

ثامنًا: ومن أسباب اختلاف المفسرين النسخ والإحكام:

ومن أمثلة الاختلاف في القول بالنسخ اختلافهم في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾[(٤)(٥)].

فقد روى جابر بن عبدالله رضي الله عنه ما يدل على أنها مُحكمة، وأنَّ المراد أنها نزلت في اشتباه القبلة[(٦)]، وروى ابن عمر رضي الله عنهما ما يدل على أنَّها محكمة، وأن المراد بها صلاة

(١) سورة الأعراف، الآية:١٤٣.

(٢) سورة النجم، الآيتان:٨-٩.

(٣) تفسير ابن كثير: جـ٤، ص٢٦٦، وانظر تفسير الطبري: جـ٢٧، ص٢٦.

(٤) سورة البقرة، الآية:١١٥.

(٥) شرح الكوكب المنير: الفتوحي الحنبلي، ص٢٥٤.

(٦) روى جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية كنت فيها، فأصابتنا ظُلْمَةٌ فلَم نعرف القبلة، فقالت طائفة: القبلة هاهنا فصَلّوا وخطّوا خطًّا، وقال بعضهم: هاهنا، فصلّوا وخطّوا خطَّان، فلما =

التطوع[١]، وعلى كلا القولين فإنها محكمة غير منسوخة، وهو - أيضًا - قول سعيد بن المسيب وعطاء والشعبي والنخعي[٢].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها منسوخة، فقد روى عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أول ما نُسِخ من القرآن - فيما ذُكِرَ لنا والله أعلم - شأن القِبلَةِ: قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾[٣]. فاستقبل رسول الله ﷺ فصلى نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق، ثم صرفه الله إلى البيت العتيق فقال: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ﴾[٤]. يعنون بيت المقدس، فنسخها وصُرِفَ إلى البيت العتيق فقال: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ﴾[٥]».

تاسعًا: ومن أسباب اختلاف المفسرين في تفسير الآية:

الاختلاف في الرواية عن الرسول ﷺ، فقد يبلغ أحَدَهم حديثُ الرسول ﷺ ولا يبلغ الآخرَ، فيختلف تفسيرُ كلِّ مُفسِّر عن الآخر. ومثاله في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ

أصبحنا أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة، فلما قَفَلْنا من سفرنا سألنا رسول الله ﷺ عن ذلك فسكت، فنزل الله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾. نواسخ القرآن: ابن الجوزي، ص١٣٩. والحديث رواه الدارقطني في سننه: جـ١، ص٢٧١، والبيهقي في سننه: جـ٢، ص١٠.

(١) روى ابن عمر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يُصلي وهو مُقبلٌ من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه. قال: وفيه نزلت: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾. رواه مسلم: جـ١، ص٤٨٦.

(٢) نواسخ القرآن: ابن الجوزي، ص١٤٠.

(٣) سورة البقرة، الآية:١١٥.

(٤) سورة البقرة، الآية:١٤٢.

(٥) سورة البقرة، الآية:١٤٤.

مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[٢]، فقد استند علي بن أبي طالب وعبدالله بن عباس رضي الله عنهم إلى هاتين الآيتين في أنَّ المرأة التي تُوفي عنها زوجُها تَعْتدّ بأبْعَدِ الأجلين.

أما ابن مسعود رضي الله عنه فقد قال: «من شاء قاسمته بالله أنَّ هذه الآية أنزلت في سورة النساء القُصرى[٣]، نزلت بعد الأربعة الأشهر، ثم قال: أجلُ الحامل أن تَضَعَ ما في بطنها»[٤].

ويشهد لابن مسعود رضي الله عنه حديث سُبَيْعة الأسلمية، فقد تُوفِّيَ عنها زوجها في حجة الوداع وهي حامل، «فلم تَنْشَبْ أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما تَعَلَّت من نِفَاسِها تَجَمَّلت للخُطَّاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بَعْكَك فقال لها: ما لي أراك مُتَجمِّلة؟ لعلك ترجين النكاح، إنَّك والله ما أنت بناكحٍ حتى تَمُرَّ عليك أربعة أشهر وعشر. قالت سُبيعة: فلمَّا قال لي ذلك، جمعت عليَّ ثيابي حين أمسيتُ، فأتيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته عن ذلك؟ فأفتاني بأني قد حَلَلْتُ حين وضعت حَملي وأمرني بالتزوج إنْ بَدَا لي»[٥].

وقد رجع عليٌّ وابن عباس رضي الله عنهم عن قولهما بعد أنْ بلغهما حديث سُبيعة، فقد روى مسلم في صحيحه «أنَّ أبا سَلَمة بن عبدالرحمن وابن عباس اجتمعا عند أبي هريرة، وهما يذكران المرأة تَنْفَس بعد وفاة زوجها بليال فقال ابن عباس: عدَّتُها آخرُ الأجلين. وقال أبو سلمة: قد حَلَّت، فجعلا يتنازعان ذلك، قال: فقال أبو هريرة: أنا مع ابن أخي (يعني

(١) سورة البقرة، الآية:٢٣٤.

(٢) سورة الطلاق، الآية:٤.

(٣) هي سورة الطلاق.

(٤) تفسير الطبري: جـ٢٨، ص٩٢-٩٣.

(٥) صحيح مسلم: جـ٢، ص١١٢٢.

أبا سلمة) فبعثوا كُريبًا (مولى ابن عباس) إلى أمِّ سَلَمة يسألها عن ذلك فجاءهم فأخبرهم أن أم سلمة قالت: إن سبيعة الأسلمية نفسَتْ بعد وفاة زوجها بليالٍ، وأنها ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأمرها أن تتزوج»[١].

تلكم أهم أسباب اختلاف المفسرين في التفسير، وهناك أسباب أخرى غيرُها، ويكفينا منها ما ذكرنا، والله أعلم.

* * *

(١) المرجع السابق: ص١١٢٣.

الوجوه والنظائر

التعريف:

الوجوه لغة: جمع وجه، ووجه كل شيء مُستَقْبَلُه.

ووجه الكلام: السبيل الذي تقصده به[١].

والنظائر لغة: جمع نظيرة، وهي المِثْلُ والشبه في الأشكال، والأخلاق، والأفعال والأقوال[٢].

والوجوه والنظائر في الاصطلاح: اختلف العلماء في تعريفهما إلى قولين:

الأول: لابن الجوزي وآخرين وهو: «أن معنى الوجوه والنظائر أن تكون الكلمة واحدة ذكرت في مواضع من القرآن على لفظٍ واحدٍ، وحركة واحدة، وأريد بكل مكان معنى غير الآخر، فلفظ كل كلمة ذكرت في موضع نظير للفظ الكلمة المذكورة في الموضع الآخر (وهو النظائر)[٣]، وتفسير كل كلمة بمعنى غير معنى الآخر (هو الوجوه)، فإذن النظائر: اسم للألفاظ، والوجوه: اسم للمعاني»[٤].

الثاني: للزركشي وآخرين وهو: أن الوجوه اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدة معان كلفظ الأمة، والنظائر كالألفاظ المتواطئة[٥].

---

(١) لسان العرب: ابن منظور، جـ١٣، ص٥٥٥-٥٥٦.

(٢) المرجع السابق: جـ٥، ص٢١٩.

(٣) عبارة (هو النظائر) زيادة يقتضيها السياق، وقد وردت كذلك في كشف الظنون، جـ٢، ص٢٠٠١ الذي نقل هذا النص بأكمله.

(٤) نزهة الأعين النواظر: ابن الجوزي، ص٨٣.

(٥) البرهان: الزركشي، جـ١، ص١٠٢.

وفي عبارة الزركشي شيء من الغموض، ولعلها تصبح أقرب إلى الذهن إذا قلنا: الوجوه هي المعاني المختلفة التي تكون للفظ الواحد في سياقات متعددة، فيسمى اللفظ من أجل ذلك مشتركًا، يعني: تشترك فيه معان متعددة[1].

ولتوضيح القولين انظر الرسمين التاليين:

اللفظ المشترك | الوجوه | النظائر

أمة

١ - عصبة
١ - ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].
٢ - ﴿تِلۡكَ أُمَّةٌ قَدۡ خَلَتۡۖ﴾ [البقرة: ١٤١].
٣ - ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾[آل عمران:١١٣].
٤ - ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٥٩].
٥ - ﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٨١].

٢ - ملة
١ - ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣].
٢ - ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[يونس: ١٩].
٣ - ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢].
٤ - ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[الأنبياء: ٩٢].
٥ - ﴿لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [النحل: ٩٣].
٦ - ﴿لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨].
٧ - ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾ [الأنعام:١٠٨].
٨ - ﴿أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[الزخرف: ٣٣].

٣ - سنين
١ - ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعۡدُودَةٍ﴾ [هود: ٨].
٢ - ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾[يوسف: ٤٥].

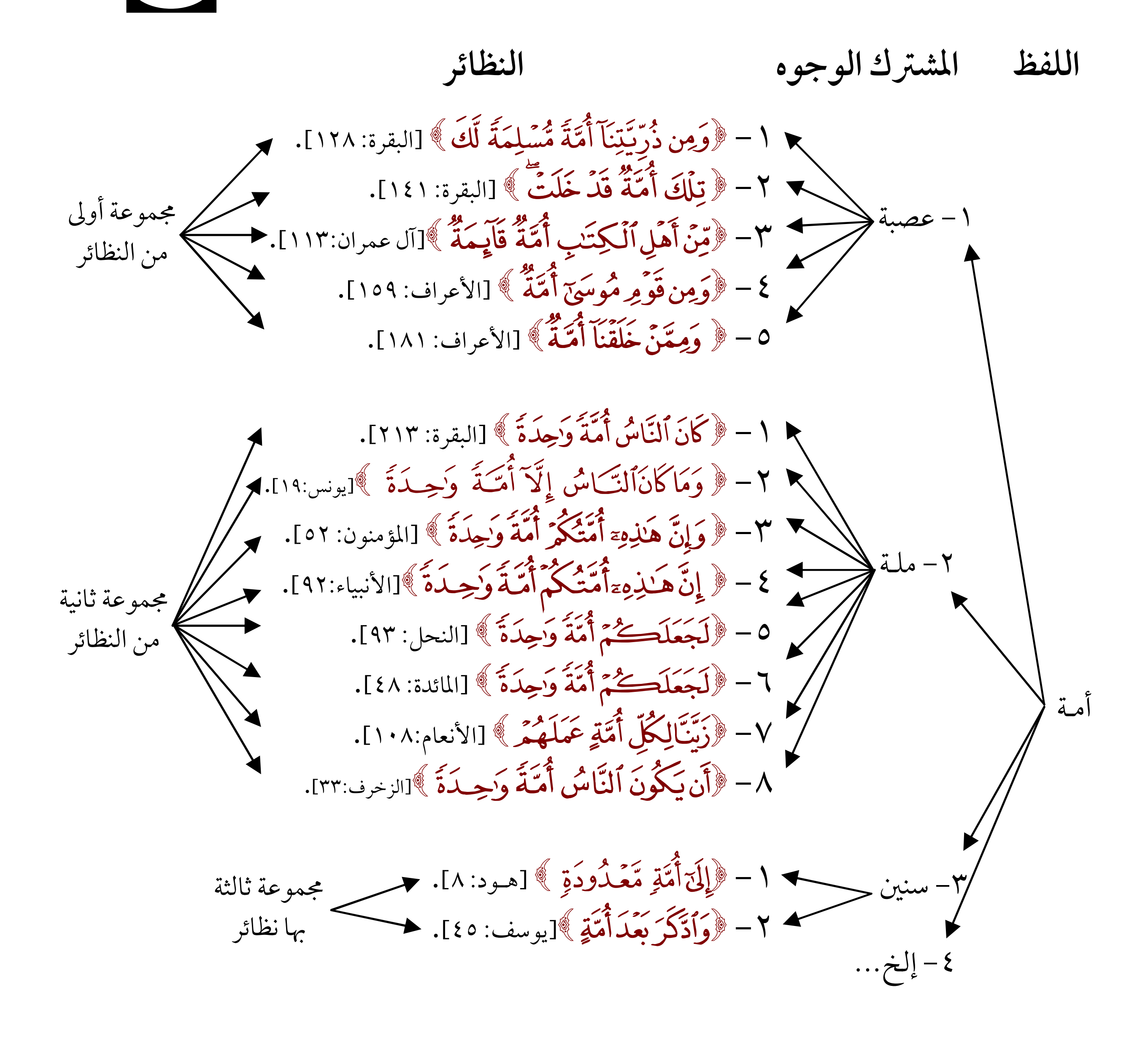
٤ - إلخ...

النظائر

رسم بياني للتعريف الأول للوجوه والنظائر عند ابن الجوزي وغيره

---

(١) من مقدمة كتاب التصاريف: يحيى بن سلام ص١٧-١٨، للدكتورة الفاضلة هند شلبي، ولم أر من حقق القول في الوجوه والنظائر مثلها وفقها الله تعالى، وعنها نقلت الرسمين البيانيين.



رسم بياني للتعريف الثاني للوجوه والنظائر عند الزركشي

ويظهر أن التعريفين يتفقان في معنى الوجوه، ويختلفان في تعريف النظائر[١].

وينبغي أن نذكر أنه ليس من الضروري أن تكون الكلمة المشتركة على لفظ واحد وحركة واحدة - كما جاء في التعريف الأول -؛ لأن كتب الوجوه والنظائر جرت على استعمال اللفظة ومشتقاتها على السواء[٢].

موضوع هذا العلم:

هو الكلمات القرآنية التي تكرر ورودها في القرآن الكريم بلفظها أو ما اشتق منه لمعاني مختلفة.

أهمية هذا العلم:

ثراء اللغة العربية وشمولها ليس نتاج جملتها ومجموع ألفاظها فحسب بل ثراء مفرداتها، إذ إن كثيرًا من مفردات اللغة العربية ثرية بالمعاني والمدلولات المتعددة والمختلفة بحيث يمكن التعبير بلفظ واحد عن معاني مختلفة، فضلًا عن أن كل معنى من هذه المعاني له لفظ خاص به، أو يدل على معاني أخرى غيره.

وقد نزل القرآن بلسان عربي مبين، فجاء تعبيره عن المعنى الواحد حينًا بألفاظ مختلفة وعبارات متنوعة، وعبر بلفظ واحد أيضًا عن معاني متعددة، وفي هذا فضلًا عن الصور البيانية والوجوه البلاغية دفع للملل والسأم، وإظهار للعبارة بمظهر الجِدَّة.

وتوسع القرآن الكريم في ذلك، وجاوز قدرة أهل اللغة أنفسهم وعجزوا عن مجاراته، فكان هذا كما قال الزركشي من أنواع معجزات القرآن الكريم[٣].

---

(١) المرجع السابق: ص٢١-٢٢.

(٢) المرجع السابق: ص٢٤.

(٣) البرهان: الزركشي، جـ١، ص١٠٢.

وتظهر أهمية هذا العلم في معرفة مدلول الألفاظ، وأنه لا يجوز لأحد أن يفسر القرآن إلا إذا علم مدلول كل لفظ وعرف معناه، وأدرك استعمالات الألفاظ، بل لا بد من فهم ذلك وإدراكه لما يترتب عليه من اختلاف في فهم العقيدة الصحيحة، واستنباط الأحكام الشرعية، وإلا فقد أخطأ الفهم وبعد عن الصواب، وتجرأ على القول في القرآن بغير علم، ولهذا قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «إنك لن تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهًا. قال حماد: فقلت لأيوب: أهو أن يرى له وجوهًا فيهاب الإقدام عليه؟ قال: نعم، هو هذا» [(١)].

فمن لم يعرف الوجوه التي يحتملها اللفظ أخطأ في فهم العقيدة الصحيحة، فالشرك مثلًا ورد في القرآن الكريم لمعان مختلفة، فقد ورد:

١- بمعنى الشرك بالله الذي يعدل به غيره ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ﴾[(٢)].

٢- وبمعنى الطاعة لغير الله من غير عبادة ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾[(٣)] ﴿إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ﴾[(٤)].

---

(١) مفتاح السعادة: طاش كبرى زاده جـ٢، ص٤١٥ قال: أخرجه ابن عساكر. وانظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر جـ٢ ص٥٦ وقال: هذا حديث لا يصح مرفوعًا، وإنما الصحيح فيه إنما هو من قول أبي الدرداء. وانظر الطبقات الكبرى لابن سعد جـ٢، ص٣٥٧، والنهاية في غريب الحديث: لابن الأثير جـ٥ ص١٥٩، لسان العرب: لابن منظور جـ١٣ ص٥٥٦ وقالا: «أي: ترى له معاني يحتملها فتهاب الإقدام عليه».

(٢) سورة النساء، الآية:٣٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية:١٩٠.

(٤) سورة إبراهيم، الآية:٢٢.

٣- والشرك في الأعمال بمعنى الرياء. قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾[١].

فمن لم يدرك هذه المعاني للشرك وقع في اللبس.

وكذا في استنباط الأحكام الشرعية، فالطعام - مثلًا - ورد في القرآن لمعان مختلفة منها:

١- بمعنى الطعام الذي يأكله الناس ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ﴾[٢]، ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾[٣].

٢- بمعنى الشراب ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾[٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾[٥].

٣- بمعنى الذبائح ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾[٦].

٤- بمعنى السمك المملح ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾[٧].

فمن لم يدرك هذه الوجوه لم يعرف الصواب، والتبس عليه الحق بالباطل، ومن عرف هذه الوجوه وأن للكلمة أكثر من معنى تهيب الإقدام على التفسير كما أشار أبو الدرداء ﷺ.

نشأته وتطوره:

نشأ هذا العلم في عصر مبكر في صدر الإسلام، فقد نقلنا آنفًا قول أبي الدرداء ﷺ: «إنك لن تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهًا». وقد كان هذا معلومًا عند الصحابة ﷺ، ولهذا قال علي بن أبي طالب ﷺ لابن عباس ﷺ حين بعثه إلى

(١) سورة الكهف، الآية:١١٠.

(٢) سورة الأحزاب، الآية:٥٣.

(٣) سورة قريش، الآية:٤.

(٤) سورة المائدة، الآية:٩٣.

(٥) سورة البقرة، الآية:٢٤٩.

(٦) سورة المائدة، الآية:٥.

(٧) سورة المائدة، الآية:٩٦.

الخوارج: «اذهب فخاصمهم، ولا تحاجهم بالقرآن فإنه ذو وجوه، ولكن خاصمهم بالسنة»، وحين قال ابن عباس ﵄: «يا أمير المؤمنين! فأنا أعلم بكتاب الله منهم في بيوتنا نزل. قال علي ﵁: صدقت. ولكن القرآن حمال ذو وجوه تقول ويقولون، ولكن خاصمهم بالسنن، فإنهم لن يجدوا عنها محيصًا. فخرج إليهم فخاصمهم بالسنن فلم تبق بأيديهم حجة»[(١)].

وقد ورد عن الرسول ﷺ وعن الصحابة والتابعين ﵃ أجمعين شيء من هذا النوع، فقد روى الإمام أحمد ﵀ عن أبي سعيد الخدري ﵁ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة»[(٢)].

ورُوي عن ابن عباس ﵄ أنه قال: «كل ريب: شك، إلا مكانًا واحدًا في الطور ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ٣٠﴾[(٣)] يعني: حوادث الأمور»[(٤)].

ورُوي عن أُبي بن كعب ﵁ أنه قال: «كل شيء في القرآن من الرياح فهي رحمة، وكل شيء فيه من الريح فهو عذاب»[(٥)].

ورُوي عن أبي العالية أنه قال: «كل آية في القرآن يذكر فيها حفظ الفرج فهو من الزنا إلا قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾[(٦)]، فالمراد أن لا يراها أحد»[(٧)].

---

(١) انظر: الإتقان: السيوطي، جـ١، ص١٤٢.

(٢) مسند الإمام أحمد: جـ٣، ص٧٥، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد، جـ٦، ص٣٢٠: (ضعيف).

(٣) سورة الطور، الآية:٣٠.

(٤) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص١٤٤.

(٥) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص١٤٤.

(٦) سورة النور، الآية:٣٠.

(٧) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص١٤٤.

وروى الطبري عن الضحاك: «.. وكل شيء في القرآن من الألم فهو الموجع»[(١)].

وروى عن سعيد بن جبير أنه قال: «العفو في القرآن على ثلاثة أنحاء: نحو: تجاوز عن الذنب».

ونحو: القصد في النفقة ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾[(٢)].

ونحو: في الإحسان فيما بين الناس ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾[(٣)(٤)].

وغير ذلك من الشواهد الدالة على نشأة هذا العلم في عصر الرسول ﷺ وعصر الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين.

إلا أن التدوين لم يكن في هذا العصر المبكر، بل إن أقدم كتاب وصل إلينا يرجع إلى القرن الثاني وهو (الأشباه والنظائر في القرآن الكريم) لمقاتل بن سليمان ت(١٥٠هـ).

وقد نسبت كتب في الوجوه والنظائر قبل هذا إلى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وإلى علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما[(٥)].

أهم المؤلفات فيه:

والمؤلفات في هذا العلم كثيرة جدًّا منها ما طبع، ومنها ما زال مخطوطًا، ومنها ما هو مفقود، ومن أهم المؤلفات:

١- الأشباه والنظائر في القرآن الكريم: مقاتل بن سليمان البلخي (ت١٥٠هـ).

٢- ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد: أبو العباس المبرد (ت٢٨٥هـ).

---

(١) جامع البيان: الطبري، جـ١، ص٢٨٤.

(٢) سورة البقرة، الآية:٢١٩.

(٣) سورة البقرة، الآية:٢٣٧.

(٤) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص١٤٥.

(٥) نزهة الأعين النواظر: ابن الجوزي، ص٨٢.

٣- تحصيل نظائر القرآن: الحكيم الترمذي (ت ٢٨٥هـ).

٤- الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: أبو عبدالله الدامغاني (ت ٤٧٨هـ).

٥- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر: أبو الفرج عبدالرحمن الجوزي (ت٤٩٧هـ).

٦- كشف السرائر في معنى الوجوه والأشباه والنظائر: ابن العماد (ت ٨٨٧هـ).

هذه بعض المؤلفات في هذا العلم وغيرها كثير، والله أعلم.

* * *

أساليب التفسير

التفسير الموضوعي:

وهو أسلوب لا يُفَسِّر فيه صاحب الآيات القرآنية حَسْبَ ترتيب المصحف، بل يجمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضوع واحد فيفسرها.

ولذا فإن التفسير الموضوعي هو: جمعُ الآيات القرآنية التي تتحدث عن قضية أو موضوع واحد، وتفسيرها مجتمعة، واستنباط الحكم المشترك منها ومقاصد القرآن فيها.

وقيل: هو علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر[(١)].

وقد نشأ (التفسير الموضوعي) في عهد مبكر في الإسلام، فقد نشأ في عهد النبوة ولا يزال إلى يومنا هذا، إلا أن مصطلح (التفسير الموضوعي) وإطلاقه على هذا الأسلوب من التفسير لم يظهر إلا في القرن الرابع عشر، ونستطيع أن نجد **(التفسير الموضوعي)** في **صورة متعددة عند السلف منها:**

١- تفسير القرآن بالقرآن:

إذ إنَّ جمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضوع واحد، وتفسير بعضها ببعض هو أعلى درجات التفسير الموضوعي، وأعظمها ثمرة وأكثرها فضلًا.

وكان أسبق الناس إلى ذلك رسول الله ﷺ، فقد كان يفسر لأصحابه القرآن بالقرآن، والأمثلة على ذلك كثيرة، فقد روى البخاري[(٢)] أنَّ رسول الله ﷺ فَسَّرَ مَفَاْتِحَ الغيب في

---

(١) مباحث في التفسير الموضوعي: الدكتور مصطفى مسلم، ص١٦.

(٢) صحيح البخاري: كتاب التفسير، جـ٥، ص١٩٣.

قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[1] فقال: «مفاتح الغيب خمس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾[2]».

وأدرك ذلك الصحابة رضوان الله عليهم فقد كانوا يجمعون الآيات المتشابهة ويفسرون بعضها ببعض، فإن أشكل عليهم تفسيرها رجعوا إلى الرسول ﷺ فبينه لهم.

٢- تفسير آيات الأحكام:

فقد اتجه طائفة من قدامى المفسرين إلى تتبع آيات الأحكام الفقهية في القرآن الكريم دون غيرها وتفسيرها على هذا النحو. ومن أشهر المؤلفات في ذلك:

١- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.

٢- أحكام القرآن للجصاص.

٣- أحكام القرآن لابن العربي.

٤- نيل المرام من تفسير آيات الأحكام لمحمد صدِّيق حسن.

وغيرها.

ولا شك أنَّ هذا لون من ألوان التفسير الموضوعي.

٣- الأشباه والنظائر:

ويقوم المفسر فيه بتتبع كلمة قرآنية واحدة في القرآن الكريم، وبيان معناها في كل موضع، ومن ثَمَّ معرفة استعمالات القرآن الكريم لها ودلالاتها المختلفة.

---

(١) سورة الأنعام، الآية:٥٩.

(٢) سورة لقمان، الآية:٣٤.

ومن أشهر المؤلفات في هذا:

١ - الأشباه والنظائر في القرآن الكريم: مقاتل بن سليمان.

٢ - التصاريف: يحيى بن سلام.

٣- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: الفيروزآبادي.

٤ - نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر: ابن الجوزي.

٥ - كشف السرائر في معرفة الوجوه والأشباه والنظائر: ابن العماد.

٦ - الأشباه والنظائر في الألفاظ القرآنية التي ترادفت مبانيها وتنوعت معانيها: الثعالبي.

والغالب على هذا اللون من التفسير الجانب اللغوي، إذ إنه يعتني بالكلمات التي يتَّحدُ لفظها ويختلف معناها حسب استعمالها، ولا شك أنَّ هذا لون من ألوان التفسير الموضوعي.

٤- الدراسات التفسيرية:

ولم تقتصر جهود العلماء السابقين على الجوانب اللغوية للكلمات القرآنية، بل جمعوا الآيات التي تشترك في موضوع واحد أو قضية واحدة كالنسخ، والقسم، والمُشْكِل، والأمثال، وغيرها، فجمعوها ثم تناولوها من الجانب المراد.

فجمعوا الآيات الناسخة والآيات المنسوخة، وجمعوا الآيات التي يبدو التعارض بينها ظاهرًا، وما ذهب من الآيات مذهب المثل، وجمعوا ما فيه قَسَمٌ من الآيات القرآنية وغير ذلك، والمؤلفات على هذا النحو كثيرة منها:

١ - الناسخ والمنسوخ: أبو عبيدة القاسم بن سلام.

٢ - تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة.

٣- أمثال القرآن: الماوردي.

٤ - التبيان في أقسام القرآن: ابن القيم.

٥- مجاز القرآن: العز بن عبدالسلام.

وبهذا يظهر لنا - يقينًا - أنَّ التفسير الموضوعي وإن تأخرت تسميته بهذا الاسم فإنه من علوم السابقين ومن مبتكراتهم.

ولا شك أن المؤلفات في التفسير الموضوعي قد كثرت في العصر الحديث، وأصبحت المكتبة القرآنية تزخر بالمؤلفات فيه، فهو ميدان خصب للباحثين.

ولخدمة الباحثين في هذا الموضوع فقد اتجهت العناية إلى جمع الآيات القرآنية وترتيبها حسب موضوعاتها، ومن أشهر المؤلفات في هذا كتاب المستشرق الفرنسي جول لابوم (تفصيل آيات القرآن الكريم) حيث قسَّمها إلى نحو (٣٥٠) موضوعًا، إلا أنه ينبغي أن نشير إلى أنه حتى الآن لم يكتب أحد تفسيرًا موضوعيًّا شاملًا للقرآن الكريم.

أنواع التفسير الموضوعي:

ينقسم التفسير الموضوعي إلى ثلاثة أنواع هي:

النوع الأول: أن يتتبع الباحث كلمة من كلمات القرآن الكريم، ويجمع الآيات التي وردت فيها هذه الكلمة أو مشتقاتها من مادتها اللغوية، ثم يقوم بتفسيرها واستنباط دلالاتها واستعمالات القرآن الكريم لها.

وقد اهتمت بهذا الموضوع من التفسير كتب الأشباه والنظائر: إلا أنها وقفت عند حَدّ بيان دلالة الكلمة في موضعها من غير ربط بين مواضع ورودها، واستعمالاتها في كل موضع، فبقي تفسيرهم للكلمة في دائرة (الدلالة اللفظية)[(١)].

ثم اتسع هذا اللون من التفسير، فتتبع المفسرون الكلمة وحاولوا الربط بين دلالتها في مختلف المواضع، وأظهروا بهذه الطريقة معاني جديدة، وألوانًا من البلاغة ووجوهًا من الإعجاز القرآني، واستنبطوا دلالات قرآنية دقيقة لا تظهر بغير هذا المسلك.

---

(١) مباحث في التفسير الموضوعي: د. مصطفى مسلم، ص٢٣.

ومن المؤلفات على هذا النوع من التفسير:

١- (كلمة «الحق» في القرآن الكريم) للشيخ محمد بن عبدالرحمن الراوي.

٢- المصطلحات الأربعة في القرآن (الإله، الربُّ، العبادة، الدين) لأبي الأعلى المودودي.

٣- الأمة في دلالتها العربية والقرآنية للدكتور أحمد حسن فرحات.

٤- (الحمد) في القرآن الكريم للدكتور محمد محمد خليفة.

٥- من مفردات القرآن (المنافقون) للدكتور محمد جميل غازي.

٦- تأملات حول وسائل الإدراك في القرآن الكريم (الحس، والعقل، والقلب، واللب، والفؤاد) للدكتور محمد الشرقاوي.

النوع الثاني:

جمع الآيات القرآنية التي تتناول قضية واحدة بأساليب مختلفة عرضًا وتحليلًا ومناقشة وتعليقًا، وبيان حُكم القرآن فيها.

والمفسر على هذا النحو يجعل هَمَّه الموضوع ذاته وما يؤدي إليه، فلا يُشْغِل نفسه بذكر القراءات، ووجوه الإعراب، وصور البلاغة، إلا بمقدار صلتها بالموضوع وما تخدم منه.

وهذا النوع هو أشهر أنواع التفسير الموضوعي وأكثرها تأليفًا ودراسة، وإذا أطلق مصطلح (التفسير الموضوعي) فلا يكاد ينصرف الذهن إلا إليه[(١)].

والمؤلفات فيه كثيرة متعددة قديمًا وحديثًا، بل إنَّ الكتب التي تتناول (إعجاز القرآن) أو (الناسخ والمنسوخ) أو (أحكام القرآن) أو (أمثال القرآن) أو (قصص القرآن) أو (جدل القرآن) أو (بلاغة القرآن) أو (القسم في القرآن) أو غير ذلك ما هي إلا من هذا النوع من التفسير.

---

(١) مباحث في التفسير الموضوعي: د. مصطفى مسلم، ص٢٧.

أما في العصر الحديث فقد أضافت إلى هذه العلوم موضوعات اجتماعية واقتصادية، وسياسية، وغير ذلك، ومنها:

١- آيات الجهاد في القرآن الكريم: كامل سلامة الدقس.

٢- المال في القرآن: محمود غريب.

٣- دستور الأخلاق في القرآن: د. محمد عبدالله دراز.

٤- التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن الكريم: حنفي أحمد.

٥- القرآن والطب: محمد وصفي.

٦- التربية في كتاب الله: محمود عبدالوهاب.

وموضوعات أخرى كثيرة.

النوع الثالث:

هو تحديد الموضوع الذي تتناوله سورة قرآنية واحدة، ثم دراسة هذا الموضوع من خلال تلك السورة وحدها.

وهذا النوع - كما ترى - قريب من النوع الثاني، إلا أن دائرته أضيق.

ومن المعلوم أنَّ لكل سورة من السور القرآنية شخصيتها المستقلة، وأنَّ لها هدفًا واضحًا ترمي إلى إيضاحه وبيانه، وإدراك هدف السورة يكشف للباحث معاني دقيقة، ومناسبات لطيفة، وصورًا بليغة.

وممن تميز تفسيره بالعناية ببيان مقاصد السور وأهدافها سيد قطب ﵀ حيث التزم أن يُقَدِّم لكل سورة مقدمة يبين فيها أهدافها، وينطلق في تفسيرها على هذا المحور مما أعطى تفسيره صبغة لا تكاد تجدها فيما سواه.

ومن المؤلفات في هذا النوع من التفسير:

١- تصور الألوهية كما تعرضه سورة الأنعام: د. إبراهيم الكيلاني.

٢- نماذج من الحضارة القرآنية في سورة الروم: د. عبدالمنعم الشفيع.

٣- قضايا العقيدة في ضوء سورة ق: كمال محمد عيسى.

٤- قضايا المرأة في سورة النساء: د. محمد يوسف.

٥- سورة الواقعة ومنهجها في العقائد: محمود غريب.

ويظهر بهذا العرض السريع أنَّ التفسير الموضوعي من أهم أساليب التفسير، وله مزايا عديدة ليس هذا مجال بيانها.

❊ ❊ ❊

غريب القرآن الكريم

تعريفه:

للغريب معنيان (لغوي) و(اصطلاحي):

أما في اللغة[١] فمعنى (غَرَب): بَعُدَ. و(الغَرْبُ): النوى والبعد. والغريب: الغامض من الكلام. ومنه كلمة غريبة، ورجل غريب بعيد عن أهله.

و(غرب) تفيد البعد في المكان، والغموض في الكلام.

وفي الاصطلاح: علم غريب القرآن هو:

(العلم المختص بتفسير الألفاظ الغامضة في القرآن الكريم وتوضيح معانيها بما جاء في لغة العرب وكلامهم)[٢].

أهم المؤلفات في غريب القرآن:

والمؤلفات في هذا العلم تنقسم من حيث الترتيب إلى قسمين:

١- قسم جاء ترتيب الألفاظ فيه على ترتيب السور، فيذكر اسم السورة ثم يذكر الغريب من كلماتها.

ومن المؤلفات في ذلك: مجاز القرآن لأبي عبيدة، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة، ومعاني القرآن للزجاج.

٢- وقسم رتبها على حروف الهجاء مثل كتاب (غريب القرآن) للسجستاني وكتاب (مفردات غريب القرآن) للأصفهاني، وكتاب (تحفة الأريب) لأبي حيان.

---

(١) انظر لسان العرب: ابن منظور، مادة (غَرَب).

(٢) مقدمة تحقيق العمدة في غريب القرآن: مكي بن أبي طالب، تحقيق يوسف المرعشلي، ص١٤.

أهم المؤلفات في غريب القرآن:

والمؤلفات في هذا العلم كثيرة جدًّا.

قال السيوطي: «أفرده بالتصنيف خلائق لا يحصون»[(١)]. ومنها:

١- مسائل نافع بن الأزرق: وقد قام بتحقيقها ودراستها الدكتورة عائشة عبدالرحمن، وبلغت المسائل (١٨٩) مسألة.

٢- مجاز القرآن: لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت٢١٠هـ) وقام بتحقيقه الدكتور محمد فؤاد سزكين في مجلدين.

٣- معاني القرآن: الأخفش الأوسط (ت٢١٥هـ) في مجلدين.

٤- تفسير غريب القرآن: ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ).

٥- معاني القرآن وإعرابه: الزجاج (ت٣١١هـ) في خمسة مجلدات.

٦- غريب القرآن، ومنهم من يسميه (نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن) لمحمد بن عُزَير العُزَيري السجستاني (ت٣٣٠هـ).

٧- العمدة في غريب القرآن: منسوب لمكي بن أبي طالب القيسي (ت٤٣٧هـ) تحقيق: يوسف المرعشلي.

٨- المفردات في غريب القرآن: للراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ).

٩- الأريب بما في القرآن من الغريب: ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ).

١٠- تحفة الأريب في تفسير الغريب: لأبي حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ) طبع بتحقيق: د. أحمد مطلوب، ود. خديجة الحديثي. وطبع مرة أخرى بتحقيق: سمير المجذوب.

---

(١) انظر الإتقان: السيوطي، جـ١، ص١١٣.

١١- معجم ألفاظ القرآن الكريم: وضعه أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

١٢- كلمات القرآن تفسير وبيان: حسنين مخلوف.

قال السيوطي: «أفرده بالتصنيف خلائق لا يحصون منهم: أبو عبيدة، وأبو عمر الزاهد، وابن دريد. ومن أشهرها كتاب (العزيزي) فقد أقام في تأليفه خمس عشرة سنة.. ومن أحسنها المفردات للراغب»[١].

* * *

(١) الإتقان: السيوطي، جـ١، ص١١٣.

قواعد مهمة يحتاج إليها المفسر

للتفسير قواعد مهمة تعين على الفهم الصحيح لكتاب الله تعالى، وعلى المفسر معرفتها والالتزام بها، وهي قواعد جليلة وعديدة، ومن أهمها:

أولًا: كل عام يبقى على عمومه حتى يأتي ما يخصصه:

بمعنى أن لفظ الآية الذي يحتمل أكثر من معنى يفسر بكل هذه المعاني حتى يقوم دليل على تخصيص أحدها دون الباقي.

قال الطبري رحمه الله: «غير جائز ادعاء خصوصٍ في آية عام ظاهرها إلا بحجة يجب التسليم لها»(١).

وقد التزم رحمه الله هذه القاعدة في تفسيره، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾(٢) قال: «والصواب من القول في ذلك ما قاله الذين قالوا: إن الله أقسم بكل والد وولده؛ لأن الله عَمَّ كل والد وما ولد، وغير جائز أن يخص ذلك إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر أو عقل، ولا خبر بخصوص ذلك ولا برهان يجب التسليم له بخصوصه، فهو على عمومه كما عَمَّه»(٣).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾(٤) قال الطبري: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكرُه أقسم بالموريات التي توري النيران قدحًا، فالخيل توري بحوافرها، والناس يورونها بالزند، واللسان مثلًا يوري بالمنطق، والرجال يورون بالمكر مثلًا، وكذلك الخيل تهيج الحرب بين أهلها إذا التقت في الحرب، ولم يضع

---

(١) جامع البيان: الطبري، جـ٢، ص٥٣٩.

(٢) سورة البلد، الآية:٣.

(٣) جامع البيان: الطبري، جـ٣٠، ص١٢٥.

(٤) سورة العاديات، الآية:٢.

الله دلالة على أن المراد من ذلك بعض دون بعض، فكل ما أورت النار قدحًا فداخلة فيما أقسم الله به لعموم ذلك بالظاهر»[(١)].

وقال في تفسير ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾﴾[(٢)]: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله جل ثناؤه أقسم بالمغيرات صبحًا، ولم يخصص من ذلك مغيرة دون مغيرة، فكل مغيرة صبحًا فداخلة فيما أقسم الله به»[(٣)].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾[(٤)] قال: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكرُه أخبر أنه آمنهم من خوف، والعدو مخوف منه، والجذام مخوف منه، ولم يخصص الله الخبر عن أنه آمنهم من العدو دون الجذام، ولا من الجذام دون العدو، بل عَمَّ الخبر بذلك، فالصواب أن يُعَمَّ كما عَمَّ جل ثناؤه»[(٥)].

ثانيًا: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب:

قال العلامة عبدالرحمن بن سعدي ﵀: «وهذه القاعدة نافعة جدًّا، بمراعاتها يحصل للعبد خير كثير وعلم غزير» ثم قال: «فمتى راعيت هذه القاعدة حق الرعاية وعرفت أن ما قاله المفسرون من أسباب النزول إنما هو على سبيل المثال لتوضيح الألفاظ، وليست معاني الألفاظ والآيات مقصورة عليها، فقولهم: نزلت في كذا وكذا معناه: أن هذا مما يدخل فيها، ومن جملة ما يراد بها»[(٦)].

---

(١) جامع البيان: الطبري، جـ٣٠، ص١٧٨.

(٢) سورة العاديات، الآية:٣.

(٣) جامع البيان: الطبري، جـ٣٠، ص١٧٨.

(٤) سورة قريش، الآية:٤.

(٥) جامع البيان: الطبري، جـ٣٠، ص٢٠٠.

(٦) القواعد الحسان لتفسير القرآن: عبدالرحمن بن سعدي، ص٧.

وقال ابن تيمية ﷫: «قولهم: هذه الآية نزلت في كذا... لم يقصدوا أن حكم الآية مختص بأولئك الأعيان دون غيرهم، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق»[(١)].

وقد روى الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤﴾[(٢)] عن محمد بن كعب القرظي أنه قال: «إن الآية تنزل في الرجل ثم تكون عامة بعدُ»[(٣)]، مع أن هذه الآية نزلت في الأخنس بن شريق[(٤)].

ثالثًا: اختلاف القراءات في الآية بعدد معانيها:

لا يخلو اختلاف القراءات من حالتين:

الأولى: أن يكون الاختلاف في وجوه النطق بالحروف والحركات كالإظهار والإدغام والإمالة والمد ونحو ذلك، وهذا لا تعلق له بالتفسير كبير.

الثانية: أن يكون الاختلاف في الكلمات أو اختلاف الحركات الذي يؤدي إلى اختلاف المعنى، وهذا له تأثير في التفسير.

فإن الاختلاف في القراءات يؤدي إلى تعدد المعاني للآية، فلكل قراءة معناها الخاص بها، وهذا ظاهر لا يحتاج إلى تمثيل.

---

(١) مقدمة في أصول التفسير: ابن تيمية، ص٤٤ و٤٧. وبين أول النص وباقيه جملة اعتراضية فيها أمثلة لأسباب النزول حذفتها اختصارًا.

(٢) سورة البقرة، الآية:٢٠٤.

(٣) جامع البيان: ابن جرير الجبري، جـ٤، ص٢٣٢.

(٤) المرجع السابق: جـ٤، ص٢٢٩.

رابعًا: المعنى يختلف باختلاف رسم الكلمة:

فقد يكون لبعض الكلمات أكثر من معنى إلا أن رسمها في المصحف يرجح أحد المعنيين، ففي قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾(١).

اختلف العلماء في قوله: ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾:

١- أنها للنفي وتكون بمعنى الإخبار.

٢- أنها للنهي.

ورسم الكلمة يرجح أنها للنفي لوجود الألف المقصورة، ولو كانت لا للنهي لصار الفعل بعدها مجزومًا بحذف الحرف المعتل في آخره، وكتبت الكلمة هكذا (تنس)، فدل بقاء الألف في الرسم على أن لا للنفي، وليست للنهي(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾(٣) قولان للعلماء:

الأول: أن الضمير (هم) في موضع رفع مؤكد لواو الجماعة. وعلى هذا فإنه يجوز الوقف على (كالو) والمعنى إذا كان المطففون أنفسهم.

الثاني: أن الضمير (هم) في موضع نصب، أي: كالوا لهم أو وزنوا لهم، فحذف حرف الجر ووصل الفعل بنفسه، والمفعول محذوف وهو المكيل والموزون.

ورسم الكلمة يرجح المعنى الثاني؛ لأنه لو كان المراد المعنى الأول لأثبت بعد الفعل كالو ووزنو ألفًا هكذا (كالوا هم) و(وزنوا هم)، فدل عدمها على رجحان القول الثاني الذي لا يطلبها.

---

(١) سورة الأعلى، الآية:٦.

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، جـ٢٠ ص١٩، وروح المعاني: الألوسي، جـ٣٠، ص١٠٥.

(٣) سورة المطففين، الآية:٣.

قال الإمام الطبري: «والصواب في ذلك عندي الوقف على هم» ثم قال: «لو كانت هم كلامًا مستأنفًا كانت كتابة كالوا ووزنوا بألف فاصلة بينها وبين هم مع كل واحد منهما، إذ كان بذلك جرى الكتاب في نظائر ذلك»(١).

خامسًا: السياق القرآني:

وهذه قاعدة مهمة، فعلى المفسر أن لا ينظر في الكلمة أو الجملة مستقلة بنفسها، بل عليه أن ينظر إليها في سياق النص القرآني، فإن ذلك معين على تحديد المعنى المراد لاسيما إذا كان للكلمة أو الجملة أكثر من معنى.

وبهذه القاعدة رجح الطبري وغيره من المفسرين بعض الأقوال، وردوا غيرها، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾(٢) قال الطبري: «وقد زعم بعض الزاعمين أن قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ يعني به الشياطين، وأن قوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ يعني به الناس. وذلك قول لجميع أهل التأويل مخالف. وذلك أنهم مجمعون على أن قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ معنيٌّ به اليهود دون الشياطين. ثم هو - مع ذلك - خلاف ما دلَّ عليه التنزيل؛ لأن الآيات قبل قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ وبعد قوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ جاءت من الله بذم اليهود وتوبيخهم على ضلالهم، وذمًا لهم على نبذهم وحي الله وآيات كتابه وراء ظهورهم مع علمهم بخطأ فعلهم. فقوله:

---

(١) جامع البيان: الطبري: جـ٣٠، ص٥٨. وانظر البحر المحيط: أبو حيان، جـ٨، ص٤٣٩.

(٢) سورة البقرة، الآية:١٠٢.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾[١] أحد تلك الأخبار عنهم» [٢].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾[٣] نقل الطبري عن قتادة قوله: هؤلاء أصحاب النبي ﷺ. وروى عن غيره أنهم علماء بني إسرائيل الذين اتبعوا محمدًا ﷺ، ثم رجح القول الثاني فقال: «وهذا القول أولى بالصواب من القول الذي قاله قتادة؛ لأن الآيات قبلها مضت بأخبار أهل الكتابين وتبديل من بَدَّل منهم كتاب الله، وتأولهم إياه على غير تأويله وادعائهم على الله الأباطيل، ولم يجر لأصحاب محمد ﷺ في الآية التي قبلها ذكر.. ولا لهم بعدها ذكر في الآية التي تتلوها»[٤].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾[٥] قيل: سأريكم مصيرهم. وقيل: سأريكم جهنم. وقيل: سأريكم ديارهم في الشام. وقيل: سأريكم دار فرعون وهي مصر. ورأى الطبري أنها للتهديد لمن عصاه وخالف أمره، ثم قال: «وإنما اخترنا القول الذي اخترناه في تأويل ذلك؛ لأن الذي قبل قوله جل ثناؤه: ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ أمر من الله لموسى وقومه بالعمل بما في التوراة، فأولى الأمور بحكمة الله تعالى أن يختم ذلك بالوعيد على من ضيعه، وفَرَّط في العمل لله، وحاد عن سبيله، دون الخبر عما قد انقطع الخبر عنه، أو عما لم يجز له ذكر»[٦].

---

(١) سورة البقرة، الآية:١٠٢.

(٢) جامع البيان: الطبري، جـ٢، ص٤٥٦.

(٣) سورة البقرة، الآية:١٢١.

(٤) جامع البيان: الطبري، جـ٢، ص٥٦٤-٥٦٥.

(٥) سورة الأعراف، الآية:١٤٥.

(٦) جامع البيان: الطبري، جـ١٣، ص١١٢.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي﴾...[(١)] قيل: نزلت في قوم في عهد النبي ﷺ ادَّعوا أنهم يحبون الله. وقيل: نزلت ردًّا على النصارى في ادعائهم أن ما يقولون عن عيسى عليه السلام إنما هو محبة لله.

وقد رجح ابن جرير الطبري القول الثاني «لأنه لم يجر لغير وفد نجران في هذه السورة، ولا قيل: هذه الآية ذكر لقوم ادعوا أنهم يحبون الله ولا أنهم يعظمونه»[(٢)].

سادسًا: التفسير يكون بالأغلب الظاهر من اللغة:

وذلك أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، فلا يصح تفسيره بغير الأظهر والأغلب والأبين من كلام العرب.

قال الإمام الطبري: «غير جائز أن نحمل معاني كتاب الله على غير الأغلب المفهوم بالظاهر من الخطاب في كلام العرب، ولنا إلى حمل ذلك على الأغلب من كلام العرب سبيل»[(٣)]. وقال في موضع آخر: «كلام الله الذي خوطب به العرب غير جائز توجيهه إلا إلى المعروف المستعمل من معانيه، إلا أن تأتي دلالة أو تقوم حجة على أن ذلك بخلاف ذلك يجب التسليم لها»[(٤)].

وقد التزم الطبري رحمه الله هذه القاعدة في تفسيره، فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ﴾[(٥)] بعد أن ذكر أقوال العلماء في معنى

---

(١) سورة آل عمران، الآية:٣١.

(٢) جامع البيان: الطبري، جـ٦، ص٣٢٢-٣٢٤.

(٣) جامع البيان: الطبري، جـ٨، ص٥٧٨.

(٤) المرجع السابق: جـ٨، ص٤٨٢.

(٥) سورة البقرة، الآية:١٠٢.

(خلاق) قال أبو جعفر: «وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: معنى (الخلاق) في هذا الموضع: النصيب. وذلك أن ذلك معناه في كلام العرب»[(١)].

سابعًا: تقديم المعنى الشرعي على المعنى اللغوي:

إذا كان للكلمة الواحدة معنيان أو أكثر أحدهما لغوي والآخر شرعي، واختلف المعنيان قدم المعنى الشرعي؛ لأن القرآن الكريم نزل لبيان الشرع لا لبيان اللغة إلا أن تدل قرينة على إرادة المعنى اللغوي[(٢)].

مثال ما قدم فيه المعنى الشرعي قوله تعالى في المنافقين: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾[(٣)]، فالصلاة لها معنيان لغوي هو (الدعاء)، وشرعي وهو هنا صلاة الجنازة، فيقدم المعنى الشرعي؛ لأنه المقصود للمتكلم المعهود للمخاطب[(٤)].

ومثال ما قدم فيه المعنى اللغوي لقرينة قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾[(٥)]، فالمراد بالصلاة هنا الدعاء بدليل حديث مسلم: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: «**اللهم صلِّ عليهم**»[(٦)].

* * *

(١) جامع البيان: الطبري، جـ٨، ص٤٥٣.

(٢) انظر البرهان: الزركشي، جـ٢، ص١٦٧، وأصول التفسير: ابن عثيمين، ص٢٩.

(٣) سورة التوبة، الآية:٨٤.

(٤) أصول التفسير: ابن عثيمين، ص٢٩.

(٥) سورة التوبة، الآية:١٠٣.

(٦) صحيح مسلم: جـ٢، ص٧٥٦. وانظر أصول التفسير: ابن عثيمين، ص٢٩-٣٠.



الفهارس

أولاً : فهرس المصادر والمراجع.

ثانياً : فهرس المحتويات.



أولاً:

فهرس المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

١- الإبانة عن معاني القراءات: مكي بن أبي طالب القيسمي، تحقيق د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار نهضة مصر (بدون تاريخ).

٢- اتجاهات التفسير في القران الرابع عشر: د. فهد بن عبد الرحمن الرومي، الطبعة الرابعة ١٤٢٣هـ مكتبة الرشد- الرياض.

٣- إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين: السيد محمد الحسيني الزبيدي المرتضى، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

٤- إتحاف ذوي البصائر بشرح روضة الناظر: د. عبد الكريم النملة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ دار العاصمة - الرياض.

٥- إتحاف فضلاء البشر: أحمد بن محمد البنا، دار الندوة الجديدة، بيروت.

٦- الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، الطبعة الثانية، ١٣٤٣هـ المطبعة الأزهرية بمصر والطبعة الثالثة ١٣٧٠هـ، مصطفى البابي الحلبي. وطبعة مؤسسة النداء، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، تحقق د. القيسية، والأتاسي الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.

٧- إجمال البيان في مباحث من علوم القرآن: د. عبد الله أحمد عثمان احميد، جامعة قاريونس، ١٣٩٨هـ.

٨- الأحرف السبعة: د. حسن عتر، دار البشائر الإسلامية- بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

٩- أحكام القرآن: أبو بكر بن العربي. تحقيق على محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي، الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ.

١٠- الإحكام في أصول الأحكام: سيف الدين أبو الحسن علي الآمدي، تعليق عبد الرزاق عفيفي، مؤسسة النور - الرياض، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ.

١١- اختلاف المفسرين أسبابه وآثاره. سعد الفنيسان كتاب هو وهو أطروحته للماجستير (مطبوع).

١٢- أخلاق أهل القرآن: أبو بكر الآجري: تحقيق محمد عمرو بن عبد اللطيف، دار الباز - مكة المكرمة.

١٣- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري - شهاب الدين القسطلاني - دار إحياء التراث العربي - بيروت مصورة عن الطبعة السادسة بالمطبعة الأميرية - ببولاق مصر ١٣٠٤هـ.

١٤- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول: محمد بن علي الشوكاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ وطبعة دار الكتب العلمية - بيروت تحقيق محمد حسن الشافعي، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

١٥- أسباب النزول: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٨٨هـ. وطبعة دار الإصلاح - الدمام ط١ سنة ١٤١١هـ.

١٦- أسرار البلاغة في القرآن، د. محمود السيد شيخون.

١٧- أسماء القرآن الكريم في القرآن: د. خمساوي أحمد الخمساوي، دار التحرير- القاهرة.

١٨- الأسماء والصفات: أبو بكر البيهقي- دار إحياء التراث العربي- بيروت.

١٩- الإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلاني، مصورة عن الطبعة الأولى، مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٨هـ.

٢٠- أصول التفسير وقواعده: خالد عبد الرحمن العك، دار النفائس، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ.

٢١- أصول الفقه الإسلامي: د. وهبه الزحيلي، دار الفكر- دمشق ١٤٠٦هـ.

٢٢- إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة: د. منير سلطان، منشأة المعارف- الإسكندرية، الطبعة الثالثة ١٩٨٦م.

٢٣- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، الطبعة الثامنة ١٣٨٩هـ.

٢٤- إعجاز القرآن: أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، مكتبة العلوم والحكم- المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

٢٥- إعراب ثلاثين سورة من القرآن: ابن خالويه، المكتبة الثقافية، بيروت ١٤٠٧هـ.

٢٦- الأعلام: خير الدين الزركلي دار العلم للملايين- بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٧٩م.

٢٧- الإكسير في علم التفسير: سليمان بن عبد القوي الصرصري الطوفي، تحقيق د. عبد القادر حسين، مكتبة الآداب - القاهرة.

٢٨- الأمثال القرآنية: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم- دمشق - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.

٢٩- الأمثال في القرآن الكريم: سميح عاطف الدين، دار الكتاب اللبناني - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

٣٠- أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين البيضاوي، مؤسسة شعبان- بيروت.

٣١- الآيات المنسوخة في القرآن الكريم: د. عبد الله بن الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية- القاهرة ومكتبة العلم بجدة.

٣٢- البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي الغرناطي، دار الفكر- بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ.

٣٣- البداية والنهاية: ابن كثير، مكتبة المعارف- بيروت، الطبعة الأولى ١٩٦٦م.

٣٤- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة: عبد الفتاح القاضي، مصطفى البابي الحلبي- مصر.

٣٥- البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ.

٣٦- بصائر ذوي التميز في لطائف الكتاب العزيز: الفيروزآبادي، تحقيق محمد علي النجار، لجنة إحياء التراث الإسلامي- مصر، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ.

٣٧- بلاغة القرآن: محمد الخضر حسين، الناشر علي الرضا التونسي- دمشق ١٣٩١هـ.

٣٨- بيان إعجاز القرآن: أبو سليمان الخطابي ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، دار المعارف- بمصر.

٣٩- بيان المختصر (شرح مختصر ابن الحاجب): أبو الثناء الأصفهاني تحقيق د. محمد مظهر بقا، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي- جامعة أم القرى مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

٤٠- تاج العروس: محمد مرتضى الزبيدي، منشورات مكتبة الحياة- بيروت (بدون تاريخ وسنة النشر).

٤١- تاريخ التراث العربي: فؤاد سزكين ترجمة د. محمود حجازي ود. فهمي أبو الفضل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨م.

٤٢- تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.

٤٣- التبيان في آداب حملة القرآن: النووي، تحقيق: عبده الكوشك، مكتبة الإحسان- دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ. وأيضًا الطبعة الأولى دار البيان دمشق ١٤٠٥هـ بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط، والطبعة الأولى لدار النفائس بيروت ١٤٠٤هـ بتحقيق عبد العزيز السيروان.

٤٤- التبيان في أقسام القرآن: ابن القيم الجوزية، مكتبة الرياض الحديثة- الرياض ١٣٨٨هـ وطبعة دار إحياء العلوم- بيروت تحقيق محمد شريف سكر، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

٤٥- تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق: فخر الدين عثمان بن علي الزيلعي، المطبعة الأميرية- ببولاق، الطبعة الأولى ١٣١٣هـ.

٤٦- التحبير في علم التفسير: جلال الدين السيوطي تحقيق د. فتحي عبد القادر، دار المنار، القاهرة ١٤٠٦هـ.

٤٧- التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، عيسى الحلبي- بمصر، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ والنشرة الثانية الدار التونسية للنشر ١٩٧٣هـ.

٤٨- تدريب الراوي: جلال الدين السيوطي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف (دون ذكر اسم الناشر وتاريخ النشر).

٤٩- التذكار في أفضل الأذكار: أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق ثروت محمد نافع، دار التوحيد- مصر.

٥٠- التسهيل لعلوم التنزيل: محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي، تحقيق محمد اليونسي وإبراهيم عوض - دار الكتب الحديثة، مصر.

٥١- التصاريف: يحيى بن سلام، للدكتورة الفاضلة هند شلبي.

٥٢- التعريفات: السيد الشريف الجرجاني، الناشر: مصطفى البابي الحلبي، وأولاده، بمصر ١٣٥٧هـ.

٥٣- تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) مكتبة النهضة الحديثة بمصر، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ - ١٩٨٤هـ.

٥٤- تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل) علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي، المعروف بالخازن، دار الفكر، بيروت.

٥٥- التفسير العلمي بمكتشفات العلم التجريبي: د. محمد بن عبد الرحمن الشايع بحث منشور في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- الرياض، العدد الرابع ١٤١١هـ.

٥٦- التفسير العلمي للقرآن الكريم: عبد الله الأهدل. رسالة قدمة لنيل درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام ١٤٠٢هـ مطبوعة على الآلة الكاتبة.

٥٧- التفسير الكبير: فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، الطبعة الرابعة.

٥٨- تفسير المنار: محمد رشيد رضا، دار المنار- القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٦٧هـ.

٥٩- تفسير النصوص في الفقه الإسلامي: د. محمد أديب الصالح المكتب الإسلامي- دمشق، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ.

٦٠- تفسير مجاهد: قدم له وحققه عبد الرحمن السورتي، المنشورات العلمية - بيروت (بدون تاريخ).

٦١- التفسير والمفسرون: محمد حسين الذهبي، دار الكتب الحديثة، الطبعة الأولى ١٣٨١هـ، والجزء الثالث مكتبة وهبة، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

٦٢- التفصيل في الفرق بين التفسير والتأويل: حامد العمادي (مخطوطة مصورة في مكتبة الحرم المدني).

٦٣- تقييد العلم: البغدادي، الطبعة الثانية، تحقيق يوسف العش، دار إحياء السنة النبوية، بيروت، ١٣٩٥هـ.

٦٤- التمهيد: ابن عبد البر، تحقيق مصطفى العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، مطبعة فضالة المحمدية- المغرب، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ.

٦٥- تهذيب الأسماء واللغات، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه ومقابلة أصوله: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان

٦٦- تهذيب الكمال، المؤلف: يوسف بن الزكي عبدالرحمن أبو الحجاج المزي، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠ - ١٩٨٠، تحقيق: د. بشار عواد معروف

٦٧- تهذيب اللغة: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق عبد الحليم النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٦٨- التوحيد وإثبات صفة الرب: محمد بن إسحاق بن خزيمة، راجعه محمد خليل هراس، دار الكتب العلمية- بيروت ١٤٠٣هـ.

٦٩- توضيح الأفكار: محمد بن إسماعيل الصنعاني، المكتبة السلفية- المدينة المنورة.

٧٠- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق وتخريج محمود وأحمد شاكر، دار المعارف بمصر. وطبعة المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر سنة ١٣٢٨هـ.

٧١- الجامع الصحيح: أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٧٢- جامع العلوم والحكم: ابن رجب الحنبلي، الناشر مصطفى البابي الحلبي- القاهرة، الطبعة الثالثة ١٣٨٢هـ.

٧٣- الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد القرطبي، أعاد طبعه دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٩٦٥م.

٧٤- جمال القراء وكمال الإقراء: علم الدين السخاوي، تحقيق د. علي البواب مكتبة التراب- مكة، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

٧٥- جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير: أحمد ياسوف، دار المكتبي، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، دمشق.

٧٦- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن تيمية، مطابع المجد (دون تاريخ ومكان النشر).

٧٧- الجواب الواضح المستقيم في التحقيق في كيفية إنزال القرآن الكريم: الشيخ محمد ابن إبراهيم آل الشيخ، مطبعة الحكومة- بمكة المكرمة ١٣٦٩هـ.

٧٨- جوامع السيرة: ابن حزم، تحقيق إحساس عباس وناصر الدين الأسد، دار المعارف بمصر.

٧٩- الجواهر المضية في طبقات الحنفية: أبو محمد بن أبي الوفاء، تحقيق د. عبد الفتاح الحلو- مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٣٩٨هـ.

٨٠- حديث الأحرف السبعة: د. عبد العزيز القاري، دار النشر الدولي- الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٨١- حلية الأولياء: أبو نعيم الأصفهاني، دار الكتب العلمية- بيروت.

٨٢- خصائص القرآن الكريم: فهد بن عبد الرحمن الرومي، دار طيبة، الرياض، الطبعة السابعة ١٤١١هـ.

٨٣- الدر المنثور في التفسير بالمأثور: جلال الدين السيوطي، الناشر: محمد أمين دمج - بيروت - مؤسسة الرسالة.

٨٤- درء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ.

٨٥- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة: ابن حجر العسقلاني تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة- القاهرة.

٨٦- دفاع عن الإسلام لورا فاغليري ترجمة منير البعلبكي، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية ١٩٦٣م.

٨٧- دلائل النبوة: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تخريج وتعليق د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

٨٨- ديوان جرير: دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٩٨هـ.

٨٩- الذيل على طبقات الحنابلة: ابن رجب، دار المعرفة- بيروت.

٩٠- روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني: أبو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي، دار الفكر- بيروت ١٣٩٨هـ، وطبعة دار إحياء التراث العربي- بيروت عن طبعة إدارة الطباعة المنيرية- القاهرة.

٩١- الروح: ابن القيم، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٣٨٦هـ.

٩٢- روضة الناظر وجنة المناظر: ابن قدامة المقدسي، مطابع الجزيرة- الرياض، ١٣٨٩هـ.

٩٣- زاد المسير في علم التفسير، المؤلف: عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤

٩٤- زاد المعاد: ابن قيم الجوزية، المطبعة المصرية ومكتبتها.

٩٥- زهر الأكم في الأمثال والحكم: أبو علي الحسن اليوسي.

٩٦- سلسلة الأحاديث الصحيحة: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي- دمشق، بيروت (دون تاريخ).

٩٧- سنن ابن ماجه: دار الفكر- بيروت، الطبعة الثانية.

٩٨- سنن أبي داود: تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء السنة النبوية.

٩٩- سنن الدارقطني، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ، عالم الكتب، بيروت.

١٠٠- السنن الكبرى: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، مجلس دائرة المعارف النظامية في الهند، الطبعة الأولى ١٣٤٤هـ.

١٠١- سنن النسائي. سنن النسائي (المجتبى من السنن)، المؤلف: أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ – ١٩٨٦، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة

١٠٢- سير أعلام النبلاء: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، أشرف على التحقيق شعيب الأرنؤوط، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ مؤسسة الرسالة - بيروت.

١٠٣- سيرة ابن هشام: تحقيق السقا، الأبياري، شلبي، مطبعة مصطفى الحلبي- مصر ١٣٥٥هـ.

١٠٤- سيكولوجية القصة في القرآن: د. التهامي نفرة، الشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٤م.

١٠٥- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي- بيروت (بدون تاريخ).

١٠٦- شرح السنة: أبو محمد الفراء البغوي، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، رئاسة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد- الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.

١٠٧- شرح العقيدة الطحاوية: علي بن أبي العز الحنفي، تحقيق أحمد محمد شاكر، مكتبة الرياض الحديثة - الرياض، وطبعة المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الرابعة ١٣٩١هـ بتحقيق جماعة من العلماء.

١٠٨- شرح العقيدة النسفية: سعد الدين التفتازاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٢١هـ.

١٠٩- شرح الكوكب المنير: تقي الدين محمد بن شهاب الدين الفتوحي، المعهد العلمي السعودي بالرياض - تحقيق محمد حامد الفقي، الطبعة الأولى ١٣٧٢هـ، مطبعة السنة المحمدية.

١١٠- شرح المفصل: موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش، إدارة الطباعة المنيرية- بمصر (دون تاريخ).

١١١- شرح صحيح مسلم: النووي، دار الفكر- بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ.

١١٢- شعب الإيمان: أحمد بن الحسين البيهقي، المطبعة العزيزية- حيدر آباد- الهند، ١٩٨٣م.

١١٣- الصاحبي: ابن فارس، المكتبة السلفة- مصر ١٩١٠م.

١١٤- الصحة النفسية: مصطفى فهمي، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٥٥م.

١١٥- صحيح البخاري: المكتبة الإسلامية- استنبول- تركيا ١٩٧٩م.

١١٦- صحيح مسلم: تحقيق وتصحيح وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - الرياض ١٤٠٠هـ.

١١٧- ضرب الأمثال في القرآن أهدافه التربوية وآثاره: عبد المجيد البيانوني، دار القلم – دمشق، الدار الشامية- بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

١١٨- طبقات الشافعية الكبرى: تاج الدين السبكي، دار المعرفة- بيروت، الطبعة الثانية (بدون تاريخ) وأيضًا طبعة عيسى البابي الحلبي، بتحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو الطبعة الأولى ١٣٨٣هـ.

١١٩- الطبقات الكبرى: أبو عبد الله محمد بن سعد، مطبعة بريل ١٣٣٢هـ ليدن، وطبعة دار صادر بيروت، ١٣٨٨هـ.

١٢٠- طبقات المفسرين: جلال الدين السيوطي، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبة الطبعة الأولى.

١٢١- طبقات المفسرين: شمس الدين محمد بن علي الداودي، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى.

١٢٢- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية: ابن قيم الجوزية مطبعة الاتحاد الشرقي- دمشق.

١٢٣- طيبة النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، ضبط وتصحيح محمد تميم الزعبي، دار الهدى- جدة ١٤١٤هـ.

١٢٤- العقد المنظوم في الخصوص والعموم: شهاب الدين القرافي، تحقيق محمد علوي بنصر، وزارة الأوقاف المغربية ١٤١٨هـ، وطبعة أخرى بتحقيق د. أحمد الختم عبد الله، المكتبة المكية، دار الكتبي- القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.

١٢٥- علم النفس والأخلاق: هادفيلد ترجمة محمد عبد الحميد أبو العزم.

١٢٦- علوم القرآن الكريم: د. عدنان زرزور، المكتب الإسلامي- بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.

١٢٧- علوم القرآن عند المفسرين. إصدار مركز الثقافة والمعارف القرآنية في إيران.

١٢٨- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: السمين الحلبي، تحقيق عبد السلام التونجي الحلبي، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية- ليبيا، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

١٢٩- عمدة القاري شرح صحيح البخاري: البدر العيني، دار الفكر- بيروت.

١٣٠- العمدة في غريب القرآن: مكي بن أبي طالب، تحقيق يوسف المرعشلي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

١٣١- عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ابن أبي أصيبعة، دار ثقيف- بيروت.

١٣٢- غاية النهاية في طبقات القراء، المؤلف: شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (المتوفى: ٨٣٣هـ)، الناشر: مكتبة ابن تيمية، الطبعة: عني بنشره لأول مرة عام ١٣٥١هـ ج. برجستراسر.

١٣٣- غرائب القرآن ورغائب الفرقان: نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض - شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، الطبعة الأولى ١٣٨١هـ.

١٣٤- فتح الباري: ابن حجر العسقلاني - تصحيح عبد العزيز بن باز، ترقيم محمد عبد الباقي، دار الفكر - تصوير عن الطبعة السلفية.

١٣٥- فتح القدير: محمد بن علي الشوكاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي - بمصر، الطبعة الثانية ١٣٨٣هـ.

١٣٦- فتح المغيث شرح ألفية الحديث: شمس الدين السخاوي، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

١٣٧- فضائل القرآن ومعالمه وآدابه: أبو عبيد القاسم بن سلام، تحقيق أحمد بن عبد الواحد الخياطي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، ١٤١٥هـ. وأيضًا طبعة دار الكتب العلمية - بيروت، تحقيق وهبي سليمان غاوجي، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

١٣٨- فضائل القرآن: ابن كثير الدمشقي، دار الأندلس.

١٣٩- فكرة إعجاز القرآن: نعيم الحمصي، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ.

١٤٠- فنون الأفنان في عيون علوم القرآن: ابن الجوزي، تحقيق حسن ضياء الدين عتر، دار البشائر الإسلامية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

١٤١- الفهرست: ابن النديم، دار الباز - مكة المكرمة.

١٤٢- فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت: عبد العلي محمد بن نظام الدين، بهامش كتاب المستصفى للغزالي، مصورة عن الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية ببولاق، مصر ١٣٢٢هـ، مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة.

١٤٣- في رحاب التفسير: عبد الحميد كشك - المكتب المصري الحديث - القاهرة.

١٤٤- القاموس المحيط: مجد الدين الفيروزآبادي، مؤسسة الحلبي وشركاه - القاهرة.

١٤٥- القراءات الشاذة وتوجيهها من لغة العرب: عبد الفتاح القاضي، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة (بدون تاريخ).

١٤٦- قراءة عبد الله بن مسعود: د. محمد أحمد خاطر، دار الاعتصام - القاهرة (دون تاريخ).

١٤٧- القرآن الكريم تاريخه وعلومه: د. محمد البدري، دار القلم - دبي، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.

١٤٨- قصة عقيدة: د. فهد بن عبد الرحمن الرومي، مكتبة التوبة - الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

١٤٩- القطع والائتناف: أبو جعفر النحاس تحقيق د. أحمد خطاب العمر، الطبعة الأولى، وزارة الأوقاف العراقية، إحياء التراث الإسلامي ١٣٩٨هـ.

١٥٠- القواعد الحسان لتفسير القرآن: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تصحيح محمد حامد الفقي، مطبعة أنصار السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٦٦هـ.

١٥١- كتاب الوحي: د. أحمد عبد الرحمن عيسى، دار اللواء - الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.

١٥٢- الكتاب: سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي - مصر، الطبعة الثانية ١٩٧٧م.

١٥٣- الكشاف: الزمخشري، طبعة انتشارات آفتات - تهران، وطبعة دار المعرفة - بيروت.

١٥٤- كشف الأستار عن زوائد البزار، نور الدين علي الهيثمي، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ.

١٥٥- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، المؤلف: مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي القسطنطيني المشهور باسم حاجي خليفة أو الحاج خليفة (المتوفى: ١٠٦٧هـ)، الناشر: مكتبة المثنى - بغداد (وصورتها عدة دور لبنانية، بنفس ترقيم صفحاتها، مثل: دار إحياء التراث العربي، ودار العلوم الحديثة، ودار الكتب العلمية)، تاريخ النشر: ١٩٤١م

١٥٦- الكشف عن وجوه القراءات السبع: أبو محمد مكي بن أبي طالب، تحقيق: د. محي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ.

١٥٧- الكشف والبيان في علوم القرآن: د. سمير عبد العزيز شيلوه، مطبعة دار البيان - مصر.

١٥٨- لباب النقول في أسباب النزول: جلال الدين السيوطي، دار إحياء العلوم - بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٨م.

١٥٩- لسان العرب: ابن منظور، دار صادر، بيروت.

١٦٠- لسان الميزان: ابن حجر العسقلاني، مؤسسة الأعلمي - بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ.

١٦١- لطائف الإشارات لفنون القراءات: شهاب الدين القسطلاني، تحقيق وتعليق الشيخ: عامر السيد عثمان ود. وعبد الصبور شاهين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي - القاهرة ١٣٩٢هـ.

١٦٢- لغة القرآن الكريم: عبد الجليل عبد الرحيم، مكتبة الرسالة الحديثة - الأردن - عمان، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.

١٦٣- لمحات في علوم القرآن: محمد الصباغ، المكتب الإسلامي - بيروت ١٣٩٤هـ.

١٦٤- مباحث في إعجاز القرآن: د. مصطفى مسلم، دار المنارة - جدة، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

١٦٥- مباحث في التفسير الموضوعي: د. مصطفى مسلم، دار القلم - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

١٦٦- مباحث في علوم القرآن: د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، الطبعة الثامنة ١٩٧٤م.

١٦٧- مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، مكتبة المعارف - الرياض، الطبعة الثامنة ١٤٠١هـ.

١٦٨- مجمع الأمثال: أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٤هـ.

١٦٩- مجمع الزوائد: علي الهيثمي، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ.

١٧٠- مجموع الفتاوى ابن تيمية: جمع عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد، مطابع الرياض، الطبعة الأولى ١٣٨١هـ.

١٧١- المحرر الوجيز: ابن عطية الأندلسي، تحقيق الرحالي الفاروق وآخرين، طبع على نفقة أمير دولة قطر، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ الدوحة - قطر.

١٧٢- المحصول في علم أصول الفقه: فخر الدين الرازي، تحقيق طه العلواني، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ.

١٧٣- المحكم والمتشابه في القرآن العظيم: د. عبد الرحمن المطرودي، عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

١٧٤- المدخل لدراسة القرآن الكريم، المؤلف: محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة (المتوفى: ١٤٠٣هـ)، الناشر: مكتبه السنة – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣م.

١٧٥- مذاهب التفسير الإسلامي: اجنتس جولد تسيهر، ترجمة د. عبد الحليم النجار، دار اقرأ - بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

١٧٦- المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز: أبو شامة المقدسي، تحقيق طيار قولاج، دار صادر - بيروت ١٣٩٥هـ. وطبعة دار الكتب العلمية - بيروت، الأولى، ١٤٢٤هـ.

١٧٧- المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات: أبو علي الفارسي، تحقيق ودراسة صلاح الدين عبد الله الشيكاوي، مطبعة العاني - بغداد.

١٧٨- المستدرك: الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية.
١٧٩- مسند الإمام أحمد بن حنبل: المكتب الإسلامي، دار صادر - بيروت، مصورة عن طبعة المطبعة الميمنية ١٣١٣هـ، وطبعة دار المعارف بمصر سنة ١٣٧٣هـ، الطبعة الرابعة بتحقيق وتخريج أحمد محمد شاكر. وطبعة مؤسسة الرسالة - بيروت، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.
١٨٠- مسند الشهاب: أبو عبد الله القضاعي، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٩٨٥م.
١٨١- مشكاة المصابيح: الخطيب التبريزي، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٩م.
١٨٢- المصاحف: أبو بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني، دار الباز - مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ. وطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر، تحقيق د. محمد الدين واعظ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.
١٨٣- مع القرآن الكريم دراسات وأحكام: حيدر فقه، دار الضياء - عمان الأردن، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.
١٨٤- معالم التنزيل: أبو محمد الحسين البغوي، تحقيق خالد العك، ومروان سوار، دار المعرفة بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
١٨٥- معالم الشريعة الإسلامية: د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٥م.

١٨٦- معاني القرآن: أبو زكريا الفراء، عالم الكتب - بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٠م.

١٨٧- معترك الأقران في إعجاز القرآن: جلال الدين السيوطي، تصحيح أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

١٨٨- معجم الأدباء: ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأخيرة.

١٨٩- المعجم الكبير: الطبراني، حققه وخرج أحاديثه حمدي السلفي مطبعة الزهراء - العراق، وطبعة الدار العربية للطباعة - بغداد، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ، والطبعة الثانية وزارة الأوقاف العراقية.

١٩٠- معجم المفسرين: عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

١٩١- معجم المقاييس في اللغة: أحمد بن فارس بن زكريا، دار الفكر - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

١٩٢- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ابن هشام الأنصاري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الباز (بدون تاريخ).

١٩٣- المغني في أبواب التوحيد والعدل: عبد الجبار الهمداني، الدار المصرية للتأليف والترجمة، تحقيق مجموعة من الباحثين ١٩٦٦م.

١٩٤- مفتاح السعادة: طاش كبرى زاده، مراجعة وتحقيق كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور، دار الكتب الحديثة - القاهرة.

١٩٥- المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، الطبعة الميمنية بمصر ١٣٥٦هـ.

١٩٦- مقدمة ابن خلدون: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثالثة (بدون تاريخ).

١٩٧- مقدمة جامع التفسير: الراغب الأصفهاني، تحقيق د. أحمد حسن فرحات، دار الدعوة - الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

١٩٨- مقدمة في أصول التفسير: ابن تيمية، تحقيق د. عدنان زرزور، دار القرآن الكريم - الكويت، الطبعة الأولى ١٣٩١هـ.

١٩٩- المكتفى في الوقف والابتداء: أبو عمرو الداني، تحقيق د. يوسف المرعشلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

٢٠٠- مناهج المفسرين: د. مساعد مسلم آل جعفر، ود. محيي هلال السرحان، وزارة التعليم العالي - العراق، الطبعة الأولى ١٩٨٠م.

٢٠١- مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزرقاني، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة. وطبعة دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

٢٠٢- منجد المقرئين: ابن الجزري، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٠هـ.

٢٠٣- منهج الفرقان في علوم القرآن: محمد علي سلامة، تحقيق د. محمد سيد أحمد المسير نهضة مصر، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م.

٢٠٤- المهذب في فقه الإمام الشافعي: أبو إسحاق الفيروزآبادي الشيرازي، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الثانية ١٣٧٩هـ.

٢٠٥- الموافقات في أصول الشريعة: أبو إسحاق الشاطبي، بشرح عبد الله دراز وترقيم محمد عبد الله دراز، دار المعرفة - بيروت.

٢٠٦- الموطأ: الإمام مالك بن أنس، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٠هـ.

٢٠٧- ميزان الاعتدال: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: علي وفتحية البجاوي، دار الفكر العربي.

٢٠٨- النبأ العظيم: د. محمد عبد الله دراز، دار القلم - الكويت، الطبعة الرابعة ١٣٩٧هـ.

٢٠٩- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، المؤلف: جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، دار النشر: مؤسسة الرسالة - لبنان / بيروت - ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي

٢١٠- نزول القرآن الكريم: د. محمد بن عبد الرحمن الشايع، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، (بدون ذكر اسم الناشر).

٢١١- النسخ في القرآن الكريم: د. مصطفى زيد، دار الوفاء - المنصورة - مصر، الطبعة الثالثة ١٤٠٨م.

٢١٢- النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، دار الكتب العلمية - بيروت.

٢١٣- النكت والعيون: الماوردي، راجعه وعلق عليه السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، مكتبة المؤيد - الرياض، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٢١٤- النهاية في غريب الحديث والأثر: ابن الأثير، تحقيق محمود الطناحي، المكتبة الإسلامية.

٢١٥- نواسخ القرآن: ابن الجوزي، تحقيق: محمد أشرف الملباري، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

٢١٦- الهدى والبيان في أسماء القرآن: صالح بن إبراهيم البليهي، المطابع الأهلية للأوفست - الرياض، الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ.

٢١٧- وجوه التحدي والإعجاز في الأحرف المقطعة في أوائل السور: د. فهد بن عبد الرحمن الرومي، مكتبة التوبة - الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

٢١٨- الوحي المحمدي: محمد رشيد رضا، مطبعة المنار بمصر، الطبعة الثالثة ١٣٥٤هـ.

٢١٩- وفيات الأعيان: ابن خلكان، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية.



ثانياً:

فهرس المحتويات

المحتويات